نافذة على

الدار الآخرة

في القرآن الكريم

المجلد الثاني

من أول سورة ص إلى آخر سورة الناس

تأليف
لأبي أحمد عبد المنجي السيد أمين

مكتبة العلوم والحكم
مصر

نافذة على الدار الآخرة

فى القرآن الكريم

((المجلد الثاني))

من أول سورة ص إلى آخر سورة الناس

لأبي أحمد

عبد المنجي السيد أمين

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ صٓ

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ
فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾
أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ
ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ
عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ
مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾ [ص]

بين يدي السورة الكريمة :

سورة " ص " من السور القرآنية التي افتتحت ببعض حروف التهجي ، وقد سبق أن بينا بشيء من التفصيل آراء العلماء في هذه المسألة ، عند تفسيرنا لسورة البقرة ، وآل عمران ، والأعراف . ويونس . .

وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة قد وردت في بعض السور القرآنية على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .

فكأن الله – تعالى – يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم .

فإن كنتم في شك من كونه مترلا من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك ، أو في الإتيان بعشر سور من مثله ، أو بسورة واحدة من مثله .

فعجزوا وانقلبوا خاسرين . وثبت أن هذا القرآن من عند الله – تعالى – .

والواو في قوله – تعالى – : ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ للقسم . والمقسم به القرآن الكـــريم . وجواب القسم محذوف ، لدلالة ما بعده عليه .

والذكر ، يطلق على الشرف ونباهة الشأن ، يقال فلان مذكور ، أي : صاحب شــرف ونباهة . ومنه قوله – تعالى – : ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ ويطلق ويراد به التـــذكير على أنه مصدر ، لأن القرآن مشتمل على المواعظ والأحكام وقصص الأنبياء . وغير ذلك مما يسعد الناس في دينهم ودنياهم .

وهذان الإطلاقان ينطبقان على القرآن الكريم ، فيكون المعنى : وحق القرآن الكـــريم ذي الشرف العظيم ، وذي التذكير الحكيم المشتمل على ما ينفع الناس في دنياهم وآخرتهم .

إنك – أيها الرسول لصادق في كل ما تبلغه عن ربك و لم يصدر منك إطلاقا ما يخـــالف الحق الذي أمرناك بتبليغه للناس .

قال بعض العلماء ما ملخصه : اعلم أنهم اختلفوا في تعيين الشيء الذي أقسم الله – تعالى – عليه في قوله : ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾.

فقال بعضهم إن المقسم عليه مذكور ، وهو قوله – تعـــالى – : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ أو قوله – تعالى – : ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾أو قوله – تعالى – : ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ . .

والحق أن القول بأن المقسم عليه مذكور ظاهر السقوط .

وقال آخرون إن المقسم عليه محذوف ، واختلفوا في تقديره ، فقال صاحب الكشـــاف : التقدير : ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ إنه لمعجز . وقدره ابن عطية فقال : والتقدير : والقرآن ذي الذكر ليس الأمر كما يقول الكفار . .

وقوله – تعالى – : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ ﴾ انتقال من القسم والمقسم به ، إلى بيان حال الكفار وما هم عليه من غرور وعناد .

والمراد بالعزة هنا : الحمية والاستكبار عن اتباع الحق ، كما في قوله – تعالى اهـ(١)

نسيان الآخرة ضلال مبين :

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ۝٢٦ ﴾

[١٩٢] عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ أَنَّهُ قَالَ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ ﷺ فَلَمَّا بَلَغَ السَّجْدَةَ نَزَلَ فَسَجَدَ وَسَجَدَ النَّاسُ مَعَهُ فَلَمَّا كَانَ يَوْمٌ آخَرُ قَرَأَهَا فَلَمَّا بَلَغَ السَّجْدَةَ تَشَزَّنَ النَّاسُ لِلسُّجُودِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ « إِنَّمَا هِيَ تَوْبَةُ نَبِيٍّ وَلَكِنِّي رَأَيْتُكُمْ تَشَزَّنْتُمْ لِلسُّجُودِ ». فَنَزَلَ فَسَجَدَ وَسَجَدُوا.(٢)

وقوله: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾ أي: وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله ﷻ بها وحسن مرجع وهو الدرجات العاليات في الجنة لتوبته وعدله التام في ملكه كما جاء في الصحيح :

[١٩٣] عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا**)) (٣).

---

(١)انظر تفسير د/ محمد سيد طنطاوي لتفسير سورة ص الآيات (١ – ٣) .

(٢) انظر سنن أبي داود ك/ الصلاة ب/ السجود في (ص) ح/ ١٤١٠ وقال الشيخ الألباني : صحيح .

(٣) مسند البزار : ١١٩/٤ ح/ ٢٣٤٠ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

[١٩٤] وعَنْ أَبِي سَعِيد قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ عَادِلٌ وَأَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ وَأَبْعَدَهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ جَائِرٌ».(١)

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الله بن أبي زياد حدثنا سيار، حدثنا جعفر بن سليمان: سمعت مالك بن دينار في قوله: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ قال: يقام داود يوم القيامة عند ساق العرش ثم يقول: يا داود مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في الدنيا. فيقول: وكيف وقد سلبته؟ فيقول: إني أرده عليك اليوم. قال: فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان .

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾

هذه وصية من الله ﷻ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المترل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله وقد توعد[ٱللَّهِ] تعالى من ضل عن سبيله، وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا هشام بن خالد حدثنا الوليد، حدثنا مروان بن جناح، حدثني إبراهيم أبو زرعة -وكان قد قرأ الكتاب -أن الوليد بن عبد الملك قال له: أيحاسب الخليفة فإنك قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن وفقهت ؟ فقلت: يا أمير المؤمنين أقول؟ قال: قل في أمان. قلت يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود؟ إن الله ﷻ جمع له النبوة والخلافة ثم توعده في كتابه فقال: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ ﴾ الآية.

---

(١) ضعيف : رواه الترمذي ك/ الأحكام عن رسول الله ﷺ ب/ ما جاء في الإمام العادل ح/ ١٣٢٩ وذكره الألباني في ضعيف الجامع برقم :١٣٦٣ وقال : ضعيف .

وقال عكرمة : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾هذا من المقدم والمؤخر لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا.

وقال السدي : لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب.

وهذا القول أمشى على ظاهر الآية ، والله ﷻ الموفق للصواب.اهـ (١)

وقال السعدي : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ تنفذ فيها القضايا الدينية والدنيوية،﴿ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: العدل، وهذا لا يتمكن منه، إلا بعلم بالواجب، وعلم بالواقع، وقدرة على تنفيذ الحق،﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾فتميل مع أحد، لقرابة أو صداقة أو محبة، أو بغض للآخر﴿ فَيُضِلَّكَ ﴾ الهوى﴿ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ويخرجك عن الصراط المستقيم،﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ خصوصا المتعمدين منهم،﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ فلو ذكروه ووقع خوفه في قلوبهم، لم يميلوا مع الهوى الفاتن.اهـ

[ما زال السياق في ذكر قصة داود للعظة والاعتبار وتثبيت فؤاد النبي ﷺ فقال تعالى ﴿ يَٰدَاوُۥدُ ﴾ أي وقلنا له أي بعد توبته وقبولها يا داود ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ خلفت من قبلك من الأنبياء تدبر أمر الناس ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾أي بالعدل الموافق لشرع الله ورضاه ، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ وهو ما تهواه نفسك دون ما هو شرع الله ، ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ أي اتباع الهوى يضلك عن سبيل الله المفضي بالعباد إلى الإسعاد والكمال وذلك أنّ الأحكام إذا كانت مطابقة للشريعة الإلهية انتظمت بها مصالح العباد ونفعت العامة والخاصة أما إذا كانت على وفق الهوى وتحصيل مقاصد النفس للحاكم لا غير

---

(١) انظر تفسير ابن كثير :٤/٣٢ تفسير سورة ص الآية (٢٦) .

أفضت على تخريب العالم بوقوع الهرج والمرج بين الناس وفي ذلك هلاك الحاكم والمحكومين ، وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ القائم على الإيمان والتقوى وإقامة الشرع والعدل هؤلاء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي بسبب نسيانهم ليوم القيامة فتركوا العمل له وهو الإيمان والتقوى التقوى التي هي فعل الأوامر الإلهية واجتناب النواهي في العقيدة والقول والعمل . ، وقوله تعالى في الآية (٢٧) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ﴾ ينفي تعالى ما يظنه المشركون وهو أن خلق الكون لم يكن لحكمة اقتضت خلقه وإيجاده وهي أن يعبد الله تعالى بذكره وشكره المتمثل في الإيمان والتقوى . وقوله ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ أي ظن أن الله خلق السماء والأرض وما بينهما لا لحكمة مقصودة وهي عبادة الله تعالى بما يشرع لعباده من العبادات القلبية والقولية والفعلية ظن الذين كفروا من كفار مكة وغيرهم . ثم توعدهم تعالى على كفرهم وظنهم الخاطئ الذي نتج عنه كفرهم وعصيانهم فقال ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي ويل للذين كفروا[1] من واد في جهنم بعيد الغور كريه الريح .اهـ[2]

لا يستويان مثلا :

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾

يخبر تعالى عن تمام حكمته في خلقه السماوات والأرض، وأنه لم يخلقهما باطلا أي: عبثا ولعبا من غير فائدة ولا مصلحة.

---

(١) الويل وعيد وتهديد أكيد للكفار ومن سار على دربهم والعبرة بعموم اللفظ .

(٢) انظر تفسير الجزائري : ٣/ ١١٣ تفسير سورة ص الآيات (٢٧) ط/ دار الحديث .

﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بربهم، حيث ظنوا ما لا يليق بجلاله. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ فإنها التي تأخذ الحق منهم، وتبلغ منهم كل مبلغ.

وإنما خلق الله السماوات والأرض بالحق وللحق، فخلقهما ليعلم العباد كمال علمه وقدرته وسعة سلطانه، وأنه تعالى وحده المعبود، دون من لم يخلق مثقال ذرة من السماوات والأرض، وأن البعث حق، وسيفصل الله بين أهل الخير والشر.

ولا يظن الجاهل بحكمة الله أن يسوي الله بينهما في حكمه، ولهذا قال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ هذا غير لائق بحكمتنا وحكمنا.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأه الله.

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أولو العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب، فدل هذا على أنه بحسب لب الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب. اهـ

وقوله تعالى في الآية ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ هذا أولاً ردٌّ لما زعمه المشركون من أنهم يعطون في

الآخرة من النعيم مثل ما يعطى المؤمنون ، وثانيا ينفي تعالى أن يسوى بين من آمن به واتبع هداه فأطاعه في الأمر والنهي ، وبين من أفسد في الأرض بالشرك والمعاصي كما نفى أن يجعل المتقين الذين آمنوا واتقوا فتركوا الشرك والمعاصي كالفجار الذين فجروا أي خرجوا عن طاعة الله ورسوله فلم يؤمنوا و لم يوحدوا فعاشوا كفاراً فجاراً وماتوا على ذلك . أي فحاشا لله ربّ العالمين وأعدل العادلين وأحكم الحاكمين أن يسوي بين أهل الإيمان والتقوى وبين أهل الشرك والمعاصي بل ينعم الأولين في دار النعيم ، ويعذب الآخرين في سواء الجحيم وقوله تعالى في الآية ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي هذا كتاب مبارك أنزلناه على رسولنا ليدبروا آياته بمعنى يتأملون ويتدبروها بعقولهم فيحصلوا على هداية القلوب والعقول فيؤمنوا بالله ويعملوا بطاعته فينجوا ويسعدوا . وليذكّر أولوا الألباب أي وليتعظ بمواعظه وينزجر بزواجره أولو الألباب أي العقول السليمة ووصف الكتاب وهو القرآن بالبركة هو كما أخبر الله لا تفارق القرآن البركة وهي الخير الدائم فكل من قرأه متدبراً عرف الهدى ومن قرأه تقرباً حصل على القرب وفاز به ومن قرأه حاكماً عدل في حكمه .

قوله تعالى : ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾

هذه دعوة صريحة للعمل الجاد والسعي الحثيث في القرب إلى الله تعالى بصنوف الأعمال والأقوال الصالحة والتذلل إليه تعالى إذ لا غنى لنا عنه طرفة عين أو أقل من ذلك ، ولا يستوي هؤلاء وأولئك في الدنيا ولا عند الموت وبعده ولا في الدار الآخرة في جميع أحوالها فاللهمَّ ألحقنا بالصالحين واختم لنا بخاتمة السعادة أجمعين .

من هداية الآيات :

١- وجوب الحكم بالعدل على كل من حكم ولا عدل في غير الشرع الإلهي .

٢- حرمة اتباع الهوى لما يفضي بالعبد غلى الهلاك والخسار .

٣- تقرير البعث والجزاء .

٤- إبطال ظن من يظن أن الحياة الدنيا خلقت عبثا وباطلا .

٥- تنــزيه الربّ تعالى عن العبث والظلم .

٦- فضيلة العقول لمن استعملها في التدبر والتذكر .

٧- بركة القرآن لا تفارقه أبداً وما طلبها أحد إلا وجدها .اهـ (١)

الأخياروالجنة :

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

شرح الكلمات :

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا ﴾ : أي اذكر صبرهم على ما أصابهم فإن لك بهم أسوة .

﴿أُولِي الْأَيْدِي ﴾ : أي أصحاب القوى في العبادة .

﴿وَالْأَبْصَارِ ﴾ : أي البصائر في الدين بمعرفة السرار والحكم .

﴿بِخَالِصَةٍ﴾ : أي هي ذكر الدار الآخرة والعمل لها .

﴿لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ : أي من المختارين الأخيار جمع خيّر .

﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ : أي لهم بالثناء الحسن الجميل هنا في الدنيا .

---

(١) انظر تفسير الجزائري لسورة ص : ٣/ ١١٤ ط/ دار الحديث .

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ : أي هم وغيرهم من سائر المؤمنين والمؤمنات .

﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ : أي مرجع أي عندما يرجعون إلى رهم بالوفاة .

﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا ﴾ : أي على الأرائك .

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ ﴾ : أي يطالبون فيها بفاكهة وذكر الفاكهة دون الطعام والشـراب إيذاناً بأن طعامهم وشرابهم لمجرد التلذذ لا للتغذية كما في الدنيا .

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ : أي حابسات العيون على الأزواج فلا ينظرن إلى غيرهم .

﴿أَتْرَابٌ ﴾ : أي أسناهن متساوية وهي ثلاث وثلاثون سنة .

﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ : أي ليس له انقطاع أبدا .

معنى الآيـات : ما زال السياق في ذكر الأنبياء وما أُكرموا به على صبرهم ليكون ذلـك مثبتاً للنبي صلى الله عليه وسلم على دعوته والصبر عليها والتحمل في سبيل الوصول ها إلى غاياهما فقال تعالى له ﴿ وَٱذْكُرْ﴾ أي يا نبيّنا ﴿عِبَٰدَنَآ﴾ لتتأسـى هـم وهـم ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ وولده ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ حفيده ﴿أُوْلِي﴾ أي أصحاب ﴿ٱلْأَيْدِى﴾ أي القـوى في العبادة والطاعة ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي أبصار القلوب وذلك بالفقه في الدين ومعرفة أسـرار التشريع ، وقوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم ﴾ أي خصصناهم ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ أي بخاصة امتازوا ها هي ذكر الدار أي ذكر الدار الآخرة بالعمل لها والدعوة إليها بالإيمان والتقوى ، وقولـه ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ﴾ أي المختارين ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ جمع خيّر وهو المطبوع علـى الخير وقوله ﴿ وَٱذْكُرْ﴾ أي يا نبيّنـا للائتسـاء ﴿إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ﴾ وقولـه ﴿وَكُلٌّ﴾ أي من داود ومن ذكر بعده من الأنبياء كانوا من الأخيار ، وقوله ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ أي لهم بالثناء الحسن لهم في الدنيا ، ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هم وغيرهم من المؤمنين والمؤمنـات

﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٖ﴾ أي مرجع وهو الجنة حيث يرجعون إلى الله تعالى بعد الموت ، وفسر ذلك المرجع بقوله تعالى ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾ أي إقامة ﴿مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي على الأرائك الأسرة بالحجلة ، ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا﴾ أي يُطالبون فيها ﴿بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾ ولم يذكر الطعام إشارة إلى أن مآكلهم ومشاربهم لمجرد التلذذ لا للتغذي بها كما في الدنيا ، وقوله ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ يخبر تعالى أن لأولئك المتقين في الجنة قاصرات الطرف أي نساء قاصرات الطرف أي حابسات له على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم من الأزواج وقوله ﴿أَتۡرَابٌ﴾ أي في سن واحدة وهي ثلاث وثلاثون سنة . وقوله تعالى ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي يقال لهم هذا ما توعدون ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي هذا المذكور من النعيم هو ما يعدكم به ربكم يوم القيامة . وقوله ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي ليس له انقطاع ولا فناء .

من هداية الآيات :

١- فضيلة القوة في العبادة والبصيرة في الدين

[١٩٥] وفي الحديث « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير » .

٢- فضل ذكر الدار الآخرة وتذكرها دائماً لأنها تساعد على الطاعة .

٣- فضل التقوى وأهلها وبيان ما أعد لهم يوم الحساب .

٤- نعيم الآخرة لا ينفد كأهلها لا يموتون ولا يهرمون .

٥- فضيلة التأسي بالصالحين والاقتداء في الخير بهم وهم أولوا القوة في العبادة والبصيرة في الدين . اهـ [١]

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٣/١٢٠ لسورة ص الآيات (٤٥ – ٥٤) ط/ دار الحديث .

الطغاة والنار والحميم والغساق :

﴿ هَـٰذَا وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ
وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟
ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا
هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ
﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾

شرح الكلمات :

﴿ هَـٰذَا ﴾ : أي المذكور للمتقين .

﴿ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ ﴾ : أي الذين طغوا في الكفر والشر والفساد .

﴿ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ : أي جهنم يصلونها .

﴿ فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ : أي الفراش الذي مهدوه لأنفسهم في الدنيا بالشرك والمعاصي .

﴿ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ ﴾ : أي العذاب المفهوم مما بعده فليذوقوه .

﴿ حَمِيمٌ ﴾ : أي ماء حار محرق .

﴿ وَغَسَّاقٌ ﴾ : أي قيح وصديد يسيل من لحوم وفروج الزناة في النار .

﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ : أي وعذاب آخر كالحميم والغساق أصناف .

﴿ هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ : أي يقال لهم عند دخولهم النار هذا فوج مقتحم معكم .

﴿ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ﴾ : أي لا سعة عليهم ولا راحة لهم إنهم صالو النار .

﴿ قَالُوا۟ ﴾ أي الأتباع للطاغين ﴿ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ .

﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ : أي الأتباع أي من كان سببا في عذابنا هذا في جهنم فزده عذابا .

﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا ﴾ : أي قال الطاغون وهم في النار مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار في الدنيا يعنون فقراء المسلمين كبلال وعمار وصهيب .

﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ : أي كنا نسخر منهم في الدنيا .

﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾: أي امفقودون هم أم زاغت عنهم الأبصار؟ فلم نرهم .

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾ : أي إن ذلك المذكور لأهل النار لحق ثابت وهو تخاصم أهل النار .

معنى الآيات :

بعد ذكر نعيم أهل الإيمان والتقوى ناسب ذكر شقاء أهل الكفر والفجور وهو أسلوب الترهيب والترغيب الذي امتاز به القرآن الكريم في هداية العباد . فقال تعالى ﴿ هَٰذَا﴾ أي ما تقدم ذكره من نعيم أهل السعادة ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ وهم المشركون الظلمة كأبي جهل وعتبة بن معيط والعاص بن وائل ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾أي لأسوأ مرجع وأقبحه وهو ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ ﴾ هي يمهدها الظالمون لأنفسهم . وقوله تعالى ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ أي هذا حميم وغساق فليذوقوه والحميم الماء الحار المحرق والغساق ما سال من جلود ولحوم وفروج الزناة من أهل النار كالقيح والصديد وقوله ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ أي وعذاب آخر من شكل الأول ﴿أَزْوَٰجٌ ﴾ أي أصناف عديدة وقوله تعالى ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ أي يقال عند دخولهم النار هذا فوج أي فريق مقتحم معكم النار ، فيقول الطاغون ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ أي لا سعة ولا

راحة لهم ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ أي داخلوها محترقون بحرها ولهبها ، فيرد الأتباع عليهم قائلين ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ أي لا سعة ولا راحة ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ إذ كنتم تأمروننا بالشرك والكفر والفجور قال تعالى ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أي الذي انتهى إليه الطاغون وأتباعهم في النار ، وقالوا أيضا ما أخبر تعالى به عنهم في قوله ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ أي العذاب ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ أي يا ربنا ضاعف لهم العذاب مرتين لأنهم هم الذين قدموه لنا يوم كانوا يدعوننا إلى الشرك والباطل ويحضوننا عليه ؛ وقوله تعالى ﴿وَقَالُوا﴾ أي الطغاة ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ بيننا ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ﴾ في الدنيا ﴿سِخْرِيًّا﴾ نسخر منهم يعنون فقراء المسلمين كبلال وعمّار وصهيب وخبيب ، أمفقودون هم ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ﴾ أبصارنا فلم نرهم ، قال تعالى ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ أي إن ذلك الكلام الذي دار بين أهل النار حق وصدق هو تخاصم أهل النار فاسمعوه أيها المشركون اليوم آيات تتلى وغداً يوم الحساب حقائق تشاهدوه وغصص تتجرع وحسرات تمزق الأكباد والقلوب (١).

من هداية الآيات :

١- ذم الطغيان وهو مجاوزة الحد في الظلم والكفر وبيان جزاء أهله يوم القيامة .

٢- بيان ما يجري من خصام بين أهل النار للعظة والاعتبار .

٣- شكوى الأتباع ممن اتبعوهم في الضلال ومطالبتهم بمضاعفة العذاب لهم .

٤- تذكر أهل النار فقراء المسلمين الذين كانوا يعدونهم متخلفين ورجعيين لأنهم كانوا لا يأتون الفجور والشرور مثلهم . اهـ (٢)

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٣/١٢١، ١٢٢ لسورة ص الآيات (٥٥ – ٦١) ط/ دار الحديث .

(٢) نفس المصدر السابق .

سُورَةُ الزمر

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ
ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ
مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا
يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾ (١)

بين يدي السورة الكريمة :

افتتحت سورة " الزمر " بالثناء على القرآن الكريم ، وببيان مصدره ، قال - تعالى - :
﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ أي : هذا الكتاب وهو القرآن الكريم .
قد نزلي عليك - يا محمد - من لدن الله - تعالى - ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أي : الغالب على كل شيء ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في كل تصرفاته وأفعاله ، وليس هذا القرآن قولا مفترى كما زعم الجاحدون الذين انطمست بصائرهم ، واستحبوا العمى على الهدى .

والذي يتتبع آيات القرآن الكريم ، يرى أن الله - تعالى - إذا ذكر تنزيله لكتابه أتبع ذلك ببعض أسمائه الحسنى ، المتضمنة لصفاته الجليلة .

---

(١) لأن مقدمة السورة ربط لما بعدها وطريق قريب في موضوعها الرئيس إلى الجنة وحجاب بإذن الله تعالى من النار فهي نجاة من أهوال الآخرة كان لابد من إيراد هذه الآيات بين ثنايا نوافذ الآخرة للربط والإفادة .

ففي أول سورة غافر نجد قوله ﷻ : ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ ﴾ [غافر] وفى أول سورة الجاثية نجد قولـه ﷻ : ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ ﴾ [الجاثية] وفى أول سورة الأحقاف نجد مثل هذا الافتتاح .

وفى أول سورة فصلت نجد قوله ﷻ : ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ ﴾

وفى صدر سورة " يس " نجد قولـه ﷻ : ﴿ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦ ﴾ ولا يخفى أن ذكره ﷻ لبعض أسمائه الحسنى ، بعد ذكره لتنزيل هذا القرآن على قلب رسوله ﷺ فيه ما فيه من الثناء على القرآن الكريم ، ومن بيان أنه قد نزل من عند الله ﷻ وحده ، الذي له الخلق والأمر . تبارك الله رب العالمين .

ثم ساق ﷻ بعد ذلك ما يدعو الناس إلى قبول هذا الكتاب ، وإلى العمل بهداياته ، فقال – تعالى – : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ . . ﴾ .

أي : هذا الكتاب هو تنزيل من عند الله – تعالى – الغاب على كل شيء . والحكيم في أقواله وأفعاله . وقد أنزله – سبحانه – عليك – يا محمد – تنزيلا ملتبسا بالحق الذي لا يحوم حوله باطل ، أو ما يشبه الباطل ، وذلك يوجب قبوله والعمل بكل ما فيه .

قال الآلوسي : قوله ﷻ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ بيان لكونه نازلا بالحق ، وتوطئة لما يذكر بعد . . أو شروع في بيان المنزل إليه ، وما يجب عليه إثر بيان شأن المنزل . . والباء متعلقة بالإنزال ، وهى للسببية ، أي : أنزلناه بسبب الحق ، أي : إثباته وإظهاره . أو بمحذوف وقع حالا من المفعول وهى للملابسة . أي : أنزلناه ملتبسا بالحق والصواب .

والمراد أن كل ما فيه موجب للعمل والقبول حتما .

والفاء في قوله ﷻ : ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها .
والعبادة : أقصى درجات التذلل والخضوع للمعبود ﷻ والإخلاص معناه : أن يقصد المسلم بعبادته وقوله وعمله وجه الله ﷻ . اهـ

يقول الحق جلّ جلاله : هذا الذي تتلوه هو ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ، نزل ﴿مِنَ﴾ عند ﴿ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ في سلطانه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في تدبيره . وإيثار الوصفين للإيذان بجريان أثريهما في الكتاب ، بجريان أحكامه ونفوذ أوامره ونواهيه . ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ : ليس بتكرُّر؛ لأن الأول كالعنوان للكتاب ، والثاني لبيان ما في الكتاب . قال أبو السعود : والمراد بالكتاب : القرآن ، وإظهاره على تقدير كونه هو المراد بالأول؛ لتعظيمه ومزيد الاعتناء بشأنه . والباء إما متعلقة بالإنزال ، أي : بسبب الحق وإظهاره ، أو : بداعيته واقتضائه ، وإما بمحذوف هو حال من نون العظمة ، أو : من الكتاب ، أي : أنزلناه إليه محقين في ذلك ، أو : ملتبساً بالحق والصواب ، أي : ما فيه حق لا ريب فيه موجب العمل به حتماً . قال القشيري : بالحق ، أي : بالدين الحق والشرع الحق ، وأنا مُحق في إنزاله .

﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي : فاعبده تعالى مخلصاً دينه من شوائب الشرك والرياء ، حسبما بُيِّن في تضاعيف ما أنزل إليه . ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ أي : هو الذي وجب اختصاصه بأن تخلص له الطاعة من كل شائبة؛ لأنه المنفرد بصفات الألوهية ، التي من جملتها : الاطلاع على السرائر والضمائر .

الإشارة : قال القشيري : كتابٌ عزيزٌ ، نزل من ربٍّ عزيز ، على عبدٍ عزيز ، بلسان مَلَكٍ عزيز ، في شأن أمةٍ عزيزة ، بأمرٍ عزيز . وأنشدوا :

ورَدَ الرسولُ من الحبيب الأوَّلِ   بعد البلاء ، وبعد طُول الأمل

تنزيل تنزّهت قلوب الأحباب بعد ذُبولِ عصن سرورها ، في كتاب الأحباب ، عند قراءة فصولها . والعجب منها كيف لا تزهو سروراً بوصولها ، وارتياحاً بحصــولها ، وكتــابُ موسى في الألواح ، ومنها كان يقرأ موسى ، وكتابُ نبينا ﷺ نَزَلَ به الروح ، الأمــين ، على قلبك ، وفَصْلٌ بين مَن يكون خطابُ ربه مكتوباً في ألواحه ، وبــين مَــن يكــون خطاب ربه محفوظاً في قلبه ، وكذلك أمته ، ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت : ٤٩].

وقوله تعالى : ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ ، قــال القشــيري : العبــادة : معانقــة الطاعات على نعت الخضوع ، وتكون بالنفس وبالقلب وبالروح ، فالتي بــالنفس أي : بالجوارح الإخلاص فيها : التباعد عن الانتقاص ، والتي بالقلب ، أي : كالفكرة والنظرة ، الإخلاص فيها : التباعد عن رؤية الأشخاص أي : الحس من حيث هو والتي بالروح ، الإخلاص فيها : التنقّي عن رؤية طلب الاختصاص .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ هو ما يكون جملته لله ، وما للعبد فيه نصيب فهو عن الإخلاص بعيد ، اللهم إلا أن يكون بأمره ، فإنه إذا أَمَرَ العبدَ أن يحتسب الأجرَ على طاعته ، فأطاعه ، لا يخرج عن الإخلاص بامتثاله ما أمره به ، ولولا هذا مَا صحَّ أن يكون في العالَم مُخْلِصٌ ، يعني : أن جُل الناس إنما يطيعون لاحتساب الأجر ، إلا الفرد النادر ، فمَن زال عنه الحجاب فإنه يعبد الله بالله ، شكراً ، وإظهــاراً لــلأدب ، فــإن قصــد الاحتساب ، ثم طرأ عليه خواطر بعد تحقق الإخلاص ، فلا يضر ، يدل عليه قوله ﷺ : [١٩٦] « مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » وهذا في أصل القصد ، والعوارض غير مضرة ، كما هو صريح حديث آخر . والله تعالى أعلم .اهــ (١)

---

(١) انظر تفسير ابن عجيبة لسورة الزمر الآيات (١ — ٤) .

اتخاذ الأنداد عاقبته النار:

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾

يقول الحق جلّ جلاله : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي : جنس الإنسان ﴿ضُرٌّ﴾ من مرض وغيره ﴿دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا﴾ إليه؛ راجعاً إليه مما كان يدعوه في حالة الرخاء؛ لعلمه بأنه بمعزل عن القدرة على كشف ضره ، وهذا وصف للجنس ببعض أفراده ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم] وقيل : المراد أبو جهل ، أو : كل كافر . ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي : أعطاه نعمة عظيمة من جنابه ، من التخوُّل ، وهو التعهُّد ، يقال : فلان خائل مال ، إذا كان متعهّداً إليه حسن القيام به . وفي الصحاح : خوَّله الله الشيء : ملَّكه إياه . وفي القاموس : وخوَّله الله المالَ : أعطاه إياه .

قال ابن عطية : خوَّله ، أي : ملَّكه ، وحكمه فيها ابتداء من الله ، لا مجازاة ، ولا يقال في الجزاء : خوّل أو : من الخوَل ، وهو الافتخار ، أي : جعله يخول ، أي : يختال ويفتخر بنعمه . ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي : نسيَ الضر الذي كان يدعو الله تعالى كشفه من قبل التخويل ، أو : نسي ربه الذي كان يدعو ويتضرّع إليه ، على أن ﴿مَا﴾ بمعنى ﴿مَن﴾ ، كقوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [الليل] ، أو : إيذاناً بأن نِسْيانه بلغ به إلى حيث لا يعرف ما يدعوه ، وهو كقوله تعالى : ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج : ٢] .

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ : شركاء في العبادة؛ ﴿لِّيُضِلَّ﴾ بذلك ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الذي هو التوحيد ، أي : ليُضل غيره ، أو : ليزاد ضلالاً ، أو : يثبت عليه ، على القراءتين ، وإلا؛ فأصل الضلال غير متأخر عن الجعل المذكور . واللام للعاقبة ، كما في قوله :

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص : ٨] غير أن هذا أقرب للحقيقة؛ لأن الجاعل هنا قاصد بجعله المذكور حقيقة الإضلال والضلال ، وإن لم يعرف؛ لجهله أنهما إضلال وضلال ، وأما آل فرعون فهم غير قاصدين بالتقاطهم العداوة أصلاً . قاله أبو السعود .

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي : تمتعاً قليلاً ، أو : زماناً قليلاً في الدنيا ، وهو تهديد لذلك الضال المضل ، وبيان لحاله ومآله . ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي : من ملازميها ، والمعذّبين فيها على الدوام ، وهو تعليل لقلة التمتُّع . وفيه من الإقناط من النجاة ما لا يخفى ، كأنه قيل : إذا أبيتَ قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة ، فمن حقك أن تؤمَر بتركه لتذوق عقوبته .

الإشارة : الصفة الممدوحة في الإنسان : أن يكون إذا مسَّه الضر التجأ إلى سيده ، مع الرضا والتسليم ، فإذا كشف عنه شكر الله وحمده ، ودام على شكره ، ونسب التأثير إلى الأسباب والعلل ، وهو صريح الآية . وبالله التوفيق . اهـ (١)

[يقول تعالى مخبراً عن نفسه تعالى: أنه الغني عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى:

﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ [ابراهيم:٨] .

[١٩٧] وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر : ((...يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا...)) (٢).

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) جزء حديث : أنظر مسلم نووي : ١٠١/١٦ ك/ البر والصلة والآداب ب/ تحريم الظلم ح/ ٢٥٧٧ .

وقوله ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ أي: لا يحبه ولا يأمر به، ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يحبه منكم ويزدكم من فضله.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفس عن نفس شيئا، بل كل مطالب بأمر نفسه، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: فلا تخفى عليه خافية .

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي: عند الحاجة يضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء:٦٧]. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾[يونس:١٢] .

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: في حال العافية يشرك بالله، ويجعل له أندادا.

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي: قل لمن هذه حاله وطريقته ومسلكه: تمتع بكفرك قليلا. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، كقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقوله ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان:٢٤] . اهـ (١)

---

(١) انظر تفسير ابن كثير : ٤/ ٤٦ تفسير سورة الزمر الآية (٨) ط/ دار مصر للطباعة .

ربط الأعمال بالجزاء والدنيا بالآخرة فقه في الدين :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾

يقول تعالى: أمن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أندادا ؟ لا يستوون عند الله، كما قال تعالى: ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [آل عمران]، وقال هاهنـــا: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾ أي: في حال سجوده وفي حال قيامه؛ ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة، ليس هو القيام وحده كما، ذهب إليه آخرون.

قال الثوري، عن فراس، عن الشعبي، عن مسروق، عن ابن مسعود أنه قال: القانت المطيع لله ولرسوله.

وقال ابن عباس، والحسن، والسدي، وابن زيد: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ : جوف الليـــل. وقـــال الثوري، عن منصور: بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء.

وقال الحسن، وقتادة: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ : أوله وأوسطه وآخره.

وقوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ ﴾ أي: في حال عبادته خائف راج ، ولا بد في العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب؛ ولهذا قال: ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ ﴾ ، فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليـــه، [١٩٨] كما قال الإمام عبد بن حميد في مسنده. حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حَدَّثَنَا جَعْفَرٌ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى رَجُلٍ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ فَقَالَ لـــه : ((كَيْـــفَ

تَجِدُكَ)) قَالَ أَرْجُو وَأَخَافُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((لا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلا أَعْطَاهُ اللَّهُ ﷻ الذي يَرْجُو وَآمَنَهُ الذي يَخَافُ)) (١)

وقال ابن أبي حاتم، حدثنا عمر بن شبَّة ، عن عبيدة النميري، حدثنا أبو خَلَف عبد الله بن عيسى الخزّاز، حدثنا يحيى البكّاء، أنه سمع ابن عمر قرأ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ ؛ قال ابن عمر: ذاك عثمان بن عفان، ﷺ .

وإنما قال ابن عمر ذلك؛ لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان بالليل وقراءته، حتى إنه ربما قرأ القرآن في ركعة، كما روى ذلك أبو عبيدة عنه، ﷺ .

[١٩٩] وقال الإمام أحمد: كَتَبَ إِلَيَّ أَبُو تَوْبَةَ الرَّبِيعُ بْنُ نَافِعٍ قَالَ حَدَّثَنَا الْهَيْثَمُ بْنُ حُمَيْدٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ وَاقِدٍ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى عَنْ كَثِيرِ بْنِ مُرَّةَ عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَنْ قَرَأَ بِمِائَةِ آيَةٍ فِي لَيْلَةٍ كُتِبَ لَهُ قُنُوتُ لَيْلَةٍ)) (٢).

وقوله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل لله أندادا ليضل عن سبيله؟! ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل والله أعلم . اهـ (٣)

---

(١) ورواه الترمذي والنسائي في "اليوم والليلة"، وابن ماجة، من حديث سيّار بن حاتم، عن جعفر بن سليمان، به.وقال الترمذي: "غريب. وقد رواه بعضهم عن ثابت، عن أنس، عن النبي ﷺ مرسلا

(٢) إسناده صحيح : رواه أحمد : ٢١١/١٣ ح/ ١٦٨٩٥ ورواه الدارمي : ٣٣٧/٢ رقم : ٣٤٥٠ والنسائي في كتاب " عمل اليوم والليلة " برقم : (٧١٧) وأورده الهيثمي في " المجمع " :٢٦٧/٢ وقال رواه أحمد والطبراني في الكبير وفيه سليمان بن موسى الشامي وثقه ابن معين ، وأبو حاتم وقال البخاري : عنده مناكير ، وهذا لا يقدح وذكره الألباني في السلسة الصحيحة : ٢٤٨/٢ ح/ ٦٤٤ وقال : إسناده حسن ورجاله ثقات معروفون غير يحيى بن بسطام .

(٣) انظر تفسير ابن كثير : ٤/ ٤٧ لسورة الزمر الآية (٩)

التقوى والإخلاص نجاة من العذاب:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ أي: قل مناديا لأشرف الخلق، وهم المؤمنون، آمرا لهم بأفضل الأوامر، وهي التقوى، ذاكرا لهم السبب الموجب للتقوى، وهو ربوبية الله لهم وإنعامه عليهم، المقتضي ذلك منهم أن يتقوه، ومن ذلك ما مَنَّ الله عليهم به من الإيمان فإنه موجب للتقوى، كما تقول: أيها الكريم تصدق، وأيها الشجاع قاتل.

وذكر لهم الثواب المنشط في الدنيا فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ بعبادة ربهم ﴿حَسَنَةٌ﴾ ورزق واسع، ونفس مطمئنة، وقلب منشرح، كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧] ﴿ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ إذا منعتم من عبادته في أرض، فهاجروا إلى غيرها، تعبدون فيها ربكم، وتتمكنون من إقامة دينكم.

ولما قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ كان لبعض النفوس مجال في هذا الموضع، وهو أن النص عام، أنه كل من أحسن فله في الدنيا حسنة، فما بال من آمن في أرض يضطهد فيها ويمتهن، لا يحصل له ذلك، دفع هذا الظن بقوله: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ [٢٠٠] وهنا بشارة نص عليها النبي ﷺ: « لاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّه ، مَا يَضُرُّهُمْ مَنْ كَذَّبَهُمْ ، وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَٰلِكَ » [1] تشير إليه هذه الآية، وترمي إليه من قريب، وهو أنه تعالى أخبر أن أرضه واسعة، فمهما منعتم

---

(١) رواه البخاري (فتح) من حديث معاوية بن أبي سفيان: ١٣/٤٨٩ ك/ التوحيد ب/ قوله تعالى: ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه ﴾ ح/ ٧٤٦٠ .

من عبادته في موضع فهاجروا إلى غيرها، وهذا عام في كل زمان ومكان، فلا بد أن يكون لكل مهاجر، ملجأ من المسلمين يلجأ إليه، وموضع يتمكن من إقامة دينه فيه.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وهذا عام في جميع أنواع الصبر، الصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤديها، فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب، أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله، وأنه معين على كل الأمور.أ هـ السعدي

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾

شرح الكلمات :

﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ : أي اجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية بالإيمان والتقوى .

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ : أي أحسنوا العبادة .

﴿حَسَنَةٌ﴾ : أي الجنة .

﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ : أي فهاجروا فيها لتتمكنوا من عبادة الله إن منعتهم منها في دياركم .

﴿أُمِرْتُ﴾ : أي أمرني ربّي عز وجل .

﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ : أي مفرداً إياه بالعبادة .

﴿أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ : أي أول من يسلم في هذه الأمة فينقاد لله تعالى والإخلاص له فيها .

﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ : أي عذاب يوم القيامة .

﴿قُلِ﴾ : أي يا رسولنا للمشركين .

﴿ٱللَّهَ أَعۡبُدُ﴾ : أي لا أعبد معه سواه .

﴿مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ : أي مفرداً إياه بطاعتي وانقيادي .

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم﴾ : أي إن أبيتم أيها المشركون عبادة الله وحده فاعبدوا ما شئتم من الأوثان فإنكم خاسرون .

﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ : أي فحرموها الجنة وخلدوها في النار .

﴿وَأَهۡلِيهِمۡ﴾ : أي الحور العين اللائي كن لهم في الجنة لو آمنوا واتقوا بفعل الطاعات وترك المنهيات .

﴿ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ : أي دخان ولهب وحر من فوقهم ومن تحتهم .

﴿ذَٰلِكَ﴾ : أي المذكور من عذاب النار .

﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ : أي يا من أنا خالقهم ورازقهم ومالكهم وما يملكون فلذلك اتقون بالإيمان والتقوى .

معنى الآيات :

لقد تضمنت هذه الآيات الخمس توجيهات وإرشادات ربَّانيَّة للمؤمنين والرسول صلى الله عليه وسلم ففي الآية الأولى (١٠) يأمر تعالى رسوله أن يقول للمؤمنين اتقوا ربكم أي اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية وذلك بطاعته وطاعة رسوله ، ويُعلمهم معللا أمره إياهم بالتقوى بأن للذين أحسنوا الطاعة المطلوبة منهم الجنة ، كما يعلمهم أنهم إذا لم يقدروا على الطاعة بين المشركين فليهاجروا إلى أرض يتمكنون فيها من طاعة الله ورسوله فيقول ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ أي فهاجروا فيها ويشجعهم على الهجرة لآجل الطاعة فيقول ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ أي على الاغتراب والهجرة لأجل طاعة الله والرسول

﴿أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بلا كيل ولا وزن ولا عد وذلك لأنه فوق ذلك . وفي الآية الثانية (١١) والثالثة (١٢) يأمر تعالى رسوله موجها له بأن يقول للناس ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾ أي أمرني ربي أن أعبد الله باعتقاد وقول وفعل ما يأمرني به وترك ما ينهاني عنه في ذلك مخلصا له الدين ، فلا أشرك في دين الله أحداً أي في عبادته أحداً ، كما أمرني أن أكون أول المسلمين في هذه الأمة أي أوّل من يسلم قلبه وجوارحه الظاهرة والباطنة لله تعالى وفي الآيات الرابعة (١٣) والخامسة (١٤) يأمر الله تعالى رسوله أن يقول للمشركين إني أخاف إن عصيت ربي ، فرضيت بعبادة غيره وأقررتها عذاب يوم عظيم كما يأمره أن يقول الله أعبدُ أي الله وحده لا شريك له اعبد حال كوني مخلصا له ديني . وأما أنتم أيها المشركون إن أبيتم التوحيد فاعبدوا ما شئتم من آلهة دونه تعالى ويأمره أن يقول لهم إن الخاسرين بحق ليسوا أولئك الذي يخسرون دنياهم فيفقدون الدار والبعير أو المار والأهل والولد بل هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، وذلك بتخليدهم في النار ، وبعدم وصولهم إلى الحور العين المعدة لهم في الجنة لو أنهم آمنوا واتقوا .

﴿أَلَا ذَٰلِكَ﴾ أي هذا هو الخسران المبين ثم يوضح ذلك الخسران بالحال التالية وهي أن لهم وهم في النار من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل أي طبقات من فوقهم طبقة ومن تحتهم أخرى وكلها دخان ولهب وحر وأخيراً قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من الخسران وعذاب الظلل يخوف الله تعالى به عباده المؤمنين ليواصلوا طاعتهم وصبرهم عليها فينجوا من النار ويظفروا بالجنان وقوله يا عباد فاتقون أي يا عبادي المؤمنين فاتقون ولا تعصون يحذرهم تعالى نفسه ، والله رءوف بالعباد .

من هداية الآيات :

١- بيان عناية الله تعالى برسوله والمؤمنين إذ أرشدهم إلى ما يكملهم ويسعدهم .

٢- وجوب التقوى والصبر على الأذى في ذلك .

٣- تقرير التوحيد بأن يعبد الله وحده .

٤- فضل الإسلام وشرف المسلمين .

٥- تقرير البعث والجزاء بيان شيء من أهوال الآخرة وعذاب النار فيها .

٦- كل خسران في الدنيا إذا قيس بخسران الآخرة لا يعد خسراناً أبداً .اهـــ (١)

هل اشتقت للغرف ؟ فأين العمل :

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩) لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠) ﴾

شرح الكلمات :

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ : أي تركوا عبادة الأصنام وغيرها مما يعبد من دون الله .

﴿ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ : لهم بالإيمان به وعبادته وتوحيده فيها .

﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ﴾ : أي بالجنة عند الموت وفي القبر وعند القيام من القبور .

﴿ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ : أي أوفاه وأكمله وأقربه إلى مرضاة الله تعالى .

﴿ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ : أي العقول السليمة .

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ﴾ : أي وجب عليه العذاب بقول الله تعالى لأملأن جهنم .

﴿ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴾ : أي تخلصه منها وتخرجه من عذابها .

﴿ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ﴾ : أي خافوه فآمنوا به وأطاعوه موحدين له في ذلك .

﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ : أي من خلال قصورها وأشجارها .

﴿ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ : أي وعدهم الله تعالى وعداً فهو منجزه لهم .

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٣/ ١٣٥ ، ١٣٦ لسورة الزمر الآيات (١٧ - ٢٠)

معنى الآيات :

لما ذكر تعالى حال أهل النار من عبدة الأوثان وأن لهم من فوقهم ظللا من النار ومن تحتهم ظللا ذكر تعال حال الذين اجتنبوا تلك الطواغيت فلم يعبدوها ، وما أعد لهم من النعيم المقيم فجمع بذلك بين الترهيب والترغيب المطلوب لهداية البشر وإصلاحهم فقال ﷻ : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أي أن يعبدوها وهي الأوثان وكل ما زين الشيطان عبادته ودعا الناس إلى عبادته وأضافوا غلى اجتناب الطاغوت الإنابة غلى الله تعالى بعبادته وتوحيده فيها هؤلاء لهم البشرى وهي في كتاب الله وعلى لسان رسول الله ويرونها عند نزول الموت وفي القبر وفي الحشر وكل هذا في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قوله تعالى ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ يأمر تعالى رسوله أن يبشر صنفاً من عباده بما بشر به الذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا غلى الله وهم الذين يستمعون القول من قائله فيتبعون أحسن ما يسمعون ، ويتركون حسنه وسيئه معاً فهؤلاء لهم همم عالية ونفوس تواقة للخير والكمال شريفة فاستوجبوا بذلك البشرى على لسان رسول الله ﷺ والثناء الجميل من ربّ العالمين إذ قال تعالى فيهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فحسبهم كمالاً أن أثنى تعالى عليهم . اللهم اجعلني منهم ومن سأل لي وله ذلك . وقوله ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي وجب له العذاب قضاءً وقدراً فأسرف في الكفر والظلم والإجرام والعدوان كأبي جهل والعاص بن وائل فأحاطت به خطيئاته فكان من أصحاب النار فهل تستطيع أيها الرسول إنقاذه من النار وتخليصه منها؟ والجواب لا .

إذاً فهون على نفسك واتركهم لشأنهم وما خلقوا له وحكم به عليهم . وقوله تعالى ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ فآمنوا وعملوا الصالحات لهم غرف في الجنة من فوقها غرف وهي

العلية تكون فوق الغرفة تجري من تحتها الأنهار من تحت القصور والأشجار انهـار المـاء واللبن والعسل والخمر . اهـ (١)

[﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ :- يقول تعالى: أفمن كتب الله أنه شَقِي تَقْدر تُنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أي: لا يهديه أحد من بعد الله؛ لأنه من يضلل الله فلا هادي لـه، ومن يهده فلا مضل له .

ثم أخبر عن عباده السعداء أنهم لهم غرف في الجنة، وهي القصور الشـاهقة ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ ، أي: طباق فوق طباق، مَبْنيات محكمات مزخرفات عاليات.

[٢٠١] قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا عَبَّادُ بْنُ يَعْقُوبَ الأَسَدِيُّ أَبو مُحَمَّدٍ حَـدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُضَيْلٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَـالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَغُرَفًا يُرَى بُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا وَظُهُورُهَـا مِـنْ بُطُونِهَا فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَنْ هِيَ قَالَ لِمَنْ أَطَابَ الْكَلامَ وَأَطْعَـمَ الطَّعَـامَ وَصَلَّى لِلَّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ**)) (٢)

[٢٠٢] وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ عَنِ ابْنِ مُعَانِقٍ أَوْ أَبِي مُعَانِقٍ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ : ((**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرْفَةً يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا أَعَدَّهَا اللَّهُ لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَلانَ الْكَلامَ وَتَابَعَ الصِّيَامَ وَصَلَّى وَالنَّاسُ نِيَامٌ**))(٣).

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٣/ ١٣٦ لسورة الزمر الآيات (١٩ — ٢٠) .

(٢)ورواه الترمذي ك/ صفة الجنة عن رسول الله ﷺ ب/ ما جاء في صفة غـرف الجنـة ح/ ٢٥٢٦ ، مـن حديث عبد الرحمن بن إسحاق وقال: حسن غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم فيه من قبَل حفظه.

(٣) تفرد به أحمد من حديث عبد الله بن مُعَانق الأشعري، عن أبي مالك، به.

[٢٠٣] وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيد حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ يَعْنِي ابْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْقَارِيَّ عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الْغُرْفَةَ فِي الْجَنَّةِ كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ فِي السَّمَاءِ)) قَالَ فَحَدَّثْتُ بِذَلِكَ النُّعْمَانَ بْنَ أَبِي عَيَّاشٍ فَقَالَ سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ يَقُولُ :((كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ فِي الْأُفُقِ الشَّرْقِيِّ أَوْ الْغَرْبِيِّ))[١]

[٢٠٤] وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا فَزَارَةُ قَالَ أَخْبَرَنِي فُلَيْحٌ عَنْ هِلَالٍ يَعْنِي ابْنَ عَلِيٍّ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ فِي الْجَنَّةِ كَمَا تَرَاءَوْنَ أَوْ تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَارِبَ فِي الْأُفُقِ وَالطَّالِعَ فِي تَفَاضُلِ الدَّرَجَاتِ)) قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أُولَئِكَ النَّبِيُّونَ قَالَ : ((بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَقْوَامٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ))[٢] .اهـ [٣]

---

(١) أحمد : ١٦ / ٤٥٣ ح/ ٢٢٧٧٤ وانظر البخاري فتح : ١١/ ٤٥٩ ك/ الرقاق ب/ صفة الجنة والنار ح/ ٦٥٥٥، ٦٥٥٦ و مسلم بشرح النووي :١٧/٣٠٣ ، ٣٠٤ ك/ الجنة و صفة نعيمها وأهلها ب/ ترائي أهل الجنة أهل الغرف ح/ ٢٨٣٠

(٢) أحمد في مسنده : ٨/ ٣٢٣ ح/ ٨٤٥٢ ورواه الترمذي ك/ صفة الجنة عن رسول الله ﷺ ب/ ما جاء في ترائي أهل الجنة في الغرف ح/ ٢٥٥٦ وقال الألباني : صحيح ، وأنظر الروض النضير (٢ / ٣٦٠ - ٣٦١) ، التعليق الرغيب (٤ / ٢٥١)

(٣) انظر تفسير ابن كثير : ٤/ ٤٨ ، ٤٩ لسورة الزمر الآيات (١٩ - ٢٠) ط/ دار مصر للطباعة .

((الاعتبار بمن سبق))

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾
كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

شرح الكلمات :

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ : أي يتلقى العذاب بوجهه لا شيء يقيه منـــه كمن أمن .

﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ : أقساه وأشده .

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ﴾ : أي المشركين في جهنم .

﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ : أي جزاء كسبكم الشر والفساد .

﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ : أي من قبل أهل مكة .

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ ﴾ : أي من حيث لا يدرون أنهم آتيهم منه .

﴿لَا يَشْعُرُونَ ﴾ من حيث لا يخطر ببالهم .

﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ ﴾ : أي المسخ والذل والإهانة .

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ : أي لو كانوا يعلمون ذلك ما كذبوا ولا كفروا .

معنى الآيات :

ما زال السياق الكريم في تقرير البعث والجزاء فقوله تعـالى ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ يوم القيامة إذ ليس له ما يتقي به العذاب لأن يديه مغلولتان إلى عنقه فهـــو

يتلقى العذاب بوجهه وهو أشرف أعضائه أفهذا الذي يتلقى العذاب بل سوء العذاب كمن امن العذاب ودخل الجنة؟

والجواب لا يستويان . وقوله تعالى ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي المشركين وهم في النار يقول لهم زبانية جهنم توبيخاً لهم وتقريعاً ذوقوا ما كنتم تكسبون من أعمال الشرك والمعاصي هذا جزاؤه فذوقوه عذاباً أليما . وقوله تعالى ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي كذب قبل أهل مكة أُمم وشعوب كذبوا رسلهم فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا وذلك كالذل والمسخ والقتل والأسر والسبي ولعذاب الآخرة أكبر من عذاب الدنيا وهم صائرون غليه لا محالة وقوله ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ أي لو كانوا يعلمون عنه علما يقينيا ما كذبوا رسلهم ولا كفروا بربهم . فهلكوا بجهلهم .

من هداية الآيات :

١- تقرير البعث والجزاء بذكر شيء من أحوال يوم القيامة .

٢- تهديد قريش على إصرارها على التكذيب للرسول وما جاءها به من الإسلام .

٣- العذاب على التكذيب والمعاصي منه الدنيوي ، ومنه الأخروي .

٤- لو علم الناس عذاب الآخرة علما يقينا ما كذبوا ولا كفروا ولا ظلموا فالجهل هو سبب الهلاك والشقاء دائماً . اهـ (١)

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٣/١٤٠ لسورة الزمر الآيات (٢٤ – ٢٦) ط/ دار الحديث .

فاليوم لا يقبل منهم فدية :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

لما ذكر تعالى أنه الحاكم بين عباده، وذكر مقالة المشركين وشناعتها، كأن النفوس تشوقت إلى ما يفعل الله بهم يوم القيامة، فأخبر أن لهم ﴿سُوءِ الْعَذَابِ﴾ أي: أشده وأفظعه، كما قالوا أشد الكفر وأشنعه، وأنهم على - الفرض والتقدير - لو كان لهم ما في الأرض جميعا، من ذهبها وفضتها ولؤلؤها وحيواناتها وأشجارها وزروعها وجميع أوانيها وأثاثها ومثله معه، ثم بذلوه يوم القيامة ليفتدوا به من العذاب وينجوا منه، ما قبل منهم، ولا أغنى عنهم من عذاب الله شيئا، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء] ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: يظنون من السخط العظيم، والمقت الكبير، وقد كانوا يحكمون لأنفسهم بغير ذلك.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: الأمور التي تسوؤهم، بسبب صنيعهم وكسبهم. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من الوعيد والعذاب الذي نزل بهم، وما حل عليهم العقاب.اهـ [1]

هل من أوبة وتوبة قبل الحسرة ؟؟

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص٨٠٩ لسورة الزمر الآية (٤٨) ط/ التوفيقية .

ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾
[الزمر]

وقوله ﷻ : ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ رد منه ﷻ على هذا القائل : ﴿ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وتكذيب له في هذه الدعوى .

والمراد بالآيات : الحجج والبراهين الدالة على حقيقة دين الإسلام ، وعلى رأسها آيات القرآن الكريم .

أي ليس الأمر كما ذكرت أيها النادم على ما فرط منه ، من أن الله لا يهدك إلى الطريق القويم ، بل الحق أن الله ﷻ قد أرشدك إليه عن طريق إرساله رسوله ، وإنزال كتابه ، ولكنك كذبت رسوله ، واستكبرت عن سماع آيات الله وعن اتباعها ، وكنت في دنياك من الكافرين بها ، الجاحدين لصدقها ، فأصابك ما أصابك من عذاب الآخرة بسبب أعمالك القبيحة في الدنيا .

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ : وجاء ﷻ بخطاب المذكر في قوله : ﴿ جَآءَتْكَ ﴾ ، ﴿ فَكَذَّبْتَ ﴾ ، ﴿ وَٱسْتَكْبَرْتَ ﴾ ، ﴿ وَكُنتَ ﴾ . لأن النفس تطلق على المذكر والمؤنث . قال المبرد : تقول العرب نفس واحد . أي ، إنسان واحد . .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة ، وعن مظاهر قدرة الله – تعالى – وعن تلقين الله ﷻ لنبيه ﷺ الجواب الذي يرد به على

المشركين . وعن أحوال الناس عند النفخ في الصور . . قال ﷻ : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

بيان لحالة الكافرين يوم القيامة ، ولما تكون عليه هيئتهم من خزي وهوان .

أي : وفى يوم القيامة إذا نظرت - أيها الرسول الكريم - أو - أيها العاقل - إلى وجوه الذين كذبوا على الله ، بأن شركوا معه في العبادة آلهة أخرى ، أو جعلوا له صاحبة أو ولدا . . إذا نظرت إليها رأيتها مسودة مكفهرة بسبب ما أحاط بهم من عذاب ، وما شاهدوه من أهوال .

وقوله : ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ جملة من مبتدأ وخبر ، وهى في محل نصب على الحال من الذين كذبوا . . والاستفهام في قوله : ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ للتقرير والمثوى : المكان والمقام .

يقال : ثوى فلان بالمكان وأثوى فيه ، إذا أقام به ، فهو ثاو ومنه قوله ﷻ : ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ [القصص: ٤٥] أي : أليس في جهنم مكانا ومقرا لإهانة المتكبرين وإذلالهم ، بسبب تطاولهم على غيرهم ، وتكذيبهم لآيات الله؟ بلى إن لها ما يجعلهم يذوقون العذاب الأليم .

ثم بين ﷻ حال المؤمنين يوم القيامة ، بعد بيانه لحال الذين كذبوا على الله فقال :

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

ومفازتهم : اسم مصدر . أو مصدر ميمي . من فاز فلان بكذا ، إذا ظفر به ، ونال مراده منه .

أي ؛ وينجى الله - تعالى - بفضله ورحمته ، ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك والمعاصي من عذاب جهنم ، ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي : بسبب فوزهم برضا الله ﷻ ورحمته ، جزاء إيمانهم وتقواهم ، وقرأ حمزة والكسائي ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بالجمع .

ويصح أن تكون الباء في قوله : ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ للملابسة ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف هو حال من الذين اتقوا . أي ينجيهما حالة كونهم متلبسين .

وقوله : ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يجوز أن يكون تفسيراً لذلك الفوز ، كأنه قيل : وما مظاهر فوزهم فكان الجواب : لا يمسهم السوء الذي يصيب غيرهم من الكافرين والعصاة ، ولا هم يحزنون على شيء تركوه خلفهم في الدنيا .

ويجوز أن يكون حالا من الذين اتقوا . أي : ينجيهم بسبب مفازتهم ، حال كونهم لا يمسهم السوء ، أي : لا يمسهم شيء مما يكره لا في الحال ولا في الاستقبال ، ولا هم يحزنون على ما كان منهم في الماضي .

فأنت ترى أن الله ﷻ قد كرم المتقين تكريما عظيما ، حيث نجاهم من عذاب جهنم ، وجعلهم آمنين من كل ما يغمهم في كل زمان أو مكان .

قال الإمام الرازي ما ملخصه : هذه آية جامعة ، لأن الإنسان إذا علم أنه لا يمسه السوء ، كان فراغ البال بحسب الحال ، وإذا علم أنه لا يحزن كان هادئ النفس عما وقع في قلبه بسبب فوات الماضي ، فحينئذ يظهر أنه سلم عن كل الآفات . اهـ [1]

هل يستويان مثلا :

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ
أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ
مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

---

(١) انظر التفسير الوسيط لسورة الزمر الآيات (٦٠ – ٦١) .

شرح الكلمات :

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ : أي بأن يبعث الناس من قبورهم .

﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ : أي باتخاذ أولياء من دونه وبالقول الكاذب عليه ﷻ

﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ : أي سوداء من الكرب والحزن وعلامة على أنهم من هل النـــار وأنهم ممن كذبوا على ربهم .

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى ﴾ : أي أليس في جهنم مأوى ومستقر للمتكبرين؟ بلى إن لهم ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ فيها لمثوى بئس هو من مثوى للمتكبرين عن عبادة الله تعالى .

﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ﴾ : أي ينجيهم من النار بسبب تقواهم للشرك والمعاصي .

﴿بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ ﴾ : أي بفوزهم بالجنة ونزولهم فيها لا يمسهم السوء أي العذاب .

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ لما نالهم من النعيم .

﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ : أي مفاتيح خزائن السموات والأرض .

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ : أي الخاسرون لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة .

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ ﴾ : قل يا رسولنا للذين طلبوا منك أن تعبــد معهــم آلهتهم أتأمروني بعبادة غير الله ، فهل تصلح العبادة لغيره وهو رب كل شيء وإلهه فمـــا أسوأ فهمكم أيها الجاهلون .

﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴾ : أي من باب الفرض لو أشركت بالله غيره في عبادتـــه ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ ﴾ : أي بل أعبد الله وحده ، إذ لا يستحق العبادة إلاّ هو .﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ الشاكرين له على إنعامه عليك بالنبوة والرسالة والعصمة والهداية .

معنى الآيات :

لقد تقدم في السياق الأمر بتعجيل التوبة قبل الموت فيحصل الفوت ، وذلك لأن يوم القيامة يوم أهوال وتغير أحوال وفي الآيتين الآتيتين بيان ذلك قال تعالى : ﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ بأن نسبوا غليه الولد والشريك والتحليل والتحريم وهو من ذلك براء هؤلاء ﴿وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ ﴾ علامة لأهم كفروا وكذبوا وأهم من أهل النار . وقوله تعالى : ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي بلى في جهنم مأوى ومستقر للمتكبرين الذين تكبروا عن الإيمان والعبادة . وقوله تعالى : ﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ﴾ أي تلك حال وهذه أخرى وهي أن الله تعالى ينجي يوم القيامة الذين اتقوا الشرك والمعاصي بالإيمان والطاعة هؤلاء بفوزهم بالجنة لا يمسهُم السوء في عرصات القيامة ، ولا هم يحزنون على ما خلّفوا وراءهم في الدنيا لأن ما نالهم من نعيم الجنة أنساهم ما تركوا وراءهم وقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ ﴾ أي ما من كائن سوى الله تعالى إلا وهو مخلوق والله خالقه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾ أي بم حافظ ، فسبحانه ما أعظم قدرته وما أوسع علمه فلذا وجبت له العبادة ولم تجز فضلا عن أن تجب لسواه .

وقوله تعالى : ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ أي له ملكا حقاً مفاتيح خزائن الرحمات والخيرات والبركات فهو يفتح ما يشاء ويمسك ما يشاء فلا يصح الطلب إلا منه ولا تجوز الرغبة إلا فيه وما عبد الناس الأوثان والأصنام إلا رغبة ورهبة فلو علموا أن رهبتهم لا تكون إلا من الذي يقدر على كل شيء وأن رغبتهم لا تكون إلا في الذي بيده كل شيء لو علموا هذا ما عبدوا غير الله تعالى بحال .

وقوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الحاوية لإيمانه وصفاته وبيان محابه ومكارهه وحدوده وشرائعه ولذا من كفر بآيات الله فلم يؤمن بها ولم يعمل بما فيها خسر خسراناً مبيناً بحيث يخسر يوم القيامة نفسه وأهله، وذلك هو الخسران المبين .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ الآية هذا ردٌّ على المشركين الذين طلبوا من الرسول أن يعترف بآلهتهم ويرضى بها مقابل أن يعترفوا له بما جاء به ويدعو إليه فأمر تعالى أن يفاصلهم بقوله : ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾ لن يكون هذا مني أبداً كيف أعبد غير الله وهو ربي ومالك أمري وهو الذي كرمني بالعلم به وأوحى غليَّ شرائعه . فلتيأسوا فإن مثل هذا لن يكون أبداً، ووصفهم بالجهل لأن جهلهم بالله وعظمته هو الذي سول لهم عبادة غيره والتعصب لها .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ أي أوحى الله إليك كما أوحى إلى الأنبياء من قبلك بالتالي وهو وعزة الله وجلاله ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ بنا غيرنا في عبادتنا ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أي يبطل كله ولا تثاب على شيء منه وإن قل، ﴿وَلَتَكُونَنَّ﴾ بعد ذلك من جملة ﴿ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة وذلك هو الخسران المبين . ثم أمر تعالى رسوله مقرراً التوحيد مبطلاً الشرك بقوله : ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أي الله وحده فاعبده وكن من الشاكرين له على إنعامه وأفضاله عليك

من هداية الآيات :

١- إسوداد الوجه يوم القيامة علامة الكفر والخلود في جهنم .

٢- ابيضاض الوجوه يوم القيامة علامة الإيمان والخلود في الجنة .

٣- تقرير البعث والجزاء بوصف أحواله وما يدور فيه .

٤- بيد الله كل شيء فلا يصح أن يطلب شيء من غيره أبداً ، ومن طلب شيئاً من غير الله فهو من أجهل الخلق .

٥- التنديد بالشرك وبيان خطورته إذْ هو محبط للأعمال بالكلية .

٦- وجوب عبادة الله بفعل أوامره واجتناب نوهيه ووجوب حمده وشكره إذ كل إنعام منه وكل إفضال له . فلله الحمد والمنة .اهـ (١)

من النفخ في الصور إلى الجنة أو النار في سطور:

قوله تعالى : ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ بين ما يكون بعد قبض الأرض وطي السماء وهو النفخ في الصور وإنما هنا نفختان يموت الخلق في الأولى منهما ويحيون في الثانية وقد مضى الكلام في هذا في (النمل) و (الأنعام) أيضا والذي ينفخ في الصور هو إسرافيل عليه السلام... قوله : ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يرجع إلى من مات قبل النفخة الأولى أي فيموت من في السماوات والأرض إلا من سبق موته لأنهم كانوا قد ماتوا .

[٢٠٥] وفي الصحيحين و ابن ماجه واللفظ له عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ بِسُوقِ الْمَدِينَةِ وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ. فَرَفَعَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يَدَهُ فَلَطَمَهُ قَالَ تَقُولُ هَذَا وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ قال الله عز وجل : ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ فَلاَ أَدْرِى أَرَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَمَنْ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ ».(٢)

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٣/١٥٥ لسورة الزمر الآيات (٦٠ – ٦٦) ط/ دار الحديث .

(٢) حسن صحيح : انظر سنن ابن ماجة : ٤/٢٦٣ ك/ الزهد ب/ ذكر البعث ح/ ٤٢٧٤ والترمذي ك/ تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ ب/ ومن سورة الزمر ح/ ٣٢٤٥ وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح

وقال القشيري : ومن حمل الاستثناء على موسى والشهداء فهؤلاء قد ماتوا غير أنهم أحياء عند الله وفيجوز أن تكون الصعقة بزوال العقل دون زوال الحياة ويجوز أن تكون بالموت ولا يبعد أن يكون الموت والحياة فكل ذلك مما يجوزه العقل ؛

[٢٠٦] والأمر في وقوعه موقوف على خير صدق قلت : حاء في عرض طرق أبي هريرة أنه ﷺ قال : ((**لاتخيروني على موسى فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله**)) خرجه مسلم ونحوه عن أبي سعيد الخدري والإفاقة إنما تكون عــن غشــية وزوال عقل لا عن موت برد الحياة والله أعلم

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ أي فإذا الأموات من أهل الأرض والسماء أحياء بعثوا من قبورهم وأعيدت إليهم أبدانهم وأرواحهم فقاموا ينظرون ماذا يؤمرون وقيــل : قيام على أرجلهم ينظرون إلى البعث الذي وعدوا به وقيل : هذا النظر بمعنى الانتظار أي ينتظرون ما يفعل لهم وأجاز الكسائي قياما بالنصب كما تقول : خرجت فإذا زيد جالسا

قوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ إشراقها إضاءتها يقال : أشرقت الشمس إذا أضاءت وشرقت إذا طلعت ومعنى : ﴿ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ بعدل ربها قاله الحسن وغيره وقال الضحاك : بحكم ربها والمعنى واحد أي أنارت وأضاءت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده والظلم ظلمات والعدل نور وقيل : إن الله يخلق نورا يوم القيامة يلبســه وجــه الأرض فتشرق الأرض به وقال ابن عباس : النور المذكور هاهنا ليس من نور الشمس والقمر بل هو نور يخلقه الله فيضيء به الأرض وروي أن الأرض يومئذ من فضة تشــرق بنــور الله تعالى حين يأتي لفصل القضاء والمعنى أنها أشرقت بنور خلقه الله تعالى فأضاف النــور إليه على حد إضافة الملك إلى الملك وقيل : إنه اليوم الذي يقضي فيه بين خلقه لأن نهار لا ليل معه وقرأ ابن عباس وعبيد بن عمير ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ على ما لم يسم فاعلــه وهي قراءة على التفسير وقد ضل قوم هاهنا فتوهموا أن الله ﷻ من جنس النور والضيــاء

لمحسوس وهو متعال عن مشابهة المحسوسات بل هو منور السموات والأرض فمنه كل نور خلقا وإنشاء وقال أبو جعفر النحاس : وقوله ﷻ : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ يبين هذا الحديث المرفوع من طرق كثيرة صحاح

((تنظرون إلى الله ﷻ لا تضامون في رؤيته)) وهو يروى على أربعة أوجه : لا تضاون ولا تضارون ولا تضامون ولا تضارون فمعنى (**لا تضامون**) لا يلحقكم ضيم كما يلحكم في الدنيا في النظر إلى الملوك و (**لا تضارون**) لا يلحكم ضير و (**لا تضامون**) لا ينضم بعضكم إلى بعض ليسأله أن يريه و (**لا تضارون**) لا يخالق بعضكم بعضا يقال : ضاره مضارة وضراراً أي خالفه قوله تعالى : ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ قال ابن عباس : يريد اللوح المحفوظ وقال قتادة : يريد الكتاب والصحف التي فيها أعمال بني آدم فآخذ بيمينه وآخذ بشماله ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ أي جيء بهم فيسألهم عما أجابهم به أممهم ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الذين شهدوا على الأمم من أمة محمد ﷺ كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٤٣] وقيل : المراد بالشهداء الذين استشهدوا في سبيل الله فيشهدون يوم القيامة لمن ذب عن دين الله قال السدي وقال ابن زيد هم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم قال الله تعالى : ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [ق: ٢١] فالسائق يسوقها إلى الحساب والشهيد يشهد عليها وهو الملك الموكل بالإنسان على ما يأتي بيانه في (قاف) ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالصدق والعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ قال سعيد بن جبير : لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم

قوله تعالى : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ من خير أو شر ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ في الدنيا ولا حاجة به ﷻ إلى كتاب ولا إلى شاهد ومع ذلك فتشهد الكتب والشهود إلزاماً للحجة اهـ (١)

السّوق الأخير :-

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥) ﴾

لما ذكر تعالى حكمه بين عباده، الذين جمعهم في خلقه ورزقه وتدبيره، واجتماعهم في الدنيا، واجتماعهم في موقف القيامة، فرقهم تعالى عند جزائهم، كما افترقوا في الدنيا بالإيمان والكفر، والتقوى والفجور، فقال: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ أي: سوقا عنيفا، يضربون بالسياط الموجعة، من الزبانية الغلاظ الشداد، إلى شر محبس وأفظع موضع، وهي جهنم التي قد جمعت كل عذاب، وحضرها كل شقاء، وزال عنها كل سرور، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) ﴾ [الطور] أي: يدفعون إليها دفعا، وذلك لامتناعهم من دخولها.

---

(١) انظر تفسير القرطبي لسورة الزمر الآيات (٦٨ – ٧٠)

ويساقون إليها ﴿زُمَرًا﴾ أي: فرقا متفرقة، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها، وتشاكل سعيها، يلعن بعضهم بعضا، ويبرأ بعضهم من بعض. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ أي: وصلوا إلى ساحتها ﴿فُتِحَتۡ﴾ لهم أي: لأجلهم ﴿أَبۡوَٰبُهَا﴾ لقدومهم وقِرًى لنزولهم.

﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ مهنئين لهم بالشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي، وموبخين لهم على الأعمال التي أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ أي: من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم، وتتمكنون من التلقي عنهم؟. ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾ التي أرسلهم الله بها، الدالة على الحق اليقين بأوضح البراهين.

﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ أي: وهذا يوجب عليكم اتباعهم والحذر من عذاب هذا اليوم، باستعمال تقواه، وقد كانت حالكم بخلاف هذه الحال؟

﴿قَالُواْ﴾ مقرين بذنبهم، وأن حجة الله قامت عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبيناته، وبينوا لنا غاية التبيين، وحذرونا من هذا اليوم. ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: بسبب كفرهم وجبت عليهم كلمة العذاب، التي هي لكل من كفر بآيات الله، وجحد ما جاءت به المرسلون، فاعترفوا بذنبهم وقيام الحجة عليهم.

فـ ﴿قِيلَ﴾ لهم على وجه الإهانة والإذلال: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ أبدا، لا يظعنون عنها، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا ينظرون. ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: بئس المقر، النار مقرهم، وذلك لأنهم تكبروا على الحق، فجازاهم الله من جنس عملهم، بالإهانة والذل، والخزي.

ثم قال عن أهل الجنة: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ ﴾ بتوحيده والعمل بطاعته، سوق إكرام وإعزاز، يحشرون وفدا على النجائب. ﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ فرحين مستبشرين، كل زمرة مع الزمرة، التي تناسب عملها وتشاكله. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ أي: وصلوا لتلك الرحاب الرحيبة والمنازل الأنيقة، وهبَّ عليهم ريحها ونسيمها، وآن خلودها ونعيمها. ﴿وَفُتِحَتْ﴾ لهم ﴿أَبْوَٰبُهَا﴾ فتح إكرام، لكرام الخلق، ليكرموا فيها. ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ تهنئة لهم وترحيبا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سلام من كل آفة وشر حال.عليكم ﴿طِبْتُمْ﴾ أي: طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبته وخشيته، وألسنتكم بذكره، وجوارحكم بطاعته. ﴿ فـ ﴾ بسبب طيبكم ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ لأنها الدار الطيبة، ولا يليق بها إلا الطيبون.

وقال في النار ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ وفي الجنة ﴿وَفُتِحَتْ﴾ بالواو، إشارة إلى أن أهل النار، بمجرد وصولهم إليها، فتحت لهم أبوابها من غير إنظار ولا إمهال، وليكون فتحها في وجوههم، وعلى وصولهم، أعظم لحرها، وأشد لعذابها.

وأما الجنة، فإنها الدار العالية الغالية، التي لا يوصل إليها ولا ينالها كل أحد، إلا من أتى بالوسائل الموصلة إليها، ومع ذلك، فيحتاجون لدخولها لشفاعة أكرم الشفعاء عليه، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى الله بمحمد ﷺ، حتى يشفع، فيشفعه الله تعالى.

وفي الآيات دليل على أن النار والجنة لهما أبواب تفتح وتغلق، وأن لكل منهما خزنة، وهما الداران الخالصتان، اللتان لا يدخل فيهما إلا من استحقهما، بخلاف سائر الأمكنة والدور.

﴿وَقَالُوا﴾ عند دخولهم فيها واستقرارهم، حامدين ربهم على ما أولاهم ومنَّ عليهم وهداهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أي: وعدنا الجنة على ألسنة رسله، إن آمنا وصلحنا، فوفّى لنا بما وعدنا، وأنجز لنا ما منّانا. ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ أي: أرض الجنة ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي: نترل منها أي مكان شئنا، ونتناول منها أي نعيم أردنا، ليس ممنوعا عنا شيء نريده. ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ الذين اجتهدوا بطاعة ربهم، في زمن قليل منقطع، فنالوا بذلك خيرا عظيما باقياً مستمراً.

وهذه الدار التي تستحق المدح على الحقيقة، التي يكرم الله فيها خواص خلقه، ورضيها الجواد الكريم لهم نزلا وبنى أعلاها وأحسنها، وغرسها بيده، وحشاها من رحمته وكرامته ما ببعضه يفرح الحزين، ويزول الكدر، ويتم الصفاء.

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)﴾

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ﴾ أيها الرائي ذلك اليوم العظيم ﴿حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أي: قد قاموا في خدمة ربهم، واجتمعوا حول عرشه، خاضعين لجلاله، معترفين بكماله، مستغرقين بجماله. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يترهونه عن كل ما لا يليق بجلاله، مما نسب إليه المشركون وما لم ينسبوا.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الأولين والآخرين من الخلق ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي لا اشتباه فيه ولا إنكار، ممن عليه الحق. ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لم يذكر القائل من هو، ليدل ذلك على أن جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار، حمد فضل وإحسان، وحمد عدل وحكمة اهـ

من هداية الآيات :

١- بيان إهانة أهل النار بسوقهم على أرجلهم بعنف وتأنيبهم وتوبيخهم .

٢- التنديد بالاستكبار عن عبادة الله تعالى ، وعبادة المؤمنين به ، المتقين له .

٣- بيان إكرام الله تعالى لأوليائه إذ يُحملون على نجائب رحالها من ذهـــب إلى الجنـــة ، ويلقون فيها تحية وسلاما . تحية احترام وإكرام ، وسلام أمان من كل مكروه .

٤- بيان نهاية الموقف باستقرار أهل النار من الكفار والفجار في النار ، واســتقرار أهـــل الجنة من المؤمنين الأتقياء الأبرار في الجنة دار الأبرار .

٥- ختم كل عمل بالحمد فقد ابتدأ الله الخالق بالحمد فقـــال ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ، وختم بالحمد ، ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.اهـــ [١]

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٣/ ١٦٠ لسورة الزمر الآيات (٧١ – ٧٥) ط/ دار الحديث .

سُورَةُ غَافِر

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ
ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ
كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ
عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ
يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا
وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ
﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ
وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ
ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ
أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم
بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾
هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾
فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي
ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ

مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [غافر]

بين يدي السورة الكريمة :

هذه السورة تعالج قضية الحق والباطل . قضية الإيمان والكفر . قضية الدعوة والتكـذيب وأخيراً قضية العلو في الأرض والتجبر بغير الحق ، وبأس الله الذي يأخذ العالين المتجبرين . . وفي ثنايا هذه القضية تلم بموقف المؤمنين المهتدين الطائعين ونصر الله إياهم ، واستغفار الملائكة لهم ، واستجابة الله لدعائهم ، وما ينتظرهم في الآخرة من نعيم .

وجو السورة كله من ثم كأنه جو معركة . وهي المعركة بين الحق والباطل ، وبين الإيمان والطغيان ، وبين المتكبرين المتجبرين في الأرض وبأس الله الذي يأخذهم بالدمار والتنكيل . تنسم خلال هذا الجو نسمات الرحمة والرضوان حين يجيء ذكر المؤمنين!

ذلك الجو يتمثل في عرض مصارع الغابرين ، كما يتمثل في عرض مشاهد القيامة وهـذه وتلك تتناثر في سياق السورة وتتكرر بشكل ظاهر وتعرض في صورها العنيفة المرهوبـة المخيفة متناسقة مع جو السورة كله ، مشتركة في طبع هذا الجو بطابع العنف والشدة .

...وعلى العموم فإن السورة كلها تبدو وكأنها مقارع ومطارق تقع على القلب البشري وتؤثر فيه بعنف وهي تعرض مشاهد القيامة ومصارع الغابرين . وقد ترق أحياناً فتتحول إلى لمسات ... تمس هذا القلب برفق ، وهي تعرض حملة العرش ومن حوله يدعون ربهـم ليتكرم على عباده المؤمنين ، أو وهي تعرض عليه الآيات الكونية والآيـات الكامنـة في النفس البشرية .

ونضرب بعض الأمثال التي ترسم جو السورة وظلها من هذه وتلك . .

من مصارع الغابرين : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ . ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ ومن مشاهد القيامة : ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ . ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

ومن اللمسات الندية مشهد حملة العرش في دعائهم الخاشع المنيب : ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ .

ومن اللمسات الموحية عرض آيات الله في الأنفس وفي الآفاق : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ

الَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾ ﴿ اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ﴿ اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَآءَ بِنَآءً
وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ
فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

وهذه وتلك تصور جو السورة وترسم ظلها ، وتتناسق مع موضوعها وطابعها .
ويجري سياق السورة بموضوعاتها في أربعة أشواط متميزة .

يبدأ الشوط الأول منها بافتتاح السورة بالأحرف المقطعة : ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ ... : ﴿ غَافِرِ الذَّنۢبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ . . ثم تقرر أن الوجود كله مسلم مستسلم لله . وأنه لا يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فيشذون عن سائر الوجود بهذا الجدال . ومن ثم فهم لا يستحقون أن يأبه لهم رسول الله ﷺ مهما تقلبوا في الخير والمتاع . فإنما هم صائرون إلى ما صارت إليه أحزاب المكذبين قبلهم؛ وقد أخذهم الله أخذاً ، بعقاب يستحق العجب والإعجاب! ومع الأخذ في الدنيا فإن عذاب الآخرة ينتظرهم هناك . . ذلك بينما حملة العرش ومن حوله يعلنون إيمانهم بربهم ، ويتوجهون إليه بالعبادة ، ويستغفرون للذين آمنوا من أهل الأرض ، ويدعون لهم بالمغفرة والنعيم والفلاح . . وفي الوقت ذاته يعرض مشهد الكافرين يوم القيامة وهم ينادون من أرجاء الوجود المؤمن المسلم المستسلم : ﴿ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ . . وهم في موقف الذلة والانكسار بعد الاستكبار ،

يقرون بذنبهم ، ويعترفون بربهم ، فلا ينفعهم الاعتراف والإقرار ، إنما يذكرون بما كان منهم من شرك واستكبار . . ومن هذا الموقف بين يدي الله في الآخرة يعود بالناس إلى الله في الدنيا . . ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ﴾ ويذكرهم لينيبوا إلى ربهم ويوحدوه : ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ . ويشير إلى الوحي والإنذار بذلك اليوم العصيب . ويستطرد إلى مشهدهم يوم القيامة : ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ ﴾ وقد توارى الجبارون والمتكبرون والمجادلون : ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ .

. ويستمر في عرض صور من هذا اليوم الذي يتفرد الله ﷻ فيه بالحكم والقضاء . ويتوارى فيه ويضمحل ما يعبدون من دونه ، كما يتوارى الطغاة والفجار . .

ويبدأ الشوط الثاني بلفتة إلى مصارع الغابرين قبلهم . مقدمة لعرض جانب من قصة موسى عليه السلام مع فرعون وهامان وقارون . تمثل موقف الطغيان من دعوة الحق . وتعرض فيها حلقة جديدة لم تعرض في قصة موسى من قبل ، ولا تعرض إلا في هذه السورة . وهي حلقة ظهور رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه . يدفع عن موسى ما هموا بقتله؛ ويصدع بكلمة الحق والإيمان في تلطف وحذر في أول الأمر ، ثم في صراحة ووضوح في النهاية . ويعرض في جدله مع فرعون حجج الحق وبراهينه قوية ناصعة؛ ويحذرهم يوم القيامة ، ويمثل لهم بعض مشاهده في أسلوب مؤثر؛ ويذكرهم موقفهم وموقف الأجيال قبلهم من يوسف عليه السلام ورسالته . . ويستطرد السياق بالقصة حتى يصل طرفها بالآخرة . فإذا هم هناك . وإذا هم يتحاجون في النار . وإذا حوار بين الضعفاء والذين استكبروا ، وحوار لهم جميعاً مع خزنة جهنم يطلبون فيه الخلاص . ولات حين خلاص! وفي ظل هذا المشهد يوجه الله رسوله ﷺ إلى الصبر والثقة بوعد الله الحق ، والتوجه إلى ربه بالتسبيح والحمد والاستغفار .

فأما الشوط الثالث فيبدأ بتقرير أن الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة ولا برهان إنما يدفعهم إلى هذا كبر في نفوسهم عن الحق ، وهم أصغر وأضأل من هذا الكبر . ويوجـه القلوب حينئذ إلى هذا الوجود الكبير الذي خلقه الله ، وهو أكبر من الناس جميعاً . لعـل المتكبرين يتصاغرون أمام عظمة خلق الله؛ وتتفتح بصيرتهم فلا يكونـون عميـاً : ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ ويذكرهم بمجيء الساعة ، ويوجههم إلى دعوة الله الذي يستجيب للدعاء . فأما الذين يستكبرون فسيدخلون جهنم أذلاء صاغرين . ويعرض في هذا الموقف بعض آيات الله الكونية التي يمرون عليها غافلين . يعرض الليل سكناً والنـهار مبصـراً . والأرض قراراً والسماء بناء . ويذكرهم بأنفسهم وقد صـورهم فأحسـن صورهم . ويوجههم إلى دعوة الله مخلصين له الدين . ويلقن الرسول ﷺ أن يبرأ من عبادتهم ، ويعلن نهي ربه له عن آلهتهم ، وأمره له بالإسلام لرب العالمين . ويلمس قلوبهم بأن الله الواحـد هو الذي أنشأهم من تراب ثم من نطفة . . وهو الذي يحيي ويميت . ثم يعـود فيعجب رسوله ﷺ من أمر الذين يجادلون في الله؛ وينذرهم عذاب يوم القيامة في مشهد عنيـف : ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ وإذ يتخلى عنهم ما أشركوا وينكرون هم أنهم كانوا يعبدون شيئاً! وينتهي بهم الأمر إلى جهنم يقال لهم : ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ وعلى ضوء هذا المشهد يوجه الله رسوله إلى الصبر مرة أخرى ، والثقة بأن وعد الله حق . سواء أبقاه حتى يشهد بعض ما يعدهم أو توفاه قبل أن يراه . فسيتم الوعد هناك . .

والشوط الأخير في السورة يتصل بالشوط الثالث . فبعد توجيـه الرسـول ﷺ للصـبر والانتظار يذكر أن الله قد أرسل رسلاً قبله كثيرين . ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ على أن في الكون آيات قائمة ، وبين أيديهم آيـات قريبـة؛ ولكنـهم

يغفلون عن تدبرها . . هذه الأنعام المسخرة لهم . من سخرها؟ . وهذه الفلك التي تحملهم أليست آية يرونها! ومصارع الغابرين ألا تثير في قلوبهم العظة والتقوى؟ ويختم السورة بإيقاع قوي على مصرع من مصارع المكذبين ، وهم يرون بأس الله فيؤمنون؛ ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ هذا الختام الذي يصور نهاية المتكبرين ، وينفق مع جو السورة وظلها وطابعها الأصيل .

فلنسر الآن مع سياق السورة بالتفصيل . .

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾

هذه السورة بدء سبع سور كلها تبدأ بالحرفين : « حا . ميم » . منها سورة واحدة يذكر فيها بعد هذين الحرفين ثلاثة حروف أخر : « عين . سين . قاف » ...وتليها الإشارة إلى تنزيل الكتاب . . إحدى الحقائق التي يتكرر الحديث عنها في السور المكية بوجه خاص ، في معرض بناء العقيدة :

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ وهي مجرد إشارة ينتقل السياق منها إلى التعريف ببعض صفات الله الذي نزل هذا الكتاب . وهي مجموعة من الصفات ذات علاقة موضوعية بمحتويات السورة كلها وقضاياها :

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ العزة . والعلم . وغفران الذنب . وقبول التوبة . وشدة العقاب . والفضل والإنعام . ووحدانية الألوهية ، ووحدانية المرجع والمصير ...اهـ[1]

(١) انظر الظلال : ٥/ ٣٠٦٧ ، ٣٠٦٨ في ظلال سورة غافر ط/ دار الشروق

معاني الكلمات :

﴿حمٓ﴾ : هذا أحد الحروف المقطعة يكتب هكذا : حم ويقرأ هكذا : حا مِيْم .

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ : أي تنزيل القرآن كائن من الله .

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ : أي الغالب ، ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بعباده ظاهراً وباطنا حالاً ومآلا .

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ : أي ذنب من تاب إلى الله فرجع غلى طاعته بعد معصيته .

﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ : أي مشدد العقوبة على من كفر بـــه ، ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ أي الإنعـام الواسع على من آمن به وأطاعه .

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ : أي لا معبود بحق إلا هو إليه مرجع الخلائق كلهم .

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ : أي في القرآن لإبطالها إلا الكافرون .

﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ : أي فلا تغتر بمعاشهم سالمين فإن عاقبتهم النار .

﴿وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ : أي وكذبت الأحزاب من بعد قوم نوح ، وهم عاد وثمـــود وقوم لوط .

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ : أي ليتمكنوا من إصابته بما أرادوا من تعذيب وقتل

﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ : أي ليزيلوا به الحق ويبطلوه .

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ : أي كان واقعاً موقعه حيث أهلكهم ولم يبق منهم أحداً .

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ : أي وجبت كلمة العـذاب علـى الذين كفروا .

﴿يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ : أي تناديهم الملائكة لتقول لهم لمقت الله إياكم أكـبر مـن مقتكم أنتم لأنفسكم ، والمقت أشد البغض .

﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ : أي مقت الله تعالى لكم عندما كنتم في الدنيا تدعوْن إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم لما رأيتم العذاب .

﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ : أي أمتنا مرتين الأولى عندما كنا عدماً فخلقتنا ، والثانية عندما أمتنا في الدنيا بقبض أرواحنا ، وأحييتنا مرتين الأولى لما أخرجتنا من بطون أمهاتنا أحياء فهذه مرة والثانية بعد أن بعثتنا من قبورنا أحياء .

﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ : أي بذنوبنا التي هي التكذيب بآياتك ولقائك والشرك بك .

﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ : أي فهل من طريق إلى العودة إلى الحياة الدنيا مرة ثانية لنؤمن بك ونوحدك ونطيعك ولا نعصيك .

﴿ذَٰلِكُم﴾ : أي العذاب الذي أنتم فيه .

﴿بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ : أي بسبب أنه إذا دعي الله وحده كفرتم بالتوحيد .

﴿يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ : أي دلائل توحيده وقدرته على بعثكم ومجازاتكم .

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ : أي وما يتعظ إلا من ينيب إلى الله ويرجع إليه بتوحيده .

﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ : أي يلقي بالوحي من أمره على من يشاء من عباده .

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ : أي لينذر من يوحي إليه من البشر وهو الرسول يوم تلاقي أهل السماء وأهل الأرض وذلك يوم القيامة .

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ : أي لا يسترهم شيء لا جبل ولا شجر ولا حجر .

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ : أي لمن السلطان اليوم .

﴿يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾ : أي يوم القيامة .

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى﴾ : أي من شدة الخوف تكون القلوب قد ارتفعت حتى وصلت عند ﴿ٱلْحَنَاجِرِ﴾ الحناجر .

﴿كَٰظِمِينَ﴾ : أي لقلوهم يريدون ردها فلم يقدروا .

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ : أي ليس للمشركين من محب قريباً كان أو بعيداً .

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ : أي الله تعالى يعلم العين إذا سرقت النظر إلى محرم .

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ : أي بكمال قدرته وعلمه يحكم بالحق .

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ : أي والذين يدعوهم مشركو قريش من أصنام لا يقضون بشيء عدلاً كان أو جوراً لأنهم أصنام لا تسمع ولا تبصر .

معنى الآيات :

بعد بيان الموقف الصعب في عرصات القيامة في الآيات السابقة قال تعالى لرسوله ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ يا رسولنا أي خوف قومك ﴿يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾ وهي القيامة القريبة والتي قد قربت فعلاً وكل ما هو آتٍ قريب أنذرهم قربها حتى لا يوافوها بالشرك والمعاصي فيخسروا خسراناً مبيناً ، أنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب من شدة الخوف ترتفع إلى الحناجر وهم يكظمونها فلا هي تخرج فيموتوا ولا هي تعود إلى أماكنها فيستريحوا .

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ وهم أهل الشرك والمعاصي ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ قريب أو حبيب يدفع عنهم العذاب ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ يشفع لهم وتقبل شفاعته ويطاع فيها لا ذا ولا ذاك يا لفظاعة الحال وقوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ يخبر تعالى عن سعة علمه وواسع إطلاعه أنه يعلم خائنة الأعين وهي العين تسترق النظر إلى المحارم ، ويعلم ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ أي

يشفع فيهما ﴿مَرَدَّنَآ﴾ رجوعنا إلى الله بعد المـوت ليجزينـا بأعمالنـا ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المشركون ، أو سافكوا الدماء بغير حق .

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ ﴾ في الآخرة ، أو عند نزول العذاب ﴿وَأُفَوِّضُ﴾ أسـلم ، أو أتوكـل على الله ، أو أشهده عليكم ﴿بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ بصيرهم ، أو بأعمالهم قاله موسـى ، أو المؤمن فأظهر به إيمانه .

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ بإنجائه مع موسى وغرق فرعون ، أو خرج هارباً من فرعون إلى جبـل يصلي فيه فأرسل فرعون في طلبه فوجدوه يصلي فذبت السباع والوحوش عنه فرجعـوا فأخبروا به فرعون فقتلهم . ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ الغرق ، أو قتله للذين أخبروه عـن المؤمن ، أو عبّر عن فرعون بآل فرعون .

﴿يُعْرَضُونَ ﴾ يعرض عليهم مقاعدهم غدوة وعشية ويقال يا آل فرعون هذه منازلكم ، أو أرواحهم في أجواف طير سود تغدوا على جهنم وتـروح ، أو يعـذبون بالنـار في قبورهم غدوة وعشية وهذا خاص بهم ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ قيامها وجـود صـفتها علـى استقامة قامت السوق إذا حضر أهلها على استقامة في وقت العـادة ﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ لأن عذاب جهنم مختلف قال الفرّاء فيه تقديم وتأخير تقديره : أدخلوا آل فرعـون أشـد العذاب النار يعرضون عليها .

﴿لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بإفلاح حججهم ، أو بالانتقام لهم فما قتل قوم نبياً أو قوماً من دعاة الحق إلا بُعث من ينتقم لهم فصاروا منصورين في الدنيا وإن قتلوا ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ﴾ بنصرهم في القيامة بإعلاء كلمتهم وإجزال ثوابهم ، أو بالانتقام مـن أعـدائهم ﴿ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ الأنبياء شهدوا على الأنبياء بالإبلاغ وعلى أممهم بالتكذيب ، أو الأنبيـاء

والملائكة أو الملائكة والنبيون والمؤمنون، - جمع شهيد كشريف وأشراف ، أو جمع شاهد كصاحب وأصحاب - .اهـ [(١)]

المعنى العام للآيات (٢٣ – ٤٦) .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أي: إلى جنس هؤلاء المكذبين ﴿مُوسَىٰ﴾ ابن عمران،﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ العظيمة، الدالة دلالة قطعية، على حقية ما أرسل به، وبطلان ما عليه من أرسل إليهم من الشرك وما يتبعه. ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: حجة بينة، تتسلط على القلوب فتذعن لها، كالحية والعصا ونحوهما من الآيات البينات، التي أيد الله بها موسى، ومكنه مما دعا إليه من الحق.

والمبعوث إليهم ﴿فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ وزيره ﴿وَقَٰرُونَ﴾ الذي كان من قوم موسى، فبغى عليهم بماله، وكلهم ردوا عليه أشد الرد ﴿فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ وأيده الله بالمعجزات الباهرة، الموجبة لتمام الإذعان، لم يقابلوها بذلك، ولم يكفهم مجرد الترك والإعراض، بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم، بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلى أن ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حيث كادوا هذه المكيدة، وزعموا أنهم إذا قتلوا أبناءهم، لم يقووا، وبقوا في رقهم وتحت عبوديتهم.

فما كيدهم إلا في ضلال، حيث لم يتم لهم ما قصدوا، بل أصابهم ضد ما قصدوا، أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم ؛ وتدبر هذه النكتة التي يكثر مرورها بكتاب الله تعالى: إذا كان السياق في قصة معينة أو على شيء معين، وأراد الله أن يحكم على ذلك المعين بحكم، لا يختص به ذكر الحكم، وعلقه على الوصف العام ليكون أعم، وتندرج فيه الصورة التي سيق الكلام لأجلها، وليندفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعين.

---

(١) انظر تفسير ابن عبد السلام لتفسير سورة غافر الآيات (٣٤ – ٤٦) .

فلهذا لم يقل [وَمَا كيدهم إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ]. بل قال: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾ . ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ متكبرًا متجبرًا مغررًا لقومه السفهاء: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ أي: زعم -قبحه الله- أنه لولا مراعاة خواطر قومه لقتله، وأنه لا يمنعه من دعاء ربه، ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله، وأنه نصح لقومه، وإزالة للشر في الأرض فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ الذي أنتم عليه ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق هذا من التمويه والترويج الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم:

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الزخرف]

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ ﴾ حين قال فرعون تلك المقالة الشنيعة التي أوجبها له طغيانه، واستعان فيها بقوته واقتداره، مستعينًا بربه: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ أي: امتنعت بربوبيته التي دبر بها جميع الأمور ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي: يحمله تكبره وعدم إيمانه بيوم الحساب على الشر والفساد، يدخل فيه فرعون وغيره، كما تقدم قريبًا في القاعدة، فمنعه الله تعالى بلطفه من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وقيض له من الأسباب ما اندفع به عنه شر فرعون وملئه.

ومن جملة الأسباب، هذا الرجل المؤمن، الذي من آل فرعون، من بيت المملكة، لا بد أن يكون له كلمة مسموعة، وخصوصًا إذا كان يظهر موافقتهم ويكتم إيمانه، فإنهم يراعونه في الغالب ما لا يراعونه لو خالفهم في الظاهر، كما منع الله رسوله محمدًا ﷺ بعمه أبي طالب من قريش، حيث كان أبو طالب كبيرًا عندهم، موافقًا لهم على دينهم، ولو كان مسلمًا لم يحصل منه ذلك المنع.

فقال ذلك الرجل المؤمن الموفق العاقل الحازم، مقبحًا فعل قومه، وشناعة ما عزموا عليه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ أي: كيف تستحلون قتله، وهذا ذنبه وجرمه، أنه يقول ربي الله، و لم يكن أيضا قولا مجردًا عن البينات، ولهذا قال: ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ لأن بينته اشتهرت عندهم اشتهارًا علم به الصغير والكبير، أي: فهذا لا يوجب قتله.

فهلا أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق، وقابلتم البرهان ببرهان يرده، ثم بعد ذلك نظرتم: هل يحل قتله إذا ظهرتم عليه بالحجة أم لا؟ فأما وقد ظهرت حجته، واستعلى برهانه، فبينكم وبين حل قتله مفاوز تنقطع بها أعناق المطي.

ثم قال لهم مقالة عقلية تقنع كل عاقل، بأي حالة قدرت، فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ أي: موسى بين أمرين، إما كاذب في دعواه أو صادق فيها، فإن كان كاذبًا فكذبه عليه، وضرره مختص به، وليس عليكم في ذلك ضرر حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه، وإن كان صادقًا وقد جاءكم بالبينات، وأخبركم أنكم إن لم تجيبوه عذبكم الله عذابًا في الدنيا وعذابًا في الآخرة، فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وهو عذاب الدنيا.

وهذا من حسن عقله، ولطف دفعه عن موسى، حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر دائرًا بين تينك الحالتين، وعلى كل تقدير فقتله سفه وجهل منكم.

ثم انتقل ﷺ وأرضاه وغفر له ورحمه - إلى أمر أعلى من ذلك، وبيان قرب موسى من الحق فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ أي: متجاوز الحد بترك الحق والإقبال على الباطل. ﴿كَذَّابٌ﴾ بنسبته ما أسرف فيه إلى الله، فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب، لا في مدلوله ولا في دليله، ولا يوفق للصراط المستقيم، أي: وقد رأيتم ما دعا

موسى إليه من الحق، وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية، فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفًا ولا كاذبًا، وهذا دليل على كمال علمه وعقله ومعرفته بربه.

ثم حذر قومه ونصحهم، وخوفهم عذاب الآخرة، ونهاهم عن الاغترار بالملك الظاهر، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي: في الدنيا ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على رعيتكم، تنفذون فيهم ما شئتم من التدبير، فهبكم حصل لكم ذلك وتم، ولن يتم، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ﴾ أي: عذابه ﴿إِن جَآءَنَا﴾ ؟ وهذا من حسن دعوته، حيث جعل الأمر مشتركًا بينه وبينهم بقوله:﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾ وقوله: ﴿إِن جَآءَنَاۚ﴾ ليفهمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه.

فـ ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ معارضًا له في ذلك، ومغررًا لقومه أن يتبعوا موسى: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ وصدق في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ ولكن ما الذي رأى ؟ رأى أن يستخف قومه فيتابعوه، ليقيم لهم رياسته، و لم ير الحق معه، بل رأى الحق مع موسى، وجحد به مستيقنًا له. وكذب في قوله: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ فإن هذا قلب للحق، فلو أمرهم باتباعه اتباعًا مجردًا على كفره وضلاله، لكان الشر أهون، ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق وفي اتباع الحق، اتباع الضلال.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾ مكررًا دعوة قومه غير آيس من هدايتهم، كما هي حالة الدعاة إلى الله تعالى، لا يزالون يدعون إلى ربهم، ولا يردهم عن ذلك راد، ولا يثنيهم عتو من دعوه عن تكرار الدعوة فقال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ يعني الأمم المكذبين، الذين تحزبوا على أنبيائهم، واجتمعوا على معارضتهم، ثم بينهم فقال: ﴿مِثۡلَ

دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي: مثل عادهم في الكفر والتكذيب وعادة الله فيهم بالعقوبة العاجلة في الدنيا قبل الآخرة، ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ فيعذهم بغير ذنب أذنبوه، ولا جرم أسلفوه.

ولما خوفهم العقوبات الدنيوية، خوفهم العقوبات الأخروية، فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾ أي: يوم القيامة، حين ينادي أهل الجنة أهل النار: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ إلى آخر الآيات.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف]

وحين ينادي أهل النار مالكًا ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيقول: ﴿إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ وحين ينادون ربهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون] فيجيبهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون] وحين يقال للمشركين: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٤] فخوفهم ﷺ هذا اليوم المهول، وتوجع لهم أن أقاموا على شركهم بذلك، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أي: قد ذهب بكم إلى النار ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه من أحد ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ [الطارق]

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ لأن الهدى بيد الله تعالى، فإذا منع عبده الهدى لعلمه أنه غير لائق به، لخبثه، فلا سبيل إلى هدايته.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ بن يعقوب عليهما السلام ﴿مِن قَبْلُ﴾ إتيان موسى بالبينات الدالة على صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له، ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ في حياته ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ ازداد شككم وشرككم، و ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ أي: هذا ظنكم الباطل، وحسبانكم الذي لا يليق بالله تعالى، فإنه تعالى لا يترك خلقه سدى، لا يأمرهم وينهاهم، ويرسل إليهم رسله، وظن أن الله لا يرسل رسولا ظن ضلال، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ وهذا هو وصفهم الحقيقي الذي وصفوا به موسى ظلمًا وعلوا، فهم المسرفون بتجاوزهم الحق وعدولهم عنه إلى الضلال، وهم الكذبة، حيث نسبوا ذلك إلى الله، وكذبوا رسوله.

فالذي وصفه السرف والكذب، لا ينفك عنهما، لا يهديه الله، ولا يوفقه للخير، لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه الله، بأن يمنعه الهدى، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام]

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة]

ثم ذكر وصف المسرف الكذاب فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي بينت الحق من الباطل، وصارت -من ظهورها- بمنزلة الشمس للبصر، فهم يجادلون فيها على وضوحها، ليدفعوها ويبطلوها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ أي: بغير حجة وبرهان، وهذا وصف لازم لكل من جادل في آيات الله، فإنه من المحال أن يجادل بسلطان، لأن الحق لا يعارضه معارض، فلا يمكن أن يعارض بدليل شرعي أو عقلي أصلا ﴿كَبُرَ﴾ ذلك

القول المتضمن لرد الحق بالباطل ﴿مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فالله أشد بغضًا لصاحبه، لأنه تضمن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمور يشتد بغض الله لها ولمن اتصف بها، وكذلك عباده المؤمنون يمقتون على ذلك أشد المقت موافقة لربهم، وهؤلاء خواص خلق الله تعالى، فمقتهم دليل على شناعة من مقتوه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما طبع على قلوب آل فرعون ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ متكبر في نفسه على الحق برده وعلى الخلق باحتقارهم، جبار بكثرة ظلمه وعدوانه.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضًا لموسى ومكذبًا له في دعوته إلى الإقرار برب العالمين، الذي على العرش استوى، وعلى الخلق اعتلى: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ أي: بناء عظيمًا مرتفعًا، والقصد منه لعلي أطلع ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ في دعواه أن لنا ربًا، وأنه فوق السماوات.

ولكنه يريد أن يحتاط فرعون، ويختبر الأمر بنفسه، قال الله تعالى في بيان الذي حمله على هذا القول: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فزين له العمل السيئ، فلم يزل الشيطان يزينه، وهو يدعو إليه ويحسنه، حتى رآه حسنًا ودعا إليه وناظر مناظرة المحقين، وهو من أعظم المفسدين، ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الحق، بسبب الباطل الذي زين له. ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ الذي أراد أن يكيد به الحق، ويوهم به الناس أنه محق، وأن موسى مبطل ﴿إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ أي: خسار وبوار، لا يفيده إلا الشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ معيدًا نصيحته لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ لا كما يقول لكم فرعون، فإنه لا يهديكم إلا طريق الغي والفساد.

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ يتمتع بها ويتنعم قليلا ثم تنقطع وتضمحل، فلا تغرنكم وتخدعنكم عما خلقتم له ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ التي هي محل الإقامة، ومنزل السكون والاستقرار، فينبغي لكم أن تؤثروها، وتعملوا لها عملا يسعدكم فيها.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ من شرك أو فسوق أو عصيان ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي: لا يجازى إلا بما يسوؤه ويحزنه لأن جزاء السيئة السوء.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ من أعمال القلوب والجوارح، وأقوال اللسان ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: يعطون أجرهم بلا حد ولا عد، بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ بما قلت لكم ﴿وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بترك اتباع نبي الله موسى عليه السلام.

ثم فسر ذلك فقال: ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أنه يستحق أن يعبد من دون الله، والقول على الله بلا علم من أكبر الذنوب وأقبحها، ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي له القوة كلها، وغيره ليس بيده من الأمر شيء.

﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ الذي يسرف العباد على أنفسهم ويتجرؤون على مساخطه ثم إذا تابوا وأنابوا إليه، كفر عنهم السيئات والذنوب، ودفع موجباتها من العقوبات الدنيوية والأخروية.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًا يقينًا ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: لا يستحق من الدعوة إليه، والحث على اللجأ إليه، في الدنيا ولا في الآخرة، لعجزه ونقصه، وأنه لا يملك نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة، ولا نشورًا.

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى فسيجازي كل عامـــل بعملـــه. ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ وهم الذين أسرفوا على أنفسهم بالتجرؤ على ربهم بمعاصيه والكفر به، دون غيرهم.

فلما نصحهم وحذرهم وأنذرهم و لم يطيعوه ولا وافقوه قال لهم:

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ من هذه النصيحة، وسترون مغبة عدم قبولها حـــين يحل بكم العقاب، وتحرمون جزيل الثواب.

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: ألجأ إليه وأعتصم، وألقي أموري كلها لديه، وأتوكـــل عليه في مصالحي ودفع الضرر الذي يصيبني مـــنكم أو مـــن غيركـــم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ يعلم أحوالهم وما يستحقون، يعلم حالي وضعفي فيمنعني مـــنكم ويكفـــيني شركم، ويعلم أحوالكم فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشيئته، فإن سلطكم عليّ فبحكمـــة منه تعالى، وعن إرادته ومشيئته صدر ذلك.

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ أي: وقى الله القويّ الرحيم، ذلك الرجل المؤمن الموفق، عقوبات ما مكر فرعون وآله له، من إرادة إهلاكه وإتلافه، لأنـــه بـــدأهم بمـــا يكرهون، وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى ، ودعاهم إلى ما دعاهم إليـــه موســـى، وهذا أمر لا يحتملونه وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتد حنقهم عليـــه، فأرادوا به كيدًا فحفظه الله من كيدهم ومكرهم وانقلب كيدهم ومكرهم، على أنفسهم، ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ أغرقهم الله تعالى في صبيحة واحدة عن آخرهم.

وفي الـــــبرزخ ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ فهذه العقوبات الشنيعة، التي تحل بالمكذبين لرسل الله، المعاندين لأمره.

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ ﴾ يخبر تعالى عن تخاصم أهل النار، وعتاب بعضهم بعضًا واستغاثتهم بخزنة النار، وعدم الفائدة في ذلك فقال: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ ﴾ يحتج التابعون بإغواء المتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من التابعين، ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ ﴾ أي: الأتباع للقادة ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ على الحق، ودعوهم إلى ما استكبروا لأجله. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أنتم أغويتمونا وأضللتمونا وزينتم لنا الشرك والشر، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴾ أي: ولو قليلا.

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ مبينين لعجزهم ونفوذ الحكم الإلهي في الجميع: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ وجعل لكل قسطه من العذاب، فلا يزاد في ذلك ولا ينقص منه، ولا يغير ما حكم به الحكيم.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ ﴾ من المستكبرين والضعفاء ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴾ لعله تحصل بعض الراحة.

فـ ﴿قَالُوا﴾ لهم موبخين ومبينين أن شفاعتهم لا تنفعهم، ودعاءهم لا يفيدهم شيئًا: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ التي تبينتم بها الحق والصراط المستقيم، وما يقرب من الله وما يبعد منه؟

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ قد جاءونا بالبينات، وقامت علينا حجة الله البالغة فظلمنا وعاندنا الحـــق بعد ما تبين. ﴿قَالُواْ﴾ أي: الخزنة لأهل النار، متبرئين من الـــدعاء لهـــم والشـــفاعة: ﴿فَادْعُواْ﴾ أنتم ولكن هذا الدعاء هل يغني شيئا أم لا؟

قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ أي: باطل لاغ، لأن الكفر محـــبط لجميع الأعمال صادّ لإجابة الدعاء.اهـــ[1]

من ثمرات الآيات

١- فضل الإيمان وفضل صاحبه فقد ورد الثناء على هذا الرجل في ثلاثة رجال هم مؤمن آل فرعون هذا ، وحبيبٌ النجار مؤمن آل ياسين وأبو بكر الصديق رضي الله عنه .

٢- فصاحة مؤمن آل فرعون هي ثمرة إيمانه وبركته العاجلة فإن لكلماته وقع كبير في النفوس .

٣- التنديد بالإسراف في كل شيء والكذب والافتراء في كل شيء وعلى أي شيء .

٤- من عجيب أمر فرعون ادعاؤه أن يهدي إلى الرشد والسداد وواصل في القول والعمل ، حتى ضرب به المثل فقيل : فرعون يهدي إلى الرشد .

٥- قوة الإيمان تفجر قلب المؤمن بأنواع من المعرفة والحكمة في قوله إذا قال .

٦- التذكير بالأمم الهالكة إذْ العاقل من اعتبر بغيره .

٧- التخويف من عذاب الآخرة وأهوال القيامة .

٨- التنديد بالإسراف والارتياب وعدم اليقين .

٩- حرمة الجدال بغير علم ، وأن صاحبه عرضة لمقت المؤمنين بعد مقت الله تعالى .

١٠- عرضة المتكبر الجبار للطبع على قلبه ويومها يحرم الهداية فلا يُهدى ابداً .

التحذير من تزيين الأعمال القبيحة نتيجة الإدمان عليها والاستمرار على فعلها فإن مـــن زُينت له أعماله السيئة فأصبح يراها حسنة هلك والعياذ بالله .

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص٨٢٤ لسورة غافر الآيات (٤٧ — ٥٠) ط/التوفيقية .

١١- التحذير من الاغترار بالدنيا والغفلة من الآخرة إذ الأولى زائلة والآخرة باقية واختبار الباقي على الفاني من شأن العقلاء .

١٢- مشروعية التذكير بالحساب والجزاء وما يتم في الدار الآخرة من سعادة وشقاء اهـ

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

شرح الكلمات :

﴿ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ : أي في القرآن وما حواه من حجج وبراهين دالة على الحق هادية إليه .

﴿ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ : أي كيف يصرفون عن الحق مع وضوح الأدلة وقوة البراهين .

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ : أي بالقرآن .

﴿ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ﴾ : من وجوب الاسلام لله بعبادته وحده وطاعته في أمره ونهيه والإيمان بلقائه .

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ : أي عقوبة تكذيبهم .

﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ ﴾ : أي وقت وجود الأغلال في أعناقهم يعلمون عاقبة كفرهم وتكذيبهم .

﴿ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ : أي يوقدون .

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ : أي يسألون هذا السؤال تبكيتاً لهم وخزياً .

﴿تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ : أي تعبدونهم مع الله .

﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ : أي غابوا عنا فلم نرهم .

﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾ : أي أنكروا عبادة الأصنام ، أوْ لَمْ يعتبروا عبادهما شيئاً وهو كذلك .

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ : أي مثل إضلال هؤلاء المكذبين يضل الله الكافرين .

﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ : أي بالشرك والمعاصي .

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ : أي بالتوسع في الفرح ، لأن المرح شدة الفرح .

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ : أي دخول جهنم والخلود فيها بئس ذلك مأوى للمتكبرين .

معنى الآيات :

ما زال السياق الكريم في الدعوة إلى التوحيد وإلى الإيمان بالبعث والجزاء ، وتقرير نبوة محمد ﷺ فقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أي يا محمد ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآنية لإبطالها وصرف الناس عن قبولها أوحملهم على إنكارها وتكذيبها والتكذيب بها وهذا تعجيب من حالهم . وقوله تعالى : ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق بعد ظهور أدلته . وقوله ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ الذي هو القرآن ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ من التوحيد والإيمان ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة تكذيبهم وقت ما تكون الأغلال في أعناقهم والسلاسل في أرجلهم يسحبون أي تسحبهم الزبانية في الحميم هو ماء حارتنا هي في الحرارة في النار يسجرون أي توقد بهم النار كما توقد بالحطب ، هذا عذاب جسماني ووراءه عذاب روحاني إذ تقول لهم الملائكة توبيخا

وما تكتمه صدور العباد وما تضمره من خير وشر ، ولذا فسوف يكون الحساب دقيقا ومن نوقش الحساب عُذب . ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ أي يحكم بالعدل ، ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي والذين يعبدهم المشركون من أصنام وأوثان ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ لأنهم لا يسمعون ولا يبصرون .

وقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ السميع لأقوال عباده البصير بأعمالهم وأحوالهم فلذا إذا حكم يحكم بالحق ويقدر على إنفاذ الحكم فيجزى السيئة بالسيئة والحسنة بعشر أمثالها .اهـ(١)

المعنى العام :

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ يخبر تعالى عن كتابه العظيم وبأنه صادر ومنزل من الله، المألوه المعبود، لكماله وانفراده بأفعاله، ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي قهر بعزته كل مخلوق ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بكل شيء.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ للمذنبين ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ من التائبين، ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ على من تجرأ على الذنوب ولم يتب منها، ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ أي: التفضل والإحسان الشامل.

فلما قرر ما قرر من كماله وكان ذلك موجبًا لأن يكون وحده، المألوه الذي تخلص له الأعمال قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾

ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله الموصوف بهذه الأوصاف أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن، من المعاني.

فإن القرآن : إما إخبار عن أسماء الله، وصفاته، وأفعاله، وهذه أسماء، وأوصاف، وأفعال.

(١) انظر أيسر التفاسير للجزائري : ٣/ ١٦٨ ، ١٦٩ تفسير سورة غافر الآيات (١٧ – ٢٠) .

وإما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة، فهي من تعليم العليم لعباده.

وإما إخبار عن نعمه العظيمة، وآلائه الجسيمة، وما يوصل إلى ذلك، من الأوامر، فـــذلك يدل عليه قوله: ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾

وإما إخبار عن نقمه الشديدة، وعما يوجبها ويقتضيها من المعاصي، فذلك يـــدل عليـــه قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾

وإما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة، والاستغفار، فذلك يدل عليه قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ وإما إخبار بأنه وحده المألوه المعبود، وإقامة الأدلة العقليـــة والنقلية على ذلك، والحث عليه، والنهي عن عبادة ما سوى الله، وإقامة الأدلـــة العقليـــة والنقلية على فسادها والترهيب منها، فذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ وإما إخبار عن حكمه الجزائي العدل، وثواب المحسنين، وعقاب العاصين، فهذا يدل عليه قوله: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات. اهـــ

وقال د/ محمد سيد طنطاوي :

والمراد بالجدال هنا : الجدال بالباطل ، وأما الجدال من أجل الوصول إلى الحق فمحمود .

وقوله : ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ﴾ جواب لشرط محذوف . والتقلب : التنقل من مكان إلى آخر من أجل الحصول على المنافع والمكاسب .

أي : ما يجادل في آيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته ، عن طريق التكذيب بها والطعن فيها . . إلا الذين كفروا بالحق لما جاءهم ، وإذا تقرر ذلك ، فلا يغررك – أيها الرســـول الكريم – تقلبهم في البلاد ، وتصرفهم فيها عن طريق التجارات الرابحة ، وجمع الأمـــوال الكثيرة ، فإن ما بين أيديهم من أموال إنما هو لون من الاستدراج ، وعما قريب ســـتزول هذه الأموال من بين أيديهم ، وستكون عليهم حسرة . .

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي : قبل هؤلاء الكافرين المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ الذين أغرقناهم بسبب هذا التكذيب لنبيهم .

﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي : وكذلك الأقوام الآخرون الذين جاءوا من بعد قوم نوح ، قد تحزبوا على أنبيائهم ، وأجمعوا على تكذيبهم ، كما فعل قوم عاد مع نبيهم هود ، وكما فعل قوم ثمود مع نبيهم صالح ، وكما فعل أهل مدين مع نبيهم شعيب . .

فالضمير في قوله ﷻ : ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعود إلى قوم نوح .
وأفردهم ﷻ بالذكر لأنهم أول قوم كذبوا رسولهم بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً . ولم يزدهم دعاؤه لهم إلا عتواً ونفوراً .

وقوله ﷻ : ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ بيان لما فعله هؤلاء الأقوام المجرمين ، لم يكتفوا بالتكذيب لأنبيائهم ، بل إن كل أمة منهم قد مكرت بنبيها ، وأرادت به السوء ، وحاولت أن تتمكن منه بالأسر أو بالقتل ، وجادلته بالجدال الباطل ، لتزيل به الحق الذي جاء به من عند ربه وتبطله .

والتعبير بقوله : ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ يشعر بأن هؤلاء المجرمين كانوا حريصين على التمكن من إيذاء نبيهم ومن الاعتداء عليه ، كما يحرص الشخص على أخذ عدوه وأسره ليفعل به ما يشاء

وقوله ﷻ: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ بيان لما آل إليه مكرهم وجدالهم بالباطل .
أي : هموا بما هموا ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، وحاولوا أن يجعلوا رسولهم بمنزلة الأسير فيهم . فكانت نتيجة كل ذلك أن أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، بأن دمرناهم تدميرا فكيف كان عقابي لهم؟ لقد كان عقابا مدمرا ، جعلهم أثرا بعد عين ، وترك آثار مساكنهم تشهد بهلاكهم واستئصالهم .

ثم بين ﷻ سنة من سننه التي لا تتخلـــف فقـــال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾﴾ أي : وكما حقت كلمة ربك - أيها الرسول الكريم - ووجبت بإهلاك الأمم الماضية التي كذبت أنبياءها ، وجعلهم وقـــودا للنـــار ، فكذلك تكون سنتنا مع المكذبين لك من قومك ، إذا ما استمروا في تكذيبهم لك ، و لم يعودوا إلى طريق الحق .

فالآيات الكريمة تسلية للرسول ﷺ وتحذير لمشركي قريش من الاستمرار في غيهم .اهـ

حملة العرش يستغيثون الله أن يقي المؤمنين النار :

[ثم بين ﷻ مظهراً من مظاهر رحمته بالمؤمنين ، وتكريمهم ، فذكر أن حملة عرشـــه مـــن وظائفهم الاستغفار للمؤمنين ، والدعاء لهم بالخير فقـــال ﷻ : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ المـــراد بالذين يحملون العرش : عدد من الملائكة المقربين إلى الله ﷻ ولا يعلم عددهم أحد سوى الله - تعالى - لأنه لم يرد نص صحيح في تحديد عددهم .

والمراد بمن حوله : عدد آخر من الملائكة يطوفون بالعرش مهللين مسبحين مكبرين لله - تعالى - كمـــا قـــال ﷻ : ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥] وعرش الله - تعالى - كما قال الراغب مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم ، فعلينا أن نؤمن بأن لله - تعالى - عرشا عظيما ، أما كيفيته وهيئته فنفوض معرفتها إلى الخالق ﷻ .

وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن الكريم في إحدى وعشرين آية .

والاسم الموصول في قوله ﷻ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ ﴾ مبتدأ . وخبره قوله ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ .

والجملة الكريمة مستأنفة ومسوقة لتسلية النبي ﷺ ببيان أن هؤلاء الملائكة الذين هم أقرب الملائكة إلى الله ﷻ يضمون إلى تسبيحهم لذاته ﷻ ، الاستغفار للمؤمنين ، والدعاء لهم .

وقد ذكر كثير من المفسرين كلاما طويلا في صفة هؤلاء الملائكة وفى صفة العرش . رأينا أن نضرب عنه صفحا لضعفه وقلة فائدته .

أي : الملائكة الكرام المقربون إلينا ، والحاملون لعرشنا ، والحافون به ، من صفاتهم أنهم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ ﴾ أي : ينزهون الله – تعالى – عن كل نقص ، ويلهجون بحمده وبالثناء عليه بما يليق به .

﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ ﷻ إيمانا تاما لا يشوبه ما يتنافى مع هذا الإيمان والإذعان لله الواحد القهار .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما فائدة قوله ﷻ : ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ ولا يخفى أن حملة العرش ومن حوله مؤمنون؟

قلت : فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله ، والترغيب فيه ، كما وصف الأنبياء في غير موضع من كتابه بالصلاح كذلك ، كما عقب أعمال الخير بقوله ﷻ : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البلد: ١٧] فأبان بذلك فضل الإيمان .

ويستغفرون للذين آمنوا ، أي : أنهم بجانب تسبيحهم وحمدهم لربهم ، وإيمانهم به ، يتضرعون إليه ﷻ أن يغفر للذين آمنوا ذنوبهم .

وفى هذا الاستغفار منهم للمؤمنين ، إشعار بمحبتهم لهم ، وعنايتهم بشأنهم ، لأنهم مثلهم في الإيمان بوحدانية – الله تعالى – وفى وجوب إخلاص العبادة والطاعة له .

ثم حكى - سبحانه - كيفية استغفارهم للمؤمنين فقـال : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ والجملة الكريمة على تقدير قول محذوف ، وهذا القول في محل نصـب على الحال من فاعل ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ وقوله ﴿رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ منصوبان على التمييز .

أي : إنهم يستغفرون للذين آمنوا ، حالة كونهم قائلين : يا ربنا يا من وسـعت رحمتـك ووسع علمك كل شيء ، تقبل دعاءنا .

﴿فَاغْفِرْ﴾ بمقتضى سعة رحمتك وعلمك ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ إليك توبة صـادقة نصـوحا ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ الحق ، وصراطك المستقيم .

﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي : وصنهم يا ربنا واحفظهم من الوقوع في جهنم لأن عـذابها كرب عظيم .

يا ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي : وأدخلهم جناتك دخولا دائما لا انقطاع معه . يقال : عدَن فلان بالمكان يعدِنُ عَدْناً ، إذا لزمه وأقام فيه دون أن يبرحه ، ومنه سمـي الشيء المخزون في باطن الأرض بالمعدن ، لأنه مستقر بداخلها .

﴿الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ فضلا منك وكرما .

وأدخل معهم ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ لدخولها بسبب إيمانهم وعملـهم الطيـب ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ﴾ يا مولانا ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي : الغالب لكـل شـيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في كل تصرفاتك وأفعالك .

فالمراد بالصلاح في قوله ﷻ : ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ﴾ : من كان منهم مؤمناً بالله ، وعمل عملاً صالحاً ، ودعوا لهم بذلك . ليتم سرورهم وفـرحهم إذ وجـود الآبـاء والأزواج والذرية مع الإنسان في الجنة ، يزيد سروره وانشراحه .

﴿ وَقِهِمُ ﴾ يا ربنا ﴿ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أي : احفظهم يا ربنا من ارتكاب الأعمال السيئات ، ومن العقوبات التي تترتب على ذلك ، بأن تتجاوز عن خطاياهم .

﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي : في يوم القيامة الذي تجازى فيه كل نفس بما كسبت ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ أي : فقد رحمته برحمتك الواسعة من كل سوء .

﴿وَذَٰلِكَ ﴾ الذي تقدم من رحمتهم ومن إدخالهم الجنة ، ومن وقايتهم السوء .

﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ الذي لا يضارعه فوز ، والظفر الكبير الذي لا يقاربه ظفر ، والأمل الذي لا مطمع وراءه لطامع .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة ، قد أخبرتنا أن الملائكة المقربين يدعون للمؤمنين بما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم .اهـ [1]

من هداية الآيات :

١- بيان عظم الرب تعالى .

٢- بيان فضل الإيمان وأهله .

٣- فضل التسبيح بقول : سبحان الله وبحمده فقد صح أن من قالها مائة مرة حين يصبح أو حين يمسي غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر أي في الكثرة .

٤- بشرى المؤمنين بأن الله تعالى يجمعهم بآبائهم وأزواجهم وذرياتهم في الجنة ، وقد استجاب الله للملائكة وقد أخبر تعالى عن ذلك بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ اهـ

(١) انظر تفسير الدكتور محمد سيد طنطاوي لسورة غافر الآيات (٥ — ٩) . .

* وكعادة القرآن الكريم في قرن الترغيب بالترهيب أو العكس : جاء الحديث بعد ذلــك عن الكافرين . مبينا انقطاعهم عن كل من يشفع لهم ، أو يدعو لهم بخير - كمـا دعـا الملائكة للمؤمنين – فقال ﷻ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾
يخبر تعالى عن الفضيحة والخزي الذي يصيب الكافرين، وسؤالهم الرجعة، والخروج مـن النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أطلقـه ليشـمل أنواع الكفر كلها، من الكفر بالله، أو بكتبه، أو برسله، أو باليوم الآخر، حين يـدخلون النار، ويقرون أنهم مستحقوها، لما فعلوه من الذنوب والأوزار، فيمقتون أنفسهم لـذلك أشد المقت، ويغضبون عليها غاية الغضب، فينادون عند ذلك، ويقـال لهـم: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾ أي: إياكم ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ أي: حين دعتكم الرسـل وأتباعهم إلى الإيمان، وأقاموا لكم من البينات ما تبين به الحق، فكفرتم وزهدتم في الإيمـان الذي خلقكم الله له، وخرجتم من رحمته الواسعة، فمقتكم وأبغضكم، فهذا ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: فلم يزل هذا المقت مستمرًا عليكم، والسخط من الكـريم حالا بكم، حتى آلت بكم الحال إلى ما آلت، فاليوم حلَّ عليكم غضب الله وعقابه حـين نال المؤمنون رضوان الله وثوابه.

فتمنوا الرجوع و ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ يريدون الموتة الأولى وما بين النفختين على ما قيل أو العدم المحض قبل إيجادهم، ثم أماتهم بعدما أوجدهم، ﴿وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ الحيـاة

الدنيا والحياة الأخرى، ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ أي: تحسروا وقالوا ذلك، فلم يفد و لم ينجع، ووبخوا على عدم فعل أسباب النجاة، فقيل لهم: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ﴾ أي: إذا دعي لتوحيده، وإخلاص العمل له، ونهي عن الشرك به ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾ به واشمأزت لذلك قلوبكم ونفرتم غاية النفور.

﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾ أي: هذا الذي أنزلكم هذا المترل وبوأكم هذا المقيل والمحل، أنكم تكفرون بالإيمان، وتؤمنون بالكفر، ترضون بما هو شر وفساد في الدنيا والآخرة، وتكرهون ما هو خير وصلاح في الدنيا والآخرة.

تؤثرون سبب الشقاوة والذل والغضب وتزهدون بما هو سبب الفوز والفلاح والظفر

﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا﴾

[الأعراف: ١٤٦]﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ العلي: الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر ومن علو قدره، كمال عدله تعالى، وأنه يضع الأشياء مواضعها، ولا يساوي بين المتقين والفجار.

﴿ٱلۡكَبِيرِ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة والمجد، في أسمائه وصفاته وأفعاله المتنزه عن كل آفة وعيب ونقص، فإذا كان الحكم له تعالى، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم، فحكمه لا يغير ولا يبدل.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ
(١٣) فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ (١٤) رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ
يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ (١٥) يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى
ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ (١٦)﴾

يذكر تعالى نعمه العظيمة على عباده، بتبيين الحق من الباطل، بما يُرِي عباده من آياته النفسية والآفاقية والقرآنية، الدالة على كل مطلوب مقصود، الموضحة للهدى من الضلال، بحيث لا يبقى عند الناظر فيها والمتأمل لها أدنى شك في معرفة الحقائق، وهذا من أكبر نعمه على عباده، حيث لم يُبْقِ الحق مشتبهًا ولا الصواب ملتبسًا، بل نوَّع الدلالات ووضح الآيات، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة وكلما كانت المسائل أجل وأكبر، كانت الدلائل عليها أكثر وأيسر، فانظر إلى التوحيد لما كانت مسألته من أكبر المسائل، بل أكبرها، كثرت الأدلة عليها العقلية والنقلية وتنوعت، وضرب الله لها الأمثال وأكثر لها من الاستدلال، ولهذا ذكرها في هذا الموضع، ونبه على جملة من أدلتها فقال: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾

ولما ذكر أنه يُرِي عباده آياته، نبه على آية عظيمة فقال: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ﴾ أي: مطرًا به ترزقون وتعيشون أنتم وبهائمكم، وذلك يدل على أن النعم كلها منه، فمنه نعم الدين، وهي المسائل الدينية والأدلة عليها، وما يتبع ذلك من العمل بها. والنعم الدنيوية كلها، كالنعم الناشئة عن الغيث، الذي تحيا به البلاد والعباد. وهذا يدل دلالة قاطعة أنه وحده هو المعبود، الذي يتعين إخلاص الدين له، كما أنه -وحده- المنعم.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالآيات حين يذكر بها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ إلى الله تعالى، بالإقبال على محبته وخشيته وطاعته والتضرع إليه، فهذا الذي ينتفع بالآيات، وتصير رحمة في حقه، ويزداد بها بصيرة.

ولما كانت الآيات تثمر التذكر، والتذكر يوجب الإخلاص لله، رتب الأمر على ذلك بالفاء الدالة على السببية فقال: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، والإخلاص معناه: تخليص القصد لله تعالى في جميع العبادات الواجبة والمستحبة، حقوق الله وحقوق عباده. أي: أخلصوا لله تعالى في كل ما تدينونه به وتتقربون به إليه.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لذلك، فلا تبالوا بهم، ولا يثنكم ذلك عن دينكم، ولا تأخذكم بالله لومة لائم، فإن الكافرين يكرهون الإخلاص لله وحده غاية الكراهة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر] ثم ذكر من جلاله وكماله ما يقتضي إخلاص العبادة له فقال: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: العلي الأعلى، الذي استوى على العرش واختص به، وارتفعت درجاته ارتفاعًا باين به مخلوقاته، وارتفع به قدره، وجلت أوصافه، وتعالت ذاته، أن يتقرب إليه إلا بالعمل الزكي الطاهر المطهر، وهو الإخلاص، الذي يرفع درجات أصحابه ويقربهم إليه ويجعلهم فوق خلقه، ثم ذكر نعمته على عباده بالرسالة والوحي، فقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ أي: الوحي الذي للأرواح والقلوب بمنزلة الأرواح للأجساد، فكما أن الجسد بدون الروح لا يحيا ولا يعيش، فالروح والقلب بدون روح الوحي لا يصلح ولا يفلح، فهو تعالى ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ الذي فيه نفع العباد ومصلحتهم. ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهم الرسل الذين فضلهم الله واختصهم الله لوحيه ودعوة عباده.

والفائدة في إرسال الرسل، هو تحصيل سعادة العباد في دينهم ودنياهم وآخرتهم، وإزالة الشقاوة عنهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، ولهذا قال: ﴿لِيُنذِرَ﴾ من ألقى الله إليه الوحي ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي: يخوف العباد بذلك، ويحثهم على الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه.

وسماه ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ لأنه يلتقي فيه الخالق والمخلوق والمخلوقون بعضهم مع بعض، والعاملون وأعمالهم وجزاؤهم.

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أي: ظاهرون على الأرض، قد اجتمعوا في صعيد واحد لا عـوج ولا أمت فيه، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر.

﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ لا من ذواتهم ولا من أعمالهم، ولا من جزاء تلك الأعمال.

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: من هو المالك لذلك اليوم العظيم الجامع للأولين والآخـرين، أهل السماوات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك، وتقطعت الأسـباب، ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة؟ الملك ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي: المنفرد في ذاتـه وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه. ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾ لجميع المخلوقات، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصًا في ذلك اليوم الـذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم، يومئذ لا تَكَلَّمُ نفس إلا بإذنـه. ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ في الدنيا، من خير وشر، قليل وكثير. ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ على أحـد، بزيادة في سيئاته، أو نقص من حسناته. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: لا تستبطئوا ذلك اليوم فإنه آت، وكل آت قريب. وهو أيضا سريع المحاسبة لعبـاده يـوم القيامـة، لإحاطة علمه وكمال قدرته.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ ﴾ أي: يوم القيامة التي قـد أزفـت وقربت، وآن الوصول إلى أهوالها وقلاقلها وزلازلها، ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ أي: قد ارتفعت وبقيت أفئدتهم هواء، ووصلت القلوب من الروع والكـرب إلى الحنـاجر،

شاخصة أبصارهم. ﴿كَٰظِمِينَ﴾ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا وكاظمين على ما في قلوهم من الروع الشديد والمزعجات الهائلة.

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: قريب ولا صاحب، ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ لأن الشفعاء لا يشفعون في الظالم نفسه بالشرك، ولو قدرت شفاعتهم، فالله تعالى لا يرضى شفاعتهم، فلا يقبلها.

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ وهو النظر الذي يخفيه العبد من جليسه ومقارنه، وهو نظر المسارقة، ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ مما لم يبينه العبد لغيره، فالله تعالى يعلم ذلك الخفي، فغيره من الأمور الظاهرة من باب أولى وأحرى.

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ لأن قوله حق، وحكمه الشرعي حق، وحكمه الجزائي حق وهو المحيط علمًا وكتابة وحفظا بجميع الأشياء، وهو المتره عن الظلم والنقص وسائر العيوب، وهو الذي يقضي قضاءه القدري، الذي إذا شاء شيئًا كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي يقضي بين عباده المؤمنين والكافرين في الدنيا، ويفصل بينهم بفتح ينصر به أولياءه وأحبابه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ لعجزهم وعدم إرادهم للخير واستطاعتهم لفعله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بما كان وما يكون، وما نبصر وما لا نبصر، وما يعلم العباد وما لا يعلمون.

قال في أول هاتين الآيتين ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾ ثم وصفها بهذه الأوصاف المقتضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم، لاشتمالها على الترغيب والترهيب. اهـ

من هداية الآيات :

١- عدم جدوى الاعتذار يوم القيامة هذا فيما لو أذن للعبد أن يعتذر فلا ينفعه اعتذار .

٢- تقرير التوحيد وإبطال الشرك والتنديد .

٣- بيان أفضال الله على العباد إذ يريهم آياته لهدايتهم ويرزقهم وهم يكفرون به .

٤- وجوب إخلاص الدعاء وسائر العبادات لله وحده ولو كره ذلك المشركون .

٥- تقرير النبوة ، وبيان الحكمة فيها وهي إنذار الناس من عذاب يوم القيامة حيث الناس بارزون لله لا يخفى على الله منهم شيء فيحاسبهم بعلمه وعدله فلا ينقضي نهار إلا وقـــد استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار اللهم أعذنا من نار جهنم . اهـــ[1]

قصة مؤمن آل فرعون ونجاته وعذاب أعداء الله [2]

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ
مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ
وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ
الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾
وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي
الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ
الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٣/ ١٦٧ لسورة غافر الآيات (١٠ -١٧) ط/ دار الحديث .

(٢) آثرت أن آتي بالآيات كاملة لارتباط القصة فيها بما آل إليه أهل الجنة وأهل النار ، ولما فيها من ذكر يوم التناد وأسباب دخول الجنة ودخول النار .

رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ
صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ
لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ
أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم
مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا
لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ
عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى
شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ كَذَٰلِكَ
يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْۖ
كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ
﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ
إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ
ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ
أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ
دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ
أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞
وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ
وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ
إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ

أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ
بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾
ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ
﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ
تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ
فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟
رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ
قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ
وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ
وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾

غريب المعاني :

﴿قُوَّةً﴾ بطشاً ، أو قدرة ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بخرابها وعمارتها . أو مشيتهم فيها بأرجلهم ، أو بعد الغاية في الطلب ، أو طول الأعمار ، أو آثارهم في المدائن والأبنية .

﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ أشيروا عليَّ بقتله لأنهم كانوا أشاروا أن لا يقتله ولو قتله لمنعوه ، أو ذروني أتولى قتله لأنهم قالوا هو ساحر إن قتلته هلكت لأنه لو أمر بقتله خالفوه ، أو كان في قومه مؤمنون يمنعونه من قتله فسألهم أن يمكنوه من قتله ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ وليسأله فإنه لا يجاب ، أو يستعينه فإنه لا يعان ﴿دِينَكُمْ﴾ « عبادتكم » ، أو أمركم الذي

أنتم عليه ﴿ٱلْفَسَادَ﴾ عنده هو الهدى ، أو العمل بطاعة الله ، أو محاربته لفرعون بمن آمن معه ، أو أن يقتلوا أبناءكم ويستحيون نساءكم إن ظهروا عليكم كما كنتم تفعلون بهم .

﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ابن عم فرعون ، أو من جنسه من القبط ولم يكن من أهله كان ملكاً على نصف الناس وكان له الملك بعد فرعون بمنزلة ولي العهد وهو الذي قال لموسى ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص : ٢٠] ولم يؤمن من آل فرعون غيره وغير امرأة فرعون وكان مؤمناً قبل مجيء موسى ، أو آمن بمجيء موسى وصدق به ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ رفقاً بقومه ثم أظهره بعد ذلك فقال في حال كتمانه ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ لأجل قوله ﴿رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الحلال والحرام ، أو العصا واليد . والطوفان والسنين ونقص من الثمرات وغيرها من الآيات ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾ قاله تلطفاً ولم يقله شكاً ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ لأنه وعدهم النجاة إن آمنوا والهلاك إن كفروا فإذا كفروا أصابهم أحد الأمرين وهو بعض الذي وعدهم ، أو وعدهم على الكفر هلاك الدنيا وعذاب الآخرة فهلاكهم في الدنيا بعض الذي وعدهم ، أو بعض الذي يعدهم هو أول العذاب لأنه يأتيهم حالاً فحالاً فحذرهم بأوله الذي شكوا فيه وما بعد الأول فهم على يقين منه ، أو البعض يستعمل في موضع الكل توسعاً . قال : قد يُدرِك المتأنّي بعضَ حاجتِه ...

﴿ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين في أرض مصر قاهرين لأهلها يذكرهم المؤمن بنعم الله عليهم ﴿بَأْسِ ٱللَّهِ﴾ عذابه قال ذلك تحذيراً منه وتخويفاً فعلم فرعون ظهور حجته فقال ﴿مَآ أُرِيكُمْ﴾ ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسي و ﴿سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ عنده التكذيب بموسى .

﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ يوم القيامة ينادي بعضهم بعضاً يا حسرتا ويا ويلتا ويا ثبوراه ، ...

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف] .

ويناديهم أصحاب النار ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف]

والتنادُّ بالتشديد الفرار ....

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ في انطلاقهم إلى النار ، أو في فرارهم منها حين يقذفوا فيها

﴿عَاصِمٍ﴾ نار ، أو مانع وأصل العصمة المنع . قاله موسى ، أو مؤمن آل فرعون .

﴿يُوسُفُ﴾ بن يعقوب أُرسل إلى القبط بعد موت الملك ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وهي الرؤيا ، أو بعث الله إليهم رسولاً من الجن يقال له يوسف .

﴿صَرْحًا﴾ مجلساً ، أو قصراً ، أو بناء بالآجر ، أو الآجر معناه أوقد لي على الطين حتى يصير آجراً .

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ طرقها ، أو أبوابها ، أو ما بينها ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ قال ذلك بغلبة الجهل والغباوة عليه ، أو تمويها على قومه مع علمه باستحالته ﴿فِى تَبَابٍ﴾ خسران أو ضلال في الآخرة لمصيره إلى النار أو في الدنيا لما أطلعه الله عليه من أهلاكه .

﴿لَا جَرَمَ﴾ لا بد ، أو لقد حق واستحق ، أو لا يكون إلا جواباً كقول القائل : فعلوا كذا فيقول المجيب لا جرم أنهم سيندمون ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ من عبادة غير الله ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ لا يستجيب لأحد في الدنيا ولا في الآخرة ، أو لا ينفع ولا يضر فيهما ، أو لا

وتبكيتا وتأنيبا وتقريعاً : ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ أي أين أوثانكم التي كنتم تعبدونها مع الله؟ فيقولون : ضلوا عنا أي غابوا فلم نرهم ، بل ما كنا ندعو من قبل شيئاً هذا إنكار منهم حملهم عليه الخوف أو هو بحسب الواقع أنهم ما كانوا يعبدون شيئاً إذ عبادة الأصنام ليست شيئاً لبطلانها .

وقوله ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي حل بكم هذا العذاب بسبب فرحكم بالباطل من شرك وتكذيب وفسق وفجور ، في الدنيا ، وبسبب مرحكم أيضا وهو اشد الفرح وأخيراً يقال لهم ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ باباً بعد باب وهي أبواب الدركات ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا تموتون ولا تخرجون ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي ساء وقبح مثواكم في جهنم من مثوى أي مأوى .

من هداية الآيات :

١- التعجيب من حال المكذبين بآيات الله المجادلين فيها كيف يصرفون عن الحق بعد وضوح أدلته وقوة براهينه .

٢- إبراز صورة واضحة للمكذبين بالآيات المجادلين لإبطال الحق وهم في جهنم يقاسون العذاب بعد أن وضعت الأغلال في أعناقهم والسلاسل في أرجلهم يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون .

٣- ذم الفرح بغير فضل الله ورحمته ، وذم المرح وهو أشد الفرح .

٤- ذم التكبر وسوء عاقبة المتكبرين الذين يمنعهم الكبر من الاعتراف بالحق اهـ

سُورَة فصلت

بين يدي السورة :

قضية العقيدة بحقائقها الأساسية هي التي تعالجها هذه السورة . . الألوهيــة الواحــدة . والحياة الآخرة . والوحي بالرسالة . يضاف إليها طريقة الدعوة إلى الله وخلق الداعية . وكل ما في السورة هو شرح لهذه الحقائق ، واستدلال عليها . وعــرض لآيــات الله في الأنفس والآفاق ، وتحذير من التكذيب بها ، وتذكير بمصارع المكذبين في الأجيال السابقة ، وعرض لمشاهد المكذبين يوم القيامة . وبيان أن المكذبين من الجن والإنس هم وحدهم الذين لا يسلمون بهذه الحقائق ولا يستسلمون لله وحده؛ بينما السماء والأرض والشمس والقمر والملائكة . . كلهم يسجدون لله ويخشعون ويسلمون ويستسلمون .

فعن حقيقة الألوهية الواحدة يرد في مطلع السورة : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ﴾ . . و : ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ ﴾ . . ويحكى عن عاد وثمود أن رسلهم قالت لهم هذه الحقيقة ذاتها : ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ . . وفي وســطها يــرد : ﴿وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ وفي نهايتها يرد عن الحقيقة ذاتهــا : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ وعن قضية الآخرة يرد تهديد للذين لا يؤمنون بالآخرة : ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ ﴾ . . وتختم بقولــه : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾ كما يرد ذكر هذه القضية في مشاهد القيامة وهي عرض لما يقــع

فيها يقوم على تأكيد وقوعها طبعاً . بل إن هذا الطريق أشد توكيداً لهذه القضية وتشخيصاً .

وعن قضية الوحي يرد كلام كثير يكاد يجعل هذا الموضوع هو موضوع السورة الرئيسي . فهي تفتتح به في تفصيل : ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ . . وفي وسطها يجيء عن استقبال المشركين لهذا القرآن : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾﴾

وأما عن طريقة الدعوة وخلق الداعية فيرد قوله : ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

هذه القضايا تعرض في حشد من المؤثرات الشعورية العميقة . تعرض في المجال الكوني الحافل بالآيات العظام . وتعرض في عالم النفس البشرية العجيبة التكوين . وتعرض في

مجال بشري من مصارع الغابرين . وأخيراً تعرض في جو من مشاهد القيامة وتأثيرها العميق؛ وبعض هذه المشاهد فريد في صوره ومواقفه يثير الدهش الشديد .

ومن بين المشاهد الكونية في هذه السورة مشهد الخلق الأول للأرض والسماء بكثير من التفصيل المثير : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ . . ومن بينها كذلك آيات الليل والنهار والشمس والقمر وعبادة الملائكة وخشوع الأرض بالعبادة ونبضها بالحياة : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ أما النفس البشرية فيكشف عن حقيقتها في هذه السورة ، وتعرض على أصحابها عارية من كل ستار : ﴿ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾ ومن مصارع الغابرين يصور مصرع عاد ومصرع ثمود :

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

ومن مشاهد القيامة المؤثرة في هـذه السـورة : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ . ومنها كذلك مشهد الحنق الواضح من المخـدوعين علـى الخـادعين : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

وهكذا تعرض حقائق العقيدة في السورة في هذا الحشد من المؤثرات العميقة . ولعل هذا الحشد المنوع من تلك المؤثرات يصف جو السورة ، ويصور طابعها ، ويرسم ظلالها . . والواقع أن القلب يجد أنه منذ مطلع السورة إلى ختامها أمام مؤثرات ... تجـول بـه في ملكوت السماوات والأرض ، وفي أغوار النفس ، وفي مصارع البشر ، وفي عالم القيامة ، ... ويجري سياق السورة بموضوعاتها ومؤثراتها في شوطين اثنين ، متماسكي الحلقات..

الشوط الأول يبدأ بالآيات التي تتحدث عن تتريل الكتاب وطبيعته وموقف المشركين منه . وتليها قصة خلق السماء والأرض . فقصة عاد وثمود . فمشهدهم في الآخـرة تشـهد عليهم الأسماع والأبصار والجلود . ومن هنا يرتد إلى الحديث عنهم في الدنيا وكيف ضلوا هذا الضلال ، فيذكر أن الله قيض لهم قرناء سوء من الجن والإنس . يزينون لهم ما بـين

أيديهم وما خلفهم . ومن آثار هذا قولهم : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون . ثم موقفهم يوم القيامة حانقين على هؤلاء الذين خدعوهم من قرناء الجن والإنس! وعلى الضفة الأخرى الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا . وهؤلاء تتنزل عليهم الملائكة لا قرناء السوء يطمئنونهم ويبشرونهم ويعلنون ولايتهم لهم في الدنيا والآخرة . ويلي هذا ما جاء عن الدعوة والداعية . . وبذلك ينتهي هذا الشوط .

ويليه الشوط الثاني يتحدث عن آيات الله من الليل والنهار والشمس والقمر والملائكة العابدة ، والأرض الخاشعة ، والحياة التي تهتز فيها وتربو بعد الموات . ويلي هذا الحديث عن الذين يلحدون في آيات الله وفي كتابه ، وهنا يجيء ذلك الحديث عن هذا الكتاب . ويشار إلى كتاب موسى واختلاف قومه فيه . ويوكل أمرهم إلى الله بعد الأجل المضروب . وهنا يرد حديث عن الساعة واختصاص علم الله بها . وعلمه بما تكنه الأكمام من ثمرات ، وما تكنه الأرحام من أنسال . ويعرض مشهد الكافرين وهم يسألون عن الشركاء . يلي هذا الحديث عن النفس البشرية عارية من أستارها . ومع حرص الإنسان على نفسه هكذا فإنه لا يحتاط لها فيكذب ويكفر ، غير محتاط لما يعقب التكذيب من دمار وعذاب .

وتختم السورة بوعد من الله أن يكشف للناس عن آياته في الأنفس والآفاق حتى يتبينوا ويثقوا : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾ ....اهـ[1]

---

(١) انظر الظلال : ٥/٣١٠٥، ٣١٠٧ في ظلال سورة فصلت .

﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا
لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ
وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ
أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا
هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ
عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا
شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ
جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَآ أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ
وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ
اسْتَقَٰمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنتُمْ
تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِى الْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ
أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن
دَعَآ إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ
ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا
الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ
بِاللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾

معاني الكلمات :

﴿يُوزَعُونَ﴾ يدفعون ، أو يساقون ، أو يمنعون من التفرق ، أو يحبس أولهم على آخـــرهم وزعته كففته .

﴿لِجُلُودِهِمْ﴾ حقيقة ، أو لفروجهم ، أو أيديهم وأرجلهم قيل : أول ما يتكلم الفخـــذ الأيسر والكف الأيمن .

﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ تتقون ، أو تظنون ، أو تستخفون منها . ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ﴾ نزلت في ثلاثة نفر تماروا فقالوا ترى الله يسمع سرنا .

﴿يَسْتَعْتِبُوا﴾ يطلبوا الرضا فما هم بمرضي عنهم والمعتب الذي قُبل إعتابه وأُجيـــب إلى سؤاله ، أو أن يستغيثوا فما هم من المغاثين . أو أن يستقيلوا ، أو أن يعتذروا فما هم من المعذورين ، أو أن يجزعوا فما هم من الآمنين قال ثعلب : يقال عتب إذا غضب وأعتـــب إذا رضي .

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ هيأنا لهم شياطين ، أو خلينا بينهم وبين الشياطين . أو أغرينـــا الشياطين هم ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا وما خلفهم من أمر الآخرة ، أو مـــا بـــين أيديهم من أمر الآخرة فقالوا لا حساب ولا نار ولا بعث وما خلفهم من أمر الدنيا فزينوا لهم اللذات ، أو ما بين أيديهم فعل الفساد في زمانهم وما خلفهم هو ما كان قبلـــهم ، أو بين أيديهم ما فعلوه وما خلفهم ما عزموا أن يفعلون .

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ لا تتعرضوا لسماعه ولا تقبلوه ولا تطيعوه من قولهم السـمع والطاعة ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ قعوا فيه وعيبوه أو جحدوه وأنكروه ، أو عادوه وعانـــدوه ، أو الغوا فيه بالمكاء والتصفير والتخليط في المنطق حتى يصير لغواً .

﴿أَرِنَا﴾ أعطنا ، أو أبصرنا ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ إبليس ﴿وَٱلْإِنسِ﴾ [(١)] قابيل ، أو دعاة الضلال من الجن الإنس ﴿مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ في النار قالوه حنقاً عليهما ، أو عداوة لهما .﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وَحَّدُوا ﴿ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ على التوحيد أو على لزوم الطاعة وأداء الفرائض ، أو على إخلاص الدين والعمل إلى الموت ، أو استقاموا في أفعالهم كما استقاموا في أقوالهم ، أو استقاموا سراً كما استقاموا جهراً ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عند الموت ، أو عند الخروج من قبورهم ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ أمامكم ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ على ما خلفكم ، أو لا تخافوا الموت ولا تحزنوا على أولادكم ﴿وَأَبْشِرُواْ﴾ يبشرون عند الموت ثم في القبر ثم في البعث .

﴿أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾ نحفظ أعمالكم في الدنيا ونتولاكم في الآخرة أو نحفظكم في الحياة ولا نفارقكم في الآخرة حتى تدخلوا الجنة ﴿مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ من النعم ، أو الخلود لأنهم كانوا يشتهون في الدنيا البقاء . ﴿تَدَّعُونَ﴾ تمنون أو ما تدعي أنه لك فهو لك بحكم بك . ﴿نُزُلًا﴾ ثواباً ، أو مناً ، أو منزلة ، أو عطاء مأخوذ من نُزُل الضيف ووظائف الجند .اهـ [(٢)]

المعنى العام :

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي نجى الله صالحًا عليه السلام ومن اتبعه من المؤمنين المتقين للشرك، والمعاصي.

---

(١) ترك اللفظ على عموم هو الأليق بالسياق والعبرة بالعموم .

(٢) انظر تفسير العز بن عبد السلام لتفسير سورة فصلت الآيات (١٨ — ٣٦) .

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن أعدائه، الذين بارزوه بالكفر به وبآياتـه، وتكـذيب رسـله ومعـاداهم ومحاربتهم، وحالهم الشنيعة حين يحشرون، أي: يجمعون. ﴿إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي: يرد أولهم على آخرهم، ويتبع آخرهم أولهم، ويساقون إليها سوقا عنيفًا، لا يستطيعون امتناعًا، ولا ينصرون أنفسهم، ولا هم ينصرون.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا ﴾ أي: حتى إذا وردوا على النار، وأرادوا الإنكار، أو أنكروا ما عملوه من المعاصي، ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم ﴾ عموم بعد خصـوص. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي: شهد عليهم كل عضو من أعضائهم، فكل عضو يقول: أنا فعلـت كذا وكذا، يوم كذا وكذا. وخص هذه الأعضاء الثلاثة، لأن أكثر الذنوب، إنما تقع بها، أو بسببها.

﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

فإذا شهدت عليهم عاتبوها، ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ ﴾ هذا دليل عل أن الشهادة تقع من كل عضـو كمـا ذكرنـا: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ ﴾ ونحـن نـدافع عـنكن؟

﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىۡءٍ﴾ فليس في إمكاننا، الامتناع عن الشهادة حين أنطقنا الذي لا يستعصي عن مشيئته أحد.

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فكما خلقكم بذواتكم، وأجسامكم، خلق أيضا صفاتكم، ومن ذلك، الإنطاق. ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ في الآخرة، فيجزيكم بما عملتم، ويحتمل أن المراد بذلك، الاستدلال على البعث بالخلق الأول، كما هو طريقة القرآن.

﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ﴾ أي: وما كنتم تختفون عن شهادة أعضائكم عليكم، ولا تحاذرون من ذلك. ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ﴾ بإقدامكم على المعاصي ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر، وهذا الظن، صار سبب هلاكهم وشقائهم ولهذا قال: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ﴾ الظن السيئ، حيث ظننتم به، ما لا يليق بجلاله. ﴿أَرۡدَىٰكُمۡ﴾ أي: أهلككم ﴿فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ لأنفسهم وأهليهم وأديانهم بسبب الأعمال التي أوجبها لكم ظنكم القبيح بربكم، فحقت عليكم كلمة العقاب والشقاء، ووجب عليكم الخلود الدائم، في العذاب، الذي لا يفتر عنهم ساعة: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾ فلا جَلَدَ عليها، ولا صبر، وكل حالة قُدِّر إمكان الصبر عليها، فالنار لا يمكن الصبر عليها، وكيف الصبر على نار، قد اشتد حرها، وزادت على نار الدنيا، بسبعين ضعفًا، وعظم غليان حميمها، وزاد نتن صديدها، وتضاعف برد زمهريرها وعظمت سلاسلها وأغلالها، وكبرت مقامعها، وغلظ خُزَّانُها، وزال ما في قلوبهم من رحمتهم، وختام ذلك سخط الجبار، وقوله لهم حين يدعونه ويستغيثون: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾

﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا﴾ أي: يطلبوا أن يزال عنهم العتب، ويرجعوا إلى الدنيا، ليستأنفوا العمل. ﴿فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ لأنه ذهب وقته، وعمروا، ما يعمر فيه من تذكر وجاءهم النذير وانقطعت حجتهم، مع أن استعتاهم، كذب منهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام]

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

أي: وقضينا لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق ﴿قُرَنَاءَ﴾ من الشياطين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم] أي تزعجهم إلى المعاصي وتحثهم عليها، بسبب ما زينوا ﴿لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فالدنيا زخرفوها بأعينهم، ودعوهم إلى لذاها وشهواها المحرمة حتى افتتنوا، فأقدموا على معاصي الله، وسلكوا ما شاءوا من محاربة الله ورسله والآخرة بَعّدُوها عليهم وأنسوهم ذكرها، وربما أوقعوا عليهم الشُّبه، بعدم وقوعها، فترحّل خوفها من قلوبهم، فقادوهم إلى الكفر، والبدع، والمعاصي.

وهذا التسليط والتقييض من الله للمكذبين الشياطين، بسبب إعراضهم عن ذكر الله وآياته، وجحودهم الحق كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف] ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليهم، ونزل القضاء والقدر بعذاهم ﴿فِي﴾ جملة ﴿أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ لأدياهم وآخرهم، ومن خسر، فلا بد أن يذل ويشقى ويعذب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يخبر تعالى عن إعراض الكفار عن القرآن، وتواصيهم بذلك، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: أعرضوا عنه بأسماعكم، وإياكم أن تلتفتوا، أو تصغوا إليه ولا إلى من جاء به، فإن اتفق أنكم سمعتموه، أو سمعتم الدعوة إلى أحكامه، ﴿وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ أي: تكلموا بالكلام الذي لا فائدة فيه، بل فيه المضرة، ولا تمكنوا -مع قدرتكم- أحدًا يملك عليكم الكلام به، وتلاوة ألفاظه ومعانيه، هذا لسان حالهم، ولسان مقالهم، في الإعراض عن هذا القرآن، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن فعلتم ذلك ﴿تَغْلِبُونَ﴾ وهذه شهادة من الأعداء، وأوضح الحق، ما شهدت به الأعداء، فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لمن جاء بالحق إلا في حال الإعراض عنه والتواصي بذلك، ومفهوم كلامهم، أنهم إن لم يلغوا فيه، بل استمعوا إليه، وألقوا أذهانهم، أنهم لا يغلبون، فإن الحق، غالب غير مغلوب، يعرف هذا، أصحاب الحق وأعداؤه ، ولما كان هذا ظلمًا منهم وعنادًا، لم يبق فيهم مطمع للهداية، فلم يبق إلا عذابهم ونكالهم، ولهذا قال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وهو الكفر والمعاصي، فإنها أسوأ ما كانوا يعملون، لكونهم يعملون المعاصي وغيرها، فالجزاء بالعقوبة، إنما هو على عمل الشرك ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ الذين حاربوه، وحاربوا أولياءه، بالكفر والتكذيب، والمجادلة والمجالدة. ﴿ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: الخلود الدائم، الذي لا يفتر عنهم العذاب

ساعة، ولا هم ينصرون، وذلك ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ فإنها آيــات واضــحة، وأدلة قاطعة مفيدة لليقين، فأعظم الظلم وأكبر العناد، جحدها، والكفر بها.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: الأتباع منهم، بدليل ما بعده، على وجه الحنق، على مــن أضلهم: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ أي: الصنفين اللــذين، قادانــا إلى الضلال والعذاب، من شياطين الجن، وشياطين الإنس، الدعاة إلى جهنم.

﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ أي: الأذلين المهانين كمــا أضــلونا، وفتنونا، وصاروا سببًا لنزولنا. ففي هذا، بيان حنق بعضهم على بعض، وتبرّي بعضهم من بعض. اهــ (١)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾

شرح الكلمات :

﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ : قالوا ذلك معلنين عن إيمانهم بأن الله هو ربهم الذي لا رب لهم غيره وإلههم الذي لا إله لهم سواه .

﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ : أي ثبتوا على ذلك فلم يبدلوا و لم يغيروا و لم يتركوا عبادة الله بفعل الأوامر وترك النواهي .

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ : أي عند الموت وعند الخروج من القبر بحيث تتلقاهم هناك

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٨٣٥ لسورة فصلت الآيات (٢٦ – ٢٩) .

﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ : أي بأن لا تخافوا مما أنتم مقبلون عليه فإنه رضوان الله ورحمته ولا تحزنوا عما خلفتم وأراءكم .

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ ﴾: أي فبحكم ولايتنا لكم في الدنيا والآخرة فلا تخافوا ولا تحزنوا .

﴿الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ : أي ويلكم فيها ما تطلبون من سائر المشتهيات لكم .

﴿ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ : أي رزقا مهيئاً لكم من فضل رب غفور رحيم .

معنى الآيات :

لما بين تعالى حال الكافرين في الدار الآخرة وهو أسوأ حال بين حال المؤمنين في الآخرة وهي أحسن حال وأطيب مآل فقد إن الذين قالوا ربنا الله أي لا ربَّ لنا غيره ولا إله لنا سواه ، ثم استقاموا فلم يشركوا به في عبادته أحداً فأدوا الفرائض واجتنبوا النواهي وماتوا على ذلك هؤلاء تتزل عليهم الملائكة أي تهبط عليهم وذلك عند الموت بأن تقول لهم لا تخافوا على ما أنتم مقدمون عليه من البرزخ والدار الآخرة ولا تحزنوا على ما خلفتم وراءكم وابشروا بالجنة دار السلام التي كنتم توعدونها في الكتاب وعلى لسان الرسول . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا إذا كنا نسددكم ونحفظكم من الوقوع في المعاصي ، وفي الآخرة نستقبلكم عند الخروج من قبوركم حتى تدخلوا جنة ربكم . ولكم فيها أي في الجنة ما تشتهي أنفسكم من الملاذ ولكم فيها ما تدعون أي تطلبون مما ترغبون فيه وتشتهون . نزلا أي قرىً وضيافة من لدن رب غفور لكم رحيم بكم لا إله إلا هو ولا رب سواه .

من هداية الآيات :

١- فضل الإيمان والاستقامة عليه بأداء الفرائض واجتناب النواهي .

٢- بشرى أهل الإيمان والاستقامة عند الموت بالجنة وهؤلاء هم أولياء الله المؤمنون المتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وهي هذه وفي الآخرة عند خروجهم من قبورهم .

٣- في الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذه الأعين ، ولأحدهم كل ما يطلبه ويدعيه وفوق ذلك النظر إلى وجه الله الكريم وتلقي التحية منه والتسليم .اهـ

سُورَةُ الشورى

بين يدي السورة :

هذه السورة تعالج قضية العقيدة كسائر السور المكية؛ ولكنها تركز بصفة خاصة على حقيقة الوحي والرسالة ، حتى ليصح أن يقال : إنها هي المحور الرئيسي الذي ترتبط به السورة كلها؛ وتأتي سائر الموضوعات فيها تبعاً لتلك الحقيقة الرئيسية فيها .

هذا مع أن السورة تتوسع في الحديث عن حقيقة الوحدانية ، وتعرضها من جوانب متعددة؛ كما أنها تتحدث عن حقيقة القيامة والإيمان بها؛ ويأتي ذكر الآخرة ومشاهدها في مواضع متعددة منها . وكذلك تتناول عرض صفات المؤمنين وأخلاقهم التي يمتازون بها . كما تلم بقضية الرزق : بسطه وقبضه؛ وصفة الإنسان في السراء والضراء .

ولكن حقيقة الوحي والرسالة ، وما يتصل بها ، تظل مع ذلك هي الحقيقة البارزة في محيط السورة ، والتي تطبعها وتظللها . وكأن سائر الموضوعات الأخرى مسوقة لتقوية تلك الحقيقة الأولى وتوكيدها .

ويسير سياق السورة في عرض تلك الحقيقة ، وما يصاحبها من موضوعات أخرى بطريقة تدعو إلى مزيد من التدبر والملاحظة . فهي تعرض من جوانب متعددة . يفترق بعضها عن بعض ببضع آيات تتحدث عن وحدانية الخالق . أو وحدانية الرازق . أو وحدانية المتصرف في القلوب . أو وحدانية المتصرف في المصير . . ذلك بينما يتجه الحديث عن حقيقة الوحي والرسالة إلى تقرير وحدانية الموحي سبحانه ووحدة الوحي . ووحدة العقيدة . ووحدة المنهج والطريق . وأخيراً وحدة القيادة البشرية في ظل العقيدة .

ومن ثم يرتسم في النفس خط الوحدانية بارزاً واضحاً ، بشتى معانيه وشتى ظلاله وشتى إيحاءاته ، من وراء موضوعات السورة جميعاً . . ونضرب بعض الأمثلة من السورة إجمالاً ، قبل أن نأخذ في التفصيل :

تبدأ بالأحرف المقطعة : ﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ ﴾ . . يليها : ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ ﴾ . . مقرراً وحدة مصدر الوحي في الأولين والآخرين : ﴿ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ﴾ . .

ثم يستطرد السياق في صفة الله العزيز الحكيم : ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ ﴾ . . مقرراً وحدانية المالك لما في السماوات والأرض واستعلاءه وعظمته على وجه الانفراد .

ثم يستطرد استطراداً آخر في وصف حال الكون تجاه قضية الإيمان بالمالك الواحد ، وتجاه الشرك الذي يشذ به بعض الناس : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ۝٦ ﴾ . .

فإذا الكون كله مشغول بقضية الإيمان والشرك حتى إن السماوات ليكدن يتفطرن من شذوذ بعض أهل الأرض ، بينما الملائكة يستغفرون لمن في الأرض جميعا من هذه الفعلة الشنعاء التي جاء بها بعض المنحرفين!

وبعد هذه الجولة يعود السياق إلى الحقيقة الأولى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧ ﴾ ثم يستطرد مع ﴿ فَرِيقٌ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾ . . فقوله ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة . ولكن مشيئته اقتضت بما له من علم وحكمة أن ﴿ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ ﴾ . . ويقرر أن الله وحده هو الولي ﴿ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ . .

ومن ثم يعود إلى الحقيقة الأولى ، حقيقة الوحي والرسالة ، فيقرر أن الحكم فيما يختلف فيه البشر من شيء هو الله الذي أنزل هذا القرآن ليرجع إليه الناس في كل اختلاف :

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾

ويستطرد مع الربوبية إلى وحدانية الخالق ، وتفرد ذاته . ووحدانية المتصرف في مقادير السماوات والأرض ، وفي بسط الرزق وقبضه . وفي علمه بكل شيء :

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

ثم يعود إلى الحقيقة الأولى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ﴾ . . الخ . .

وعلى مثل هذا النسق تمضي السورة في عرض هذه الحقيقة؛ محوطة بمثل هذا الجو ، وهذه الاستطرادات المتعلقة بقضايا العقيدة الأخرى ، المثبتة في الوقت ذاته للحقيقة الأولى التي تبدو كأنها موضوع السورة الرئيسي .

وهذا النسق واضح وضوحاً كاملاً في هذا الدرس الأول من السورة . فالقارئ يلتقي بعد كل بعض آيات بحقيقة الوحي والرسالة في جانب من جوانبها .

فأما الدرس الثاني ويؤلف بقية السورة ، فيبدأ باستعراض بعض آيات الله في بسط الرزق وقبضه؛ وفي تنزيل الغيث برحمته؛ وفي خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة؛ وفي الفلك الجواري في البحر كالأعلام . ويستطرد من هذه الآيات إلى صفة المؤمنين التي تفردهم وتميز جماعتهم . فإلى مشهد من مشاهد القيامة يعرض صورة الظالمين لما رأوا العذاب : ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ واستعلاء المؤمنين يومئذ ووقوفهم الموقف المقرر لحال الظالمين :

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾ وفي ظل هذا المشهد يدعو الناس إلى إنقاذ أنفسهم من مثل هذا الموقف قبل فوات الأوان : ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ ومن ثم يعود إلى الحقيقة الأولى في السورة . حقيقة الوحي والرسالة . في جانب من جوانبها : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ ويمضي سياق السورة حتى ختامها يدور حول هذا المحور مباشرة أو غير مباشرة ، مع طابع الاستطراد بين كل إشارة وإشارة إلى تلك الحقيقة ، حتى يكون ختام السورة هذا البيان في شأن الوحي والرسالة :

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ

﴿٥٣﴾ وبعد فمن وراء التركيز على حقيقة الوحي والرسالة في سياق السورة كله يبرز هدف خاص لعرضها على هذا النحو وفي هذا التتابع .

هذا الهدف هو تعيين القيادة الجديدة للمبشرين ممثلة في الرسالة الأخيرة ، ورسولها ، والأمة المسلمة التي تتبع نهجه الإلهي الثابت القويم .

وتبدأ أول إشارة مع مطلع السورة ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾ . لتقرر أن الله هو الموحي بجميع الرسالات لجميع الرسل ، وأن الرسالة الأخيرة هي امتداد لأمر مقرر مطرد من قديم .

وتأتي الإشارة الثانية بعد قليل : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ . لتقرر مركز القيادة الجديدة التي سترد الإشارة إليها فيما بعد .

وفي الإشارة الثالثة يقرر وحدة الرسالة بعد ما قرر في الإشارة الأولى وحدة المصدر : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ وتستطرد هذه الإشارة إلى تقرير أن التفرق قد وقع ، مخالفاً لهذه التوصية ، ولم يقع عن جهل من أتباع أولئك الرسل الكرام ولكن عن علم . وقع بغيا وظلما وحسدا : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ ثم تستطرد كذلك إلى بيان حال الذين جاءوا من بعد أولئك الذين اختلفوا : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾ . .

وعند هذا الحد يتبين أن البشرية قد آلت إلى فوضى وارتياب ، ولم تعد لها قيادة راشدة تقوم على نهج ثابت قويم . . فرسالة السماء التي تقود البشرية قد آلت إلى اختلاف بين أتباعها .اهـ (١)

---

(١) انظر الظلال : ٥/ ٣١٣٦ - ٣١٣٩ في ظلال سورة الشورى ط/ دار الشروق .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾

شرح الكلمات :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ : أي ومثل ذلك الإيحاء إليك وإلى من قبلك أوحينا إليك .

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ : أي بلسان عربي .

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ : أي علة الإيحاء هي إنذارك أهل أم القرى مكة ومن حولها من القرى أي تخوفهم عذاب الله إنْ بقوا على الشرك .

﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ : أي وتنذر الناس من يوم القيامة إذ هو يوم يجمع الله فيه الخلائق .

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ : أي لا شك في مجيئه وجمع الناس فيه .

﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ : أي المؤمنون المتقون .

﴿وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ : أي الكافرون .

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ : أي على دين الإسلام وبذلك يكون الجميع في الجنة .

﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ : أي في الإسلام أولا ثم في الجنة ثانياً .

﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ : أي المشركون ليس لهم من ولي يتولاهم ولا نصير ينصرهم فهم في النار .

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ : أي بل اتخذوا من دونه تعالى شركاء آلهوهم من دون الله

﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ : أي الولي الحق ومن عداه فلا تنفع ولايته ولا تضر .

معنى الآيات :

قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أي ومثل ذلك الإيحاء الذي أوحينا إليك وإلى الذين من قبلك أوحينا إليك قرآنا عربياً أي بلسان عربي يفهمه قومك لأنه بلسانهم لتنذر به أي تخوف أم القرى ومن حولها من الناس عاقبة الشرك والكفر والظلم والفساد وتنذر أيضا الناس يوم الجمع وهو يوم القيامة فإنه يوم هول عظيم وشر مستطير ليتوقوه بالإيمان والتقوى . إنه يوم يكون فيه الناس والجن فريقين لا ثالث لهما : فريق في الجنة بإيمانه وتقواه لله بفعل أوامره وترك نواهيه ، وفريق في السعير بشركه وكفره بالله وعدم تقواه فلا امتثل أمراً ولا اجتنب نهياً .

وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي في الدنيا على دين الإسلام الذي هو دين آدم فنوح فإبراهيم فسائر الأنبياء موسى وعيسى ومحمد ﷺ . إذ هو عبارة عن الإيمان بالله وبما أمر الله بالإيمان به ، والانقياد لله ظاهراً وباطنا بفعل محابه تعالى وترك مكارهه ولو كانوا في الدنيا على ملة الإسلام لكانوا في الآخرة فريقا واحداً وهو فريق الجنة ولكن لم يشأ ذلك لحكم عالية فهو تعالى يدخل من يشاء في رحمته في الدنيا وهي الإسلام وفي الآخرة هي الجنة ، والظالمون أي المشركون الذي رفضوا التوحيد والإسلام لله ما لهم من ولي ولا نصير فهم إذا في عذاب السعير . وقوله تعالى : ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟﴾ أي الظالمون من دون الله أولياء من دون الله ليشفعوا لهم جهلا منهم بأنه لا يشفع أحد إلا بإذن الله ورضاه فعلوا ذلك وما كان لهم ذلك لأن الولي الحق هو الله فلم لا يتخذونه وليا ، وهو الولي الحميد وهو يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير فمن أحق بأن يُتولىّ من يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير أم من لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، والجواب معلوم ، ولا يهلك على الله إلا هالك .

ولما كان التقدير : فالذين تولوه وماتوا في ولايته فهو يغفر ذنوبهم بمعنى أنه يزيلها عيناً وأثراً ، عطف عليه قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ﴾ أي عالجوا فطرهم الأولى وعقولهم حتى أخذوا ﴿مِن دُونِهِۦٓ ﴾ أي من أدنى رتبة من رتبته ﴿أَوۡلِيَآءَ ﴾ يعبدوهم كالأصنام وكل من اتبع هواه في شيء من الأشياء ، فقد اتخذ الشيطان الآمر له بذلك ولياً من دون الله بمخالفة أمره .

ولما كان ما فعلوه عظيم البشاعة ، اشتد التشوف إلى جزائهم عليه فأخبر عنه سبحانه بقوله معبراً بالاسم الأعظم إشارة إلى وضوح ضلالهم وعظم تهديدهم معرياً له عن الفاء لئلا يتوهم أن الحفظ مسبب عن الاتخاذ المذكور عادلاً إلى التعبير بالجلالة تعظيماً لما في الشرك من الظلم وتغليظاً لما يستحق فاعله من الزجر : ﴿ٱللَّهُ﴾ أي المحيط بصفات الكمال ﴿حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي رقيب وراع وشهيد على أعمالهم ، لا يغيب عنه شيء من أحوالهم ، فهو إن شاء أبقاهم على كفرهم وجازاهم عليه بما أعده للكافرين ، وإن شاء تاب عليهم ومحا ذلك عيناً وأثراً ، فلم يعاقبهم ولم يعاتبهم ، وإن شاء محاه عيناً وأبقى الأثر حتى يعاتبهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ أي حتى يلزمك أن تراعي جميع أحوالهم من أقوالهم وأفعالهم ، فتحفظها وتحسبهم على تركها ونحو ذلك مما يتولاه الوكيل مما يقوم فيه مقام الموكل سواء قالوا ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ أو قالوا ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ أو غير ذلك .

ولما كان الإيحاء السابق أول السورة للبشرى لأنها المقصود بالذات وكانت البشرى مقتضية تلويحاً ورمزاً بالأحرف المقطعة لاجتماع أهل الدين وغلبتهم على سائر الأديان وأن دينهم يعم سائر الأمم ويحيط بجميع الخلق ، ولا يريد أحد بأهله سوءاً إلا كان له فيه رفعة كما مضى بيانه ، وكانت رمزاً لأن المقام للإنذار بما تشهد به السورة الماضية ، وكان المراد بها التكرار حتى لا تزال لذاذتها في أذن المبشر وحلاوتها في قلبه ، ذكرها بلفظ

المضارع الدال على التجدد والتكرار والحدوث والاستمرار ، وكان المتعنت ربما حمله لـه على الوعد بالإيحاء في المستقبل ، وكان العاقل يكفيه في النذر مرة واحدة فقـال معـبراً بالماضي الدال على الإمضاء والقطع والقضاء الحتم في كل من الإيحاء وفائدته الـتي هـي الإنذار ، عاطفاً على ما يتصل بالآية السالفة المختومة بنفي الوكالة مما تقديره : إنما عليك البلاغ بالبشارة والنذارة ، وقد أوحينا إليك البشارة رمزاً ، كما جرت به عادة الأحباب في محاورات الخطاب ، ولفت القول إلى مظهـر العظمـة لأن الإنـذار مـن مجازه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي ومثل ذلك الإيحاء الذي قدمنا أنا حبوناك به من وحي الإشارة بالحروف المقطعة ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ بما لنا من العظمة مع الفرق بين كل ملبس ﴿إِلَيْكَ قُرْءَانًا﴾ جامعاً لكل حكمة ﴿عَرَبِيًّا﴾ فهو بين الخطاب واضح الصواب معجز الجناب ﴿لِّتُنذِرَ﴾ أي به ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ مكة التي هي أم الأرض وأصلها ، منها دحيت ولشرفها أوقع الفعل عليهـا ، عدا لها عداد العقلاء ، ثم بين أن المراد أهلها بقوله : ﴿وَمَنْ﴾ أي وتنذر مـن ﴿حَوْلَهَا﴾ وهم سكان جميع الأرض التي هي أمها ، وبذلك فسره البغوي فقال : قرى الأرض كلها ، وكذا القشيري وقال : العالم محدق بالكعبة ومكة لأنها سرة الأرض .

من هداية الآيات :

١- تقرير النبوة المحمدية بإثبات الوحي الإلهي .

٢- شرف مكة بتسميتها أم القرى أي أم المدن والحواضر .

٣- مشروعية التعليل للأفعال والأحكام .

٤- انقسام الناس يوم القيامة إلى سعيد وشقي لا غير .

٥- لم يشاء الله أن يجعل الناس أمة واحدة لحكم عالية علمها إليه ﷻ .

٦- من طلب ولاية غير الله هلك ؟ ومن والى الله دون من سواه كفاه الله ما أهمه في دنياه وأخراه .

قرب الساعة :-

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

شرح الكلمات :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ : أي أنزل القرآن متلبساً بالحق والصدق لا يفارقه أبداً .

﴿وَٱلْمِيزَانَ ﴾ : أي وأنزل الميزان وهو العدل ليحق الحق .

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ : أي أيُّ شيء يجعلك تدري قرب الساعة إلا أن يكون الوحي الإلهي .

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ : أي يطالب المكذبون ها لأنهم لا يخافون ما فيها لعدم إيمانهم به .

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ : أي خائفون وذلك لإيمانهم فهم لا يدرون ما يكون لهم فيها من سعادة أو شقاء ولذا هم مشفقون .

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ : أي أن الساعة حق واجبة الإتيان لا محالة .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ ﴾ : أي إن الذين يجادلون في الساعة شاكين في وقوعها

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ : أي برهم وفاجرهم بدليل أنهم يعصونه وهو يرزقهم ولا يعاقبهم .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ ﴾ : أي من كان يريد بعمله ثواب الآخرة .

﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ : أي نضاعف له ثوابه الحسنة بعشر أمثالها وأكثر .

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ : أي من كان يريد بعمله متاع الحياة الدنيا من طيباتها

﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن ﴾ : أي نعطه منها ما قدر له وليس له في الآخرة مــن حظ ولا نصيب . اهـ (١)

لما أنحى القول على الذين يحاجون في توحيد الله ويريدون إطفاء نوره ، صــدع في هــذه الآية بصفة من أنزل الكتاب الهادي للناس . و : ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ هنا اسم جنس يعم جميــع الكتب المنزلة .

وقوله : ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يحتمل أن يكون المعنى بأن كان ذلك حقاً واجباً للمصلحة والهــدى ، ويحتمل أن يكون المعنى مضمناً الحق ، أي بالحق في أحكامه وأوامــره . و ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ هنا العدل ، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والناس . وحكى الثعلبي عن مجاهد أنه قــال : هو هنا الميزان الذي بأيدي الناس .

قــال القاضي أبـو محمـد : ولا شك أنه داخل في العدل وجزء منه وكل شيء من الأمور ، فالعدل فيه إنما هو بوزن وتقدير مستقيم ، فيحتاج في الأجرام إلى آلة ، وهي العمــود والكفتان التي بأيدي البشر ، ويحتاج في المعاني إلى هيئات في النفوس وفهوم توازن بــين الأشياء .

وقوله : ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ وعيد للمشركين ، أي فانظر في أي غورهم وجاء لفظ : ﴿ قَرِيبٌ﴾ مذكراً من حيث تأنيث الساعة غير حقيقي ، وإذ هــي بمعــنى الوقت .

---

(١) انظر أيسر التفاسير للجزائري :٣/٢٢٥ ، ٢٢٦ تفسير سورة الشورى الآيات (١٧ — ٢٠) .

ثم وصف تعالى حال الجهلة الكاذبين بها ، فهم لذلك يستعجلون بها ، أي يطلبون تعجيلها ليبين العجز ممن يحققها ، فالمصدق بها مشفق خائف ، والمكذب مستعجل مقيم لحجته على تكذيبه بذلك المستعجل به . ثم استفتح الإخبار عن الممارين في الساعة بأنهم في ضلال قد بعد بهم ، فرجوعهم عنه صعب متعذر ، وفي هذا الاستفتاح مبالغة وتأكيد وتهيئة لنفس السامع ، ثم رجى تبارك وتعالى عباده بقوله : ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ ، و : ﴿لَطِيفُۢ﴾ هنا بمعنى : رفيق متحف ، والعباد هنا : المؤمنون ومن سبق له الخلود في الجنة ، وذلك أن الأعمال بخواتمها ، ولا لطف إلا ما آل إلى الرحمة ، وأما الإنعام على الكافرين في الدنيا فليس بلطف بهم ، بل هو إملاء واستدراج . وقال الجنيد : لطف بأوليائه حتى عرفوه ولو لطف بالكفار لما جحدوه ، وقيل :﴿لَطِيفُۢ﴾ معناه في أن نشر عنهم المناقب ، وستر عليهم المثالب . وقيل هو الذي لا يخاف إلا عدله ، ولا يرجى إلا فضله .

وقوله : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ معناه : إرادة مستعد عامل عارف ، لا إرادة متمن لم يدر نفسه . والحرث في هذه الآية : عبارة عن السعي والتكسب والإعداد .

ولما كان حرث الأرض أصلاً من أصول المكاسب استعير لكل متكسب ، ومنه قول ابن عمر : احرث لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً .

وقوله تعالى : ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ وعد متنجز .

وقوله في : ﴿حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ معناه : ما شئنا ولمن شئنا ، فرب ممتحن مضيق عليه حريص على حرث الدنيا مريد له لا يحس بغيره ، نعوذ بالله من ذلك ، وهذا الذي لا يعقل غير الدنيا هو الذي نفى أن يكون له نصيب في الآخرة . اهـ (١)

---

(١) انظر المحرر الوجيز في تفسير سورة الشورى الآيات (١٧ – ٢٠) .

من هداية الآيات :

١- بيان بعض الحكمة في إنزال الكتاب أي القرآن والميزان وهو أن يحكم الناس بالقسط

٢- بيان قرب الساعة وأن معرفة قربها كان بالوحي الإلهي مثل اقترب للناس حسابهم .

٣- المستعجلون بالساعة هم الكافرون الجاحدون لها .

٤- بيان لطف الله بعباده فله الحمد وله المنة والشكر .

٥- بيان وجوب إصلاح النيات فإن مدار العمل قبولاً ورفضا بحسبها .

٦- حظر التشريع بجميع أنواعه عن غير الله ورسوله .اهـ

دعوة لرؤية مشاهد القيامة :-

﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

بيان بعض الكلمات :

﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ المشركين يوم القيامة ﴿ مُشۡفِقِينَ ﴾ وجلين ﴿ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ ﴾ جزاء كسبهم واقع بهم ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي ﴾ ذكرت من نعيم الجنة ﴿ يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ ﴾ فإنهم أهله .

ثم قال تعالى : ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ أي في عرصات القيامة ﴿ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ ﴾ أي الذي يخافون منه واقع بهم لا محالة هذا حالهم يوم

معادهم وهم في هذا الخوف والوجل ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ﴾ فأين هذا من هذا ؟ أي أين من هو في العرصات في الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه ممن هو في روضات الجنات فيما يشاء من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ... ولهذا قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي الفوز العظيم والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنات لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ﴾ أي هذا حاصل لهم كائن لا محالة ببشارة الله تعالى لهم به وقوله ﷻ : ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما لا تعطونيه وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني وتذروني أبلغ رسالات ربي إن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة اهـ (١)

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾

---

(١) انظر تفسير ابن كثير : ٤/١١١ لسورة الشورى الآيات (٢٢ – ٢٣) ط/ دار مصر للطباعة .

شرح الكلمات :

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ ﴾: أي بالعقوبة والأذية .

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ : أي يعتدون عليهم في أعراضهم أو أبدانهم وأموالهم .

﴿وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ : أي ويطلبون في الأرض الفساد فيها بالشرك والظلم والإجرام .

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ : أي ولمن صبر فلم ينتصر لنفسه وغفر وتجاوز عمن أساء إليه .

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ : أي إن ذلك الصبر والتجاوز عن المسيء .

﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ : أي لمن معزومات الأمور المطلوبة شرعا .

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ : أي حسب سنته في الإضلال .

﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ : أي فليس له من أحد يتولى هدايته ويقدر عليها .

﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ : أي هل غلى مرد إلى الحياة الدنيا من سـبيل نسـلكها لنعود إلى الدنيا .

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ : أي على النار خاشعين خائفين متواضعين .

﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ : أي من عين ضعيفة النظر كما ينظر المقتول إلى السيف لا يملأ عينه منه

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ : أي لخلودهم في النار ، وعدم وصولهم إلى الحور العين في دار السلام .

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ : أي المشركين .

﴿فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ : أي دائم لا يخرجون منه وهو عذاب الجحيم .

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ : أي طريق إلى الهداية في الدنيا ، وإلى الجنة يوم القيامة .

معنى الآيات :

لقد تقدم قوله تعالى في الآية قبل هذه : ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾ فلما نفى عن المنتصرين السبيل إلى عقوبتهم اثبت هنا أن السبيل إلى العقوبة والمؤاخذة هو على الذين يظلمون الناس بالاعتداء عليهم في أبدانهم أو أعراضهم أو أموالهم ويبغون في الأرض بغير الحق أي ويطلبون الفساد فيها بالشرك والظلم والمعاصي ، وليس في الشرك والظلم والمعاصي من حق يبيحها ، وقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي للذين يبغون في الأرض بغير الحق لهم عذاب اليم أي موجع وهو عذاب الدنيا بعقوبتهم الصارمة ويوم القيامة إن لم يتوبوا من الظلم والفساد في الأرض .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ يخبر تعالى مؤكداً الخير بلام الابتداء أن من صبر فلم ينتصر لنفسه من أخيه المسلم وغفر لأخيه زلته فتجاوز له عنها فان ذلك المذكور من الصبر والتجاوز من معزومات الأمور المطلوبة شرعاً .

وقوله تعالى : ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أي ومن يضلله الله تعالى حسب سنته في الإضلال فليس له من أحد من بعد الله يهديه . وقوله تعالى : ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي المشركين لما رأوا العذاب أي عذاب النار يقولون : متمنيين الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا ويُوَحّدُوا حتى ينجوا من عذاب النار ويدخلوا الجنة مع الأبرار : هل إلى مرد من سبيل؟ أي هل غلى مرد غلى الدنيا من طريق؟ قال تعالى ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي على النار خاشعين خاضعين متواضعين من الذّل ينظرون من طرف خفي يسترقون النظر لا يملأون أعينهم من النظر إلى النار لشدة خوفهم منها .

وهنا يقول الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وإهليهم يوم القيامــة وذلــك لخلودهم في النار وحرمانهم من الوصول إلى الحور العين في الجنة دار الأبرار ، ويعلن معلن فيقول : ألا إن الظالمين لأنفسهم بالشرك والمعاصي في عذاب مقيم لا يــبرح ولا يــزول وقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ يخبر تعالى بأنه لم يكــن لأولئك الظالمين من أهل النار من أولياء من دون الله ينصرونهم بتخليصهم من العــذاب . وقوله ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴾ أي فما له طريق إلى هدايته في الدنيا وإلى الجنة يوم القيامة .

من هداية الآيات :

١- لا سبيل إلى معاقبة من انتصر لنفسه بعد ظلمه .

٢- وجوب معاقبة الظالم والضرب على يديه .

٣- فضيلة الصبر والتجاوز عن المسلم إذا أساء بقول أو عمل .

٤- لا أعظم خسراناً ممن يخلد في النار ويحرم الجنة وما فيها من نعيم مقيم .اهـ

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

شرح الكلمات :

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم ﴾ : أي أجيبوه لما دعاكم إليه من التوحيد والعبادة .

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ : أي يوم القيامة .

﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ : أي إذا أتى لا يرد بحال .

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ : أي تلجأون إليه وتتحصنون فيه .

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ : أي وليس لكم ما تنكرون به ذنوبكم لأنها في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ : أي لم يجيبوا ربهم لما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة .

﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ : وقد بلغت فلا مسئولية تخشاها بعد البلاغ .

﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ : أي نعمة كالغنى والصحة والعافية .

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ : أي بلاء كالمرض والفقر وغير ذلك .

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ : أي من الذنوب والخطايا .

﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ : أي للنعمة والنعم والإنسان هو غير المؤمن التقى .

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ : أي خلقا وملكاً وتصرفا .

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ : أي يرزق من يشاء من الناس بنات .

﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ : أي ويعطي من يشاء الأولاد الذكور .

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ : أي يجعلهم ذكوراً وإناثاً .

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ : أي لا يلد ولا يولد له .اهـ

المعنى العام :

يأمر تعالى عباده بالاستجابة له، بامتثال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، وبالمبادرة بذلك وعدم التسويف، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ القيامة الذي إذا جـاء لا يمكـن رده واسـتدراك الفائت، وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه، فيفوت ربه، ويهرب منه.

بل قد أحاطت الملائكة بالخليقة من خلفهم، ونودوا ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الرحمن]

وليس للعبد في ذلك اليوم نكير لما اقترفه وأجرمه، بل لو أنكر لشهدت عليه جوارحه.

وهذه الآية ونحوها، فيها ذم الأمل، والأمر بانتهاز الفرصة في كل عمل يعرض للعبد، فإن للتأخير آفات.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ ﴾ عما جئتهم به بعد البيان التام ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ تحفـظ أعمالهم وتسأل عنها، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ فإذا أديت ما عليك، فقد وجب أجـرك على الله، سواء استجابوا أم أعرضوا، وحسابهم على الله الذي يحفظ عليهم صغير أعمالهم وكبيرها، وظاهرها وباطنها.

ثم ذكر تعالى حالة الإنسان، وأنه إذا أذاقه الله رحمة، من صحة بدن، ورزق رغد، وجـاه ونحوه ﴿فَرِحَ بِهَا ﴾ أي: فرح فرحا مقصورا عليها، لا يتعداها، ويلزم من ذلك طمأنينته بها، وإعراضه عن المنعم ؛ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ ﴾ أي: مرض أو فقر، أو نحوهمـا ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ أي: طبيعته كفران النعمة السابقة، والتسخط لما أصابه من السيئة.اهـ

من هداية الآيات :

١- وجوب الاستجابة لله تعالى في كل ما دعا العبد إليه ، وذلك قبل أن يطلب الاستجابة ولا يمكن منها .

٢- على الدعاة إلى الله تعالى إبلاغ مطلوب الله تعالى من عباده ، ولا يضرهم بعد ذلك شيء .

٣- بيان طبع الإنسان وحاله قبل أن يهذب بالإيمان واليقين والطاعات .

٤- لله مطلق التصرف في الملكوت كله فلا يصح الاعتراض عليه في شيء فهو يهب ويمنع لحكم عالية لا تدركها عقول العباد .

٥- وجود عقم في الرجال وعقم في النساء ، ولا بأس بالعلاج الجائز المشروع عند الشعور بالعقم أو العقر . أما ما ظهر الآن من بنوك المني ، والإنجاب بطريق صبّ ماء فحل في فرج امرأة عاقر وما إلى ذلك فهذه من أعمال الملاحدة الذين لا يدينون لله بالطاعة له والتسليم لقضائه ، وإن صاموا وصلوا وادعوا أنهم مؤمنون إذ لا حياء لهم ولا إيمان لمن لا حياء له ، وحسبهم قبحا في سلوكهم هذا الكشف عن السوءات بدون إنقاذ حياة ولا طلب رضا الله رب الأرض والسماوات .

سُورَةُ الزخرف

محاور هذه السورة الكريمة :

تعرض هذه السورة جانباً مما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب وعقبات؛ ومن جدال واعتراضات . وتعرض معها كيف كان القرآن الكريم يعالجها في النفوس؛ وكيف يقرر في ثنايا علاجها حقائقه وقيمه في مكان الخرافات والوثنيات والقيم الجاهلية الزائفة ، التي كانت قائمة في النفوس إذ ذاك ، ولا يزال جانب منها قائماً في النفوس في كل زمان ومكان .

كانت الوثنية الجاهلية تقول : إن في هذه الأنعام التي سخرها الله للعباد ، نصيباً لله ، ونصيباً لآلهتهم المدعاة : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأنعام] وكانت لهم في الأنعام أساطير شتى وخرافات أخرى كلها ناشئ من انحرافات العقيدة . فكانت هناك أنواع من الأنعام محرمة ظهورها على الركوب وأنواع محرمة لحومها على الأكل : ﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام] وفي هذه السورة تصحيح لهذه الانحرافات الاعتقادية؛ ورد النفوس إلى الفطرة وإلى الحقائق الأولى . فالأنعام من خلق الله ، وهي طرف من آية الحياة ، مرتبط بخلق السماوات والأرض جميعاً . وقد خلقها الله وسخرها للبشر ليذكروا نعمة ربهم عليهم ويشكروها؛ لا ليجعلوا له شركاء ، ويشرعوا لأنفسهم في الأنعام ما لم يأمر به الله؛ بينما هم يعترفون بأن الله هو الخالق المبدع؛ ثم هم ينحرفون عن مقتضى هذه الحقيقة التي يقرون بها ، ويعزلونها عن

حياهم الواقعة ، ويتبعون خرافات وأساطير : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ
فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً
مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا
تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ
الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

وكانت الوثنية الجاهلية تقول : إن الملائكة بنات الله؛ ومع أنهم هم يكرهون مولد البنات لهم ، فإنهم كانوا يختارون لله البنات! ويعبدونهم من دونه ، ويقولون : إننا نعبدهم بمشيئة الله ولو شاء ما عبدناهم! وكانت مجرد أسطورة ناشئة من انحراف العقيدة .

وفي هذه السورة يواجههم بمنطقهم هم؛ ويحاجهم كذلك بمنطق الفطرة الواضح ، حول هذه الأسطورة التي لا تستند إلى شيء على الإطلاق : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ
الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾
وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾
أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ
عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ
الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا
مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ
آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ولما قيل لهم : إنكم تعبدون أصناماً وأشجاراً وإنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ، وقيل لهم : إن كل معبود من دون الله هو وعابده في النار

حرفوا الكلام الواضح البين ، واتخذوا منه مادة للجدل . وقالوا : فما بال عيسى وقد عبده قومه؟ أهو في النار؟! ثم قالوا : إن الأصنام تماثيل الملائكة والملائكة بنات الله . فنحن في عبادتنا لهم خير من عبادة النصارى لعيسى وهو بشر له طبيعة الناس!

وفي هذه السورة يكشف عن التوائهم في هذا الجدل؛ ويبرئ عيسى عليه السلام مما ارتكبه أتباعه من بعده وهو منه بريء : ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ وقد كانوا يزعمون أنهم على ملة أبيهم إبراهيم ، وأنهم بذلك أهدى من أهل الكتاب وأفضل عقيدة . وهم في هذه الجاهلية الوثنية يخبطون .

فبين لهم في هذه السورة حقيقة ملة إبراهيم ، وأنها ملة التوحيد الخالص ، وأن كلمة التوحيد باقية في عقبه ، وأن الرسول ﷺ قد جاءهم بها ، ولكنهم استقبلوها واستقبلوه بغير ما كان ينبغي من ذرية إبراهيم : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ . .

ولم يدركوا حكمة اختيار الله ﷻ لرسوله ﷺ ووقفت في وجوههم القيم الأرضية الزائفة الزهيدة التي اعتادوا أن يقيسوا بها الرجال .

وفي هذه السورة يحكي تصوراتهم وأقوالهم في هذا الصدد؛ ويرد عليها ببيان القيم الحقيقية ، وزهادة القيم التي يعتبرونها هم ويرفعونها : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ

﴿٣٣﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ
وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ
ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

ثم جاء بحلقة من قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، يبدو فيها اعتزاز فرعون بمثل تلك القيم الزائفة ، وهوانها على الله ، وهوان فرعون الذي اعتز بها ، ونهايته التي تنتظر المعتزين بمثل ما اعتز به :﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ
مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ
بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾
وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ
أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ
أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ
إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾
فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ حول تلك الأساطير الوثنية والانحرافات الاعتقادية ، وحول تلك القيم الصحيحة والزائفة ، تدور السورة ، وتعالجها على النحو الذي تقدم . في أشواط ثلاثة تقدم أولها قبل هذا وأشرنا إلى بعض مادة الأشواط الأخرى في بعض المقتطفات من آيات السورة . اهـ [1]

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ

(١) انظر الظلال : ٥/٣١٧٤ -٣١٧٦ في ظلال سورة الزخرف .

﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

[يقول تعالى: ما ينتظر المكذبون، وهل يتوقعـون ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: فإذا جاءت، فلا تسأل عن أحوال من كذب بها، واستهزأ بمن جاء بها. وإن الأخلاء يومئذ، أي: يوم القيامة، المتخالين على الكفر والتكـذيب ومعصـية اللّـه، ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لأن خلتهم ومحبتهم في الدنيا لغير اللّه، فانقلبت يـوم القيامـة عداوة. ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ للشرك والمعاصي، فإن محبتهم تدوم وتتصل، بدوام من كانت المحبة لأجله، ثم ذكر ثواب المتقين، وأن اللّه تعالى يناديهم يوم القيامة بما يسـر قلـوبهم، ويذهب عنهم كل آفة وشر، فيقول: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي: لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور، ولا حزن يصيبكم فيما مضى منـها، وإذا انتفى المكروه من كل وجه، ثبت المحبوب المطلوب.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: وصفهم الإيمان بآيات اللّه، وذلـك ليشمل التصديق بها، وما لا يـتم التصـديق إلا بـه، مـن العلـم بمعناهـا والعمـل بمقتضاها﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ للّه منقادين له في جميع أحوالهم، فجمعوا بين الاتصاف بعمل الظاهر والباطن.

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ التي هي دار القرار ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ أي: من كان على مثل عملكم، من كل مقارن لكم، من زوجة، وولد، وصاحب، وغيرهم. ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أي: تنعمـون

وتكرمون، ويأتيكم من فضل ربكم من الخيرات والسرور والأفراح واللذات، ما لا تعبر الألسن عن وصفه.

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أي: تدور عليهم خدامهم، من الولدان المخلدين بطعامهم، بأحسن الأواني وأفخرها، وهي صحاف الذهب وشرابهم، بألطف الأواني، وهي الأكواب التي لا عرى لها، وهي من أصفى الأواني، من فضة أعظم من صفاء القوارير.

﴿وَفِيهَا﴾ أي: الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ وهذا لفظ جامع، يأتي على كل نعيم وفرح، وقرة عين، وسرور قلب، فكل ما اشتهته النفوس، من مطاعم، ومشارب، وملابس، ومناكح، ولذته العيون، من مناظر حسنة، وأشجار محدقة، ونعم مونقة، ومبان مزخرفة، فإنه حاصل فيها، معد لأهلها، على أكمل الوجوه وأفضلها، كما قال تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يس] ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ وهذا هو تمام نعيم أهل الجنة، وهو الخلد الدائم فيها، الذي يتضمن دوام نعيمها وزيادته، وعدم انقطاعه.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ﴾ الموصوفة بأكمل الصفات، هي ﴿ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: أورثكم الله إياها بأعمالكم، وجعلها من فضله جزاء لها، وأودع فيها من رحمته ما أودع.

﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ﴾ كما في الآية الأخرى: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الرحمن] ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مما تتخيرون من تلك الفواكه الشهية، والثمار اللذيذة تأكلون ولما ذكر نعيم الجنة، عقبه بذكر عذاب جهنم، اهـ [1]

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٨٦٠ ، ٨٦١ تفسير سورة الزخرف الآيات (٦٦ – ٧٣) .

شرح الكلمات :

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ : أي الأحباء يوم إذ تأتيهم الساعة بغتة .

﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ : فإن محبتهم تدوم لهم لأنها كانت في الله وطاعته .

﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ : أي ينادون فيقال لهم لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون بل تحبرون أي تسرون وتكرمون .

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾ : أي يطوف عليهم الملائكة بقصاع من ذهب وفيها الطعام وأكواب من ذهب فيها الشراب اللذيذ .

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾: أي في الجنة ما تشتهيه الأنفس تلذذاً به وتلذه الأعين نظراً إليه .

﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ : أي يقال لهم وهذه هي الجنة التي أورثكموها الله بأعمالكم الصالحة التي هي ثمرة إيمانكم الصادق وإخلاصكم الكامل .اهـ

معنى الآيات :

ما زال السياق في ذكر أحداث الساعة قال تعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ أي إذا جاءت الساعة الأخلاء أي الأحباء في الدنيا يوم إذ تأتي الساعة بعضهم لبعض عدو فتنقطع تلك الخلة والمودة وتصبح عداء لأنها كانت على معصية الله تعالى وقوله إلا المتقين أي الله ﷻ بفعل أوامره وترك نواهيه فإن مودتهم وخلتهم لا تنقطع لأنها كانت محبة في الله وما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله انقطع وانفصل يناديهم ربهم بقوله يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، ويصفهم بقوله ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ أي القرآن وكانوا مسلمين أي منقادين لله ظاهراً وباطناً ، ويقول لهم ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ أي أنتم وزوجاتكم

المؤمنات تفرحون وتسرون وقوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم ﴾ بيان لنعيم الجنة الذي يتعمون به وهو أنه يطاف عليهم بصحاف من ذهب وهي قصاع ، فيها ألذ الطعام وأشهاه ، وأكواب من ذهب أيضاً فيها ألذ الشراب والأكواب جمع كوب وهو إناء لا عروة ولا خرطوم – حتى يمكن الشرب منه من أي جهة من جهاته وفيها أي في الجنة ما تشتهيه الأنفس من سائر المستلذات ، وتلذ الأعين من سائر المرئيات ويقال لهم لكم ما تشتهون وأنتم فيها خالدون لا تخرجون منها ولا تموتمون فيها .

وقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ﴾ أي وهذه هي الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعلمون من الصالحات والخيرات ، ووجه الوراثة أن الله تعالى خلق لكل إنسان مترلين أحدهما في الجنة والثاني في النار فكل من دخل الجنة ورث مترل أحد دخل النار فهذا أوجه التوارث والباء في بما كنتم تعملون سببه أي بسبب أعمالكم الصالحة التي زكت نفوسكم وطهرت أرواحكم فاستوجبتم دخول الجنة وأرث منازلها .

وقوله تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ أي يقال لهم هذا إكراماً لهم وإسعاداً .اهـ [(١)]

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ثم بشرهم فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ أي آمنت قلوهم وبواطنهم وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم قال المعتمر بن سليمان عن أبيه : إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع فينادي مناد ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ فيرجوها الناس كلهم قال : فيتبعها ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ قال : فييأس الناس منها غير المؤمنين ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ أي

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري : ٣/ ٢٦٣ ، ٢٦٤ تفسير سورة الزخرف الآيات (٦٧ ، ٧٣) .

يقال لهم ادخلوا الجنـة ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ أي نظـراؤكم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أي تتنعمـون وتسعدون وقد تقدم في سورة الروم ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي زبادي آنيـة الطعام ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ وهي آنية الشراب أي من ذهب لا خراطيم لها ولا عـرى ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ .... ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ أي طيب الطعام والريح وحسن المنظر قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر أخبرني إسماعيل بن أبي سعيد قال : إن عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما أخبره أن رسول الله ﷺ قال : ((إن أدنى أهل الجنة مترلـة وأسـفلهم درجة لرجل لا يدخل الجنة بعده أحد يفسح له في بصره مسيرة مائة عام في قصور مـن ذهب وخيام من لؤلؤ ليس فيها موضع شبر إلا معمور يغدى عليه ويراح بسبعين ألـف صحفة من ذهب ليس فيها صحفة إلا فيها لون ليس في الأخرى مثله شهوته في آخرهـا كشهوته في أولها ولو نزل به جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أعطي لا ينقص ذلك ممـا أوتي شيئا)) .

[٢٠٧] وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد حدثنا عمرو بـن سـواد السرحي حدثني عبد الله بن وهب عن ابن لهيعة (١) عن عقيل بن خالد عن الحسن عن أبي هريرة ﷺ أن أبا أمامة ﷺ حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم وذكـر الجنـة فقـال : ((**والذي نفس محمد بيده ليأخذن أحدكم اللقمة فيجعلها في فيه ثم يخطر على باله طعـام آخر فيتحول الطعام الذي في فيه على الذي اشتهى**)) ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾

[٢٠٨] وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن هو ابن موسى حدثنا سكين بن عبـد العزيـز حدثنا الأشعث الضرير عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ

---

(١) وابن لهيعة و إن كان ضعيفاً ، فإن رواية العبادلة الثلاثة عنه صحيحة ، كما نص على ذلك غير واحد من الأئمة ، و هذا مما رواه عنه عبد الله بن وهب وهذا الكلام قد ذكره الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في غير موضـع عند تحقيقه لأحاديث ابن لهيعة .

المعنى العام:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يخبر تعالى ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المكذبين يقولون مستبعدين للبعث والنشور: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: ما هي إلا الحياة الدنيا فلا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار. ثم قالوا -متجرئين على رهم معجزين له-: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ وهذا من اقتراح الجهلة المعاندين في مكان سحيق، فأي ملازمة بين صدق الرسول ﷺ وأنه متوقف على الإتيان بآبائهم؟ فإن الآيات قد قامت على صدق ما جاءهم به وتواترت تواترا عظيما من كل وجه.

قال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ أي: هؤلاء المخاطبون ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ فإنهم ليسوا خيراً منهم وقد اشتركوا في الإجرام فليتوقعوا من الهلاك ما أصاب إخوانهم المجرمين.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام حكمته وأنه ما خلق السماوات والأرض لعبا ولا لهوا أو سدى من غير فائدة وأنه ما خلقهما إلا بالحق أي: نفس خلقهما بالحق وخلقهما مشتمل على الحق، وأنه أوجدهما ليعبدوه وحده لا شريك له وليأمر العباد وينهاهم ويثيبهم ويعاقبهم. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك لم يتفكروا في خلق السماوات والأرض.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ وهو يوم القيامة الذي يفصل الله به بين الأولين والآخرين وبين كـــل مختلفين ﴿مِيقَـٰتُهُمْ﴾ أي: الخلائق ﴿أَجْمَعِينَ﴾

كلهم سيجمعهم الله فيه ويحضرهم ويحضر أعمالهم ويكون الجزاء عليها ولا ينفع مـــولى عن مولى شيئا لا قريب عن قريبه ولا صديق عن صـــديقه، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: يمنعون من عذاب الله ﷻ لأن أحداً من الخلق لا يملك من الأمر شيئا.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ فإنه هو الذي ينتفع ويرتفع برحمـــة الله تعالى التي تسبب إليها وسعى لها سعيها في الدنيا. ثم قال تعالى:أ هـــ السعدي

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

أي : في هذا اليوم ، وهو يوم الفصل ، لن يستطيع قريب أن ينفع قريبه ، أو صـــديق أن ينفع صديقه شيئا من النفع ، ولا هم ينصرون من عذاب الله ﷻ إذا ما أراد ﷻ إنـــزال عذابه بهم .

وقوله : ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ في محل رفع على أنه بدل من ضمير ﴿يُنصَرُونَ﴾ . أو في محل نصب على الاستثناء منه أي : لا يستطيع صديق أن يدفع العذاب عن صـــديقه ، ولا قريب أن ينفع قريبه أو ينصره ، إلا من رحمه الله - تعالى - ، وذلك بأن يعفو ﷻ عنه ، أو يقبل شفاعة غيره فيه .

﴿إِنَّهُۥ﴾ ﷻ هو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء .

﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾: أي علة بقائكم أنا جئناكم بالحق على لسان رسولنا والحق التوحيد وعبادة الله بما شرع فكره أكثركم الحق .

﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ : أي أحكموا في الكيد للنبي محمد ﷺ فإنا محكمون كيدنا في إهلاكهم .

﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ : أي وملائكتنا من الحفظة يكتبون ما يسرون وما يعلنون(١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : لما ذكر تعالى حال السعداء ثنى بذكر الأشقياء فقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ أي ساعة واحدة ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أي آيسون من كل خير ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ أي بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل إليهم فكذبوا وعصوا فجوزوا بذلك جزاء وفاقا وما ربك بظلام للعبيد ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ ﴾ وهو خازن النار قال البخاري : حدثنا حجاج بن منهال حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن عطاء عن صفوان بن يعلى عن أبيه ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ أي يقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه فإنهم كما قال ﷻ : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٣٦] وقال ﷻ : ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأعلى] فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ قال ابن عباس : مكث ألف سنة ثم قال : إنكم ماكثون رواه ابن أبي حاتم أي لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال : ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بيناه لكم ووضحناه وفسرناه

---

(١)أيسر التفاسير : ٣/ ٢٦٤ لسورة الزخرف الآيات (٧٤ – ٨٠) ط/ دار الحديث .

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ أي ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه وإنما تنقاد للباطل وتعظمه وتصد عن الحق وتأباه وتبغض أهله فعودوا على أنفسكم بالملامة واندموا حيث لا تنفعكم الندامة ثم قال تبارك وتعالى : ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ قال مجاهد : أرادوا كيد شر فكدناهم وهذا الذي قاله مجاهد كما قال تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل] وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه فكادهم الله تعالى ورد وبال ذلك عليهم ولهذا قال : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ أي سرهم وعلانيتهم ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أي نحن نعلم ما هم عليه والملائكة أيضا يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها اهـ

من هداية الآيات :

١- بيان عقوبة الإجرام على النفس بالشرك والمعاصي .

٢- عذاب الآخرة لا يطاق ولا يقادر قدرة يدل عليه طلبهم الموت ليستريحوا منه وماهم بميتين

٣- أكبر عامل من عوامل كراهية الحق حب الدنيا والشهوات البهيمية في الأكل والشرب والنكاح هذه التي تكره إلى صاحبها الدين وشرائعه التي قد تقيد من الإشراف في ذلك .اهـ [1]

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٣/ ٢٦٦ لسورة الزخرف الآيات (٧٤ – ٧٨)

سُورَةُ الدخان

بين يدي السورة الكريمة :

يكاد سياق السورة أن يكون كله وحدة متماسكة ، ذات محور واحد ، تشد إليه خيوطها جميعاً . سواء في ذلك القصة ، ومشهد القيامة ، ومصارع الغابرين ، والمشهد الكوني ، والحديث المباشر عن قضية التوحيد والبعث والرسالة . فكلها وسائل ومؤثرات لإيقاظ القلب البشري واستجاشته لاستقبال حقيقة الإيمان حية نابضة ، كما يبثها هذا القرآن في القلوب .

وتبدأ السورة بالحديث عن القرآن وتنزيله في ليلة مباركة فيها يفرق كل أمر حكيم ، رحمة من الله بالعباد وإنذاراً لهم وتحذيراً . ثم تعريف للناس بربهم : رب السماوات والأرض وما بينهما ، وإثبات لوحدانيته وهو المحيي المميت رب الأولين والآخرين .

ثم يضرب عن هذا الحديث ليتناول شأن القوم : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ ﴾ ! ويعاجلهم بالتهديد المرعب جزاء الشك واللعب : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ . . ودعاءهم بكشف العذاب عنهم وهو يوم يأتي لا يكشف . وتذكيرهم بأن هذا العذاب لم يأت بعد ، وهو الآن عنهم مكشوف ، فلينتهزوا الفرصة ، قبل أن يعودوا إلى ربهم ، فيكون ذلك العذاب المخوف : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ... ينتقل بهم إلى مصرع فرعون وملئه يوم جاءهم رسول كريم ، وناداهم : ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ . فأبوا أن يسمعوا .... ثم كان مصرعهم في هوان بعد الاستعلاء والاستكبار : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا

فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ . .

وفي غمرة هذا المشهد الموحي يعود إلى الحديث عن تكذيبهم بالآخرة ، وقولهم : ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ ليذكرهم بمصرع قوم تبع ، وما هم بخير منهم ليذهبوا ناجين من مثل مصيرهم الأليم .

ويربط بين البعث ، وحكمة الله في خلق السماوات والأرض ، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ . . ثم يحدثهم عن يوم الفصل : ﴿مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ . وهنا يعرض مشهداً عنيفاً للعذاب بشجرة الزقوم ، وعتل الأثيم ، وأخذه إلى سواء الجحيم ، يصب من فوق رأسه الحميم . مع التبكيت والترذيل : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ . .

وإلى جواره مشهد النعيم عميقاً في المتعة عمق مشهد العذاب في الشدة . تمشياً مع ظلال السورة العميقة وإيقاعها الشديد . .

وتختم السورة بالإشارة إلى القرآن كما بدأت : ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ وبالتهديد الملفوف العنيف : ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ .

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾

تبدأ السورة بالحرفين حا . ميم . على سبيل القسم بهما وبالكتاب المبين المؤلف من جنسهما ....؛ فأما عن القسم بهذه الأحرف كالقسم بالكتاب ، فإن كل حرف معجزة حقيقية أو آية من آيات الله في تركيب الإنسان ، وإقداره على النطق ، وترتيب مخارج حروفه ، والرمز بين اسم الحرف وصوته ، ومقدرة الإنسان على تحصيل المعرفة من ورائه . . وكلها حقائق عظيمة تكبر في القلب كلما تدبرها مجرداً من وقع الألفة والعادة الذي يذهب بكل جديد! فأما المقسم عليه فهو تنزيل هذا الكتاب في ليلة مباركة :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ والليلة المباركة التي أنزل فيها القرآن هي والله أعلم الليلة التي بدأ فيها نزوله؛ وهي إحدى ليالي رمضان ، الذي قيل فيه : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة: ١٨٥] والقرآن لم ينزل كله في تلك الليلة [1] ؛ كما أنه لم يترل كله في رمضان؛ ولكنه بدأ يتصل بهذه الأرض؛ وكانت هذه الليلة موعد هذا الاتصال المبارك . وهذا يكفي في تفسير إنزاله في الليلة المباركة .

وإنها لمباركة حقاً تلك الليلة التي يفتح فيها ذلك الفتح على البشرية ، والتي يبدأ فيها استقرار هذا المنهج الإلهي في حياة البشر؛ والتي يتصل فيها الناس بالنواميس الكونية الكبرى مترجمة في هذا القرآن ترجمة يسيرة ، تستجيب لها الفطرة وتلبيها في هوادة؛ وتقيم على أساسها عالماً إنسانياً مستقراً على قواعد الفطرة واستجاباتها ، متناسقاً مع الكون الذي يعيش فيه ، طاهراً نظيفاً كريماً بلا تعمل ولا تكلف؛ يعيش فيه الإنسان على الأرض موصولاً بالسماء في كل حين ؛ ولقد عاش الذين أنزل القرآن لهم أول مرة فترة عجيبة في كنف السماء ، موصولين مباشرة بالله؛ يطلعهم أولاً بأول على ما في نفوسهم؛

---

(١) يرى كثير من أهل العلم أن القرآن نزل في تلك الليلة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا ثم نزل بعد ذلك مفرقاً عبر الأحداث في ثلاث وعشرين عاماً .

ويشعرهم أولاً بأول بأن عينه عليهم ، ويحسبون هم حساب هذه الرقابة ، وحساب هذه الرعاية ، في كل حركة وكل هاجسة تخطر في ضمائرهم؛ ويلجأون إليه أول ما يلجأون ، واثقين أنه قريب مجيب .اهـــ[1]

تفسير الغريب :

﴿إِنَّ هَٰؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾

إن هؤلاء المشركين مِن قومك -أيها الرسول- ليقولون: ما هي إلا موتتنا الـــتي نموتهـــا، وهي الموتة الأولى والأخيرة، وما نحن بعد مماتنا بمبعوثين للحساب والثواب والعقاب.

﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

ويقولون أيضًا: فَأْتِ- يا محمد أنت ومَن معك- بآبائنا الذين قد ماتوا، إن كنتم صادقين في أن الله يبعث مَن في القبور أحياء.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

أهؤلاء المشركون خير أم قوم تُبَّع الحِمْيَري والذين مِن قبلهم من الأمم الكـــافرة بربهـــا؟ أهلكناهم لإجرامهم وكفرهم، ليس هؤلاء المشركون بخير مِن أولئكم فنصفح عنهم، ولا نهلكهم، وهم بالله كافرون.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ وما خلقنا السماوات والأرض وبينهما لعبًا، ما خلقناهما إلا بالحق الذي هو سنة الله في خَلْقِه وتدبيرِه، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون ذلـــك، فلهذا لم يتفكروا فيهما; لأنهم لا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ إن يوم القضاء بين الخلق بما قدَّموا في دنياهم من خير أو شر هو ميقاتهم أجمعين.

---

(١) في ظلال القرآن : ٥/ ٣٢٠٦ – ٣٢٠٨ في ظلال سورة الدخان بتصرف .

﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ يوم لا يدفع صاحب عن صاحبه شيئًا، ولا ينصر بعضهم بعضًا، إلا مَن رحم الله من المؤمنين، فإنه قد يشفع له عند ربه بعد إذن الله له. إن الله هو العزيز في انتقامه مِن أعدائه، الرحيم بأوليائه وأهل طاعته.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ إن شجرة الزقوم التي تخرج في أصل الجحيم، ثمرها طعام صاحب الآثام الكثيرة، وأكبر الآثام الشرك بالله.

﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾

ثمر شجرة الزقوم كالمَعْدِن المذاب يغلي في بطون المشركين، كغلي الماء الذي بلغ الغاية في الحرارة.

﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾

خذوا هذا الأثيم الفاجر فادفعوه، وسوقوه بعنف إلى وسط الجحيم يوم القيامة.

﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾

ثم صبُّوا فوق رأس هذا الأثيم الماء الذي تناهت شدة حرارته، فلا يفارقه العذاب.

﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾

يقال لهذا الأثيم الشقيِّ: ذق هذا العذاب الذي تعذَّب به اليوم، إنك أنت العزيز في قومك، الكريم عليهم. وفي هذا تهكم به وتوبيخ له.

﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

إن هذا العذاب الذي تعذَّبون به اليوم هو العذاب الذي كنتم تشكُّون فيه في الدنيا، ولا توقنون به.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴿٥١﴾﴾ إن الذين اتقوا الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه في الدنيا في موضع إقامة آمنين من الآفات والأحزان وغير ذلك.

﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٢﴾ في جنات وعيون جارية.

﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٥٣﴾ يَلْبسون ما رَقَّ من الديباج وما غَلُظَ منه، يقابل بعضهم بعضًا بالوجوه، ولا ينظر بعضهم في قفا بعض، يدور بهم مجلسهم حيث داروا.

﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٥٤﴾ كما أعطينا هؤلاء المتقين في الآخرة من الكرامة بإدخالهم الجنات وإلباسهم فيها السندس والإستبرق، كذلك أكرمناهم بأن زوَّجناهم بالحسان من النساء واسعات الأعين جميلاتها.

﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ٥٥﴾ يطلب هؤلاء المتقون في الجنة كل نوع من فواكه الجنة اشتهوه، آمنين من انقطاع ذلك عنهم وفنائه.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٥٦ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٥٧ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٥٨﴾
لا يذوق هؤلاء المتقون في الجنة الموت بعد الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا، ووقى الله هؤلاء التقين عذاب الجحيم؛ تفضلا وإحسانًا منه سبحانه وتعالى، هذا الذي أعطيناه المتقين في الآخرة من الكرامات هو الفوز العظيم الذي لا فوز بعده. فإنما سهَّلنا لفظ القرآن ومعناه بلغتك أيها الرسول; لعلهم يتعظون وينزجرون.

﴿فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ٥٩﴾ فانتظر -أيها الرسول- ما وعدتك من النصر على هؤلاء المشركين بالله، وما يحلُّ بهم من العقاب، إنهم منتظرون موتك وقهرك، سيعلمون لمن تكون النصرة والظَّفَر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة، إنها لك -أيها الرسول- ولمن اتبعك من المؤمنين.

: ((إن أدنى أهل الجنة منزلة من له لسبع درجات وهو على السادسة وفوقه السابعة وإن له ثلثمائة خادم ويغدى عليه ويراح كل يوم بثلثمائة صحفة ـ ولا أعلمه إلا قال من ذهب في كل صحفة لون ليس في الأخرى وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره ومن الأشربة ثلثمائة إناء في كل إناء لون ليس في الآخر وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره وإنه ليقول يا رب لو أذنت لي لأطعمت أهل الجنة وسقيتهم لم ينقص مما عندي شيء وإن له من الحور العين لاثنين وسبعين زوجة سوى أزواجه من الدنيا وإن الواحدة منهن لتأخذ مقعدها قدر ميل من الأرض)) وقوله تعالى : ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿خَـٰلِدُونَ﴾ أي لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولا ؛ ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إياكم فإنه لا يدخل أحداً عمله الجنة ولكن برحمة الله وفضله وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات .

[٢٠٩] قال ابن أبي حاتم : حدثنا الفضل بن شاذان المقري حدثنا يوسف بن يعقوب يعني الصفار حدثنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((كل أهل النار يرى منزله من الجنة فيكون له حسرة فيقول ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الزمر] وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] فيكون له شكراً))

[٢١٠] قال : وقال رسول الله ﷺ : ((ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار فالكافر يرث المؤمن منزله من النار والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة وذلك قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ وقوله تعالى : ﴿لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ أي من جميع الأنواع ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي مهما اخترتم وأردتم ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة والله تعالى أعلم اهـ

من هداية الآيات :

١- كل خلة يوم القيامة تنقطع إلا خلة كانت في الله ولله سبحانه وتعالى ، ولذا ينبغي أن يكون المودة في الدنيا لله لا لغيره تعالى .

٢- بيان فضل التقوى وشرف المتقين الذين يتقون الشرك والمعاصي .

٣- بيان أن الرجل يجمع الله بينه وبين زوجته المسلمة في الجنة .

٤- بيان نعيم أهل الجنة من طعام وشراب وسائر المستلذات .

٥- الإيمان والعمل الصالح سبب في دخول الجنة كما أن الشـرك والمعاصـي سـبب في دخول النار .[1]

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾

شرح الكلمات :

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾ : أي أن الذين أجرموا على أنفسهم بالشـرك والمعاصي في جهنم خالدون لا يخرجون ولا يموتون .

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ : أي لا يخفف عنهم العذاب وهو فيـه سـاكتون سكوت يأس .

﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ﴾ : أي ونادوا مالكاً خازن النار له ليمتنا ربك .

﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ : أي أجاهم بعد ألف سنة مضت على دعـوهم بقولـه إنكـم ماكثون أي مقيمون في عذاب جهنم دائماً .

(١) انظر تفسير الجزائري : ٣/ ٢٦٤ لسورة الزخرف الآيات (٦٦ – ٧٣) ط/ دار الحديث .

ثم بين ﷻ طعام أهل النار وحالهم يوم القيامة فقال : ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾

والمراد بشجرة الزقوم : الشجرة التي خلقها الله ﷻ في جهنم ، وسماها الشجرة الملعونة ، ليكون طعام أهل النار منها .

ولفظ ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾ : اسم لتلك الشجرة ، أو من الزقم بمعنى الالتقام والابتلاع للشيء .

﴿ٱلْأَثِيمِ﴾ : الكثير الآثام والسيئات . والمراد به الكافر لدلالة ما قبله عليه .

﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ : هو النحاس المذاب ، أو رديء الزيت الحار .

أي : إن الشجرة الملعونة التي هي شجرة الزقوم ، خلقها الله – تعالى – لتكون طعاما للإنسان الكافر ، الكثير الآثام والجرائم . . فتنزل في بطنه كما ينزل النحاس الحار المذاب ، فيغلى فيها كغلي الماء البالغ نهاية الحرارة . فقوله : ﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ نعت لمصدر محذوف . أي : غليا كغلي الحميم .

وقوله ﷻ ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ مقول لقول محذوف ، هذا القول موجه من الله ﷻ لملائكة العذاب .

وقوله ﷻ : ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ من العتل وهو الأخذ بمجامع الشيء ، وجره بغلظة وقهر . يقال : عتل فلان فلاناً يعتله عتلاً ، إذا جذبه جذبا شديداً ، وسار به إلى ما يركه السير إليه .

أي : يقول الله ﷻ لملائكة العذاب في هذا اليوم العسير : خذوا هذا الكافر الأثيم ، فجروه بغلظة ، وسوقوه بشدة ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي : إلى وسطها .

﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ﴾ على سبيل التنكيل به ﴿مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ صبا يذله ويوجعه ويجعل رأسه تغلي من شدة حرارة هذا الماء .

ثم قولوا له بعد ذلك على سبيل التهكم به ، والتقريع له : ﴿ ذُقۡ ﴾ أي : تذوق شدة هذا العذاب فالأمر للإهانة .

﴿إِنَّكَ﴾ كنت تزعم في الدنيا ، بأنك ﴿أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ .

ثم ختم ﷻ هذه الآيات بقولـــه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ أي : إن هـــذا العذاب الذي نزل بكم أيها الكافرون ، هم ما كنتم بشأنه تجالون وتخاصمون في الدنيا ، فمنكم من كان ينكره ، ومنكم من كان يشكك في صحته . فها هو ذا قد أصبح حقيقة واقعة فوق رءوسكم .

وهكذا نجد الآيات الكريمة ، قد وضحت أن يوم القيامة حق لا ريب فيه ، وأن الكافرين به سيصيبهم عذاب شديد يذلهم يخزيهم .

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٥٤﴾ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أي : إن الذين اتقوا الله ﷻ وصانوا أنفسهم عن كل ما لا يرضيه سيكونون يوم القيامـــة ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٖ﴾ أي : في مكان يأمن معه صاحبه من كل خوف .

فالمراد بالمقام – بالفتح – موضع القيام ، أي : الثبات والملازمة . وقرأ ابن عامر ونـــافع ، ﴿مُقَامٍ﴾ – بضم الميم – أي : موضع الإقامة . والمراد أنهم في مكان أو مجلس لا خوف فيه ولا مكروه .

وقوله : ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾﴾ بدل من ﴿مَقَامٍ أَمِينٖ﴾ بإعادة حرف الجـــر أي : هم في مكان آمن ، تتوسطه وتحيط به البساتين الناضرة ، وعيون الماء المتفجرة .

﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ ﴾ والسندس هو أجود أنواع الحرير وأرقه ، واحدة سندسة .

﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو ما كان سميكا من الديباج والحرير .

﴿مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ أي : يجلسون في مجالس متقابلة ، بحيث ينظر بعضهم إلى بعض .

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي : الأمر كذلك . من أن المتقين لهم كل هذا النعيم .

﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أي : وزوجناهم بنساء يحار الطرف فيهم لجمالهن وحسنهن ، والحور : جمع حوراء . . وهى التي يحار الطرف فيها لفرط جمالها . والعين : جمع عيناء . وهى التي اتسعت عينها في حسن وجمال .

﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ أي : في الجنات ﴿بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ أي : يطلبون ويأمرون غيرهم بأن يحضر لهم كل ما يشتهونه من فاكهة أو غيرها ، فيلبى طلبهم وهم آمنون في أماكنهم من كل خوف أو ضرر .

ثم بين ﷻ أن بقاءهم في تلك الجنات بقاء دائم فقال : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ ﴾ أي : هم باقون بقاء دائما في تلك الجنات ، بحيث لا يموتون فيها أبدا ، إلا الموتة الأولى التي ذاقوها عند نهاية آجالهم في الدنيا ، ووقاهم ﷻ بعدها عذاب الجحيم ، الذي حل بالكافرين .

قال الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : وقوله : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ جملة مستأنفة أو حالية ، وكأنه أريد أن يقال : لا يذوقون فيها الموت البتة ، فوضع الموتة الأولى موضع ذلك ، لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها . ونظيره قول القائل لمن يستسقيه : لا أسقيك إلا الجمر ، وقد علم أن الجمر لا يسقى .

وقوله ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ﴾ أي : أعطوا كل ذلك فضلا من ربك ، فقوله ﴿فَضْلًا﴾ منصوب على المصدرية بفعل محذوف . أو على أنه مفعول لأجله . أي : لأجل الفضل منه ﷻ .

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أعطيناهم إياه ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا يدانيه ولا يساميه فضل .

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي : فإنما أنزلناه عليك - يا محمد - هذا القرآن وجعلناه بلغتـــك ولغة قومك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ما فيه من هدايات ويعتبرون بما اشتمل عليه من عبر وعظات .

ثم ختم ﷻ السورة الكريمة بقوله : ﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

أي : فعلنا ذلك لعلهم يتذكرون ، فإن لم يتذكروا ويتعظوا ويؤمنوا بمـــا جئتـــهم بـــه . فارتقب وانتظر ما يحل بهم من عذاب ، وما وعدناك به من النصر عليهم ، إنهم - أيضا - منتظرون ومرتقبون ما يحل بك من موت أو غيره .

ونحن بفضلنا ورحمتنا سنتحقق لك ما وعدناك به ، وسنهيب ظنونهم وآمالهم .اهـــ [1]

---

(١) انظر التفسير الوسيط ، تفسير سورة الدخان الآيات (٥١ — ٥٩) .

سُورَةُ الجاثية

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ
﴿٣﴾ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ
ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٧﴾ يَسۡمَعُ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ
ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا
كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

معاني الكلمات :

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أضافه إليه تعظيماً لشأنه ، أو افتتح بأنه كتاب منه كما يفتتح الكاتب كتابه بذكر اسمه والوجهان يجريان في أمثال هذه .

﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ بنقل الشمال جنوباً والجنوب شمالاً ، أو إرسالها حيث شاء ، أو تارة رحمة وتارة نقمة .

﴿أَفَّاكٍ﴾ كذاب ، أو مكذب بربه ، أو كاهن .

﴿يُصِرُّ﴾ يقيم على الشرك مستكبراً عن الطاعة ، أو الإصرار عقد العزم على الشيء مـن عقد الصرة إذا شدها ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ في عدم الاتعاظ بها والقبول لها ، نزلت في النظـر بن الحارث اهـ[١]

بين يدي السورة :

هذه السورة المكية تصور جانباً من استقبال المشركين للدعوة الإسلامية ، وطريقتـهم في مواجهة حججها وآياتها ، وتعنتهم في مواجهة حقائقها وقضاياها ، واتبـاعهم للـهوى اتباعاً كاملاً في غير ما تحرج من حق واضح أو برهان ذي سلطان . كذلك تصور كيف كان القرآن يعالج قلوبهم الجامحة الشاردة مع الهوى ، المغلقة دون الهدى؛ وهو يواجههـا بآيات الله القاطعة العميقة التأثير والدلالة ، ويذكرهم عذابه ، ويصور لهم ثوابه ، ويقـرر لهم سننه ، ويعرفهم بنواميسه الماضية في هذا الوجود .

ومن خلال آيات السورة وتصويرها للقوم الذين واجهوا الدعوة في مكة ، نرى فريقاً من الناس مصرا على الضلالة ، مكابراً في الحق ، شديد العناد ، سيئ الأدب في حق الله وحق كلامه ، ترسمه هذه الآيات ، وتواجهه بما يستحقه من الترذيل والتحذير والتهديد بعذاب الله المهين الأليم العظيم :

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

ونرى جماعة من الناس ، ربما كانوا من أهل الكتاب سيئي التصور والتقدير؛ لا يقيمـون وزناً لحقيقة الإيمان الخالصة ، لا يحسون بالفارق الأصيل بينهم وهم يعملـون السـيئات وبين المؤمنين الذي يعملون الصالحات . والقرآن يشعرهم بأن هناك فارقاً أصيلاً في ميزان

---

(١) انظر تفسير ابن عبد السلام لسورة الجاثية الآيات (١ — ٨) .

الله بين الفريقين ، ويقرر سوء حكمهم وسوء تصورهم للأمور؛ وقيام الأمر في ميزان الله على العدل الأصيل في صلب الوجود كله منذ بدء الخلق والتكوين :

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

ونرى فريقاً من الناس لا يعرف حكماً يرجع إليه إلا هواه ، فهو إلهه الذي يتعبده ، ويطيع كل ما يراه . نرى هذا الفريق من الناس مصوراً تصويراً فذاً في هذه الآية؛ وهو يعجب من أمره ويشهر بغفلته وعماه : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

ونرى هذا الفريق من الناس ينكر أمر الآخرة ، ويشك كل الشك في قضية البعث والحساب ، ويتعنت في الإنكار وفي طلب البرهان بما لا سبيل إليه في هذه الأرض . والقرآن يوجه هذا الفريق إلى الدلائل القائمة الحاضرة على صدق هذه القضية ، وهم عنها معرضون : ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

ويجوز أن يكون هؤلاء جميعاً فريقاً واحداً من الناس يصدر منه هذا وذاك ، ويصفه القرآن في السورة هنا وهناك . كما يجوز أن يكونوا فرقاً متعددة ممن واجهوا الدعوة في مكة . بما في ذلك بعض أهل الكتاب ، وقليل منهم كان في مكة . ويجوز أن تكون هذه إشارة عن هذا الفريق ليعتبر بها أهل مكة دون أن يقتضي هذا وجوده في مكة بالذات في ذلك

الحين ؛ وعلى أية حال فقد واجه القرآن هؤلاء الناس بصفاتهم تلك وتصرفاتهم ، وتحدث عنهم في هذه السورة ذلك الحديث . . كذلك واجههم بآيات الله في الآفاق وفي أنفسهم ، وحذرهم حساب يوم القيامة ، وبصرهم بما جرى لمن قبلهم ممن انحرفوا عن ديـــن الله القويم ؛ واجههم بآيات الله في هذا الأسلوب البسيط المؤثر العميق :

﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

وواجههم بها مرة أخرى في صورة نعم من أنعم الله عليهم يغفلون عن تذكرها وتدبرها :

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

كذلك واجههم بحالهم يوم القيامة الذي ينكرونه أو يمارون فيه :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ

فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾
وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم
بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ
رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ
فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي
مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم
بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

كذلك لم يدع أي لبس أو شك في عدالة الجزاء وفردية التبعة؛ فبين أن هذا الأصل عميق في تكوين الوجود كله ، وعليه يقوم هذا الوجود . ذلك حين يقول :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ اهـ(١)

المعنى العام :

[يخبر تعالى خبرا يتضمن الأمر بتعظيم القرآن والاعتناء به وأنه تنزيل ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ المألوه المعبود لما اتصف به من صفات الكمال وانفرد به من النعم الذي له العزة الكاملة والحكمة التامة ؛ ثم أيد ذلك بما ذكره من الآيات الأفقية والنفسية من خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من الدواب وما أودع فيهما من المنافع وما أنزل الله من الماء الذي يحيي به الله البلاد والعباد؛ فهذه كلها آيات بينات وأدلة واضحات على صدق هذا القرآن العظيم وصحة ما اشتمل عليه من الحكم والأحكام، ودالات أيضا على ما لله تعالى من الكمال

---

(١) في ظلال القرآن : ٥/ ٣٢١٩ – ٣٢٢١ في ظلال سورة الجاثية .

وعلى البعث والنشور ؛ ثم قسم تعالى الناس بالنسبة إلى الانتفاع بآياته وعدمه إلى قسمين:-

قسم يستدلون بها ويتفكرون بها وينتفعون فيرتفعون وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إيمانا تاما وصل بهم إلى درجة اليقين، فزكى منهم العقول وازدادت به معارفهم وألبابهم وعلومهم.

وقسم يسمع آيات الله سماعا تقوم به الحجة عليه ثم يعرض عنها ويستكبر، كأنه ما سمعها لأنها لم تزك قلبه ولا طهرته بل بسبب استكباره عنها ازداد طغيانه.

وأنه إذا علم من آيات الله شيئا اتخذها هزوا فتوعده الله تعالى بالويل فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾ أي: كذاب في مقاله أثيم في فعاله ؛ وأخبر أن له عذابا أليما وأن ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ تكفي في عقوبتهم البليغة.

وأنه ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا﴾ من الأموال ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ يستنصرون بهم فخذلوهم أحوج ما كانوا إليهم لو نفعوا.

فلما بين آياته القرآنية والعيانية وأن الناس فيها على قسمين أخبر أن القرآن المشتمل على هذه المطالب العالية أنه هدى فقال: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ وهذا وصف عام لجميع القرآن فإنه يهدي إلى معرفة الله تعالى بصفاته المقدسة وأفعاله الحميدة، ويهدي إلى معرفة رسله وأوليائه وأعدائه، وأوصافهم، ويهدي إلى الأعمال الصالحة ويدعو إليها ويبين الأعمال السيئة وينهى عنها، ويهدي إلى بيان الجزاء على الأعمال ويبين الجزاء الدنيوي والأخروي، فالمهتدون اهتدوا به فأفلحوا وسعدوا، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الواضحة القاطعة التي لا يكفر بها إلا من اشتد ظلمه وتضاعف طغيانه، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ اهـ [١]

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٨٦٨ ، ٨٦٩ لسورة الجاثية الآيات (١ — ١١) .

وقال الجزائري :

ما زال السياق الكريم في طلب هداية قريش فبعد أن بيّن تعالى آياته في الآفاق وفي الأنفس قاله لرسوله ﷺ تلك آيات الله أي تلك الآيات المكورة أي آيات الله أي حججه الدالة على وجوده وعلمه وقدرته وموجبة لربوبيته على خلقه وألوهيته فهو الإله الحق الذي لا إله إلا هو حق سواه . وقوله فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون أي إن لم يؤمن هؤلاء المشركون بالله رباً وإلهاً لا رب غيره ولا إله سواه ، وبآياته القرآنية الحاملة للهدى والخير والنور فبأي شيء يؤمنون أي يصدقون لا شيء يؤمنون لأن الاستفهام إنكاري والإنكار كالنفي في معناه .

وقوله ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾ يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها هذا وعيد من الله تعالى شديد لكل كذاب يقلب الكذب فيصف الطاهر بالخبيث والخبيث بالطيب والكاذب بالصادق ، والصادق بالكاذب أثيم منغمس في كبائر الإثم والفواحش ، يسمع هذا الأفاك الأثيم آيات الله تتلى عليه وهى القرآن الكريم ، ثم يصر على الكفر مستكبرا عن الإيمان به وبما يدعو إليه من التوحيد ، كأن لم يسمع تلك الآيات قال تعالى لرسوله فبشره بعذاب أليم وقوله تعالى وإذا علم أي ذلك الأفاك الأثيم من آياتنا شيئاً كأن تبلغه الآية أو الآيات من القرآن اتخذها هزواً أي أخذ يهزأ بها ويسخر منها ، ويواصل ذلك فيجعلها هزواً بها ، قال تعالى : أولئك أي الأفاكون الآثمون وما أكثرهم لهم عذاب مهين أي فيه إهانة زائدة تنكشر منها أنوفهم التي كانت تأنف الحق وتستكبر عنه . وقوله تعالى : ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ هذا وعيد لهم تابع للأول إذا أخبر تعالى أن من و، ائهم جهنم وذلك يوم القيامة ولفظ الوراء يطلق ويراد به الأمام فهو من الألفاظ المد ستركة في معنيين فأكثر وقوله ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْـًٔا﴾ أي ولا يكفى عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا جاههم ولا كل ما كسبوا في هذه الدنيا أي لا يدفع ذلك عنهم

شيئا من العذاب ، وكذلك لا تغني عنهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله شيئا من دفـع العذاب . ولهم عذاب عظيم لا يقادر قدره ، وكيف والعظيم جل جلاله وصفه بأنه عظيم

وقوله تعالى : ﴿ هَٰذَا هُدًى ﴾ أي هذا القرآن هدى أي يخرج من الضـلالة إلى الهـدى ، ومن الكفر إلى الإيمان ومن الشرك إلى التوحيد لما فيه من الهدى والنور ، ولما يدعو إليـه من الحق والعدل والخير والذين كفروا به وأعرضوا عنه وهو آيات الله وحججه على خلقه هؤلاء لهم عذاب من رجز أليم أي عذاب هو من أشد أنواع العـذاب لأنهـم بـالكفر بالآيات لم يزكوا أنفسهم و لم يطهروها فماتوا على أخبث النفوس وشرها فلا جزاء لهـم إلا رجز العذاب .اهـ (1)

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ .

أشار جل وعلا لنبيه ﷺ إلى آيات القرآن العظيم ، وبين لنبيه أنه يتلوها عليـه ، متلبسـة بالحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ؛ وما ذكره جل وعلا في آيـة الجاثية هذه ، ذكره في آيات أخر بلفظه كقوله تعالى في البقرة ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى في آل عمـران : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ تِلْكَ ﴾ بمعنى هذه .

---

(١) تفسير الجزائري : ٣/ ٢٨٤، ٢٨٥ تفسير سورة الجاثية الآيات (٦ – ١١) .

ومن أساليب اللغة العربية إطلاق الإشارة إلى البعيد على الإشارة إلى القريب كقوله : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ [البقرة : ٢] بمعنى هذا الكتاب . كما حكاه البخاري عن أبي عبيدة معمر بن المثنى ، ومن شواهده قول خفاف بن ندبة السلمي :

فإن تك خيلي قد أصيب صميمها ... فعمداً على عيني تيممت مالكاً

أقول له والرمح يأطر متنه ... تأمل خفافاً إنني أنا ذالكما

وقوله تعالى : ﴿نَتْلُوهَا﴾ أي نقرؤها عليك . وأسند جل وعلا تلاوتها إلى نفسه لأنها كلامه الذي أنزله على رسوله بواسطة الملك ، وأمر الملك أن يتلوه عليه مبلغاً عنه ﷻ.

ونظير ذلك قوله تعالى ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة] .

فقوله : فإذا قرأناه أي قرأه عليك المرسل به ، من قبلنا مبلغاً عنا ، وسمعته منه ، ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ أي فاتبع قراءته واقرأه كما سمعته يقرؤه .

وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾[طه : ١١٤] .وسماعه ﷺ القرآن من الملك المبلغ من الله كلام الله وفهمه له هو معنى تنزله إياه على قلبه في قوله تعالى ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٩٧] وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء]

وقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ يعني آياته الدينية .

واعلم أن لفظ الآية ، يطلق في اللغة العربية إطلاقين ، وفي القرآن العظيم إطلاقين أيضاً .

أما إطلاقاه في اللغة العربية .

فالأول منهما وهو المشهور في كلام العرب ، فهو إطلاق الآية بمعنى العلامة ، وهذا مستفيض في كلام العرب ،..... ما ذكره ﷻ في هذه الآية الكريمة من أن من كفر بالله وبآيات الله و لم يؤمن بذلك مع ظهور الأدلة والبراهين على لزوم الإيمان بالله ، وآياته أنه يستبعد ، أن يؤمن بشيء آخر ، لأنه لو كان يؤمن بحديث لآمن بالله وبآياته لظهور الأدلة على ذلك ، وأن من لم يؤمن بآيات الله متوعد بالويل ، وأنه أفاك أثيم والأفاك كثير الإفك وهو أسوأ الكذب ، والأثيم : هو مرتكب الإثم بقلبه وجوارحه ، فهو مجرم بقلبه ولسانه وجوارحه ، قد ذكره تعالى في غير هذا الموضع فتوعد المكذبين لهذا القرآن ، بالويل يوم القيامة ، وبين استبعاد إيمانهم ، بأي حديث بعد أن لم يؤمنوا بهذا القرآن اهـ [1]

من هداية الآيات

١- القرآن نور وأعظم نور فمن لم يهتد عليه لا يرجى له الهداية أبداً .

٢- الوعيد الشديد لأهل الإفك والآثام ، والإفك الكذب المقلوب .

٣- شر الناس من إذا سمع آيات الله استهزأ وسخر منها أو ممن يتلوها .

٤- لم يغن عمن مات على الكفر شيء من كسب في هذه الحياة الدنيا من مال وولده وجاه وسلطان .

٥- لم يغن عمن المشرك ما كان يعبد من دون الله أو مع الله من أصنام وأوثان وملائكة أو أنبياء أو أولياء . اهـ

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ

(١) انظر أضواء البيان في تفسير سورة الجاثية الآيات (١ - ٧) .

صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

شرح الكلمات :

﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا ﴾ : أي قال منكروا البعث ما الحياة إلا هذه الحياة ، وليس وراءها حياة أخرى .

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ : أي يموت بعضنا ويحيا بعضنا بأن يولدوا فيحيوا ويموتوا .

﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ : أي وما يميتنا إلاّ مرور الزمان علينا .

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ : أي وليس لهم أدنى علم على قولهم لا من وحى وكتاب إلهى ولا من عقل صحيح .

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ : أي ما هم إلا يظنون فقط والظن لا قيمة له ولا يبنى عليه حكم بوضوح .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ : أي وإذا قرئت عليهم الآيات الدالة على البعث والجزاء الأخرى بوضوح .

﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ : أي لم تكن لهم من حجة إلا قولهم .

﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ : إلا قولهم احيوا لنا آباءنا الذين ماتوا وأتوا بهم إلينا .

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ : إن كنتم صادقين فيما تخبروننا به من البعث والجزاء .

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ : أي قل لهم يا رسولنا الله الذي يحييكم حين كنتم نطفاً ميتة ، ثم يميتكم .

﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: أي ثم بعد الموت يجمعكم إلى يوم القيامة للحساب والجزاء .

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ : أي يوم القيامة الذي لا ريب ولا شك في مجيئه في وقته المحدد له .

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ : أي لا يعلمون لعدم تلقيهم العلم عن الوحي الإلهي لكفرهم بالرسل والكتب .

معنى الآيات

تقدم في الآيات بيان اعتقاد بعض المشركين في استواء حال المؤمنين والكافرين يوم القيامة وأن الله تعالى أبطل ذلك الاعتقاد منكراً له عليهم ، وهنا حكى قول منكري البعث بالكلية ليرد عليهم وفى ذلك دعوة لعامة الناس إلى الإيمان والعمل الصالح للإسعاد والكمال في الحياتين ولله الحمد والمنة فقال عز وجل : ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي وقال منكرو البعث والجزاء يوم القيامة ما هناك إلا حياتنا هذه التي نحياها وليس وراءها حياة أخرى ، إننا نموت ونحيا أي نموت نحن الأحياء ويحيا أبناؤنا من بعدنا وهكذا تستمر الحياة أبداً يموت الكبار ويحيا الصغار ، وما يهلكنا إلا الدهر أي وما يميتنا ويفنينا إلا مرور الزمان وطول الأعمار وهو إلحاد كامل وإنكار للخالق عز وجل وهو تناقص منهم لأنهم إذا سئلوا من خلقهم يقولون الله فينسبون إليه الخلق وهو أصعب ولا ينسبوا إليه الإماتة وهى أهون من الخلق فرد تعالى عليهم مذهبهم « الدهري » بقوله : ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ليس لهم على معتقدهم هذا أدنى علم نقلياً كان ولا عقليا أي لم يتلقوه عن وحى أوحاه الله إلى من شاء من عباده ولا عن عقل سليم راجح لا ينقض حكمه كالواحد مع الواحد اثنان والأبيض خلاف الأسود وما إلى ذلك من القضايا العقلية التي لا ترد فهؤلاء الدهريون ليس لهم شيء من ذلك ما لهم إلا الظن والخرص وقضايا العقيدة لا تكون بالظن .اهـ[1]

---

(١)تفسير الجزائري : ٣/ ٢٩٣ تفسير سورة الجاثية الآيات (٢٤ – ٢٦) ط/ دار الحديث .

وقال القرطبي رحمه الله : قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ هذا إنكار منهم للآخرة وتكذيب للبعث وإبطال للجزاء ومعنى : ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي نموت ونحيا أولادنا قاله الكلبي وقرئ ﴿وَنُحْيَا﴾ بضم النون وقيل : يموت بعضنا ويحيا بعضنا وقيل : فيه تقديم وتأخير أي نحيا ونموت وهي قراءة ابن مسعود ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ قال مجاهد : يعني السنين والأيام وقال قتادة : إلا العمر والمعنى واحد ... وقال ابن عيينة : كان أهل الجاهلية يقولون : الدهر هو الذي يهلكنا وهو الذي يحيينا ويميتنا فنزلت هذه الآية قال قطرب : وما يهلكنا إلا الموت وأنشد قول أبي ذؤيب :

أمن المنون وريبها تتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع

[٢١١] وقال عكرمة : أي وما يهلكنا إلا الله وروى أبو هريرة ، عن النبي ﷺ قال : ((**كان أهل الجاهلية يقولون ما يهلكنا إلا الليل والنهار وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا فيسبون الدهر**))

[٢١٢] قَالَ اللَّهُ ﷻ : ((**يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ ، بِيَدِي الأَمْرُ ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**)) .

قلت : قوله (قَالَ اللَّهُ) إلى آخره نص البخاري ولفظه وخرجه مسلم أيضا و أبو داود

[٢١٣] وفي الموطأ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ. فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ** ». وقد استدل بهذا الحديث من قال : إن الدهر[١] من أسماء الله وقال : من لم يجعله من العلماء اسماً إنما خرج رداً على العرب في جاهليتها فإنهم كانوا يعتقدون أن الدهر هو الفاعل كما أخبر الله عنهم في هذه الآية فكانوا إذا أصابهم ضر أو ضيم أو مكروه نسبوا ذلك إلى الدهر فقيل لهم على ذلك : لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر أي إن الله هو الفاعل لهذه الأمور التي تضيفونها إلى الدهر فيرجع السب إليه ﷻ

---

(١) والراجح أنه ليس اسماً وقد دل على ذلك القرينة من بعده : ((بيدي الأمر أقلب الليل وأقلب النهار)) .

فنهوا عن ذلك ودل على صحة هذا ما ذكرنا من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله تبارك وتعالى يؤذيني ابن آدم)) الحديث ولقد أحسن من قال وهو أبو علي الثقفي :

يا عاتب الدهر إذا نابه لا تلم الدهر على غدره
الدهر مأمور له آمر وينتهي الدهر إلى أمره
كم كافر أمواله جمة تزداد اضعافا على كفره
ومؤمن ليس له درهم يزداد إيمانا على فقره

وروى أن سالم بن عبد الله بن عمر كان كثيراً ما يذكر الدهر فزجره أبوه وقال : إياك يا بني وذكر الدهر ! وأنشد :

فما الدهر بالجاني لشيء لحينه ولا جالب البلوى فلا تشتم الدهرا
ولكن متى ما يبعث الله باعثا على معشر يجعل مياسيرهم عسرا

وقال أبو عبيد : ناظرت بعض الملحدة فقال : ألا تراه يقول (فإن الله هو الدهر) ! ؟ فقلت : وهل كان أحد يسب الله في آباد الدهر بل كانوا يقولون كما قال الأعشى :

إن محلا وإن مرتحلا وإن في السفر إذ مضوا مهلا
استأثر الله بالوفاء وبالعدل وولى الملامة الرجلا

قال أبو عبيد : ومن شأن العرب أن يذموا الدهر عند المصائب والنوائب حتى ذكروه في أشعارهم ونسبوا الأحداث إليه قال عمرو بن قميئة :

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يرمى وليس برام
فلو أنها نبل إذا لأتقيتها ولكنني أرمى بغير سهام
على الراحتين مرة وعلى العص أنوء ثلاثا بعدهن قيامي

ومثله كثيرا في الشعر : ينسبون ذلك إلى الدهر ويضيفونه إليه والله سبحانه الفاعل لا رب سواه ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي علم (من) زائدة أي قالوا ما قالوا شاكين ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا

﴿يَظُنُّونَ﴾ أي ما هم إلا يتكلمون بالظن وكان المشركون أصنافا منهم هؤلاء ومنهم من كان يثبت الصانع وينكر البعث ومنهم من كان يشك في البعث ولا يقطع بإنكاره وحدث في الإسلام أقوام ليس يمكنهم إنكار البعث خوفا من المسلمين فيتأولون ويرون القيامة موت البدن ويرون الثواب والعقاب إلى خيالات تقع للأرواح بزعمهم فشر هؤلاء أضر من شر جميع الكفار لأن هؤلاء يلبسون على الحق ويغتر بتلبيسهم الظاهر والمشرك المجاهر بشركه يحذره المسلم وقيل : نموت وتحيا آثارنا فهذه حياة الذكر وقيل : أشاروا إلى التناسخ أي يموت الرجل فتجعل روحه في موات فتحيا به .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي وإذا تقرأ على هؤلاء المشركين آياتنا المنزلة في جواز البعث لم يكن ثم دفع ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا ائْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ﴾ ﴿حُجَّتَهُمْ﴾ خبر كان والاسم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا ائْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ﴾ الموتى نسألهم عن صدق ما تقولون فرد الله عليهم بقوله : ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ يعني بعد كونكم نطفا أمواتا ﴿يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ﴾ كما أحياكم في الدنيا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله يعيدهم كما بدأهم الزمخشري : فإن قلت لم سمي قولهم حجة وليس بحجة ؟ قلت : لأنهم أدلوا به كما يدلي المحتج بحجته وساقوه مساقها فسميت حجة على سبيل التهكم أو لأنه في حسبانهم وتقديرهم حجة أو لأنه في أسلوب قوله : (تحية بينهم ضرب وجيع)

كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة والمراد نفي أن تكون لهم حجة ألبتة فإن قلت : كيف وقع قوله : ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ جواب ﴿ائْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ قلت : لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل وحسبوا أن ما قالوه قول مبكت ألزموا ما هم مقرون به من الله عز و جل هو الذي يحييهم ثم يميتهم وضم إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به أن أنصفوا وأصغوا إلى داعي الحق وهو جمعهم يوم القيامة ومن كان قادرا على ذلك كان قادرا على الإتيان بآبائهم وكان أهون شيء عليه اهـ

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةًۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ يخبر تعالى عن سعة ملكه وانفراده بالتصرف والتدبير في جميع الأوقات وأنه ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ ويجمع الخلائق لموقف القيامة يحصل الخسار على المبطلين الذين أتوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة لأنها متعلقه بالباطل فبطلت في يوم القيامة، اليوم الذي تستبين به الحقائق، واضمحلت عنهم وفاتهم الثواب وحصلوا على أليم العقاب.

ثم وصف تعالى شدة يوم القيامة وهوله ليحذره العباد ويستعد له العباد فقال: ﴿ وَتَرَىٰ ﴾ أيها الرائي لذلك اليوم ﴿ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةًۚ ﴾ على ركبها خوفاً وذعراً وانتظاراً لحكم الملك الرحمن. ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾ أي: إلى شريعة نبيهم الذي جاءهم من عند الله، وهل قاموا بها فيحصل لهم الثواب والنجاة؟ أم ضيعوها فيحصل لهم الخسران ؟ فأمة موسى يدعون إلى شريعة موسى وأمة عيسى كذلك وأمة محمد كذلك، وهكذا غيرهم كل أمة تدعى إلى شرعها الذي كلفت به، هذا أحد الاحتمالات في الآية وهو معنى صحيح في نفسه غير مشكوك فيه، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾ أي: إلى كتاب أعمالها وما سطر عليها من خير وشر وأن كل أحد يجازى بما عمله بنفسه كقوله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ ﴾ ويحتمل أن المعنيين كليهما مراد من

الآية ويدل على هذا قوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: هذا كتابنا الذي أنزلنا عليكم، يفصل بينكم بالحق الذي هو العدل، ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهذا كتاب الأعمال.

ولهذا فصل ما يفعل الله بالفريقين فقال: ﴿(٣٠) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إيمانا صحيحا وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة من واجبات ومستحبات ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ التي محلها الجنة وما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: المفاز والنجاة والربح والفلاح الواضح البين الذي إذا حصل للعبد حصل له كل خير واندفع عنه كل شر.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بالله فيقال لهم توبيخا وتقريعا: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وقد دلتكم على ما فيه صلاحكم ونهتكم عما فيه ضرركم وهي أكبر نعمة وصلت إليكم لو وفقتم لها، ولكن استكبرتم عنها وأعرضتم وكفرتم بها فجنيتم أكبر جناية وأجرمتم أشد الجرم فاليوم تجزون ما كنتم تعملون.

ويوبخون أيضا بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم﴾ منكرين لذلك: ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ فهذه حالهم في الدنيا وحال البعث الإنكار له ورد قول من جاء به قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي: وظهر لهم يوم القيامة عقوبات أعمالهم، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: نزل ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: نزل بهم العذاب الذي كانوا في الدنيا يستهزئون به وبوقوعه وبمن جاء به.

﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ﴾ أي: نترككم في العذاب ﴿نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ فـــإن الجزاء من جنس العمل ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: هي مقـــركم ومصـــيركم، ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرونكم من عذاب الله ويدفعون عنكم عقابه.

﴿ذَٰلِكُم﴾ الذي حصل لكم من العذاب { بـــ } ســـبب ﴿بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾ مع أنها موجبة للجد والاجتهاد وتلقيها بالسرور والاستبشار والفرح.

﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ بزخارفها ولذاتها وشهواتها فاطمأننتم إليها، وعملتم لها وتـــركتم العمل للدار الباقيـــة. ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ أي: ولا يمهلـــون ولا يردون إلى الدنيا ليعملوا صالحا. ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ﴾ كما ينبغي لجلاله وعظيم ســـلطانه ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: له الحمد على ربوبيته لسائر الخلائـــق حيـــث خلقهم ورباهم وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: له الجلال والعظمة والمجد.

فالحمد فيه الثناء على الله بصفات الكمال ومحبته تعالى وإكرامه، والكبرياء فيها عظمتـــه وجلاله والعبادة مبنية على ركنين، محبة الله والذل له، وهما ناشئان عن العلم بمحامـــد الله وجلاله وكبريائه.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شيء، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضـــعها، فـــلا يشرع ما يشرعه إلا لحكمة ومصلحة ولا يخلق ما يخلقه إلا لفائدة ومنفعة.أ هـــ السعدي

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ :

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض والحاكم فيهما في الدنيا والآخرة ولهذا قال عز و جل : ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي يوم القيامة ﴿يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ وهم الكـــافرون بـــالله الجاحدون بما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات

وقال ابن أبي حاتم : قدم سفيان الثوري المدينة فسمع المعافري يتكلم ببعض ما يضحك به الناس فقال له : يا شيخ أما علمت أن لله تعالى يوما يخسر فيه المبطلون ؟ قال : فما زالت تعرف في المعافري حتى لحق بالله تعالى ذكره ابن أبي حاتم ثم قال تعالى : ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي على ركبها من الشدة والعظمة ويقال إن هذا إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه حتى إبراهيم الخليل عليه السلام ويقول : نفسي نفسي نفسي ! لا أسألك اليوم إلا نفسي وحتى إن عيسى عليه الصلاة و السلام ليقول : لا أسألك إلا نفسي لا أسألك مريم التي ولدتني ! قال مجاهد وكعب الأحبار والحسن البصري ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي على الركب وقال عكرمة : جاثية متميزة على ناحيتها وليس على الركب والأول أولى

[٢١٤] قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو عن عبد الله بن باباه أن رسول الله ﷺ قال : ((كأني أراكم جاثين بالكوم دون جهنم)) وقال إسماعيل بن أبي رافع المدني عن محمد بن كعب عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا في حديث الصور : فيتميز الناس وتجثو الأمم وهي التي يقول الله تعالى : ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ وهذا فيه جمع بين القولين ولا منافاة والله أعلم

وقوله عز وجل : ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ يعني كتاب أعمالها كقوله جل جلاله ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر: ٦٩] ولهذا قال تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي تجازون بأعمالكم خيرها وشرها كقوله عز وجل : ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ

مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾ [القيامة] ولهذا قال جلت عظمتـــه : ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ ﴾ أي يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص كقوله

جل جلاله : ﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهـــف] وقولـــه ﷻ : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ أي إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم قال ابن عباس رضـــي الله عنهما وغيره : تكتب الملائكة أعمال العباد ثم تصعد بها إلى السماء فيقابلون الملائكـــة في ديوان الأعمال على ما بأيدي الكتبة مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر مما كتبه الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم فلا يزيد حرفا ولا ينقص حرفا ثم قرأ ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ اهـــ

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

هذا جزاء أهل لإيمان والتقوى وأما الذين كفروا وهم أهل الشرك والمعاصي فيقال لهـــم : ﴿ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ أي ألم تأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى علـــيكم؟ بـــل كانت تتلى عليكم فاستكبرتم عنها فلم تتعرفوا إلى ما فيها والى ما تدعوا إليـــه ، وكنـــتم باستكباركم عنها قوما مجرمين على أنفسكم إذا أفسدتموها بالشرك والمعاصي .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي وعده تعالى بالبعث والجزاء حق لا بد واقع الساعة آتية لا ريب فيها أي جائية لا محالة ولا ريب في وقوعها بحال من الأحوال قلتم بمستيقنين بمجيئها ، وهذا بالنسبة إلى بعض الناس ، وإلا فقد تقدم أن بعضهم كان ينكر البعث بالكلية وهذا ظاهر في كثير من الناس الذي يؤمنون بالله وبلقائه وهم لا يفترون من المعاصي ولا يقصرون عن فعل الشر والفساد .

من هداية الآيات

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر بعض ما يقع يوم القيامة .

٢- تقرير عقيدة كتابة أعمال العباد وتقديمها لهم يوم القيامة في كتاب خاص .

٣- تقرير أن الإيمان والعمل الصالح سبب الفوز ، وأن الشرك والمعاصي سبب الخسران المبين .

٤- الظن في العقائد كالكفر بها ، والعياذ بالله تعالى .

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا
نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ
هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

شرح الكلمات

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ ﴾ : أي ظهر لهم في يوم القيامة جزاء سيئات ما عملوه في الدنيا من الشرك والمعاصي .

﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ : أي نزل وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به إذا ذكروا به وخوفوا منه في الدنيا .

﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ﴾ : أي وقال الله تعالى لهم اليوم ننساكم أي نترككم في النار .

﴿كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ : أي مثل ما نسيتم يومكم هذا فلم تعملوا له بما ينجى فيه وهو الإيمان والعمل الصالح ، وترك الشرك والمعاصي .

﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ : أي ومحل إقامتكم النار .

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ : أي من ناصرين ينصرونكم بإخراجكم من النار .

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ : أي ذلك العذاب كان لكم بسبب كفركم واتخاذكم آيات الله هزواً ﴿هُزُوٗا﴾ : أي شيئا مهزؤاً به .

﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ : أي طول العمر والتمتع بالشهوات والمستلذات ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ : أي لا يؤذون لهم في الاستعتاب ليعتبوا فيتوبوا .

﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ﴾ : أي فلله وحده الوصف بالجميل لإنجاز وعيده لأعدائه .

﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾ : أي العظمة والحكم النافذ الناجز على من شاء .

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ : أي وهو العزيز في انتقامه من أعدائه الحكيم في تدبير خلقه . اهـ [١]

ولعل هذا الكلام الذي حكاه القرآن الكريم عنهم ، هو كلام الشاكين المتحيرين من الكافرين أما الجاحدون منهم فهم الذين حكى القرآن عنهم أنهم قالوا : ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ . . .﴾ ثم بين ﷺ ما ترتب على هذه الأقوال

---

(١) تفسير الجزائري :٣/ ٢٩٦ لسورة الجاثية الآيات (٣٣ – ٣٧) .

الباطلة من نتائج فقال : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ أي : وظهر لهؤلاء الكافرين سيئات أعمالهم على حقيقتها التي كانوا لا يتوقعونها .

﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي : وأحاط ونزل بهم ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي : في الدنيا ، فقد كانوا في الدنيا ينكرون البعث والحساب والجزاء ويستهزئون بمن يحدثهم عن ذلك . فنزل بهم العذاب المهين ، جزاء استهزائهم وإنكارهم .

﴿ وَقِيلَ ﴾ لهم على سبيل التأنيب والزجر ﴿ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ ﴾ أي : نهملكم ونترككم في النار ﴿ كَمَا نَسِيتُمْ ﴾ أنتم في الدنيا وأنكرتم ﴿ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أي : ومسكنكم الذي تؤون إليه النار وبئس القرار .

﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ أي : وليس لكم من ناصرين ينصرونكم ، ويخففون عنكم هذا العذاب الذي حل بكم .

ثم بين ﷻ الأسباب التي أدت بهم إلى هذا المصير السيئ فقال : ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ﴾ أي : ذلكم العذاب المبين الذي نزل بكم سببه أنكم استهزأتم بآيات القرآن الكريم ، وسخرتم منها ، وكذبتم من جاء بها .

﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أي : وخدعتكم الحياة الدنيا بزخارفها ومتعها وشهواتها .

﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ أي : من النار .

﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي : ولا هم يطلب منهم أن يرضوا ربهم ، بان يتوبوا إليه مما كان منهم من كفر وفسوق في الدنيا ، لأن التوبة قد فات أوانها .

فقوله : ﴿ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ من العتب – بفتح العين وسكون التاء – وهى الموجدة . يقال : عتب عليه يعتب ، إذا وجد عليه ، فإذا فاوضه فيما عتب عليه فيه ، قيل : عاتبه .

والمقصود من الآية الكريمة أن هؤلاء الكافرين لا يقبل منهم في هذا اليوم عذب أو توبة .

ثم ختم ﷻ السورة الكريمة بقوله : ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ﴾ أي : فلله ﷻ وحده الحمـــد والثنـــاء ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لا رب سواه ولا خالق غيره .

﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾ أي : العظمة والسلطان والجـــلال ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : أي : هو العظيم المجد الذي كل شيء خاضع لديه . فقير إليـــه [٢١٥] وفى الحديث الصحيح يقول الله ﷻ : ((**العظمة إزاري ، والكبرياء ردائـــي ، فمن نازعني واحدا منها أسكنته ناري**)) .

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي : الذي لا يغالب ولا يمانع ، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله اهـــ(١)

---

(١) انظر التفسير الوسيط لسورة الجاثية الآيات (٣٣ – ٣٧) .

سُورَةُ الأحقاف

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ : أي فلم يرتدوا واستمروا على فعل الواجبات وترك المحرمات .

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ : أي في الدنيا وفي البرزخ وفي عرصات القيامة

﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ : أي جزاهم الله بما جزاهم به بنفي الخوف والحزن عليهم بأعمالهم الصالحة وتركهم الأعمال الفاسدة .

أي: إن الذين أقروا بربهم وشهدوا له بالوحدانية والتزموا طاعته ودامو على ذلك، و ﴿ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ مدة حياتهم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من كل شر أمامهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا وراءهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: أهلها الملازمون لها الذين لا يبغون عنها حولا ولا يريدون بها بدلا ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من الإيمان بالله المقتضي للأعمال الصالحة التي استقاموا عليها.اهـ [(١)]

...ثم فصل ﷻ ما أعده للمحسنين من جزيل الثواب فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾

أي : قالوا ذلك بألسنتهم ، وصدقت هذا القول قلوبهم ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ بعد ذلك على صراط الله المستقيم ، بأن فعلوا بإخلاص وطاعة كل ما أمرهم ﷻ بفعله ، واجتنبوا بقوة

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٨٧٥ لسورة الأحقاف الآيات (١٣ – ١٤) .

كل ما أمرهم باجتنابه ، وقوله : ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ وجئ بالفاء في خبر الموصول لما فيه من معنى الشرط .

أي : إن الذين قالوا ذلك ، ثم استقاموا وثبتوا على طاعتنا فلا خوف عليهم من لحوق مكروه بهم ، ولا هم يحزنون بسبب فوات محبوب لديهم ، وإنما هم في سعادة مستمرة ، وفى سرور دائم ، لا يعكره خوف من مستقبل مجهول ، ولا حزن على أمر قد مضى .

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الإيمان والاستقامة ، هم ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ خلودا أبديا . ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي : يجزون هذا الجزاء الطيب بسبب أعمالهم الصالحة ، التي كانوا يعملونها في الدنيا .

وبعد هذا الحديث عن حقيقة هذا الدين ، وعن حسن عاقبة الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، جاء الحديث عن وجوب الإحسان إلى الوالدين وعما يترتب عليه هذا الإحسان من ثواب عظيم ، قال ﷻ : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ ...... الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ : لما ذكر ﷻ في الآية الأولى التوحيد له ، وإخلاص العبادة والاستقامة إليه ، عطف ، بالوصية بالوالدين ، كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن ، كقوله : ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال : ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: ١٤] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة .اهـ [١]

---

(١) انظر التفسير الوسيط تفسير سورة الأحقاف الآيات (١٥ – ١٦) .

بر الوالدين وعلاقته بالجنة :

﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين ﴿١٥﴾ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ﴿١٦﴾﴾

شرح الكلمات :

﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾ : أي أمرناه أمراً أمراً مؤكداً بالإيصاء .

﴿إحسانا﴾ : أي أن يُحسن بهما إحسانا وهو المعاملة بالحسنى .

﴿حملته أمه كرها ووضعته كرها﴾ : أي حملته أثناء حمله في بطنها على مشقة وولدته كذلك على مشقة .

﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾ : أي مدة حمله في بطنها وفطامه من الرضاع ثلاثون شهراً .

﴿حتى إذا بلغ أشده﴾ : أي اكتمال قوته البدنّية العقلية وهي من الثلاث والثلاثين فما فوق .

﴿رب أوزعني أن أشكر نعمتك﴾ : أي ألهمني ووفقني أن أشكر نعمتك بصرفها فيما تحب

﴿وأن أعمل صالحا ترضاه﴾ : أي وبأن أعمل صالحا ترضاه مني أي تتقبله عني .

﴿ونتجاوز عن سيئاتهم﴾ : أي فلا نؤاخذهم بها بل نغفرها .

﴿في أصحاب الجنة﴾ : أي في جملة أصحاب الجنة وعدادهم .

﴿وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾ : أي في مثل قوله تعالى وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار الآية .

معنى الآيات :

إن الفرد كالجماعة فقد أوصى تعالى الإنسان بالإحسان بوالديه وبرهما في جميـع كتبـه وعلى ألسنة كافة رسله ، والإنسان بعد ذلك قد يحسن ويبرُّ وقد يسيء ويعُقُّ ، فكـذلك الجماعة والأمة من الناس يرسل إليهم الرسول فمنهم من يؤمن ومنهم من يكذب ، ومنهم من يتابع ومنهم من يخالف فلما ذكر تعالى اختلاف قوم النبي صلى الله عليـه وسـلم في الإيمان بما جاء به ، والكفر به ذكر أن هذه حال الإنسان فقال تعالى ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي جنس الإنسان أي أمرناه بما هو آكد من الأمر وهو الوصيّة بوالديه أي أمـه وأبيـه إحسانا بهما وذلك بكف الأذى عنهما وإيصال الخير لهما وطاعتهما في المعروف وبرهما أيضا بعد موتهما . فمن الناس من ينفذ هذه الوصية ومنهم من يهملها ولا ينفذها وقوله ، حملته أمه كرها ووضعته كرها بيان لوجوب الإحسان لهما وبرهما إذ معاناة الأُم وتحملها مشقة الحمل تسعة أشهر ومشقة الوضع وهي مشقة لا يعرفها إلا مـن قاسـى آلامهـا كالأمهات . وقوله ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ بيان لمدة تحمل المشقة إنها ثلاثـون شهرا بعضها للحمل وبعضها للإرضاع والتربية وقوله تعالى حتى إذا بلغ أي عاش حتى إذا بلغ أشده أي اكتمال قواه البدنية والعقلية وذلك من ثلاث وثلاثين سنة إلى الأربعين وبلغ أربعين سنة قال أي الإنسان البار بوالديه المنفذ للوصية الإلهية كأبي بكر الصديق رضي الله عنه إذ بلغ الأربعين من عمره بعد البعثة المحمدية بسـنتين . ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ وهي نعمة الإيمان والتوحيد والإسلام عليّ وعلى والـديَّ إذ آمن وآمن أبواه أبو قحافة عثمان بن عامر التيمي وآمنت أمه أم الخير سـلمى ، وأولاده عامة من بنين وبنات ولم يحصل لأحد من الصحابة أن سأل ربه أن يدفعه دفعـا إلهاميـا وتوفيقا ربانيا لأن يشكر نعمة الله عليه وعلي والديه بالإسلام ، وأن يدفعـه كـذلك إلى العمل الصالح الذي يرضاه الله ويتقبله عن صاحبه ، وقد استجاب له ربه أن يدفعه دفعـا إلهياً وتوفيقاً ربانياً لأن يشكر نعمة الله عليه وعلي والديه بالإسلام ، وأن يدفعه كـذلك

إلى العمل الصالح الذي يرضاه الله ويتقبله عن صاحبه ، وقد استجاب الله تعالى له فـآمن أولاده أجمعون ذكورا إناثا ، وقوله ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ هذا توسل منه رضي الله وهو الخضوع لله والانقياد لأمره ونهيه .

وقوله تعـالى ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ فـلا يؤاخذهم بها بعد توبتهم منها في جملة أصحاب الجنة إذ لا يدخل الجنة أحد إلا بعد مغفرة ذنبه ، وقوله ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ ﴾ أي أنجز لهم هذا لأنه وعد صدق وعدهم فـأنجزه لهـم ، وقوله ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ أي في الكتاب مثل قوله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ الآية .اهـ(١)

[هذا من لطفه تعالى بعباده وشكره للوالدين أن وصى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف والكلام اللين وبذل المال والنفقة وغير ذلك من وجوه الإحسان.

ثم نبه على ذكر السبب الموجب لذلك فذكر ما تحملته الأم من ولدها وما قاسـته مـن المكاره وقت حملها ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة ثم مشقة الرضاع وخدمـة الحضـانة، وليست المذكورات مدة يسيرة ساعة أو ساعتين،

وإنما ذلك مدة طويلة قدرها ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ للحمل تسعة أشهر ونحوها والباقي للرضاع هذا هو الغالب ؛ ويستدل بهذه الآية مع قولـه: ﴿ ۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾[البقرة: ٢٣٣] أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأن مدة الرضاع -وهي سنتان- إذا سقطت منها السنتان بقي ستة أشهر مدة للحمل، ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ أي: نهاية قوته وشبابه وكمال عقله، ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ أي: ألهمـني ووفقـني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴾ أي: نعم الدين ونعم الـدنيا، وشـكره

---

(١) تفسير الجزائري :٣/ ٣٠٥ ، ٣٠٦ لسورة الأحقاف الآيات (١٥- ١٦) ط/ دار الحديث .

بصرف النعم في طاعة مسديها ومواليها ومقابلته منته بالاعتراف والعجز عن الشكر والاجتهاد في الثناء بها على الله، والنعم على الوالدين نعم على أولادهم وذريتهم لأنهم لا بد أن ينالهم منها ومن أسبابها وآثارها، خصوصا نعم الدين فإن صلاح الوالدين بالعلم والعمل من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ بأن يكون جامعا لما يصلحه سالما مما يفسده، فهذا العمل الذي يرضاه الله ويقبله ويثيب عليه. ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ﴾ لما دعا لنفسه بالصلاح دعا لذريته أن يصلح الله أحوالهم، وذكر أن صلاحهم يعود نفعه على والديهم لقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِى ﴾ ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ من الذنوب والمعاصي ورجعت إلى طاعتك ﴿وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين ذكرت أوصافهم ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ ﴾ وهو الطاعات لأنهم يعملون أيضا غيرها. ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ في جملة ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ فحصل لهم الخير والمحبوب وزال عنهم الشر والمكروه.

﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ أي: هذا الوعد الذي وعدناهم هو وعد صادق من أصدق القائلين الذي لا يخلف الميعاد.اهـ [1]

وقال الشنقيطي :وقال أبو حيان في البحر :قيل ضمن ﴿وَوَصَّيْنَا ﴾ معنى ألزمنا مبتدأ لاثنين فانتصب حسناً وإحساناً على المفعول الثاني لوصينا .

وقيل : التقدير إيصاء ذا حسن أو ذا إحسان ويجوز أن يكون حسناً بمعنى إحسان فيكون مفعولاً له ، أي ووصيناه بها لإحساننا إليهما فيكون الإحسان من الله تعالى .

وقيل : النصب على المصدر على تضمين معنى أحسنا بالوصية للإنسان بوالديه إحساناً اهـ منه ، وكلها له وجه .

---

(١) انظر تيسير الكريم الرحمن [المجلد الواحد] ص٨٧٥ ، ٨٧٦ تفسير سورة الأحقاف الآيات (١٥، ١٦)

قوله تعالى : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا﴾

قرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر : ﴿كَرْهًا﴾ بفتح الكاف في الموضعين . وقرأه عاصم وحمزة والكسائي ، وابن ذكوان ، عن ابن عامر : ﴿كُرْهًا﴾ بضم الكاف في الموضعين .وهما لغتان كالضُّعف والضَّعف .

ومعنى حملته ﴿كُرْهًا﴾ أنها في حال حملها به تلاقي مشقة شديدة .

ومن المعلوم ما تلاقيه الحامل ، من المشقة والضعف ، إذا أثقلت وكبر الجنين في بطنها .

ومعنى وضعته كرهاً : أنها في حالة وضع الولد ، تلاقي من ألم الطلق ، وكربه مشقة شديدة ، كما هو معلوم .

وهذه المشاق العظيمة التي تلاقيها الأم في حمل الولد ووضعه ، لا شك أنها يعظم حقها بها ، ويتحتم برها ، والإحسان إليها كما لا يخفى ، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من المشقة التي تعانيها الحامل ، ودلت عليه آية أخرى ، وهي قوله تعالى في لقمان :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ [لقمان : ١٤] أي حملته به وهناً على وهن أي ضعفاً على ضعف ، لأن الحمل كلما تزايد وعظم في بطنها ، ازدادت ضعفاً على ضعف . وقوله في آية الأحقاف هذه كرهاً في الموضعين مصدر منكر وهو حال أي حملته ذات كره ووضعته ذات كره ، وإتيان المصدر المنكر حالاً كثير كما أشار له في الخلاصة بقوله

ومصدر منكر حالا يقع　　　بكثرة كبغتة زيد طلع

وقال بعضهم : كرهاً في الموضعين نعت لمصدر ، أي حملته حملاً ذاكره ، ووضعته وضعاً ذاكره ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ .

هذه الآية الكريمة ، ليس فيها بانفرادها تعرض لبيان أقر من مدة الحمل ، ولكنها بضميمة بعض الآيات الأخرى إليها يعلم أقل أمد الحمل ، لأن هذه الآية الكريمة ، مـن سـورة الأحقاف ، صرحت بأن أمد الحمل والفصال معاً ، ثلاثون شهراً .

وقوله في البقرة ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة : ٢٢٣] يبين أن أمد الفصال عامان وهما أربعة وعشرون شهراً ، فإذا طرحتها من الثلاثين بقيت سـتة أشهر ، فتعين كونها أمداً للحمل ، وهي أقله ، ولا خلاف في ذلك بين العلماء .

ودلالة هذه الآيات على أن ستة أشهر أمد للحمل هي المعروفة عند علماء الأصول بدلالة الإشارة اهـ .

إن المعاصي ضيق في الصدر وحرج في القلب وضيق في الرزق وغبرة في الوجـه غالبـاً ، وبغض في قلوب الصالحين ، وقد ذكر الله لنا ما يدل على أن المعاصي تضيق الواسع كما في سـورة التوبـة إذ قـال ﷻ : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة]

ألا فليعلم العاق أن الناقد بصير وأن الخطب عظيم ، وأن الحساب مخوف ، وأن الكـرام الكاتبين يحصون ويعدون ما سمعوا وما علموا من صغير السـيئات وكبيرهـا بحيـث لا يتركون مثقال ذرة من خير أو شر قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الانفطار]

فالبر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت ألا فاصنع ما شئت فإنك معروض علـى الله ،واعمل للدنيا بقدر مكثك فيها ، واعمل للآخرة بقدر خلودك فيها ،واعمل للجنـة بقدر شوقك إليها، واتقِ النار بقدر صبرك عليها .

ومن أقوال الشعراء في ذلك وهي كثيرة جداً :

قضى الله ألا تعبدوا غـيره حتمـاً … فيا ويـح شخص غير خالقه أمّـاً
وأوصاكموا بالوالـدين فبـالغوا … ببـرهما فـالأجر في ذاك والرحمـا
فكم بـذلاً مـن رأفـة ولطافـة … وكم منَحا وقت احتياجك من نعما
وأمك كم باتت بثقلك تشـتكي … تواصل مما شقها البؤس والغمّـا
وفي الوضع كم قاست لعلها وعند ولادها … مشقاً يذيب الجلد واللحم والعظما
وكم سهرت وجداً عليك جفونها … وأكبادها لهفاً بجمر الأسى تحمـى
وكم غسلت عنك الأذى بيمينـها … حنواً وإشفاقاً وأكثـرت الضَـمّا
فضـيعتها لـمـا أسـنت جهالـة … وضقت بها ذرعاً وذوقتـها سُـمّا
وبت قرير العـين ريـان نعمـاً … مكباً على اللذات لا تسمع اللومـا
وأمك في جوع شـديد وغربـة … تلين لها مما بها الصـخرة الصـما
أهذا جزاها بعـد طـول عنائهـا … لأنت لذو جهـل وأنت إذاً أعمى

من هداية الآيات :

١- وجوب البر بالوالدين بطاعتهما في المعروف والإحسان بهما بعد كف الأذى عنهما .

٢- الإشارة إلى أن مدة الحمل قد تكون ستة أشهر فأكثر ، وأن الرضـاع قـد يكـون حولين فأقل .

٣- جواز التوسل بالتوبة إلى الله والانقياد له بالطاعة .

٤- فضيلة آل أبي بكر الصديق على غيرهم من سائر الصحابة ما عدا آل بيت رسول الله ﷺ

٥- بشارة الصديق وأسرته بالجنة ، إذ آمنوا كلهم وأسلموا أجمعين وماتوا على ذلك .

من مشكاة النبوة :

[٢١٦] عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ قَالَ « **هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ** ». قَالَ لاَ. قَالَ « **هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ**». قَالَ نَعَمْ. قَالَ « **فَبِرَّهَا** » (١) .

[٢١٧] عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « **رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَىَّ وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الْكِبَرَ فَلَمْ يُدْخِلاَهُ الْجَنَّةَ** ». قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَأَظُنُّهُ قَالَ أَوْ أَحَدُهُمَا (٢) .

[٢١٨] عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « **رَغِمَ أَنْفُهُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ** ». قِيلَ مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « **مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا ثُمَّ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ** ».[مختصر مسلم ١٧٥٨]

[٢١٩] عن ابن عباس أنه أتاه رجل فقال : إني خطبت امرأة فأبت أن تنكحني وخطبها غيري فأحبت أن تنكحه ، فغرت عليها فقتلتها ، فهل لي من توبة ؟ قال ﷺ أمُّك حيّة ؟ قال : لا قال ﷺ : تب إلى الله ﷻ ، وتقرب إليه ما استطعت . قال عطاء بن يسار ﷺ فذهبت فسألت ابن عباس : لم سألته عن حياة أمه ؟ فقال ﷺ : إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله ﷻ من بر الوالدة (٣).

---

(١) صحيح سنن الترمذي ٣٤٣/٢وصححه الألباني ك البر باب ما جاء في بر الخالة وانظر التعليق الرغيب ٢١٨/٣

(٢) الترمذي ٣٢٠/٥ح رقم ٣٥٥٦وهو مما تفرد به الترمذي وقال حديث حسن غريب من هذا لوجه وانظر صحيح الجامع ٣٥١٠ وصححه الألباني رحمه الله وذكره في المشكاة٩٢٧ ،الترغيب ٢٨٣/٢ فضل الصلاة ١٦ والإرواء ٦.

(٣) صحيح الأدب المفرد ص ٢٨ح ٤ وصححه الألباني . وانظر الصحيحة ٢٧٩٩

[٢٢٠] عن مالك بن عمرو القشيري ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً فَهِيَ فِدَاؤُهُ مِنَ النَّارِ ، وَمَنْ أَدْرَكَ أَحَدَ وَالِدَيْهِ ثُمَّ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ))(١).

[٢٢١] عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ حَفْصٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَذْنَبْتُ ذَنْبًا كَبِيرًا فَهَلْ لِي تَوْبَةٌ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((أَلَكَ وَالِدَانِ ؟)) قَالَ لا ، قَالَ : ((فَلَكَ خَالَةٌ ؟)) قَالَ نَعَمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ((فَبِرَّهَا إِذن)) (٢)

[٢٢٢] عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ ﷻ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ يَارَبِّ أَنَّى لِي هَذِهِ فَيَقُولُ بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ » (٣)

ولنا وقفات مع البر

هذه الوقفات المباركات تبين أن رجاء ما عند الله من غُنْمٍ وخير في الدنيا والآخرة لا يتأتى مع السبات والنوم ولكم يناله المسلم بعد جدٍ واجتهاد وعملٍ دؤوب متواصل وسعيٍ حثيث وإن لم يصنع ذلك وكان متوقعاً للبر والذخر والرحمة والجنة كان عبدا مغروراً ركب مركب الأماني فهيهات ثم هيهات .

أولا : إنه من أحب الأعمال إلى الله تعالى

[٢٢٣] عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ قَالَ «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا » قَالَت ثُمَّ أَيٌّ قَالَ « ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ » .قَالَت ثُمَّ أَيٌّ قَالَ « الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » قَالَ حَدَّثَنِي بِهِنَّ وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي.(١)

---

(١) الترغيب والترهيب للمنذري ٢١٩/٣ ونسبه لأحمد من عدة طرق وسند أحدها صحيح

(٢) إسناده صحيح : انظر أحمد تحقيق الأرنؤوط ح(٤٦٢٤) وقال : إسناده صحيح على شرط الشيخين

(٣) حسن : انظر أحمد : ٥١٦/٩ ، ٥١٧ ح/ ١٠٥٥٩ ورواه ابن ماجة : ٤/ ٩٦ ك/ الأدب ب/ بر الوالدين ح/ ٣٦٦٠ وقال الألباني حسن : وذكره في الصحيحة (١٥٩٨) ، المشكاة (٢٣٥٤ / التحقيق الثاني)

والمقصود بالبر الإحسان إليهما ، والقيام بحقهما ، والترحم عليهما ، والاستغفار لهما في حياتهما وبعد موتهما ، وإيصال أنواع الخير لهما بحسب الطاقة ما أمكن ذلك ، وترك الإساءة لهما بكل حال وعلى أي نحو وفي كل وقت وترك جميع أنواع العقوق من التأفف فما فوقه .

ولذلك فإن الحديث الماضي الذي قدم فيه الحبيب ﷺ قدم فيه البر على الجهاد يبين مدى عظم الإحسان وخطره وأنه سبب في عظيم القرب من الرب مع مغفرة الذنب ، وكشف الكرب ، ولقد فرق بعض أهل العلم بين الجهاد الذي هو فرض عين أي إذا كان العدو قد اعتدى على أرض المسلمين فلا يحتاج هذا إلى استئذان الأبوين لكن على أي حال فمترلة البر سامقة عظيمة .

[٢٢٤] عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ جَاهِمَةَ السَّلَمِيِّ أَنَّ جَاهِمَةَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَدْتُ أَنْ أَغْزُوَ وَقَدْ جِئْتُ أَسْتَشِيرُكَ فَقَالَ : ((هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ ؟)) قَالَ نَعَمْ قَالَ : ((فَالْزَمْهَا فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ رِجْلَيْهَا)) (٢)

[٢٢٥] وعن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو – رضي الله عنهما – يَقُولُ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ « أَحَيٌّ وَالِدَاكَ » . قَالَ نَعَمْ . قَالَ « فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ » (٣)

هكذا يتجلى لك خطر هذه القضية ومنـزلتها وكيف أنها من الأهمية بحيث تبلغ الجهاد بل تزيد عليه كثيرا وذلك فضل الله يعوض الناس عن أعمال في غاية المشقة بأعمال أخرى طيبة هينة سهلة مع فارق الأجر وعظيم الغنم .

[٢٢٦] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : إِنِّي جِئْتُ لأُبَايِعَكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَتَرَكْتُ أَبَوَيَّ يَبْكِيَانِ. قَالَ « فَارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا »

---

(١) البخاري ك المواقيت ب فضل الصلاة لوقتها ٣/١٨٧وفي كتاب الأدب ٢٢/١٧٧

(٢) ابن ماجة كتاب الجهاد باب الرجل يغزو وله أبوان ص ٩٣٠ وصححه الألباني في الإرواء ٥/٢٠/٢١ وأخرجه النسائي ٦/١١ كتاب باب التخلف لمن له والد ص ٣٧١ وقال الألباني حسن صحيح

(٣) مسلم ك البر والصلة ب بر الوالدين وأنهما أحق به ٤/١٩٧٥ ح ٢٥٤٨ .

زاد إسماعيل بن إبراهيم ((... وأبى أن يبايعه)) وفي رواية المحاربي : ((... إني جئت أريد الجهاد معك أبتغي وجه الله والدار الآخرة....))[(١)]

وفي شأن استئذان الأبوين عند الجهاد قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : قال جمهور العلماء : يحرم الجهاد إذا منع الأبوان أو أحدهما منه بشرط أن يكونا مسلمين ، لأن برهما فرض عين عليه ، والجهاد فرض كفاية ، فإذا تعين الجهاد فلا إذن . اهـ

وعليه فلا يجوز الجهاد والحالة هكذا إلا بإذنهما إن كانا مسلمين أو بإذن المسلم منهما فإن كانا مشركين فلا يشترط الإذن عند الشافعي ومن وافقه . هذا كله إذ لم يتعين الجهاد ويحضر الصف ، وتعيين الجهاد إذا داهم العدو بلداً إسلامياً أو كان النفير عاما أو حضر صفوف القتال ، أو انتدب الإمام رجلا بعينه ويلتحق بالجهاد السفر المباح فلا بد من إذن الأبوين أيضا .

ثانيا : تقديم الأم في البر

[٢٢٧] عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَقُّ بِحُسْنِ صَحَابَتِى قَالَ « أُمُّكَ » . قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ « أُمُّكَ » . قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ « أُمُّكَ » . قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ « ثُمَّ أَبُوكَ »[(٢)]

[٢٢٨] بَهز بن حكيم عن أبيه عن جده ﷺ قال : قلت : يا رسول الله ، مَنْ أبرُّ ؟ قال : « أُمَّك » ، قال : قلت : ثم مَن ؟ قال : « أمَّك » ، قال : قلت : ثم من ؟ قال : «أمك » ، قال : قلت : ثم مَن ؟ قال : « أباك ، ثم الأقربَ فالأقرب »[(٣)].

---

(١) الحميدي ٥٨٤ وأحمد ١٦٠/٢ وأبو داود ح رقم ٢٥٢٨وابن ماجة ح ٢٧٨٢ .

(٢) البخاري في الفتح ٤١٥/١١ ح ٥٩٧١ ك الأدب باب أحق الناس بحسن الصحبة .

(٣) صحيح سنن الترمذي ٣٣٩/٢ ح ١٨٩٧ وحسنه الألباني٤٩٢٩ وذكره في المشكاة ٤٩٢٩ .

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتح [١] قال ابن بطال : مقتضاه أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر ، قال : وكأن ذلك لصعوبة الحمل ثم الوضع ، ثم الرضاع ، فهذا تنفرد به الأم وتشقى به ، ثم تشارك الأب في التربية ، وقد وقعت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ [لقمان: ١٤]

فسوّى بينهما في الوصاية وخص الأم بالأمور الثلاثة .اهـ

وقال المحاسبي رَحِمَهُ اللَّهُ : أنه لا خلاف بين العلماء في أن للأم ثلاث أرباع البر ، وللأب الربع ، وقال القاضي عياض : وقد ذهب الجمهور إلى أن الأم تفضل على الأب

[٢٢٩] عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِيكَرِبَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « **إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ – ثَلَاثًا – إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِآبَائِكُمْ إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِالْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ** ». [٢]

فالله قد أوصى بها وببرها ... ولكي تبر فلا تقل أف لها
ولكي تنال الخلد في جناته ... لا بد حتما أن تنال رضاءها
فهي التي أفنت سنين شبابها ... مهما فعلت فلن توفي حقها
فإذا اشتكت يوما لفرط عنائها ... فمن العدالة أن تكون معينها
وإذا تأخر عمرها وتثاقلت ... فادع الإله بأن يطيل بقاءها
فالأم إن رضيت فإن رضاءها ... نور من الرحمن يمشي خلفها
والخير معقود كأن خيوطه ... رُبطت بكف لا يدوم بعادها
جبلت على تقديم كل معونة ... فهي العطاء ولن تغير طبعها
ترعى الصغير فإن أحس بعلة ... لا شيء يمكن أن يجفف دمعها
وتظل تسهر حول مهد صغيرها ... ترجو الشفاء لكي يزيل عذابها
سبحان من جعل الأمومة نعمة ... تضفي على كل الوجود حنانها

---

(١) فتح الباري ٤١٦/١١ .

(٢)حديث صحيح : انظر صحيح سنن ابن ماجة ح ٢٩٦٩ .

ثالثا : النهي عن العقوق

قال تعالى ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء]

قال القرطبي (١) من البر بهما والإحسان إليهما أن لا يتعرض لسبهما ولا يعقهما ، فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف وبذلك وردت السنة الثابتة اهـ

[٢٣٠] عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ « **إِنَّ اللَّهَ ﷻ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ وَوَأْدَ الْبَنَاتِ وَمَنْعًا وَهَاتِ وَكَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ** ». (٢)

ومعنى منعا: أي منع الرجل ما أمر بإعطائه ، وطلب ما لا يستحق أخذه ، قال تعالى: ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾ ومعنى هات : الاستعفاف في المسألة فلا يمنع ما لا يضر ولا يبخل به ، ولا يسأل ما لا يستحق .

[٢٣١] وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة ، عن أبيه ﷺ قال : قال : رسول الله ﷺ : ((**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ، قلنا بلى يا رسول الله . قال : ثلاثا الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين** ،...)) الحديث (٣)

قال الأستاذ سيد قطب عند قوله تعالى ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾

---

(١) التفسير ٣٨٥٤/٦ .

(٢) البخاري في الفتح ٤١٩/١٠ ك الأدب باب عقوق الوالدين من الكبائر .

(٣) البخاري في الفتح ٤١٩/١٠ .

تعبير يشف ، ويبلغ شغاف القلب ، وحنايا الوجدان ، فهي الرحمة ترف وتلطف ، حـــتى لكأنها الذل ، لا يرفع عينا ولا يرفض أمرا ، وكأنما للذل جناح يخفضه إيـــذانا بالســـلام والاستسلام اهـــ

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ : الويل كل الويل لعاق والديه ، والخزي كل الخزي لمـــن ماتا غضابا عليه ، أف لك . هل جزاء المحسن إلا الإحسان إليه ، أتبع الآن تقصـــيرك في حقهما أنينا وزفـــيرا ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإســـراء] يعالجـــان أنجاسك ، ويحبان بقاءك ، ولو لقيت منهما أذى شكوت شقاءك ، ما تشتاق لهما إذا غابا ويشتاقان لقاءك ، كم جرّعاك حلواً وجرّعتهما مريراً

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ ﴾

وقال القرطبي[١] : فينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه في خير ذلة في أقواله وسكناته ونظره , ولا يحد إليهما بصره فإن تلك هي نظرة الغاضب ... وقال : ثم أمر تعالى عباده بالترحم على آبائهم والدعاء لهم , وأن ترحمهما كما رحماك , وترفق بهما كما رفقا بك , إذ ولياك صغيرا , جاهلا محتاجا , فآثراك على أنفسهما وأسهرا ليلهما , وجاعا وأشبعاك , وتعريا وكسواك فلا تجزهما إلا أن يبلغا من الكبر الحد الذي كنت فيه من الصغر فتلي منهما ما وليا منك ويكون لهما حينئذ فضل التقدم اهـــ

ولذلك قال العلماء : عند قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإسراء]

فيها المنع من إظهار الضجر القليل والكثير حتى ولو كان على سبيل التأفف

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٢٤٤

﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ أي لا تتضجر مما يستقذر منهما ويستثقل من مؤنهما , قال مجاهد : فيما تميط عنهما من الأذى – الخلاء والبول – وقال السُدي : لا تقل لهما أف فما سواه .

قال الأستاذ سيد قطب [١] : إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد , إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات , وكما تمتص النبتة الخضراء كل غذاء في الحبة فإذا هي فتات , وكما يمتص الفرخ كل غذاء في البيضة فإذا هي قشر كذلك يمتص الأولاد كل رحيق وكل عافية وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين , فإذا هما شيخوخة فانية إن أمهلهما الأجل وهما مع ذلك سعيدان , فأما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله , ويندفعون بدورهم إلى الأمام إلى الزوجات والذرية ... اهـ

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ [٢] : وإن الوالدين ليبذلان لولديهما من أجسامهما وأعصابهما وأعمارهما , ومن كل ما يمتلكان من عزيز وغال في غير تأفف ولا شكوى بل في غير انتباه ولا شعور بما يبذلان , بل في نشاط وفرح وسرور , وكأنهما اللذان يأخذان ... فأما الوليد فهو في حاجة إلى الوصية المكررة ليلتفت إلى الجيل المضحي المدبر المولي الذاهب في أدبار الحياة بعد سكب عصارة عمره وروحه وأعصابه للجيل المتجه إلى مستقبل الحياة ... اهـ

عن عمارة بن مهران قال : قلت للحسن إلى ما ينتهي العقوق ؟ قال : أن تحرمهما , وتهجرهما , وتحد النظر إلى وجه والديك [٣]..اهـ

قال الذهبي المحدث في كتاب الكبائر في كبيرة عقوق الوالدين : أيها المضيع لآكد الحقوق , المعتاض من بر الوالدين العقوق , الناسي لما يجب عليه , الغافل عما بين يديه , بر الوالدين عليك دين , وأنت تتعاطاه باتباع شين , تطلب الجنة بزعمك , وهي تحت أقدام

(١) الظلال ٤ / ٢٢٢٢ .

(٢) الظلال ٥ / ٢٧٨٨

(٣) مصنف أبي بكر بن أبي شيبة ٨ / ٣٥٣ .

أمك , حملتك في بطنها تسعة أشهر , كأنها تسع حجج , وكابدت عند الوضـــع مـــا يذيب المهج , وأرضعتك من ثديها لبنا , وأطارت لأجلك وسنا , وغسلت بيمينها عنك الأذى , وآثرتك على نفسها بالغذا , وصيرت حجرها لك مهدا , وأنالتك إحسانا ورفدا , فإن أصابك مرض أو شكاية , أظهرت من الأسف فوق النهايـــة , وأطالـــت الحـــزن والنحيب , وبذلت مالها للطبيب , ولو خُيرت بين حياتك وموتها , لاختـــارت حياتـــك بأعلى صوتها , هذا وكم عاملتها بسوء الخلق مرارا , فدعت لك بالتوفيق سرا وجهارا , فلما احتاجت عند الكبر إليك , جعلتها أهون الأشياء عليك فشبعت وهـــي جائعـــة , ورويت وهي قانعة , وقدمت عليها أهلك وأولادك بالإحسان , وقابلت أياديها بالنسيان , وصعب لديك أمرها وهو يسير , وطال عليك عمرها وهو قصير , هجرتها ومـــا لهـــا سواك نصير , هذا ومولاك قد نهاك عن التأفيف , وعاتبك في حقها بعتـــاب لطيـــف , ستعاقب في دنياك بعقوق البنين , وفي أخراك بالبعد عن رب العالمين , يناديـــك بلســـان التخويف والتهديد ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنفال]

رابعا : دمعة إلى الأبناء العاقين في هذا الزمان

قالت شاعرة أرق العقوق مضجعها :

حملتـــك فـــي الأحشاء عبئا محببـــا ... فلا ضاق جسم بات بالحمل متعبا
وقلت إذا ما جاء طفلي ســـتختفي ... همومي وأسقامي فيا ألـــف مرحبـــا
وجئت فخت الكون حولي خميلـــة ... وطيرا تغني للوليد علـــى الـــربى
أرحتك فوق الصدر تمتـــص خـــيره ... وكل حناني في رضاعك ذُوِّبـــا
ورغم نضوب الكف لم أشك قلـــة ... وكنت لك الأم الحبيبة والأبـــا
وصارعت وحش العيش وحدي ولم يكن ... لديَّ سوى الإيمان سيفا لأغلبـــا
وإن فاض نبع الخير للـــم أرو غلـــتي ... وجئتك بالفيض الوفير لتشـــربا

رضيت من الدنيا الكفاف لكي أرى وحيدي في أحضانها متقلبا
أضاءت بدمع العين والقلب مشعلا يضيء لك الدنيا إذا نورها خبا
عصرت حياتي قطرة بعد قطرة لأرويك حتى أورق الغصن بالصبا
كبرت فلما أثمرت فيك منحتي ودقّ فؤادي حول غصنك معجبا
خدشت بأشواك العقوق شغافه فخرّ صريعا بالهوان مخضبا
ومرّ نسيم فانثنى الغصن تحته فهبّ فؤادي للنسيم مؤنبا
عجبت لقلبي كيف يصفو لغادر ويبقى مهينا في الحياة معذبا
يئن ويبكي في انكسار ولوعة فإن قلت تشكوه إلى ربنا أبى
أنا الأم أوصى بي إلهي ولم أزل وحسبك بالقرآن منه مؤدبا
لقد رفع الرحمن قدري وقيمتي وأشرف خلق الله جاء معقبا
فكيف نسيت الله فيّ ولم تزل تمسك بالإسلام دينا ومنصبا

أقوال في العقوق

* الولد العاق إن مات نغصّك وإن عاش نقصك .

*والولد العاق كالإصبع الزائدة إن تركت شانت وإن قطعت آذت.

*وقيل لبعض الفلاسفة : مالك تكره الولد ؟

قال : مالي وللولد . إن عاش كدّني , وإن مات هدّني .

*قال زيد بن على بن الحسين لابنه : إن الله رضيني لك فأوصاك بي , وحذرني منك .

*قال معاذ بن جبل ﷺ أوصاني رسول الله ﷺ بعشر كلمات قال : لا تشرك بالله شيئا وإن قتلت وحرقت , ولا تعقن والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك ..(١)

[٢٣٢] عَنْ سَهْلٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ « إن لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَاداً لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ولاَ يُزَكِّيهِمْ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ». قِيلَ لَهُ مَنْ أُولَئِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ

---

(١) أحمد في المسند من حديث معاذ ٥/ ٢٣٨

قَالَ « مُتَبَرٌّ مِنْ وَالِدَيْهِ رَاغِبٌ عَنْهُمَا وَمُتَبَرٌّ مِنْ وَلَدِهِ وَرَجُلٌ أَنْعَمَ عَلَيْهِ قَوْمٌ فَكَفَرَ نِعْمَتَهُمْ وَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ »(١)

قال ابن عباس ﷺ : فلا يغلظ لهما في الجواب , ولا يحد النظر إليهما , ولا يرفع صــوته عليهما , بل يكون بين يديهما مثل العبد بين يدي السيد تذللا لهما . اهــ (٢)

وقال الهيثمي يرحمه الله أمر الله تعالى بالإحسان إليهما وهو الــبر والشــفقة والعطــف والتودد وإيثار رضاهما ونهى أن يقال لهما أف , إذ هو كناية عن الإيذاء بأي نوع كان , حتى بأقل أنواعه ... ثم أمر بأن يقال لهما القول الكريم أي اللين اللطيف المشتمل علــى العطف والاستمالة , وموافقة مرادهما وميلهما ومطلوبهما ما أمكن سيما عند الكبر , فإن الكبير يصير كحال الطفل وأرذل , لما يغلب عليه من الخرف وفساد التصور فيرى القبيح حسنا والحسن قبيحا ... اهــ(٣)

وقال رحمه الله : ثم أمر تعالى بعد القول الكريم بأن يخفض لهما جناح الذل من القــول بألا يكلما إلا مع الاستكانة والذل والخضوع وإظهار ذلك واحتمال ما يصــدر منــهما ويريهما أنه في غاية التقصير في حقهما وبرهما وإنه من أجل ذلك ذليل حقير ولا يزال على نحو ذلك إلى أن ينثلج خاطرهما ويبرد قلبيهما عليه فيعطفا عليه بالرضا والدعاء اهــ (٤)

خامسا : مناهي زجر عنها الشرع من العقوق فاحذرها

١- سبُّ الوالدين مباشرة أو بغير مباشرة كأن يتسبب في ذلك

[٢٣٣] لحديث أبي هريرة أنّ النبي ﷺ ذكر في كتابه الذي كتبه إلى أهل اليمن وبعث به عمرو بن حزم : ((**وإن من أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة الإشراك بــالله ، وقتــل**

(١) رواه أحمد في المسند ٣ / ٤٤٠

(٢) الزواجر لابن حجر الهيثمي ٢ / ١٤٥ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق ٢ / ١٤٦

النفس المؤمنة بغير حق والفرار في سبيل الله يوم الزحف وعقوق الوالدين ورمي المحصنة ،وتعلم السحر ,وأكل الربا وأكل مال اليتيم)).الحديث [١]

[٢٣٤] وفي حديث عمرو بن مرة الجهني ... جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله شهدت أن لا إله إلا الله ،وأنك رسول الله ،وصليت الخمس ،وأديت زكاة مالي ،وصمت رمضان ،فقال رسول الله ﷺ: **((من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين يوم القيامة))** هكذا ونصب إصبعيه ما لم يعق والديه [٢] . وهذا يدل بداهة على أن العقوق حائل ومانع من دخول الجنة حتى وإن كان العاق ممن يقيم هذه الشعائر والشرائع فانتبه .

[٢٣٥] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو – رضي الله عنهما – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **« إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ »** . قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ قَالَ **«يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ »** [٣].

والحديث وإن لم يذكر لعن الوالدين مباشرة لكن الولد كان سبباً في ذلك لبذاءة لسانه ، وكثرة لعنه فعاد ذلك على الوالدين بالسب واللعن فكان من الكبائر بلا خلاف وهذا زاجر لمن يسب الخلق حتى لا يتعرض للعقوبة من أكثر من وجه ، والمسلم إذا علم أن هذا من العقوق فينبغي أن يترك ذلك وما أفضى إليه من جميع الوجوه .

قال الحافظ : والمذكور هنا فرد من أفراد العقوق ، وإن كان التسبب إلى لعن الوالد من أكبر الكبائر فالتصريح بلعنه اشد ... **((قيل : يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه ؟))** هو استبعاد من السائل لأن الطبع المستقيم يأبى ذلك ، فبين في الجواب أنه وإن لم يتعاط السبَّ بنفسه في الأغلب الأكثر ، لكن قد يقع منه التسبب فيه وهو مما يمكن

---

(١) ابن حبان ٥٥٣٥/٧ وذكره الألباني في صحيح الجامع ١٤٤.

(٢) ابن خزيمة ٢٢١٢/٣ وذكره الهيثمي في المجمع ٤٦/١ من حديث عمرو بن مرة الجهني وقال :رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا شيخي البزار وأرجو إسناده إسناد حسن أو صحيح .وصححه الألباني .

(٣) البخاري في الفتح ١٠ / ٤١٧ ح ٥٩٧٣

وقوعه كثيرا ، قال ابن بطال : هذا الحديث أصل في سد الذرائع ، ويؤخذ منه أنه من آل فعله إلى محرم يحرم عليه ذلك الفعل ، وإن لم يقصد إلى ما يحرم والأصل في هذا الحديث قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] وقال الشيخ محمد بن أبي جمرة : فيه دليل على عظم حق الأبوين ، وفيه العمل بالغالب لأن الذي يسب أبا الرجل يجوز أن يسب الآخر أباه ويجوز أن لا يفعل ، لكن الغالب أن يجيبه بنحو قوله . . اهـ (١)

[٢٣٦] عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ قَالَ ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْكَبَائِرَ ، أَوْ سُئِلَ عَنِ الْكَبَائِرِ فَقَالَ «الشِّرْكُ بِاللَّهِ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ » . فَقَالَ « أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ – قَالَ – قَوْلُ الزُّورِ – أَوْ قَالَ – شَهَادَةُ الزُّورِ » . قَالَ شُعْبَةُ وَأَكْثَرُ ظَنِّي أَنَّهُ قَالَ «شَهَادَةُ الزُّورِ » (٢).

ولاحظ أنه ذكره عقب الشرك بالله والقتل لعظم إثمه وخطر الوقوع فيه ، لأنه هالك إلا أن يتداركه الرحمن بفضله فيتوب عليه .

قال الحافظ رحمه الله في الفتح : والمراد به صدور ما يتأذى به الوالد من ولده من قول أو فعل إلا في شرك أو معصية ما لم يتعنت الولد ،وضبطه ابن عطية بوجوب طاعتهما في المباحات فعلاً وتركاً واستحباباً في المندوبات وفروض الكفاية كذلك ،ومنه تقديمهما عند تعارض الأمرين وهو كمن دعته أمه ليمرضها مثلا حيث يفوت عليه فعل واجب إن استمر عندها ويفوت ما قصدته من تأنيسه لها وغير ذلك لو تركها وفعله وكان مما يمكن تداركه مع فوات الفضيلة كالصلاة أول الوقت أو في الجماعة .اهـ (٣)

إن من أهم مظاهر الوفاء والنبل أن يعرف المرء الجميل لأهله ،ويقدر الإحسان لأرباب الإحسان ،ومن لا يشكر الناس لا يشكر رب الناس لأن الذي أمر بشكر المحسنين هو الله

---

(١) فتح الباري ١٠ / ٤١٨

(٢) البخاري في الفتح ١٠ / ٤١٩ ح ٥٩٧٧

(٣) الفتح ١٠ /٤١٩, ٤٢٠ .

تعالى .وإذا وجب شكر المعروف وعرفان الجميل لأحد فهو للوالدين أحق وأوجب ،ولو أحسن الناس جميعا للإنسان وقدموا له من صنوف البر وألوان الخير ما لم يكن يتوقعه لما ساوي ذلك قطرة في بحر من حب وعطف الوالدين ولما كان ذلك ولا لمحة من مودتهما فهما رحمة من رب العالمين فهما أول يد طافت بالإنسان ورحمة قيضها الله له ليعيش الإيناس والبشر والبهجة والسرور.

٢ - العاق إن لم يتب حرم من نظر الله إليه يوم القيامة

[٢٣٧] عن عَبْدُ اللَّهِ بن عمر قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « **ثَلاَثٌ لاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْعَاقُّ وَالِدَيْهِ وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ الْمُتَشَبِّهَةُ بِالرِّجَالِ وَالدَّيُّوثُ. وَثَلاَثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْعَاقُّ وَالِدَيْهِ وَالْمُدْمِنُ الْخَمْرَ وَالْمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى** »(١).

وتخيل إذا عمت الذنوب وعظمت حتى تجعل الإنسان محجوبا من أعظم النعم وأكملها يوم القيامة والتي هي أعظم من دخول الجنة من نعمة نظر الله إليه .

فأول هذه المعاصي شؤماً العقوق وإدمان الخمر والمنان عطاءه : أي الذي يمن على من أعطاه وربما عيره بذلك فصارت عطيته مشوبة بالمن والأذى فأضاع عمله وخرّب سعيه وحرم نظر الله إليه .

والمقصود بالديوث :أي الذي لا يغار على أهله فيقر فيهم الخبث ويكون كالخنزير في عدم الغيرة على عرضه ،والمقصود بالرجلة :أي المتشبهة من النساء بالرجال .

٣ - لا يقبل الله من العاق يوم القيامة صرفا ولا عدلا .

[٢٣٨] عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((**ثَلاثَةٌ لا يُقْبَلُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفٌ، وَلا عَدْلٌ: عَاقٌّ، وَمَنَّانٌ، وَمُكَذِّبٌ بِقَدَرٍ**))(٢)

ومعني لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا أي لا يقبل منه عملا لا فريضة ولا نافلة .

---

(١) أحمد في مسنده ح(٦١٨٠) وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط : إسناده حسن رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الله بن يسار

(٢) صحيح الجامع ح ٣٠٦٥والصحيحة ١٧٨٥.

٤ -لا يدخل الجنة مع الداخلين بغير حساب ولا عذاب

[٢٣٩] لحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ((ثلاثة قد حرّم الله عليهم الجنة :مدمن الخمر ،والعاق ،والديوث الذي يقر في أهله الخبث)) (١)

[٢٤٠] وفي رواية : ((ثلاثة لا يدخلون الجنة أبداً : الديوث والرجُلة مـــن النســـاء ومدمن الخمر)) وفي رواية أخري ((العاق لوالديه)) .(٢)

[٢٤١] عن أبي الدرداء سمع النبي ﷺ يقول : ((الوالد أوسط أبواب الجنة ،فأضع ذلك الباب أو احفظه)) (٣)

[٢٤٢] وعنه ﷺ عن النبي ﷺ قال : ((لا يدخل الجنة عاق ....)) (٤)

[٢٤٣] وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((يراح ريح الجنة من مســـيرة خمسمائة عام ، ولا يجد ريحها منان بعمله ولا عاقٌ ولا مدمن خمر)) (٥)

٥ - تعجيل العقوبة له في الدنيا مع ما ينتظره في الآخرة

[٢٤٤] عن أبي بكرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((كل الذنوب يؤخر الله ما شاء منها إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فإن الله تعالى يعجله لصاحبه في الحيـــاة قبل الممات)) (٦).

---

(١) صحيح الجامع ح ٣٠٥٢.

(٢) صحيح الجامع ٥٨٧/١

(٣) الحميدي ٣٩٥.

(٤) جزء حديث عند أحمد ٦/ ٤٤١ وابن ماجه ٣٣٧٦

(٥) الترغيب والترهيب ٣ / ٣٢٧

(٦) الحاكم في المستدرك ٤ / ١٧٣ ح ٧٢٦٣ وقال الحاكم : صحيح الإسناد و لم يخرجاه .

[٢٤٥] وعن أبي بكرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : ((ما من ذنب أجدر أن يعجل لصاحبه العقوبة مع ما يُدَّخر له ، من البغي وقطيعة الرحم)) (١)

٦ - جُرم إبكاء الوالدين

[٢٤٦] عن السائب ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ ، جاء رجل إلى النبي ﷺ يبايعه قال : جئت لأبايعك على الهجرة ، وتركت أبويَّ يبكيان ، قال ﷺ: ((فارجع إليهما ، فأضحكهما كما أبكيتهما)) زاد إسماعيل بن إبراهيم ((... وأبي أن يبايعه))
وفي رواية المحاربي :...إني جئت أريد الجهاد معك أبتغي وجه الله والدار الآخرة...." (٢)
والمسلم الفطن يلمح خطورة وجرم إبكاء الوالدين من ثنايا السطور من خلال حديث الصادق المصدوق ﷺ إذ إنه أرجع الرجل من سفر طويل مع أنه متلبث بطاعة وهي الجهاد فلو لم يكن إبكائهما جرما مستطيرا وإنما كبيرا ما أرجعه ﷺ من حيث أتي ، يدل على ذلك ما في رواية إسماعيل بن إبراهيم ((وأبي أن يبايعه)) فافطن إلى ذلك يرحمك الله .
[٢٤٧] عن عبد الله بن عمرو ... قال : رأيت رسول الله ﷺ ... إذ أقبل رجل من هذا الشِعب فسلّم على رسول الله ﷺ ثم قال : يا رسول الله إني أردت الجهاد معك ابتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة ، قال : ((هل من أبويك أحد حي ؟)) قال : نعم يا رسول الله كلاهما ، قال : ((فارجع ابرر أبويك)) قال : فولى راجعا من حيث جاء (٣)
والعبد المسلم يتعامل في مرضاة الله عز وجل وهو يهتم بمراتب الأعمال وعظم الأجور لأن هذا يدل على نظر ثاقب وفقه واعٍ وبحث في كل ميدان عن طاعة الله عز وجل مع الاستباق .

---

(١) الأدب المفرد ١ / ١٨

(٢) الحميدي ٥٨٤ وأحمد ٢ / ١٦٠ وأبو داود ح ٢٥٢٨ وابن ماجه ح رقم ٢٧٨٢

(٣) أحمد ٢ / ١٦٣ ومسلم ٨ / ٣ ط استانبول

٧ - عدم تزكية العاق والحرمان منها من قبل الله

وذلك كالتبرؤ من الوالدين والطعن فيهما وفي نسبهما أو في صحة نسب الولـد إليهمـا والاستكبار عليهما والرغبة عنهما .

[٢٤٨] عن سهل ، عن أبيه ، عن النبي ﷺ أنه قال : ((**إن لله تبارك وتعالى عبـادا لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ، ولا ينظر إليهم**)) . قيل له : مَن أولئك يا رسول الله ؟ قال ((**مُتبرٌ من والديه راغب عنهما ...**)) (١)

٨ - لعن الله من لعن والديه

[٢٤٩] وذلك لحديث أبي طفيل قال : سُئِل علي... مرفوعا : ((**لعن الله من ذبح لغير الله ، لعن الله من سرق منار الأرض ، لعن الله من لعن والديه ، لعن الله من آوى محدثا**)) (٢)

الحديث مرفوع إلى رسول الله ﷺ وسرق منار الأرض : غيَّر حدودها

العقوق وعلاقته بالنار :

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

---

(١) أحمد ٣ / ٤٤٠ جزء حديث

(٢) الأدب المفرد ح ١٨ وهو عند مسلم كتاب الأضاحي والحـاكم في المسـتدرك ٤ / ١٥٣ و ٣٥٦ وصحيح الأدب المفرد ح ١٣ والمشكاة ٤٠٧٠

شرح الكلمات

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ ﴾ : الذي اسم موصول استعمل استعمال الجنس فدل على متعد بدليل الخبر عنه وهو أولئك الذين حق عليهم القول .

﴿أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ : أي نتناً وقبحاً لكما .

﴿أَنۡ أُخۡرَجَ ﴾ : أي من القبر حيا بعد موتي .

﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ ﴾ : أي مضت الأمم قبلي و لم يخرج منها أحد من قبره .

﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ ﴾ : أي يطلبان الغوث برجوع ولدهما إلى الإيمان بعد الإلحاد والكفر .

﴿وَيۡلَكَ ءَامِنۡ ﴾ : أي يقولان له إن لم ترجع ويلك أي هلاكك أي هلكت آمن بالبعث .

﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ : وقد وعد العباد بالرجوع إليه ومحاسبتهم على أعمالهم ومجازاتهم بها

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ : أي ما القول بوجود بعث للناس أحياء بعد الموت إلا أكاذيب الأولين .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ ﴾ : أي وجبت عليهم القول بالعذاب يوم القيامة .

﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم﴾ : أي في جملة أمم قد مضت من قبلهم من الجن والإنس .

﴿ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ ﴾ : أي ولكل من المؤمنين البارين ، والكافرين الفاجرين درجات مما عملوا درجات المؤمنين في الجنة ودرجات الكفار في النار .

﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا ﴾ : أي يقال لهم أذهبتم طيباتكم باشتغالكم بملذاتكم في الدنيا .

﴿وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا ﴾ : أي تمتعتم بها في الحياة الدنيا .

﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ : أي جزاؤكم عذاب الهوان .

﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ : أي تتكبرون في الأرض .

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ : أي إذ لا حق لكم في الكبر والكبرياء لله ، ولم يأذن لكم فيه .

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ : أي تخرجون عن طاعة الله ورسوله .

مناسبة الآيات :

[لما ذكر تعالى الرجل المؤمن وأعماله الصالحة ومواقفه المشرفة ذكر هنا الرجـــل الكـــافر وأعماله الباطلة ومواقفه السيئة وذلك من باب الدعوة إليه تعالى بالترغيب والترهيب فقال تعالى ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى ﴾ يخبر تعالى عن أخبث إنسان هو ذاك الملحد العاق لوالديه المنكر للبعث والجـزاء إذ قـــال لوالديه أمه وأبيه أُف لكما أي نتناً وقبحا لكما أتعدانني بأن أخرج من قبري حياً بعد مـــا مت ، وقد مضت أُمم وشعوب قبلي ، وما خرج منها أحد من قبره فكيف تعدانني أنتما ذلك إن هذا لتخلف عقلي وتأخر حضاري وقولـــه تعـــالى ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ أي ووالداه يستغيثان الله ويستصرخانه طلبا إغاثتهما بهداية ولدهما الملحد الشيوعي ، ويقولان للولد ﴿وَيْلَكَ﴾ أي هلاكك حضر يا ولد هلكت ﴿ءَامِنْ﴾ بالعبث والجزاء وصلّ وصُم واترك الزنا والخمر ويلك ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي إن ما وعد الله به عباده من إحيـــائهم للحشر والحساب والجزاء حق فلا يتخلف أبد فيرد عليهما الولد الملحد الدّهريُّ بما أخـــبر تعالى به عنه في قوله فيقول ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي أكاذيبهم الـــتي كـــانوا يعيشون عليها ويقصونها في مجالسهم ، وبما أن الذي قال لوالديه لفظه مفرد ولكنــه دال على جنس كان الخبر جمعا فقال تعالى في الإخبار عنـــهم ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ أي القول بالعذاب الدال عليـــه قولـــه تعـــالى﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ

وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [السجدة] وفي قوله ﴿فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ أي في جملة أمم سبقتهم في الإلحاد والكفر من العالمين عالم الجن وعالم الإنس وقوله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ وأي خسران أعظم من عبد يخسر نفسه وأهله ويعش في جهنم خالدا فيها أبدا . وقوله تعالى ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ أي ولكل من المؤمنين البارين والكافرين العاقين درجات مما عملوا من خير أو شر إلا أن درجات المؤمنين في الجنة تذهب في عُلو متزايد ودرجات الكافرين في النار تذهب في سفل متزايد إلى أسفل سافلين وقوله تعالى ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ كاملة غير وصة

وقرأ نافع وحفص عن عاصم (أفٍ) بكسر الفاء منونا . وقرأه ابن كثير وابـن عـامر ويعقوب (أفَ) بفتح الفاء غير منوّن . وقرأه الباقون أف بكسر الفاء غير منون وهـي لغات ثلاث فيه

واعلم في قوله ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ محسن الاتزان فإنه بوزن مصراع من الرمل عروضه محذوفة وضربه محذوف وفيه الخبن والقبض ويزاد فيه الكف على قراءة غير نافع وحفص

والاستفهام في ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ ﴾ إنكار وتعجب . والإخراج : البعث بعد الموت وجعلت جملة الحال وهي ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ قيدا لمنتهى الإنكار أي كيـف يكون ذلك في حال مضي القرون .

والقرون : جمع قرن وهو الأمة التي تقارب زمان حياتها وفي الحديث الذي رواه مسـلم وغيره من أصحاب السنن والمسانيد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ... » (١). الحديث وقال تعـالى ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ [القصـص: ٧٨] والمعنى : أنه أحال أن يخرج هو من الأرض بعد الموت وقد مضت أمم كثيرة وطال عليها الزمن فلم يخرج منهم أحد . وهذا من سوء فهمه في معنى البعـث أو مـن المغالطـة في الاحتجاج لأن وعد البعث لم يوقت بزمن معين ولا أنه يقع في هذا العالم

وقرأ الجمهور ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ﴾ بنونين مفككين وقرأه هشام عن ابن عامر بإدغام النونين

ومعنى ﴿يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ يطلبان الغوث من الله أي يطلبان من الله الغوث بـأن يهديـه فالمعنى : يستغيثان الله له

---

(١) مسلم نووي : ١٦/٦٥ ، ٦٦ ك/ فضائل الصحابة ب/ فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ح/ ٢٥٣٣ .

وليست جملة ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ بيانا لمعنى استغاثتهما ولكنها مقول قول محذوف يدل عليه معنى الجملة

وكلمة ﴿وَيْلَكَ﴾ كلمة تهديد وتخويف

والويل : الشر . وأصل ويلك : ويل لك كما في قوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة: ٧٩] فلما كثر استعماله وأرادوا اختصاره حذفوا اللام ووصلوا كاف الخطاب بكلمة (ويل) ونصبوه على نزع الخافض

وفعل ﴿ءَامِنْ﴾ منزل منزلة اللازم أي اتصف بالإيمان وهو دعوة الإسلام وجملة ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ تعليل للأمر بالإيمان وتعريض له بالتهديد من أن يحق عليه وعد الله

﴿أَسَٰطِيرُ﴾ : جمع أسطورة وهي القصة وغلب إطلاقها على القصة الباطلة أو المكذوبة كما يقال : خرافة وتقدم في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ في سورة النحل وفي قوله ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا ﴾ في سورة الفرقان

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ يجوز أن يكون اسم الإشارة مشيراً إلى الذي قال لوالديه هذه المقالة لما علمت أن المراد به فريق فجاءت الإشارة إليه باسم إشارة الجماعة بتأويل الفريق اهـ .

من هداية الآيات :

١- حرمة عقوق الوالدين وأنها من الكبائر .

٢- بيان حنان الوالدين وحبهما لولدهما وبذلك كل ما يقدران عليه من أجـل إسـعاده وهدايته .

٣- التحذير من الانغماس في الملاذ والشهوات والاستمتاع .

٤- التحذير من الكبر والفسق وأن الكبر من أعمال القلوب والفسق من أعمال الجوارح

٥- مدى فهم السلف الصالح لهذه الآية ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾

* روى أن عمر بن الخطاب كان يقول لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وألينكم لباسـا ، ولكن استبقي طيباتي .

وذُكِر أنه لمّا قدم الشام صنع له طعام لم ير قبله مثله ، قال هذا لنا لفقراء المسلمين الـذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير؟ فقال له خالد بن الوليد لهم الجنة ، فاغرورقت عينا عمر ﷺ وقال لئن كان حظنا الحطام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بونا بعيداً .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا

بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ
أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً
مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) ﴾

شرح الكلمات :

﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ : أي لم يتعب و لم ينصب لخلق السموات والأرض .

﴿ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ ﴾ : أي انه قادر على إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم للحشر .

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ : أي ليعذبوا فيها .

﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ﴾ : أي يقال له تقريعاً : أليس هذا أي العذاب بحق؟ .

﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ : أي انه لحق وربنا حلفوا بالله تأكيداً لخبرهم .

﴿ فَاصْبِرْ ﴾ : أي يا رسولنا محمد على أذى قومك .

﴿ أُولُوا الْعَزْمِ ﴾ : أي أصحاب الحزم والصبر والعزم وهم نوح ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم أجمعين وسلم وهم أصحاب الشرائع .

﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ : أي ولا تستعجل نزول العذاب لأجلهم .

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ : أي في الآخرة .

﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً ﴾ : أي لم يقيموا في الدنيا إلا ساعة من نهار وذلك لطول العذاب .

﴿ بَلَاغٌ ﴾ : أي هذا القرآن بلاغ للناس أي تبليغ لهم .

﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ : أي ما يهلك إلا القوم التاركون لأمر الله المعرضون عنه الخارجون عن طاعته .

مناسبة الآيات :

ولما أتم ﷻ ما اقتضاه مقصود هذه السورة من أصول الدين وفروعه والتحذير من سطواته بذكر بعض مثلاته ، وختم بضلال من لم يجب الداعي ، نبه على أن أوضح الأدلة على إحاطته بالجلال والجمال وقدرته على الأجل المسمى الذي خلق الخلق لأجله ما حلى به مطلع السورة من إبداع الخافقين وما فيهما من الآيات الظاهرة للأذن والعين ، فقال مبكتاً لهم على ضلالهم عن إجابة الداعي ومنكراً عليهم وموبخاً لهم مرشداً بالعطف على غير مذكور إلى أن التقدير : ألم ير هؤلاء الضلال ما نصبنا في هذه السورة من أعلام الدلائل وواضح الرسائل في المقاصد والوسائل ، عاطفاً عليه قوله تعالى رداً لمقطع السورة بتقرير المعاد على مطلعها المقرر للبدء بخلق الكونين بالحق : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي يعلموا علماً هو في الوضوح كالرؤية ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ ودل على هذا الاسم الأعظم بقوله : ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ على ما احتوت عليه مما يعجز الوصف من العبر ﴿وَالْأَرْضَ﴾ على ما اشتملت عليه من الآيات المدركة بالعيان والخبر ﴿وَلَمْ يَعْيَ﴾ أي يعجز ، يقال : عيي بالأمر - إذ لم يهتد لوجه مراده أو عجز عنه ولم يطق إحكامه ، قال الزجاج : يقال : عييت بالأمر - إذ لم تعرف وجهه ، وأعييت : تعبت ، وفي القاموس : وأعيى بالأمر : كل ﴿بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي بسببه فإنه لو حصل له شيء من ذلك لأدى إلى نقصان فيهما أو في إحدهما ، وأكد الإنكار المتضمن للنفي بزيادة الجار في حيز « أن » فقال تعالى : ﴿بِقَادِرٍ﴾ أي قدرة عظيمة تامة بليغة ﴿عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ﴾ أي على سبيل التجديد مستمراً ﴿الْمَوْتَىٰ﴾ والأمر فيهم لكونه إعادة ولكونهم جزاء يسيراً منها ذكر اختراعه أصغر شأناً وأسهل صنعاً .ولما كان هذا الاستفهام الإنكاري في معنى النفي ، أجابه بقوله تعالى ﴿بَلَىٰ﴾ قد علموا أنه قادر على ذلك علماً هو في إتقانه كالرؤية بالبصر لأنهم يعلمون أنه المخترع لذلك ، وأن الإعادة أهون من الابتداء في مجاري عاداتهم ، ولكنهم عن ذلك ، غافلون

لأنهم عنه معرضون ، ولما كانوا مع هذه الأدلة الواضحة التي هي أعظم من المشاهدة بالبصر ينكرون ما دلت عليه هذه الصنعة من إحاطة القدرة ، علل ذلك مؤكداً له بقوله مقرراً للقدرة على وجه عام يدخل فيه البعث الذي ذكر أول السورة أنه ما خلق هذا الخلق إلا لأجله ليختم بما بدأ به ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي هو أهل لأن تتعلق القدرة به ﴿قَدِيرٌ﴾ .

ولما ثبت البعث بما قام من الدلائل ذكر ببعض ما يحصل في يومه من الأهوال تحذيراً منه ، فقال عاطفاً على ما تقديره : اذكر لهم هذا القياس الناطق بالمراد وما مضى في هذه السورة من الزواجر ﴿وَيَوْمَ﴾ أي واذكر يوم ﴿يُعْرَضُ﴾ بأيسر أمر من أوامرنا ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ستروا بغفلتهم وتماديهم عليه هذه الأدلة الظاهرة ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾ عرض الجند على الملك فيسمعوا من تغيظها وزفيرها ويروا من لهيبها واضطرامها وسعيرها ما لو قدر أن أحداً يموت من ذلك لماتوا من معاينته وهائل رؤيته .

ولما كان كأنه قيل : ماذا يصنع بهم في حال عرضهم؟ قيل : يقال على سبيل التبكيت والتقريع والتوبيخ : ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ أي الأمر العظيم الذي كنتم به توعدون ولرسلنا في أخبارهم تكذبون ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي الأمر الثابت الذي يطابقه الواقع ، فلا قدرة لكم على صليه أمر هو خيال وسحر ، فلا تبالون بوروده .

ولما اشتد تشوف السامع العالم بما كانوا يبدون من الشماخة والعتو إلى جوابهم ، قال في جوابه مستأنفاً : ﴿قَالُوا۟﴾ أي مصدقين حيث لا ينفع التصديق : ﴿بَلَىٰ﴾ وما كفاهم البدار إلى تكذيب أنفسهم حتى أقسموا عليه لأن حالهم كان مباعداً للإقرار ، وذكروا صفة الإحسان زيادة في الخضوع والإذعان ﴿وَرَبِّنَا﴾ أي إنه لحق هو من أثبت الأشياء ، وليس فيه شيء مما يقارب السحر ، ثم استأنف جواب من سأل عن جوابه لهم بقوله تعالى : ﴿قَالَ﴾ مبكتاً لهم بياناً لذلهم موضع كبرهم الذي كان في الدنيا مسبباً عن تصديقهم هذا الذي أوقعوه في غير موضعه وجعلوه في دار العمل التي مبناها على الإيمان بالغيب

تكذيباً معبراً بما يفهم غاية الاستهانة لهم : ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي باشروه مباشرة الذائق باللسان ، ثم صرح بالسبب فقال : ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ أي خلقاً وخلقاً مستمراً دائماً أبداً ﴿تَكْفُرُونَ﴾ في دار العمل ؛ ولما علم بما قام من الأدلة وانتصب من القواطع أن هذا مآلهم ، سبب عنه قوله رداً على ما بعد خلق الخافقين في مطلعها من أمر الرسول ﷺ ونسبتهم له إلى الافتراء وما بعده : ﴿فَٱصْبِرْ﴾ أي على مشاق ما ترى في تبليغ الرسالة ، قال القشيري : والصبر هو الوقوف بحكم الله والثبات من غير بث ولا استكراه . ﴿كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ﴾ أي الجد في الأمر والحزم في الجد والإرادة المقطوع بها والثبات الذي لا محيد عنه ، الذين مضوا في أمر الله مضياً كأنهم أقسموا عليه فصاروا كالأسد في جبلته والرجل الشديد الشجاع المحفوف بقبيلته ، قال الرازي في اللوامع : فارقت نفوسهم الشهوات والمنى فبذلوا نفوسهم لله صدقاً لاتفاق النفس القلب على البذل

ولما تشوف السامع إلى بيانهم قال : ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ عليهم الصلاة والسلام ، وقيل وهو ظاهر جداً : أن ﴿مِنَ﴾ للتبعيض ، والمراد هم أصحاب الشرائع الذين اجتهدوا في تأسيس قواعدها وتثبيت معاقدها ، ومشاهيرهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وقد نظمهم بعضهم في قوله :

أولو العزم نوح والخليل بن آزر ... وموسى وعيسى والحبيب محمد

والخلاف في تعيينهم كثير منتشر هذا القول أشهر ما فيه ، وكله مبني على أن ﴿مِنَ﴾ للتبعيض وهو الظاهر ، والقول بأنهم جميع الرسل - قال ابن الجوزي - قاله ابن زيد

واختاره ابن الأنباري وقال : ﴿مِنَ﴾ للتجنيس لا للتبعيض ، وفي قول أنهم جميع الأنبيــاء إلا يونس عليه السلام [١]- قال ابن الجوزي : حكاه الثعلبي .اهـــ [٢]

من هداية الآيات :

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء .

٢- الكفر ... هو تكذيب بوجود الله تعالى وهو الإلحاد أو تكذيب بلقائه تعالى أو بآياته أو رسله ، أو شرائعه بعضا أو كُلاً :

٣- وجوب الصبر على الطاعات فعلا ، وعن المعاصي تركا ، وعلى البلاء بعدم التّضجُّر والسّخط .

٤- إطلاق الفسق على الكفر باعتباره خروجا عن طاعة الله فيما يأمر به مـــن العقائــد والعبادات وينهى عنه من الشرك والمعاصي .ا هـــ [٣]

---

(١) هذا قول ضعيف مردود وذلك لأن النبي ﷺ قال : ((لا ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متّى)) البخاري :٦/٦٣٠ فتح ك/ أحاديث الأنبياء ب/ قول الله تعالى ﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾ ، هذا مع أنه ﷺ خير الخلق بإطلاق وقد بيَّن ذلك في صحيح وصريح السنة والحديث يرد القول الضعيف السالف .

(٢) انظر التحرير والتنوير للبقاعي تفسير سورة الأحقاف الآيات (٣٣ – ٣٥) .

(٣) انظر تفسير الجزائري : ٣/ ٣١٥ لسورة الأحقاف الآيات (٣٣ – ٣٥) ط/ دار الحديث .

سُورَةُ مُحَمَّد

بين يدي السورة :

سورة محمد ﷺ سورة مدنية إلا آية (١٣) فنزلت في الطريق أثناء الهجرة ، تبدأ السورة الكريمة بالتنديد بالكافرين وأنهم يستحقون الضلال المبين والبعد عن هدي رب العالمين ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ ﴾ [الصف: ٥] ثم بين القرآن جنبات ذلك وأسبابه مفصلاً فيقول : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ ﴾ ولذلك كان لهم عقوبات في الدنيا وعقوبات في الآخرة ومن عقوبات الدنيا أن أغرى بهم المؤمنين وسلطهم عليهم ابتلاءً للمؤمنين وإرغاماً للكافرين : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾ ويذكر السياق أيضاً أسباب الهدى للمؤمنين فيذكر الإيمان والعمل وأن ذلك سبب في تكفير السيئات وإصلاح البال والهداية في الدنيا والتي تكون تمهيداً لهداية الله لهم في الجنة : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ .... ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾ وأما الكافرون فأعمالهم الصالحة من البر والصلة وإحسانهم إلى أزواجهم وتربيتهم لبناتهم وأبنائهم كل هذا سيحول في الآخرة إلى هباء منثور لأن الله أحبط أعمالهم والسبب في ذلك : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ

وَأَدْبَٰرِهِمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ وكل من نحا نحوهم كان مثلهم وفي الصفحة المقابلة يبين الله تعالى أنه مولى للمؤمنين وأن الكافرين لا مولى لهم وبناءً عليه فقد أعد الله للمؤمنين جنات تجري من تحتها الأنهار ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾

ثم ذكر السياق بعض صفات المنافقين وأمر ﷺ بالسمع والطاعة ونهى عن ضد ذلك من النكوص والمعاصي فمعى السورة الكريمة :-

﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ ﴾

ولما كان في سياق الترغيب ، قرن الخبر بالفاء إعلاماً بأن أعمالهم سببه فقال تعالى : ﴿ فَلَن يُضِلَّ ﴾ أي يضيع ويبطل ﴿ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ لكونها غير تابعة لدليل بل يبصرهم بالأدلة ويوفقهم لاتباعها ، وهو معنى قوله تعالى تعليلاً : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ أي في الدارين بوعد لا خلف فيه بعد المجاهدة إلى كل ما ينفعهم مجدداً ذلك على سبيل الاستمرار ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ أي موضع فكرهم فيجعله مهيأً لكل خير بعيداً عن كل شر آمناً من المخاوف مطمئناً بالإيمان بما فيه من السكينة ، فإذا قتل أحد في سبيله تولى سبحانه وتعالى ورثته بأحسن من تولي المقتول لو كان حياً .

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾

ولما كان هذا ثواباً عظيماً ونوالاً جسيماً ، أتبعه ثواباً أعظم منه فقال تعالى : ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ﴾ أي دار القرار الكاملة في النعيم ، وأجاب من كأنه يسأل عن كيفيــة إدخــالهم إياها وكيفيتها عند ذلك بقوله تعالى : ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي بتعريف الأعمال الموصلة إليهــا والتوفيق لهم إليها في الدنيا وأيضاً بالتبصير بالمنازل في الآخرة حتى أن أحدهم يصير أعرف بمنزله فيها منه بمنزله في الدنيا ، وطيب رائحتها وجعل موضعها عالياً وجدرالها عالية وهي ذات أغراف وشرف ، وفي هذه الآية بشرى عظيمة لمن جاهد ساعة ما بأن الله يُميتُهُ على الإسلام المستلزم لئلا يضيع له عمل ،

[٢٥٠] ويؤيده ما رواه الطبراني في الكبير عن فضالة بن عبيد الأنصاري ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « للإسلام ثلاث أبيات : سفلى وعليا وغرفة ، فأمــا الســفلى فالإسلام دخل فيه عامة المسلمين فلا تسأل أحداً منهم إلا قال : أنا مسلم ، وأما العليا فتفاضل أعمالهم بعض المسلمين أفضل من بعض ، وأما الغرفة العليا فالجهاد في ســبيل الله لا ينالها إلا أفضلهم » .اهـ (١)

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

والاستفهام في قوله – تعالى – : ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ للإنكار والنفي ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه السياق ، و ﴿مَن﴾ مبتدأ ، والخبر قولــه ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ

(١) نظم الدرر للبقاعي تفسير سورة محمد الآيات (٦ – ٩) .

﴿عَمَلِهِۦ﴾ . والبينة : ما يتبين به الحق من كل شيء ، كالنصوص الصحيحة في النقليات والبراهين السليمة في العقليات .

والمراد بمن كان على بينة من ربه : الرسول ﷺ وأتباعه ، والمراد بمن زين له سوء عمله ، واتبعوا أهوائهم : المشركون الذين استحبوا العمى على الهدى .

والمعنى : أفمن كان على بينة من أمر ربه ، وعلى طريقة سليمة من هديه ، يستوي مع من كان على ضلالة من أمره ، بأن ارتكب الموبقات مع توهمه بأنها حسنات ، واتبع هواه دون أن يفرق بين القبيح والحسن؟ لا شك أنهما لا يستويان في عقل أي عاقل . فإن الفريق الأول مهتد في منهجه وسلوكه ، والفريق الثاني في النقيض منه .

ثم أكد ﷻ هذا المعنى بأن بين مصير الفريقين فقال : ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ .

والمراد بالمثل هنا : الصفة . وهو مبتدأ ، والكلام على تقدير الاستفهام الإنكارى ، وتقدير مضاف محذوف ، والخبر قوله ﷻ : ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي : أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد في النار : أو : أمثل الجنة جزاء من هو خالد في النار ، وقدر الاستفهام في المبتدأ لأنه مرتب على الإنكار السابق في قوله : ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ورحم الله – تعالى – صاحب الكشاف ، فقد قال : فإن قلت ما معنى قوله – تعالى – : ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ ؟

قلت : هو كلام في صورة الإثبات ، ومعناه النفي والإنكار ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحروف الإنكار ، ودخوله في حيزه ، وانخراطه في سلكه ، وهو قوله ﷻ : ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ ؟ فكأنه قيل : أمثل الجنة كمن هو خالد في النار ، أي كمثل جزاء من هو خالد في النار؟

فإن قلت : فلم عرّى في حرف الإنكار؟ وما فائدة التعرية؟

قلت : تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوى بين المتمسك بالبينة والتابع لهواه ، وأنه بمترلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجرى فيها الأنهار ، وبين النـــار التي يسقى أهلها الجحيم . .

وقوله ﷻ : ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ تفسير مسوق لشرح محاسن الجنة أي : صـــفة الجنة التي وعد الله ﷻ بها عباده المتقين ، أنها فيها أنهار من ماء ليس متغيرا في طعمـــه أو رائحته ، وإنما هو ماء طيب لذيذ تشتهيه النفوس .

والماء الآسن : هو الماء الذي تغير طعمه وريحه ، لطول مكثه في مكان معين . يقال : أَسَنَ الماء يأسِن – كضرب – يضرب ، إذا تغير .

﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ﴾ أي : وفيها – أيضا – أنهار من لبن لم يتغير طعمـــه لا بالحموضة ولا بغيرها مما يجرى على الألبان التي تشرب في الدنيا .

﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي : وفيها كذلك أنهار من خمر في غاية اللذة لمن يشربها ، إذ لا يعقبها ذهاب عقل ، ولا صداع .

وقال ﷻ ﴿لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ للإشعار بأنها لذيذة لجميع من يشربونها بخلاف خمر الدنيا فإن من الناس من ينفر منها ويعفها حتى ولو كان على غير دين الإسلام .

﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾ أي : وفيها – أيضا – أنهار من عسل لا يخالطه ما يخالط عسل الدنيا من الشمع أو غيره ؛ ﴿وَلَهُمۡ﴾ أي : للمؤمنين ﴿فِيهَا﴾ أي : في الجنة فضلا عن كل ذلك ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ التي يشتهونها ، وأهم من كل ذلك أنهم لهم فيهـــا : ﴿وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أي : لهم ثواب عظيم وفضل كبير من ربهم ، حيث ستر لهم ذنوبهم ، وأزالها عنهم ، وحولها إلى حسنات بكرمه وإحسانه .

وقوله ﷻ : ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أي : أمثل جزاء المؤمنين الذي هو الجنة التي فيها ما فيها من أنهار الماء واللبن والخمر والعسل . . كمثل عقاب الكافرين والمتمثل في نارهم خالدين فيها أبدا ، وفى ماء في أشد درجات الحرارة ، يشربونه فيقطع أمعاءهم ؟

لا شك أن كل عاقل يرى فرقا شاسعا ، بين حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة الكافرين وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد فرقت بين الأخيار والأشرار في المنهج والسلوك ، وفى المصير الذي يصير إليه كل فريق .اهـ (١)

وقال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : أي: مثل الجنة التي أعدها الله لعباده، الذين اتقوا سخطه، واتبعوا رضوانه، أي: نعتها وصفتها الجميلة.

﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ أي: غير متغير، لا بوخم ولا بريح منتنة، ولا بمرارة، ولا بكدورة، بل هو أعذب المياه وأصفاها، وأطيبها ريحا، وألذها شربا.

﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ بحموضة ولا غيرها، ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أي: يلتذ به شاربه لذة عظيمة، لا كخمر الدنيا الذي يكره مذاقه ويصدع الرأس، ويغول العقل.

﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ من شمعه، وسائر أوساخه.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ من نخيل، وعنب، وتفاح، ورمان، وأترج، وتين، وغير ذلك مما لا نظير له في الدنيا، فهذا المحبوب المطلوب قد حصل لهم.

ثم قال: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يزول بها عنهم المرهوب، فأي هؤلاء خير أم من هو خالد في النار التي اشتد حرها، وتضاعف عذابها، ﴿وَسُقُوا﴾ فيها ﴿مَاءً حَمِيمًا﴾ أي: حارا جدا، ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ فسبحان من فاوت بين الدارين والجزاءين، والعاملين والعملين.اهـ

---

(١) انظر التفسير الوسيط لسورة محمد الآيات (١٤ -١٥) .

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾

يخبر تعالى عن حالة المرتدين عن الهدى والإيمان على أعقابهم إلى الضلال والكفران، ذلك لا عن دليل دلهم ولا برهان، وإنما هو تسويل من عدوهم الشيطان وتزيين لهم، وإملاء منه لهم: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء]

وذلك أنهم قد تبين لهم الهدى، فزهدوا فيه ورفضوه، و ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ من المبارزين العداوة لله ولرسوله ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: الذي يوافق أهواءهم، فلذلك عاقبهم الله بالضلال، والإقامة على ما يوصلهم إلى الشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ فلذلك فضحهم، وبينها لعباده المؤمنين، لئلا يغتروا بها.

﴿فَكَيْفَ﴾ ترى حالهم الشنيعة، ورؤيتهم الفظيعة ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الموكلون بقبض أرواحهم، ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ بالمقامع الشديدة؟!.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الذي استحقوه ونالوه ﴿بـ﴾ سبب ﴿بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ من كل كفر وفسوق وعصيان.

﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ فلم يكن لهم رغبة فيما يقربهم إليه، ولا يدنيهم منه، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أبطلها وأذهبها، وهذا بخلاف من اتبع ما يرضي الله وكره سخطه، فإنه سيكفر عنه سيئاته، ويضاعف أجره وثوابه.اهـ [(١)]

---

(١) نفس المصدر السابق .

سُورَةُ قٓ

﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًاۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾

شرح الكلمات :

﴿قٓ﴾ : هذا أحد الحروف المقطعة التي تكتب هكذا ق وتقرأ هكذا قاف .

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ : أي والقرآن المجيد أي الكريم قَسَمِي لقد أرسلنا محمدا مبلغا عنا .

﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ : أي بل عجب أهل مكة من مجيء منذر أي رسول منهم ينذرهم عذاب الله يوم القيامة .

﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ﴾ : أي فقال المكذبون بالبعث هذا أي البعث بعد الموت والبلى .

﴿عَجِيبٌ﴾ شيء عجيب .

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًاۖ﴾ : أئذا متنا وصرنا ترابا أي رفاة وعظاما نخرة نرجع أحياء .

﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ : أي بعيد الإمكان في غاية البعد . ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْۖ﴾ : أي قد أحاط علمنا بكل شيء فعلمنا ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وما تأكل من لحومهم وعظامهم فكيف يستبعد منا إحياؤهم بعد موتهم .

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ : أي كتاب المقادير الذي قد كتب فيه كل شيء ومن بين ذلك أعداد الموتى وأسماؤهم وصورهم وأجسامهم ويوم إعادتهم .

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ : بل كذب المشركون بما هو أقبح من تكذيبهم بالبعث وهو تكذيبهم بالنبوة المحمدية وبالقرآن ومن نزل عليه .

﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ : أي مختلط عليهم فهم فيه مضطربون لا يثبتون علـى شـيء إذ قالوا مرة سحر ومرة قالوا شعر ومرة كهانة وأخرى أساطير . اهـ [1]

بين يدي السورة :

لما ختم ﷻ سورة الحجرات بإحاطة العلم قال أول هذه : ﴿قٓ﴾ إشارة إلى أنه هو ﷻ وحده المحيط علماً وقدرة بما له من العلو والشدة والقوة القيومية والقهر ونافـذ القضـاء والفتح لما أراد من المغلقات ، بما أشارت إليه القاف بصفاتها وأظهرته بمخرجها المحيط بمـا جمعه مسماها من المخارج الثلاث : الحلق واللسان والشفاه .

وقد قال الأستاذ أبو الحسن الحرالي في سر افتتاح المفصل بهذا الحرف فقال في آخر كتابه في هذا الحرف : اعلم أن القرآن متزل مثاني ، ضمن ما عدا المفصل منه الذي هـو مـن قاف إلى آخر الكتاب العزيز وفاتحة ما يختص بأولي العلم والفقه من مبسوطات الحكـم ومحكمات الأحكام ومطولات الأقاصيص ، ومتشابه الآيات ، والسورة المفتتحة بالحروف الكلية للإحاطة لغيبية المتهجى المسندة إلى آحاد الأعداد ، فلعلو رتبة إيراده وطولـه ثـنى الحق ﷻ الخطاب وانتظمه في سور كثيرة العدد يسيرة عدد الآي قصيرة مقدارها ، ذكر فيها من أطراف القصص والمواعظ والأحكام والثناء وأمر الجزاء ما يليق بسماع العامـة ليسهل عليهم سماعه وليأخذوا بحظ مما أخذه الخاصة وليكرر على أسماعهم في قراءة الأئمة له في الصلوات المفروضة التي لا مندوحة لهم عنها ما يكون لهم خلفاً ممـا يعـوهم مـن مضمون سائر السور المطولات ، فكان أحق ما افتتح به مفصلهم حرف ق الذي هو وتر الآحاد ، والظاهر منها مضمون ما يحتوي عليه مما افتتح بألف لام ميم ، وكذلك كان ﷺ يكثر أن يقرأ في خطبة يوم الجمعة إليهم لأنها صلاة جامعة الظاهر بفاتحة المفصل الخـاص

---

(١) انظر أيسر التفاسير للجزائري : ٣/ ٣٦٥ تفسير سورة ق الآيات (١ – ٥) ط/ دار الحديث .

بهم ، وفي مضمونها من معنى القدرة والقهر المحتاج إليه في إقامة أمر العامة ما فيه كفاية ، ....، واختصرت سورة نون من مقتضى العلم بما هو محيط بأمر العامة المنتهي إلى غاية الذكر الشامل للعالمين ....ولما أشار ﷻ إلى هذه الإحاطة بالقاف ، أقسم على ذلك قسماً هو في نفسه دال عليه فقال : ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ أي الكتاب الجامع الفارق ﴿ٱلْمَجِيدِ﴾ الذي له العلو والشرف والكرم والعظمة على كل كلام ، ... ، وما اشتمل عليه القرآن من المجد بإعجازه واشتماله على جميع العظمة ، ولم ينكروا شيئاً من ذلك بقلوبهم ، ومجيد القرآن كما تقدم في أثناء الفاتحة ما جربت أحكامه من بين عاجل ما شهد وآجل ما علم بعلم ما شهد ، وكان معلوماً بالتجربة المتيقنة بما تواتر من القصص الماضي ، وما شهد من الأثر الحاضر وما يتجدد مع الأوقات من أمثاله وأشباهه ، وإذا تأملت السورة وجدت آيها المترلة على جميع ذلك ، فإنه ﷻ ذكرهم فيها ما يعلمون من خلق السماوات والأرض وما فيهما ومن مصارع الأولين وكذا السورة الماضية ولا سيما آخرها المشير إلى أنه أدخل على الناس الإيمان برجل واحد غلبهم بمجده وإعجازه لمجد مترله بقدرته وإحاطة علمه – والله الهادي ، ومن أحاط علماً بمعانيه وعمل ما فيه مجد عند الله وعند الناس .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما كانت سورة الفتح قد انطوت على جملة من الألطاف التي خص الله بها عباده المؤمنين كذكره تعالى أخوتهم وأمرهم بالتثبت عند غائلة معتد فاسق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ الآية ، وأمرهم بغض الأصوات عند نبيهم وأن لا يقدموا بين يديه ولا يعاملوه في الجهر بالقول كمعاملة بعضهم بعضاً ، وأمرهم باجتناب كثير من الظن ونهيهم عن التجسس والغيبة ، وأمرهم بالتواضع في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ وأخبرهم تعالى أن استجابتهم وامتثالهم هذه الأوامر ليست بحولهم ، ولكن بفضله وإنعامه ، فقال : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ الآيتين ، ثم أعقب ذلك بقوله

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ الآية ، ليبين أن ذلك كله بيده ومن عنده ، أراهم ﷺ حال من قضى عليه الكفر و لم يحبب إليه الإيمان ولا زينه في قلبه ، بل جعله في طرف من حال من أمر ونهى في سورة الفتح مع المساواة في الخلق وتماثل الأدوات فقال تعالى : ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ الآيات ، ثم ذكر سبحانه وتعالى وضوح الأدلة ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ ﴾ الآيات ، ثم ذكر حال غيرهم ممن كان على رأيهم ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ليتذكر بمجموع هذا من قدم ذكره بحاله وأمره ونهيه في سورة الفتح ، ويتأدب المؤمن بآداب الله ويعلم أن ما أصابه من الخير فإنما هو من فضل ربه وإحسانه ، ثم التحمت الآي إلى قوله خاتمة السورة ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ الآيات اهـ (١)

صور وأي صور وعبر وأي عبر ؟؟

[إنها سورة رهيبة ، شديدة الوقع بحقائقها ، شديدة الإيقاع ببنائها التعبيري ، وصورها وظلالها .... تأخذ على النفس أقطارها ، وتلاحقها في خطراتها وحركاتها ، وتتعقبها في سرها وجهرها ، وفي باطنها وظاهرها . تتعقبها برقابة الله ، التي لا تدعها لحظة واحدة من المولد ، إلى الممات ، إلى البعث ، إلى الحشر ، إلى الحساب . وهي رقابة شديدة دقيقة رهيبة . تطبق على هذا المخلوق الإنساني الضعيف إطباقاً كاملاً شاملاً . فهو في القبضة التي لا تغفل عنه أبداً ، ولا تغفل من أمره دقيقاً ولا جليلاً ، ولا تفارقه كثيراً ولا قليلاً . كل نفس معدود . وكل هاجسة معلومة . وكل لفظ مكتوب . وكل حركة محسوبة . والرقابة الكاملة الرهيبة مضروبة على وساوس القلب ، كما هي مضروبة على حركة الجوارح . ولا حجاب ولا ستار دون هذه الرقابة النافذة ، المطلعة على السر والنجوى اطلاعها على العمل والحركة ، في كل وقت وفي كل حال .

---

(١) نظم الدرر للبقاعي تفسير سورة ق (مقدمة السورة) .

وكل هذه الحقائق معلومة . ولكنها تعرض في الأسلوب الذي يديها وكأنها جديدة ، تروع الحس روعة المفاجأة؛ وتهز النفس هزاً ، وترجها رجاً ، وتثير فيها رعشة الخوف ، وروعة الإعجاب ، ورجفة الصحو من الغفلة على الأمر المهول الرهيب!

وذلك كله إلى صور الحياة ، وصور الموت ، وصور البلى ، وصور البعث ، وصور الحشر . وإلى إرهاص الساعة في النفس وتوقعها في الحس . وإلى الحقائق الكونية المتجلية في السماء والأرض ، وفي الماء والنبت ، وفي الثمر والطلع . . ﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾ ﴾ . .

وإنه ليصعب في مثل هذه السورة التلخيص والتعريف ، وحكاية الحقائق والمعاني والصور والظلال ، في غير أسلوبها القرآني الذي وردت فيه؛ وفي غير عبارتها القرآنية التي تشع بذاتها تلك الحقائق والمعاني والصور والظلال ، إشعاعاً مباشراً للحس والضمير .اهـ(١)

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

يقسم تعالى بالقرآن المجيد أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الوجوه كثير البركات، جزيل المبرات. والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وأحق كلام يوصف بهذا، هذا القرآن، الذي قد احتوى على علوم الأولين والآخرين، الذي حوى من الفصاحة أكملها، ومن الألفاظ أجزلها، ومن المعاني أعمها وأحسنها، وهذا موجب لكمال اتباعه، و [سرعة] الانقياد له، وشكر الله على المنة به.

ولكن أكثر الناس، لا يقدر نعم الله قدرها، ولهذا قال تعالى: ﴿ بَلۡ عَجِبُوٓاْ ﴾ أي: المكذبون للرسول ﷺ ، ﴿ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ ﴾ أي: ينذرهم ما يضرهم، ويأمرهم بما ينفعهم، وهو من جنسهم، يمكنهم التلقي عنه، ومعرفة أحواله وصدقه.

فتعجبوا من أمر، لا ينبغي لهم التعجب منه، بل يتعجب من عقل من تعجب منه.

---

(١) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٣٥٦ ، ٣٣٥٧ في ظلال سورة ق ط/ دار الشروق .

﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الذين حملهم كفرهم وتكذيبهم، لا نقص بذكائهم وآرائهم .

﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: مستغرب، وهم في هذا الاستغراب بين أمرين:

إما صادقون في [استغرابهم و] تعجبهم، فهذا يدل على غاية جهلهم، وضعف عقولهم، بمنزلة المجنون، الذي يستغرب كلام العاقل، وبمنزلة الجبان الذي يتعجب من لقاء الفارس للفرسان، وبمنزلة البخيل، الذي يستغرب سخاء أهل السخاء، فأي ضرر يلحق من تعجب من هذه حاله ؟ وهل تعجبه، إلا دليل على زيادة وظلمه وجهله؟ وإما أن يكونوا متعجبين، على وجه يعلمون خطأهم فيه، فهذا من أعظم الظلم وأشنعه.

ثم ذكر وجه تعجبهم فقال: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ فقاسوا قدرة من هو على كل شيء قدير، الكامل من كل وجه، بقدرة العبد الفقير العاجز من جميع الوجوه، وقاسوا الجاهل، الذي لا علم له، بمن هو بكل شيء عليم، الذي يعلم ما تنقص الأرض من أجسادهم مدة مقامهم في برزخهم، وقد أحصى في كتابه الذي هو عنده محفوظ عن التغيير والتبديل، كل ما يجري عليهم في حياتهم، ومماتهم، وهذا الاستدلال، بكمال علمه، وسعته التي لا يحيط بها إلا هو، على قدرته على إحياء الموتى.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾

أي: ﴿بَلْ﴾ كلامهم الذي صدر منهم، إنما هو عناد وتكذيب للحق الذي هو أعلى أنواع الصدق ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي: مختلط مشتبه، لا يثبتون على شيء، ولا يستقر لهم قرار، فتارة يقولون عنك: إنك ساحر، وتارة مجنون، وتارة شاعر، وكذلك جعلوا القرآن عضين، كل قال فيه، ما اقتضاه رأيه الفاسد، وهكذا، كل من كذب بالحق،

فإنه في أمر مختلط، لا يدرى له وجهة ولا قرار، [فترى أموره متناقضة مؤتفكة] كما أن من اتبع الحق وصدق به، قد استقام أمره، واعتدل سبيله، وصدق فعله قيله.اهـ (١)

من هداية الآيات :

١- بيان شرف القرآن ومجده وكرمه .

٢- تقرير البعث والوحي الإلهي .

٣- البرهنة الصحيحة الواضحة على صحة البعث والجزاء وإمكانهما .

٤- تقرير عقيدة القضاء والقدر بتقرير كتابة المقادير .اهـ (٢)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾

شرح الكلمات :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ : أي خلقناه بقدرتنا وعلمنا لحكمة اقتضت خلقه فلم نخلقه عبثا

﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾: أي ونعلم ما تحدث به نفسه أي نعلم ما في نفسه من خواطر وإرادات .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان [المجلد الواحد] ص٩٠١، ٩٠٢ تفسير سورة ق الآيات (١-٥) ط/ التوفيقية .

(٢) أيسر التفاسير للجزائري : ٣/ ٣٦٦ تفسير سورة ق الآيات (١ – ٥) ط/ دار الحديث .

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ : أي نحن بقدرتنا على الأخذ منه العطاء والعلـم بمـا يُسر ويُظهر أقرب إليه من حبل الوريد الذي هو في حلقه .

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ : أي نحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقـى المتلقيـان عملـه فيكتبانه .

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ : أي أحدهما عن يمينه قعيد والثاني عن شماله قعيد أيضا .

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ : أي ما يقول من قول .

﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ : أي إلا عنده ملك رقيب حافظ عتيد حاضر معد للكتابة .

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ : أي غمرة الموت وشدته بالحق من أمر الآخرة حتى يراه المنكر لها عيانا .

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾: أي ذلك الموت الذي كنت تهرب منه وتفزع .

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ (٢٠)﴾ : أي ونفخ في الصور الذي هو القرن ذلك يوم الوعيد للكفار بالعذاب .

﴿مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ : أي معها سائق يسوقها إلى المحشر وشهيد يشهد عليها .

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ : أي من هذا العذاب النازل بك الآن .

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ : أي أزلنا عنك غفلتك بما تشاهده اليوم .

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ : أي حاد تدرك به ما كنت تنكره في الدنيا من البعـث الجزاء . اهـ [1]

---

(١) تفسير الجزائري : ٣/ ٣٧٠ تفسير سورة ق الآيات (١٦ ، ٢٢) .

المعنى العام :

[يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وعمله محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل)) .

وقوله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ يعني: ملائكته تعالى أقربُ إلى الإنسان من حبل وريده إليه. ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ كما قال في المحتضر: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الواقعة]، يعني ملائكته. وكما قال ﷻ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر]، فالملائكة نزلت بالذكر -وهو القرآن- بإذن الله، ﷻ . وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله لهم على ذلك، فاللمَلَكِ لَمّة في الإنسان كما أن للشيطان لمة وكذلك: ((الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم))، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ يعني: الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان. ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ أي: مترصد .

﴿ مَّا يَلْفِظُ ﴾ أي: ابن آدم ﴿ مِن قَوْلٍ ﴾ أي: ما يتكلم بكلمة ﴿ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ أي: إلا ولها من يراقبها ... لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الانفطار].

وقد اختلف العلماء: هل يكتب الملك كل شيء من الكلام؟ وهو قول الحسن وقتادة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس، على قولين، وظاهر الآية الأول، لعموم قوله: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾

[٢٥١] وقد قال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا أَبو مُعَاوِيَةَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عَلْقَمَةَ اللَّيْثِيُّ عَنْ أَبِيه عَنْ جَدِّه عَلْقَمَةَ عَنْ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ الْمُزَنِيِّ قَالَ قَالَ رَسُـولُ اللَّـه ﷺ : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّه ﷻ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللَّهُ ﷻ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّه ﷻ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللَّهُ ﷻ بِهَا عَلَيْه سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ». قَالَ فَكَـــانَ عَلْقَمَـــةُ يَقُولُ كَمْ مِنْ كَلَامٍ قَدْ مَنَعَنِيه حَدِيثُ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ.(١)

وقال الأحنف بن قيس: صاحب اليمين يكتب الخير، وهو أمير على صاحب الشمال، فإن أصاب العبد خطيئة قال له: أمسك، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها، وإن أبى كتبها.

وقال الحسن البصري وتلا هذه الآية: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾: يا ابن آدم، بُسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك فاعمل ما شـئت، أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك، وجعلت في عنقك معك في قـبرك، حـتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء] ثم يقول: عدل -والله- فيك من جعلك حسيب نفسك.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابـن عبـاس: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى إنه ليكتب قوله: أكلـت، شـربت،

(١) انظر أحمد ت/ الأرنؤوط ح (١٥٨٩٠) وقال الشيخ الأرنؤوط : صحيح لغيره .

ذهبت، جئت، رأيت ، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر، وألقى سائره، وذلك قوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد]، وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه، فبلغه عن طاوس أنه قال: يكتب الملك كل شيء حتى الأنين. فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله .

وقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ ، يقول تعالى: ﴿وَجَاءَتْ﴾ - أيها الإنسان- ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ ، أي: كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه، ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك، فلا محيد ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص.

وقد اختلف المفسرون في المخاطب بقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ ، فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو. وقيل: الكافر، وقيل: غير ذلك.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا إبراهيم بن زياد -سَبَلان-أخبرنا عبَّاد بن عبَّاد عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبيه عن جده علقمة بن وقاص أن عائشة، رضي الله عنها، قالت: حضرت أبي وهو يموت، وأنا جالسة عند رأسه، فأخذته غشيةٌ فتمثلت ببيت من الشعر:

من لا يزال دمعه مُقنَّعا ... فإنه لا بد مرةً مدفوق

قالت: فرفع رأسه فقال: يا بنية، ليس كذلك ولكن كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾

وحدثنا خلف بن هشام؛ حدثنا أبو شهاب [الخياط] ، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن البهي قال: لما أن ثقل أبو بكر ، رضي الله عنه ، جاءت عائشة، رضي الله عنها، فتمثلت هذا البيت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قولي: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ وقد أوردت لهذا الأثر طرقا [كثيرة] في سيرة الصديق عند ذكر وفاته، رضي الله عنه .

[٢٥٢] وقد ثبت في الصحيح من حديث عائشة – رضي الله عنها – أن النبي ﷺ لما تغشاه الموت: كان بَيْن يَدَيْه رَكْوَة أَوْ عُلْبَة بِهَا مَاءٌ فَجَعَلَ يُدْخِل يَدَيْه فِي الْمَاء فَيَمْسَح بِهَا وَجْهه يَقُول : ((لا إِلَه إِلا اللَّه ، إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرَات)) [(١)].

وفي قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ قولان:

أحدهما: أن ﴿مَا﴾ هاهنا موصولة، أي: الذي كنت منه تحيد -بمعنى: تبتعد وتنأى وتفر-قد حل بك ونزل بساحتك.

والقول الثاني: أن ﴿مَا﴾ نافية بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا الحيد عنه.

[٢٥٣] وقد قال الطبراني في المعجم الكبير: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بن عَلِيٍّ الصَّائِغُ الْمَكِّيُّ، حَدَّثَنَا حَفْصُ بن عُمَرَ، حَدَّثَنَا مُعَاذُ بن مُحَمَّد الْهُذَلِيُّ، عَنْ يُونُسَ بن عُبَيْد، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ سَمُرَةَ بن جُنْدُب، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَثَلُ الَّذِي يَفِرُّ مِنَ الْمَوْتِ كَمَثَلِ الثَّعْلَب،

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري : ٧/ ٧٥٥ ك/ المغازي ب/ مرض النبي ﷺ ووفاته شرح حديث / ٤٤٤٦

تَطْلُبُهُ الأَرْضُ بِدَيْنٍ، فَجَعَلَ يَسْعَى , حَتَّى إِذَا أَعْيَى وَانْتَهَرَ دَخَلَ جُحْرَهُ، فَقَالَتْ لَهُ الأَرْضُ: يَا ثَعْلَبُ , دَيْنِي؟ فَخَرَجَ، وَلَهُ حُصَاصٌ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى تَقَطَّعَتْ عُنُقُهُ , فَمَاتَ))(١).

ومضمون هذا المثل: كما لا انفكاك له ولا محيد عن الأرض كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت.

وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ۝٢٠﴾ . قد تقدم الكلام على حديث النفخ في الصور والفزع والصعق والبعث ، وذلك يوم القيامة....

[٢٥٤] وفي الحديث عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ وَأَصْغَى السَّمْعَ مَتَى يُؤْمَرُ ». قَالَ فَسَمِعَ ذَلِكَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ». (٢)

﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ۝٢١﴾ أي: ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله. هذا هو الظاهر من الآية الكريمة. وهو اختيار ابن جرير، ثم روي من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن يحيى بن رافع –مولى لثقيف–قال: سمعت عثمان بن عفان يخطب ، فقرأ هذه الآية: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ۝٢١﴾ ، فقال: سائق يسوقها إلى الله، وشاهد يشهد عليها بما عملت. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد.

وقال مُطَرِّف، عن أبي جعفر –مولى أشجع– عن أبي هريرة: السائق: الملك والشهيد: العمل. وكذا قال الضحاك والسدي.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه معاذ بن محمد الهذلي قال العقيلي: لا يتابع على رفع حديثه.، والبيهقي في شعب الإيمان عن سمرة بن جندب ، وقال البيهقي في شعب الإيمان : (المحفوظ وقفه)

(٢) انظر أحمد ت/ الأرنؤوط ح(١٩٣٦٤) وقال محققه رحمه الله : حديث صحيح وهذا إسناد ضعيف لضعف عطية بن سعد العوفي وخالد الخفاف : وهو ابن طهمان وقد اختلف فيه .وذكر الترمذي رواية غير ذلك في سننه ك/ صفة القيامة عن رسول الله ﷺ ب/ ما جاء في شأن الصور ح/ ٢٤٣١ وقال الألباني رحمه الله : صحيح وذكره في الصحيحة (٢٠٧٩) .

وقال العَوْفي عن ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد: الإنسان نفسه، يشهد علــى نفسه. وبه قال الضحاك بن مُزاحِم أيضا.

وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال في المراد بهذا الخطاب في قوله: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

أحدها: أن المراد بذلك الكافر. رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عبــاس. وبــه يقــول الضحاك بن مزاحم وصالح بن كيسان.

والثاني: أن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر؛ لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظــة والدنيا كالمنام. وهذا اختيار ابن جرير، ونقله عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس.

والثالث: أن المخاطب بذلك النبي صلى الله عليه وسلم. وبه يقول زيد بن أسلم، وابنــه. والمعنى على قولهما: لقد كنت في غفلة من هذا الشأن قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك، فبصرك اليوم حديد.

والظاهر من السياق خلاف هذا، بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقولــه: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ يعني: من هذا اليــوم، ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ أي: قوي؛ لأن كل واحد يوم القيامة يكون مستبصراً، حتى الكفــار في الــدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك. قــال الله تعــالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم: ٣٨]،

وقال تعــالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [السجدة] .اهــ [1].

(١) انظر تفسير ابن كثير :٤/ ٢٢٣ - ٢٢٥ لسورة ق الآيات (١٦ - ٢٢) ط/ دار مصر للطباعة .

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾
وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ
فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾

أي ﴿وَجَآءَتْ﴾ هذا الغافل المكذب بآيات الله ﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لا مرد له ولا مناص، ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: تتأخر وتنكص عنه.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾ أي: اليوم الذي يلحق الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب، والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب.

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ﴾ يسوقها إلى موقف القيامة، فلا يمكنها أن تتأخر عنه﴿وَشَهِيدٌ﴾ يشهد عليها بأعمالها، خيرها وشرها، وهذا يدل على اعتناء الله بالعباد، وحفظه لأعمالهم، ومجازاته لهم بالعدل، فهذا الأمر، مما يجب أن يجعله العبد منه على بال، ولكن أكثر الناس غافلون، ولهذا قال: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي: يقال للمعرض المكذب يوم القيامة هذا الكلام، توبيخًا، ولومًا وتعنيفًا أي: لقد كنت مكذبًا بهذا، تاركًا للعمل له فالآن ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الذي غطى قلبك، فكثر نومك، واستمر إعراضك،﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ينظر ما يزعجه ويروعه، من أنواع العذاب والنكال. اهـ[(١)]

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ
﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٩٠٣ لسورة ق الآيات (١٩ - ٢٢)

أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

شرح الكلمات :

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ ﴾ : أي الملك الموكل به .

﴿ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾ : أي هذا عمله حاضر لديّ .

﴿ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ : أي كثير الكفر والجحود لتوحيد الله وللقائه ولرسوله معاند كثير العناد

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ : أي مناع للحقوق والواجبات من المال وغيره .

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ : أي أشرك بالله فجعل معه آلهة أخرى يعبدها .

﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ﴾ : أي يقول قرينه من الشياطين يا ربنا ما أطغيته أي ما حملته على الطغيان .

﴿ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ : أي ولكن الرجل كان في ضلال بعيد عن كل هدى متوغلا في الشرك والشر .

﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾ : أي قدمت إليكم وعيدي بالعذاب في كتبي وعلى لسان رسلي .

﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ : أي ما يغير القول عندي وهو قوله لأملأن جهنم منكم أجمعين .

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ ﴾ : أي وما الله بظلام للعبيد يوم يقول لجهنم هل امتلأت .

﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ : أي لم أمتليء هل من زيادة فيضع الجبار عليها قدمه فتقول قط قط اهـ [1]

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٣/ ٣٧٢ لسورة ق الآيات (٢٣ – ٣٠) .

المعنى العام : يقول تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: قرين هذا المكذب المعرض، من الملائكة، الذين وكلهم الله على حفظه، وحفظ أعماله، فيحضره يوم القيامة ويحضر أعماله ويقول: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: قد أحضرت ما جعلت عليه، من حفظه، وحفظ عمله، فيجازى بعمله.

ويقال لمن استحق النار: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي: كثير الكفر والعناد لآيات الله، المكثر من المعاصي، المجترئ على المحارم والمآثم.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: يمنع الخير الذي عنده الذي أعظمه، الإيمان بالله وملائكته وكتبه، ورسله مناع، لنفع ماله وبدنه، ﴿مُعْتَدٍ﴾ على عباد الله، وعلى حدوده ﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: شاك في وعد الله ووعيده، فلا إيمان ولا إحسان ولكن وصفه الكفر والعدوان، والشك والريب، والشح، واتخاذ الآلهة من دون الرحمن، ولهذا قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي: عبد معه غيره، ممن لا يملك لنفسه نفعًا، ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة، ولا نشورًا، ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ أيها الملكان القرينان ﴿فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ الذي هو معظمها وأشدها وأشنعها.

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ الشيطان، متبرئًا منه، حاملا عليه إثمه: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُۥ﴾ لأني لم يكن لي عليه سلطان، ولا حجة ولا برهان، ولكن كان في الضلال البعيد، فهو الذي ضل وأبعد عن الحق باختياره، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ إبراهيم: ٢٢.

قال الله تعالى مجيبًا لاختصامهم: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أي: لا فائدة في اختصامكم عندي، ﴿وَ﴾ الحال أني ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ أي: جاءتكم رسلي بالآيـات البينـات، والحجج الواضحات، والبراهين الساطعات، فقامت عليكم حجتي، وانقطعت حجـتكم، وقدمتم علي بما أسلفتم من الأعمال التي وجب جزاؤها.

﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ أي: لا يمكن أن يخلف ما قاله الله وأخبر به، لأنه لا أصدق من الله قيلا ولا أصدق حديثًا.

﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ بل أجزيهم بما عملوا من خير وشر، فلا يزاد في سـيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم. اهـ [(١)]

وقال الجزائري :

ما زال السياق في تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر مشاهد القيامة وأحوال الناس فيهـا فقال تعالى ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ أي قال قرين ذلك الكافر الذي جيء به إلى سـاحة فصـل القضاء ومعه سائق يسوقه وشهيد يشهد عليه . قال قرينه وهو الملك الموكل بهذا ما لديّ أي من أعمال هذا الرجل الذي وكلت بحفظ أعماله وكتابتها عتيد أي حاضـر . وهنـا يقال لمن استحق النار ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ وهو خطاب لمن جاءا به وهما السائق والشـهيد ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾ فهذه خمس صفات قد اجتمعت في شخص واحد فأوبقته الأولى ﴿كَفَّارٍ﴾ أي كثير الكفر الذي هو الجحود لـما يجـب الإيمان به والتصديق من سائر أركان الإيمان الستة ، والثانية عنيد والعنيد التارك لكل مـا وجب عليه المعاند في الحق المعاكس في المعروف وهي صفة . الثالثة مناع للخير أي كثير المنع للخير مالاً كان أو غيره لا يبذل معروفاً قط ، الرابعة معتدٍ أي على حدود الشـرع

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٩٠٤ لسورة ق الآيات (٢٣ – ٢٩) .

معتد على الناس ظالم لهم بأكل حقوقهم وأذيتهم في أعراضهم وأموالهم وأبدانهم الخامسة مريب أي شاك لا يعرف التصديق بشيء من أمور الدين فهو جامع لكل أنواع الكفر وقوله ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وهذا وصف سادس وهو أسوأ تلك الصفات وهو اتخاذه إلهاً آخر يعبده دون الله تعالى وقوله تعالى ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ هذا أمر آخر أكد به الأمر الأول وهو ألقيا في جهنم كل كفار عنيد . وقوله تعالى ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾ قال هذا القول القرين لما قال المشرك معتذراً ربّ إن قريني من الشياطين أطغاني فرد عليه القرين ما أخبر تعالى به عنه في قوله قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد فقال الرب تعالى ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾ فرد الله حجة كل من الكافر والقرين من الشياطين وأعلمهما أنه قد قدم إليهما بالوعيد في كتبه وعلى ألسن رسله من كفر بالله وأشرك به وعصى رسله فإن له نار جهنم خالداً فيها أبدا .

وقوله تعالى ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ أخبر تعالى أن حكمه نافذ فيمن كفر به وعصى رسله إذ سبق قول لإبليس عندما أخرج آدم من الجنة بوسواسه وهو لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين . فهذا القول الإلهي لا يبدل ولا يقدر أحد على تبديله وتغييره وقوله ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ نفى تعالى الظلم عن نفسه والظلم هو أن يعذب مطيعا ، أو يدخل الجنة كافراً عاصياً .

وقوله تعالى ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي اذكر يا نبينا لقومك هل امتلأت فتقول هل من مزيد بعدما يدخل فيها كل كافر وكافرة من الإنس

والجن ((وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ فَيَنْزَوِي بَعْضُــهَا إِلَــى بَعْضٍ وَتَقُولُ قَطْ قَطْ بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ)) والحديث معناه في الصحيحين وغيرهما (١)

من هداية الآيات :

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء .

٢- التحذير من الصفات الست التي جاءت في الآية وهي الكفر والعنـاد ومنـع الخـير والاعتداء والشك والشرك .

٣- بيان خصومة أهل النار من إنسان وشيطان .

٤- نفي الظلم عن الله تعالى وهو كذلك فلا يظلم الله أحدا من خلقه .

٥- إثبات صفة القدم للربّ تعالى كما يليق هذا الوصف بذاته التي لا تشبه الـذوات ﷻ عن صفات المحدثين من خلقه .اهـ (٢)

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

شرح الكلمات :

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ : أي قرّبت الجنة للمتقين الذين اتقوا الشرك والمعاصي .

﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ : أي مكانا غير بعيد منهم بحيث يروها .

﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ : أي رجّاع إلى طاعة الله كلما ترك طاعة عاد إليها حافظ لحدود الله .

﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ : أي خاف الله تعالى فلم يعصه وإن عصاه تاب إليه وهو لم يره .

---

(١) مسلم نووي : ٣١٤/١٧ ك/ الجنة وصفة نعيمها وأهلها ب/ النار يدخلها الجبارون ح/ ٢٨٤٨ .

(٢) انظر تفسير الجزائري :٣٧٣/٣ ، ٣٧٤ لسورة ق الآيات (٢٣ – ٣٠) .

﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ : أي مقبل على طاعته تعالى .

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ : أي ويقال لهم وهم المتقون أدخلوها أي الجنة بسلام أي مع سلام وحال كونكم سالمين من كل مخوف .

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ : أي مزيد من الإنعام والتكريم في الجنة وهو النظر إلى وجه الله الكريم .

معنى الآيات :

[ما زال السياق في تقرير البعث والجزاء بذكر بعض مظاهره قال تعالى بعد ما ذكر ما لأهل النار من عذاب ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ أي أدنيت وقربت ﴿لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ وهم الذي اتقوا الله تعالى بترك الشرك والمعاصي فلا تركوا فريضة ولا غشوْا كبيرة . وقوله تعالى ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي يقال لهم هذا ما توعدون أي من النعيم المقيم ، ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أي رجّاع إلى طاعة الله تعالى حفيظ أي حافظ لحدود الله . حفيظ أيضا لذنوبه لا ينساها كلما ذكرها استغفر الله تعالى منها . وقوله ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ هذا بيان للأواب والحفيظ وهو من خاف الرحمن تعالى بالغيب أي وهو غائب عنه لا يراه و لم يعصه بترك واجب ولا بفعل حرام ، وقوله ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي إلى ربه أي مقبل على طاعته بذكر الله فلا ينساه ويطيعه فلا يعصيه ، وقوله تعالى ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أي يقال لهم أي للمتقين ادخلوها أي الجنة ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ أي مسلما عليكم وسالمين من كل مخوف كالموت والمرض والألم والحزن ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ أي في الجنة وفي النار فأهل الجنة خالدون فيها وأهل النار خالدون فيها وقوله ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ أي لأهل الجنة ما

يشاءون أي ما تشتهيه أنفسهم وتلذه أعينهم وقوله ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي وعندنا لكم مزيد من النعيم وهو النظر إلى وجهه الكريم .اهـ [١]

قال ابن عثيمين رحمه الله : -

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ أي قربت للمتقين مكاناً غير بعيـد ﴿هَٰذَا﴾ أي ما تشاهدون من قرب الجنة ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: هذا الذي توعدون، فإن الله تعالى وعـد المؤمنين العاملين الصالحات وعدهم الجنة، وصدق وعده عز وجل، ولكـن لمـن؟ ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ الأواب: صيغة مبالغة من أبى يئوب بمعنى رجع، أي لكـل أواب إلى الله، أي رجاع إليه، ﴿حَفِيظٍ﴾ أي: حفيظ لما أمره الله به، وهذا كقول النبي ﷺ لعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -: ((**احفظ الله يحفظك**)) والمعنى أنه حفيظ لأوامـر الله، لا يضيعها ولا يقابلها بكسل وتوانٍ بل هو نشيط فيها، وإذا عصى بترك واجب، أو فعـل محرم تجده يرجع إلى الله، فهو أواب رجاع إلى الله تعالى مـن المعاصـي إلى الطاعـات، وكذلك حفيظ حافظ لما أمر الله به، محافظ عليه، قائم بـه ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ من بدل مما سبقها ﴿خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ﴾ أي: خافه عن علم وبصيرة، لأن الخشية لا تكون إلا بعلم، والدليل قوله تعـالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فهي خشية أي خوف ورهبة وتعظيم لله عز وجل، لأنها صادرة عن علم، وقولـه: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ لها معنيان:

المعنى الأول : أنه خشي الرحمن مع أنه لم يره، لكن رأى آياته الدالة عليه.

---

(١)انظر تفسير الجزائري :٣/٣٧٤ ، ٣٧٥ لسورة ق الآيات (٣١ - ٣٥)

المعنى الثاني: خشيه بالغيب، أي: بغيبته عن الناس، فهو يخشى الله وهو غائب عن الناس، لأن من الناس من يخشى الله إذا كان بين الناس، وإذا انفرد فإنه لا يخشى الله، مثل المرائي المنافق، إذا كان مع الناس تجده من أحسن الناس خشية، وإذا انفرد لا يخشى الله، كذلك أيضاً من الناس من يكون عنده خشية ظاهرية، لكن القلب ليس خاشياً لله عز وجل - فيكون بالغيب، أي ما غاب عن الناس، سواء كان عمله في مكان خاص، أو ما غاب عن الناس بقلبه، فإن خشية القلب هي الأصل ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي جاء يوم القيامة بقلب منيب يعني رجاع إلى الله ﷻ يعني أنه مات وهو منيب إلى الله فهو كقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران] والمعنى أنه بقي على الإنابة والرجوع إلى الله ﷻ إلى أن مات، وإلى أن لقي الله، لأن الأعمال بالخواتيم، نسأل الله أن يختم لنا بالخير.

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ ادخلوها: أمر، وهل هو أمر إلزام، أو أمر إكرام ؟ لا شك أنه أمر إكرام، لأن الآخرة ليس فيها تكليف وإلزام، بل إما إكرام وإما إهانة. فقوله تعالى للمجرمين: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ هذا أمر إهانة، وقوله للمؤمنين هنا ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ هذا أمر إكرام ؛

وقوله ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ الباء هنا للمصاحبة، والمعنى: دخولاً مصحوباً بسلام، سلام من كل آفة، فأصحاب الجنة سالمون من الأمراض، وسالمون من الهرم، وسالمون من الموت، وسالمون من الغل، وسالمون من الحسد، وسالمون من كل شيء، فأهل الجنة سالمون ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ أي لهؤلاء المتقين ما يشاءون ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ يعني مزيد على ما يتمنون ويشاءون، لأن الإنسان بحكمه مخلوقاً يعجز عن أن يستقصي كل شيء وتنقطع نيته بحيث لا يدري ما يتمنى، لكن هؤلاء أهل الجنة، كل ما يشتهون فيها فإنه موجود طيب، لو اشتهى الإنسان ثمرة معينة كرمان أو عنب أو ما أشبه ذلك يجدها في أي وقت،

كل شيء يشتهيه الإنسان ويطلبه فإنه موجود لا ينتهي، بل قال الله ﷻ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ يعني نعطيهم فوق ما يشتهون ويتمنون. ومن الزيادة النظر إلى وجه الله ﷻ ولهذا استدل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وغيره من أهل العلم بهذه الآية على إثبات رؤية الله ﷻ وقال: إن هذه الآية: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ كقوله تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم، وأن يرزقنا النظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم.اهـ [1]

من هداية الآيات :

١- فضل التقوى وكرامة المتقين على ربّ العالمين .

٢- فضل الأواب الحفيظ وهو الذي كلما ذكر ذنبه استغفر ربّه .

٣- بيان أكبر نعيم في الجنة وهو رضا الله والنظر إلى وجهه الكريم . اهـ [2]

[وعلى الضفة الأخرى من هذا الهول مشهد آخر وديع أليف ، رضيّ جميل . إنه مشهد الجنة ، تقرب من المتقين ، حتى تتراءى لهم من قريب ، مع الترحيب والتكريم :

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

والتكريم في كل كلمة وفي كل حركة . فالجنة تقرب وتزلف ، فلا يكلفون مشقة السير إليها ، بل هي التي تجيء : ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ! ونعيم الرضى يتلقاهم مع الجنة : ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ . .

---

(١) انظر تفسير ابن عثيمين لسورة ق الآيات (٣١ – ٣٥) .

(٢) انظر تفسير الجزائري :٣/٣٧٥ لسورة ق الآيات (٣١ –٣٥) ط/ دار الحديث .

فيوصفون هذه الصفة من الملأ الأعلى ، ويعلمون أنهم في ميزان الله أوابون ، حفيظـون ، يخشون الرحمن و لم يشهدوه ، منيبون إلى ربهم طائعون .

ثم يؤذن لهم بالدخول بسلام لغير ما خروج : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ (٣٤) ﴾ . .

ثم يؤذن في الملأ الأعلى ، تنويهاً بشأن القوم ، وإعلاناً بما لهم عند ربهم من نصيب غـير محدود : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) ﴾ . . فمهما اقترحوا فهم لا يبلغون ما أعد لهم . فالمزيد من ربهم غير محدود . . اهـ (١)

---

(١) انظر الظلال : ٦/٣٣٦٥ في ظلال سورة ق الآيات (٣١ – ٣٥) ط/ دار الشروق .

سُورَةُ الذاريات

بين يدي السورة :

هذه السورة مكية . ومناسبتها لآخر ما قبلها أنه قال ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾ وقال أول هذه بعد القسم : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ ﴾ ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ : الرياح : . ﴿ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ ﴾ السحاب . ﴿ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ ﴾ الفلك . ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ﴾ : الملائكة ، هذا تفسير عليّ كرم الله وجهه على المنبر ، وقد سأله ابن الكوا ، قاله ابن عباس . وقال ابن عباس أيضاً : ﴿ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ ﴾ هي السفن الموقرة بالناس وأمتاعهم . وقيل : الحوامل من جميع الحيوان . وقيل : الجاريات : السحاب بالرياح . وقيل : الجواري من الكواكب ، وأدغم أبو عمرو وحمزة ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ في ذال ﴿ذَرْوًا﴾، وذروها : تفريقها للمطر أو للتراب . وقرىء : بفتح الواو وتسمية للمحمول بالمصدر . ومعنى ﴿يُسْرًا﴾ : جرياً ذا يسر ، أي سهولة . فيسراً مصدر وصف به على تقدير محذوف ، فهو على رأي سيبويه في موضع الحال . ﴿أَمْرًا﴾ تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها ، فأمراً مفعول به . وقيل : مصدر منصوب على الحال ، أي مأموره ، ومفعول المقسمات محذوف . وقال مجاهد : يتولى أمر العباد جبريل للغلظة ، وميكائيل للرحمة ، وملك الموت لقبض الأرواح ، وإسرافيل للنفخ . وجاء في الملائكة : فالمقسمات على معنى الجماعات . وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد الرياح لا غير ، لأنها تنشئ[1] السحاب وتقله وتصرفه وتجري في الجو جرياً سهلاً ، وتقسم الأمطار بتصريف الرياح . انتهى .

---

(١) هذا على سبيل المجاز أما الفاعل الحقيقي لذلك هو الله ﷻ .

فإذا كان المدلول متغايراً ، فتكون أقساماً متعاقبة . وإذا كان غير متغاير ، فهو قسم واحد ، وهو من عطف الصفات ، أي ذرت أول هبوبها التراب والحصباء ، فأقلت السحاب ، فجرت في الجو باسطة للسحاب ، فقسمت المطر . فهذا كقوله :

يا لهف زيابة للحارث الصـ ابح فالغانم فالآيب

أي : الذي صبح العدو فغنم منهم ، فآب إلى قومه سالماً غانماً . والجملة المقسم عليها ، وهي جواب القسم ، هي ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ ، وما موصولة بمعنى الذي ، والعائد محذوف ، أي توعدونه . ويحتمل أن تكون مصدرية ، أي أنه وعدكم أو وعيدكم ، إذ يحتمل توعدون الأمرين أن يكون مضارع وعد ومضارع أوعد ، ويناسب أن يكون مضارع أوعد لقوله : ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ ، ولأن المقصود التخويف والتهويل . ومعنى صدقة : تحقق وقوعه ، والمتصف بالصدق حقيقة هو المخبر . وقال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود] أي مصدوق فيه . وقيل : ﴿لَصَادِقٌ﴾ ، ووضع اسم الفاعل موضع المصدر ، ولا حاجة إلى هذا التقدير . وقال مجاهد : الأظهر أن الآية في الكفار ، وأنه وعيد محض . ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ : أي الجزاء ، ﴿لَوَاقِعٌ﴾ : أي صادر حقيقة على المكلفين من الإنس والجن .

﴿وَالسَّمَاءِ﴾ والظاهر في السماء أنه جنس أريد به جميع السموات . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : هي السماء السابعة . وقيل : السحاب الذي يظل الأرض .

﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ : أي ذات الخلق المستوي الجيد ، قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة والربيع .

وقال الحسن ، وسعيد بن جبير : ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ : أي الزينة بالنجوم . وقال الضحاك : ذات الطرائق ، يعني من المجرة التي في السماء .

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

معني الآيات :

﴿مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ من الفرائض ، أو الثواب ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ قبل الفرائض[1] ﴿مُحْسِنِينَ﴾ بالإجابة ، أو قبل القيامة محسنين بالفرائض .

﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا﴾ تم الكلام ثم قال ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ الهجوع : النوم ، أو كان هجوعهم قليلاً ، أو كان القليل منهم ما يهجعون وإن كان الأكثر هجوعاً ، أو كانوا في قليل من الليل ما يهجعون حتى صلوا المغرب والعشاء ، أو قليلاً يهجعون وما صلة وهذا لما كان قيام الليل فرضاً .

﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يصلون ، أو يؤخرون الاستغفار إلى السَّحَر كما آخره يعقوب لبنيه ، قال ابن زيد : السحر هو السدس الأخير من الليل .

﴿حَقٌّ﴾ معلوم : الزكاة ، أو غيرها مما يصل به رحماً ، أو يقري به ضيفاً ، أو يحمل به كلاً ، أو يغني به محروماً ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ الذي لا يسأل ، أو الذي يجيء بعد الغنيمة ليس له فيها سهم ، أو من لا سهم له في الإسلام أو من لا يكاد يتيسر له كسب أو من يطلب الدنيا وتدبر عنه ، أو المصاب بثمره وزرعه ، أو المملوك أو الكلب .

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ الجبال والبحار والأنهار ، أو من أهلك من الأمم الخالية .

---

(١) وقال الجزائري قبل ذلك : أي قبل دخولهم الجنة محسنين في الدنيا .

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ سبيل البول والغائط ، أو تسوية مفاصل الأيدي والأرجل والجوارح دال على أنه خلقكم لعبادته ، أو خلقكم من تراب ، فإذا أنتم بشر أو حياتكم وقوتكم وما يخرج ويدخل من طعامكم وشرابكم ، أو الكبر والضعف والشيب بعد الشباب والقوة والسواد.

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ ، من عند الله الذي في السماء ، أو المطر والثلج ينبتان الزرع فيحيا به الخلق فهو رزق من السماء ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من خير وشر ، أو جنة ونار ، أو أمر الساعة .

﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ ما جاء به الرسول ﷺ ، أو ما عدده في هذه السورة من آياته وذكره من عظاته .اهـ [(١)]

المعنى العام :

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ وهم الذين صانوا أنفسهم عن كل مالا يرضى الله - تعالى - .

﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ أي : مستقرين في جنات وبساتين فيها عيون عظيمة ، لا يبلغ وصفها الواصفون .

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ﴾ أي : هم منعمون في الجنات وما اشتملت عليه من عيون جارية ، حالة كونهم آخذين وقابلين لما أعطاهم ربهم من فضله وإحسانه .

وقوله : ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ﴾ بمثابة التعليل لما قبله . أي : هم في هذا الخير العميم من ربهم لأنهم ، كانوا قبل ذلك - أي : في الدنيا - محسنين لأعمالهم ، ومؤدين لكل ما أمرهم به ﷻ بإتقان وإخلاص .

---

(١) انظر تفسير العز بن عبد السلام لسورة الذاريات الآيات (١٥ - ٢٣) .

ثم بين ﷻ مظاهر إحسانهم فقال : ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي كانوا ينامون من الليل وقتا قليلا ، أما أكثره فكانوا يقضونه في العبادة والطاعة .

والهجوع : النوم ليلا ، وقيده بعضهم بالنوم القليل ، إذ الهجعة هي النومة الخفيفة ، تقول : أتيت فلانا بعد هجعة ، أي بعد نومة قليلة .

عن الحسن قال : كانوا لا ينامون من الليل إلا أقله ، كابدوا قيام الليل .

ثم مدحهم ﷻ بصفة أخرى فقال : ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ والأسحار جمع سحر ، وهو الجزء الأخير من الليل .

أي ، وكانوا في أوقات الأسحار يرفعون أكف الضراعة إلى الله – تعالى – يستغفرونه مما فرط منهم من ذنوب ، ويلتمسون منه – تعالى – قبول توبتهم وغسل حوبتهم .

قال الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ملخصه : وفى الآية إشارة إلى أنهم كانوا يتهجدون ويجتهدون ، ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك ، وأخلص منه ، ويستغفرون من التقصير ، وهذه سيرة الكريم : يأتي بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ، ويعتذر من التقصير ، واللئيم يأتي بالقليل ويستكثره .

وفيه وجه آخر ألطف منه : وهو أنه ﷻ لما بين أنهم يهجعون قليلا ، والهجوع مقتضى الطبع . قال ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي : من ذلك القدر من النوم القليل .

ومدحهم بالهجوع و لم يمدحهم بكثرة السهر . . للإشارة إلى أن نومهم عبادة ، حيث مدحهم بكونهم هاجعين قليلا ، وذلك الهجوع أورثهم الاشتغال بعبادة أخرى ، وهو الاستغفار . . . في وجوه الأسحار ، ومنعهم من الإعجاب بأنفسهم ومن الاستكبار .

ثم مدحهم ﷻ للمرة الثالثة فقال : ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ .

والسائل : هو من يسأل غيره العون والمساعدة . والمحروم : هو المتعفف عن السؤال مع أنه لا مال له لحرمان أصابه ، بسبب مصيبة نزلت به ، أو فقر كان فيه . . . أو ما يشبه ذلك .

قال ابن جرير بعد أن ذكر جملة من الأقوال في المراد من المحروم هنا . والصواب من القول في ذلك عندي : أنه الذي قد حرم الرزق واحتاج ، وقد يكون ذلك بذهاب ماله وثمره فصار ممن حرمه الله ؛ وقد يكون بسبب تعففه وتركه المسألة . وقد يكون بأنه لا سهم له في الغنيمة لغيبته عن الواقعة .

أي : أنهم بجانب قيامهم الليل طاعة لله - تعالى - واستغفارا لذنوبهم . . . يوجبون على أنفسهم في أموالهم حقا للسائل والمحروم ، تقربا إلى الله ﷻ بمقتضى ما جبلوا عليه من كرم وسخاء .

فالمراد بالحق هنا : ما يقدمونه من أموال للمحتاجين على سبيل التطوع وليس المراد به الزكاة المفروضة ، لأن السورة مكية والزكاة إنما فرضت في السنة الثانية من الهجرة .

قال الآلوسي : ﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ ﴾ هو غير الزكاة كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقال منذر بن سعيد : هذا الحق هو الزكاة المفروضة ، وتعقب بأن السورة مكية . وفرض الزكاة بالمدينة . وقيل : أصل فريضة الزكاة كان بمكة والذي كان بالمدينة القدر المعروف اليوم . . . . والجمهور على الأول .

والمتأمل في هذه الآيات الكريمة يرى أن هؤلاء المتقين ، قد مدحهم الله ﷻ هذا المدح العظيم ، لأنهم عرفوا حق الله عليهم فأدوه بإحسان وإخلاص ، وعرفوا حق الناس عليهم فقدموه بكرم وسخاء .

ثم لفت ﷻ الأنظار إلى ما في الأرض من دلائل على قدرته ووحدانيته فقال : ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ . أي : وفى الأرض آيات عظيمة وعبر وعظات بليغة ، تدل على وحدانية الله وقدرته ، كصنوف النبات ، والحيوانات ، والمهاد ، والجبال ، والقفار ، والأنهار ، والبحار . وهذه الآيات والعبر لا ينتفع بها إلا الموقنون بأن المستحق للعبادة إنما هو الله ﷻ ؛ ثم لفتة أخرى إلى النفس البشرية ، قال ﷻ : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ .

أي : وفى أنفسكم وذواتكم وخلقكم . . . أفلا تبصرون إبصار تذكر واعتبار ، فـإن في خلقكم من سلالة من طين ، ثم جعلكم نطفة فعلقة فمضغة فخلقا آخر ، ثم في رعـايتكم في بطون أمهاتكم . ثم في تدرجكم من حال إلى حال ، ثم في اختلاف ألسنتكم وألوانكم ، ثم في التركيب العجيب الدقيق لأجسـادكم وأعظـائكم . ثم في تفـاوت عقـولكم وأفهامكم واتجاهاتكم .في كل ذلك وغيره ، عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين .

ورحم الله صاحب الكشاف ، فقد قال عند تفسيره لهاتين الآيـتين ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ ﴾ تدل على الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره ، حيث هي مدحوّة كالبسـاط . . . وفيهـا المسالك والفجاج للمتقلبين فيها ، والماشين في مناكبها .وهى مجزأة : فمن سهل وجبل ، وبر وبحر ، وقطع متجاورات : من صلبة ورخوة ، وطيبة وسبخة ، وهى كالطروقة تلقح بألوان النبات . . . وتسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، وكلـها موافقة لحوائج ساكنيها . في كل ذلك آيات ﴿ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ أي : للموحدين الذين سلكوا الطريق السوى . . . فازدادوا إيمانا على إيمانهم . ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ في حـال ابتـدائها وتنقلها من حال إلى حال ، وفى بواطنها وظواهرها ، من عجائب الفطر . وبدائع الخلق ، ما تتحير فيه الأذهان ، وحسبك بالقلوب ، وما ركز فيها من العقول ، وخصت به مـن أصناف المعاني ، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف ، وما في تركيبها وترتيبها وطلائفها : من الآيات الدالة على حكمة المدبر .اهـ [1]

---

(١) انظر التفسير الوسيط لسورة الذاريات الآيات (١٥ — ٢١) .

من هداية الآيات :

١- بيان ما للمتقين من نعيم مقيم في الدار الآخرة .

٢- بيان صفات المتقين من التهجد بالليل والاستغفار في آخره والإنفاق في سبيل الله .

٣- بيان أن في الأرض كما في الأنفس آيات أي دلائل وعلامات على قدرة الله على البعث والجزاء .

٤- بيان أن في السماء رزق العباد فلا يطلب إلا من الله تعالى وأن ما تُوعَدُ من خير وشر أمره في السماء ومنها ينزل بأمره تعالى فليكن طلبنا الخير من الله دائما وتعوذنا من الشر بالله وحده . [1]

---

(١) أيسر التفاسير : ٣/ ٣٨٣ تفسير سورة الذاريات الآيات (١٥ – ٢٣) ط/ دار الحديث .

سُورَةُ الطُّور

بين يدي السورة :

[هذه السورة تمثل حملة عميقة التأثير في القلب البشري . ومطاردة عنيفـــة للـــهواجس والشكوك والشبهات والأباطيل التي تساوره وتتدسس إليه وتختبئ هنا وهناك في حناياه . ودحض لكل حجة وكل عذر قد يتخذه للحيدة عن الحق والزيغ عن الإيمان . . حملة لا يصمد لها قلب يتلقاها ، وهي تلاحقه حتى تلجئه إلى الإذعان والاستسلام!

وهي حملة يشترك فيها اللفظ والعبارة ، والمعنى والمدلول ، والصور والظلال ....وتبـــدأ السورة بقسم من الله ﷻ بمقدسات في الأرض والسماء . بعضها مكشـــوف معلـــوم! وبعضها مغيب! مجهول : ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ﴿٢﴾ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ﴿٣﴾ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴿٥﴾﴾ . .

القسم على أمر عظيم رهيب ، يرج القلب رجاً ، ويرعب الحس رعباً . في تعبير يناسب لفظه مدلوله الرهيب؛ وفي مشهد كذلك ترجف لـــه القلـــوب : ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ﴿١٠﴾﴾

وفي وسط المشهد المفزع نرى ونسمع ما يزلزل ويرعب ، من ويـــل وهـــول ، وتقريـــع وتفزيـــع : ﴿ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ . .

هذا شوط من حملة المطاردة . يليه شوط آخر من لون آخر . شوط في إطماع القلوب التي رأت ذلك الهول المرعب - إطماعها في الأمن والنعيم . بعرض صورة المتقين وما أعد لهم من تكريم . وما هيئ لهم من نعيم رخي رغيد ، يطول عرضه ، وتكثر تفصيلاته ، وتتعدد ألوانه . مما يستجيش الحس إلى روْح النعيم وبرده؛ بعد كرب العذاب وهوله :

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ
﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ
عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ
كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا
لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ
ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ . .

والآن وقد أحس القلب البشري سياط العذاب في الشوط الأول؛ وتذوق حلاوة النعيم **في الشوط الثاني** . . الآن يجيء الشوط الثالث يطارد الهواجس والوساوس؛ ويلاحق الشبهات والأضاليل؛ ويدحض الحجج والمعاذير ....

: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ
ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ
طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾
أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾
أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم
بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ

عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

وعقب هذه الأسئلة المتلاحقة . بل هذه القذائف الصاعقة . التي تنسف الباطل نسفاً ، وتحرج المكابر والمعاند ، وتخرس كل لسان يزيغ عن الحق أو يجادل فيه . . عقب هذا يصور تعنتهم وعنادهم في صورة الذي يكابر في المحسوس : ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴿٤٤﴾ ﴾. والفرق بين قطعة السماء تسقط وبين السحاب واضح ، ولكنهم هم يتلمسون كل شبهة ليعدلوا عن الحق الواضح .

هنا يلقي عليهم بالقذيفة الأخيرة . قذيفة التهديد الرعيب ، بملاقاة ذلك المشهد المرهوب ، الذي عرض عليهم في مطلع السورة : ﴿ فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾. . كما يهددهم بعذاب أقرب من ذلك العذاب : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾. .

ثم تختم السورة بإسلوب رضي رخي . . إنه موجه إلى الرسول الكريم الذي يقولون عنه : ﴿شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴾. . ويقولون : كاهن أو مجنون . موجه إليه من ربه يسليه ويعزيه في إعزاز وتكريم . في تعبير لا نظير له في القرآن كله؛ ولم يوجه من قبل إلى نبي أو رسول : ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾.اهـ (١)

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ﴿٢﴾ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ﴿٣﴾ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تَمُورُ

---

(١) انظر الظلال ٦/٣٣٩١، ٣٣٩٣ في ظلال سورة الطور بتصرف يسير ط/ دار الشروق .

ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ﴿١٠﴾ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي
خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا
تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ
سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

شرح الكلمات :

﴿وَٱلطُّورِ﴾ : أي والجبل الذي كلم الله عز وجل عليه موسى عليه السلام .

﴿ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾ : أي وقرآن مكتوب .

﴿ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ﴾ : أي في جلد رقيق أو ورق منشور .

﴿ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾ : أي بالملائكة يدخله كل يوم سبعون الف ملك لا يعودون ابداً

﴿ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴾ : أي السماء التي هي كالسقف المرفوع للأرض .

﴿ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ﴾ : أي المملوء المجموع ماؤه بعضه في بعض .

﴿ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ﴾ : أي تتحرك وتدور .

﴿فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ﴾ : أي في باطل يلعبون أي يتشاغلون بكفرهم .

﴿يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ : أي يدفعون بعنف دفعاً .

﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ﴾ : أي العذاب الذي ترون كما كنتم تقولون في القرآن .

﴿أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴾: أي أم عدمتم الأبصار فأنتم لا تبصرون .

﴿ ٱصۡلَوۡهَا﴾ : أي اصطلوا بحرها .

﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾ : أي صبركم وعدمه عليكم سواء .[1]

معنى الآيات :

قوله تعـالى ﴿وَٱلطُّورِ ١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ٦﴾ هذه خمسة أشياء عظام أقسم الله تعالى بها ، وبالتتبع لما يقسم الله تعالى به يُرى أنه إذا أقسم بشيء إنما يقسم به إما لكونه مظهراً مـن مظاهر القدرة الإلهية ، كالسماء مثلا ، وإما لكونه معظما نحو لعمرك إذْ هو إقسام بحياة النبي ﷺ . وإما لكونه ذا فائدة للإنسان ونفع خاص به كالتين والزيتون وقولـه تعـالى ﴿وَٱلطُّورِ﴾ وهو جبل الطور الذي كلم تعالى عليه موسى وهو مكان مقـدس ، وقولـه ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ٣﴾ أي منشور في ورق أو جلد رقيـق وهـو التوراة أو القرآن والإقسام به لما فيه من حرمة وقدسـية عنـد الله تعـالى ، ﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾ وهو بيت في السماء تغشاه الملائكة كل يوم وتعمره بالعبادة وهو بحيال الكعبة بحيث لو وقع لوقع فوقها ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ وهو السماء وهي كالسقف للأرض وهي مظهر من مظاهر قدرة ا لله تعالى وعلمه ومثلها ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ أي المملوء بكميات المياه الهائلة فإنه مظهر من مظاهر القدرة والعلم والحكمة الإلهية هذا القسم الضخم جوابه أو المقسم عليه هو قوله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ يا رسولنا ﴿لَوَٰقِعٞ ٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ٨﴾ ليس له من دافع يدفعه أبداً ، وإن له وقتاً محدداً يقع فيه ، وعلامات تدل عليه وهي قوله تعالى ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ٩﴾ أي تتحرك بشدة وتدور وتسير الجبال سيراً فتكون

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري : ٣/ ٣٩٤ تفسير سورة الطور الآيات (١ – ١٦) ط / دار الحديث .

كالهباء المنبث هنا وهناك فويل يومئذ للمكذبين والويل[١] واد في جهنم مملوء بقيح وصديد أهل النار ، والمكذبون هم الكافرون بالله وبما جاءت به رسله عنه من أركان الإيمان وقواعد الإسلام وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ أي في باطلهم وكفرهم يتشاغلون به عن الإيمان الحق العمل الصالح المزكي للنفس المطهر لها . وقوله ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾ أي يوم يدفعون بشدة وعنف إلى جهنم ويقال لهم توبيخاً وتقريعاً لهم هذه النار التي كنتم بها تكذبون . أخبرونا : ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا ﴾ أي العذاب الذي أنتم فيه الآن تعذبون أم أنتم لا تبصرون فلا تعاينونه . ويُقال لهم أيضا تبكيتاً وتقريعاً فاصبروا على عذاب النار أو لا تصبر سواء عليكم أي صبركم وعدمه عليكم سواء . إنما تجزون ما كنتم تعلمون أي في الدنيا من الشرك والمعاصي .اهـ[٢]

وقفة مع الآيات :

القَسَم للتأكيد وتحقيق الوعيد . ومناسبة الأمور المقسم بها للمقسم عليه أن هذه الأشياء المقسم بها من شؤون بعثه موسى عليه السلام إلى فرعون وكان هلاك فرعون ومن معه من جراء تكذيبهم موسى عليه السلام .

و ﴿وَٱلطُّورِ﴾: الجبل باللغة السريانيّة قاله مجاهد . وأدخل في العربية وهو من الألفاظ المعربة الواقعة في القرآن ؛ وغلب علَماً على طور سينا الذي ناجى فيه موسى عليه السلام ، وأنزل عليه فيه الألواح المشتملة على أصول شريعة التوراة ؛ فالقسم به باعتبار شرفه بترول كلام الله فيه ونزول الألواح على موسى وفي ذكر الطور إشارة إلى تلك الألواح لأنها اشتهرت بذلك الجبل فسميت طور المعرّب بتوراة .

---

(١) كلمة تهديد ووعيد للظالمين المشركين والعاصين العاتين .

(٢) أيسر التفاسير للجزائري : ٣/ ٣٩٤، ٣٩٥ تفسير سورة الطور الآيات (١ – ١٦)

وأما الجبل الذي خوطب فيه موسى من جانب الله فهو جبل حُوريب واسمه في العربيــة (الزّبير) ولعله بجانب الطور كما في قولــه تعــالى : ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ﴾ وتقدم بيانه في سورة القصص (٢٩) ، وتقدم عند قولــه تعــالى : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ في سورة البقرة (٦٣) .

والقَسَم بالطور توطئة للقسم بالتوراة التي أنزل أولها على موسى في جبل الطور .

والمراد ﴿ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ ﴾ التوراةُ كلها التي كتبها موسى عليه السلام بعد نزول الألواح ، وضمَّنها كل ما أوحَى الله إليه مما أمر بتبليغــه في مــدة حياتــه إلى ساعات قليلة قبل وفاته . ... : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ۝١٥٤ ﴾ في سورة الأعراف.

وتنكير ﴿ وَكِتَٰبٍ ﴾ للتعظيم . وإجراء الوصفين عليه لتمييزه بأنه كتاب مشرف مراد بقاؤه مأمور بقراءته إذ المسطور هو المكتوب . والسطر : الكتابة الطويلة لأنها تجعل ســطوراً ، أي صفوفاً من الكتاب قال تعالى : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم : ١] ، أي يكتبون .

و﴿ رَقٍّ ﴾ (بفتح الراء بعدها قاف مشددة) الصحيفة تُتّخذ من جلد مرقق أبيض ليكتب عليه . وقد جمعها المتلمس في قوله :

فكأنما هِي مِن تقــادُمِ عهــدها — رَقّ أُتيــح كتابُهــا مســطور

والمنشور : المبسوط غير المطوي قال يزيد بن الطثرية :

صحائف عندي للعتاب طويتُهــا — ستنشر يوماً مّا والعتــاب يطــول

أي : أقسم بحال نشره لقراءته وهي أشرف أحواله لأنها حالة حصول الاهتداء به للقارىء والسامع .

وكان اليهود يكتبون التوراة في رقوق ملصق بعضها ببعض أو مخيط بعضها ببعض ، فتصير قطعة واحدة ويطوونها طيّاً اسطوانياً لتحفظ فإذا أرادوا قراءتها نشروا مطويها ، ومنه ما في حديث الرجم « فنشروا التوراة » . وليس المراد بكتاب مسطور القرآن لأن القرآن لم يكن يومئذٍ مكتوباً سطوراً ولا هو مكتوباً في رَق .

ومناسبة القسم بالتوراة أنها الكتاب الموجود الذي فيه ذكر الجزاء وإبطال الشرك وللإشارة إلى أن القرآن الذي أنكروا أنه من عند الله ليس بدعاً فقد نزلت قبله التوراة وذلك لأن المقْسَم عليه وقوع العذاب بهم وإنما هو جزاء على تكذيبهم القرآن ومن جاء به بدليل قوله بعد ذكر العذاب اهـ

من هداية الآيات :

١- تقرير البعث والجزاء .

٢- لله تعالى أن يقسم بما يشاء من خلقه وليس للعبد أن يقسم بغير الله تعالى .

٣- عرض سريع لأهوال القيامة وأحوال المكذبين فيها .

٤- تقرير قاعدة الجزاء من جنس العمل.(١)

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ
﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ
عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ
كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا
لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ
ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

---

(١)أيسر التفاسير للجزائري : ٣/ ٣٩٦ تفسير سورة الطور الآيات (١ – ١٦) .

معنى الكلمات :

﴿ فَٰكِهِينَ ﴾ معجبين ، أو ناعمين ، أو فرحين ، أو متقابلين بالحديث السار المؤنس من الفكاهة ، أو ذو فاكهة كلابن وتامر أو ذو بساتين فيها فواكه .

﴿سُرُرٍ﴾ وسائد ﴿مَّصۡفُوفَةٍ﴾ بين العرش ، أو مرمولة بالذهب . أو وصـل بعضـها إلى بعض فصارت صفاً ﴿بِحُورٍ﴾ سُمِّين بذلك لأنه يَحارُ فيهن الطرف ، أو لبياضهن ومنـه الخبز الحواري ﴿عِينٍ﴾ عيناء وهي الواسعة العين في صفائها .

﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ﴾ يدخل الله تعالى الذرية بإيمان الآباء الجنة ، أو نعطيهم مثل أجور الآباء مـن غير نقص في أجور الآباء ، أو البالغون أطاعوا الله تعالى فألحقهم الله بآبـائهم ، أو لمـا أدركوا أعمال آبائهم تابعوهم عليها فصاروا مثلهم فيها ﴿أَلَتۡنَٰهُم﴾ ظلمناهم أو نقصناهم أي لم ننقص أجور الآباء ، بما أعطيناه الأبناء فضلاً منا وإكراماً للآباء ﴿رَهِينٌ﴾ مؤاخـذ كما يؤخذ الحق من الرهن أو محتبس كاحتباس الرهن بالحق

﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ يتعاطون ويناول بعضهم بعضاً المؤمن وزوجاته وخدمه ﴿كَأۡسًا﴾ كل إنـاء مملوء من شراب أو غيره فهو كأس ، فإذا فرغ لم يسم كأساً ﴿لَّا لَغۡوٌ فِيهَا﴾ لا باطل في الخمر ولا مأثم ، أو لا كذب ولا خُلْف ، أو لا يتسابون عليها ولا يؤثم بعضهم بعضـاً ، أو لا لغو في الجنة ولا كذب ، واللغو هنا فحش الكلام .

﴿غِلۡمَانٌ﴾ أولادهم الأصاغر ، أو أولاد غيرهم ﴿مَّكۡنُونٌ﴾ مصون بالكن والغطاء .

﴿ٱلسَّمُومِ﴾ النار ، أو اسم لجهنم ، أو وهجها ، أو حر السموم في الدنيا والسموم لفح الشمس والحر وقد يستعمل في لفح البرد .

﴿ٱلْبَرُّ﴾ الصادق ، أو اللطيف ، أو فاعل البر المعروف .اهـ [١]

قال د/ محمد سيد طنطاوي : المعنى : ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين صانوا أنفسهم عن كل ما نهى الله ﷻ عنه .﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ عظيمة وفى ﴿وَنَعِيمٍ﴾ دائم لا ينقطع . ﴿فَٰكِهِينَ﴾ أي : متلذذين متنعمين بما يحيط بهم من خيرات ، مأخوذ من الفَكاهة - بفتح الفاء - وهى طيب العيش مع النشاط ، يقال : فكه الرجل فكَها ، وفكاهة فهو فكِه وفاكه . إذا طاب عيشه ، وزاد سروره ، وعظم نشاطه ، وسميت الفاكهة بهذا الاسم لتلذذ الإنسان بها .

﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾ أي متلذذين بسبب ما آتاهم ربهم من جنات عظيمة ، ووقاهم ﷻ بفضله ورحمته العذاب الذي يؤلمهم .

ويقال لهم فضلا عن ذلك على سبيل التكريم : ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا﴾ أي : كلوا أكلا مريئا ، واشربوا شربا هينئا . والهنيء من المأكول والمشروب : مالا يلحقه تعب أو سوء عاقبة .

وقوله : ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ منصوب على الحال من فاعل ﴿كُلُوا۟﴾ أو من الضمير المستكن في قوله ﴿جَنَّٰتٍ﴾ .

أي : هم في جنات عظيمة ، حالة كونهم متكئين فيها على سرر موضوعة على صفوف منتظمة ، وعلى خطوط مستوية ، والسُّرُرُ : جمع سرير وهو ما يجلس عليه الإنسان للراحة ؛ وقوله : ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ بيان لنعمة أخرى من النعم التي يتلذذون بها أي : وفضلا عن كل ذلك ، فقد زوجناهم بنساء جميلات ؛ وبذلك نرى أن هؤلاء المتقين ، قد أكرمهم الله ﷻ بكل أنواع النعيم ، من مسكن طيب ، ومأكل كريم ، ومشرب هنيء ، وأزواج مطهرات من كل سوء .

---

(١) انظر تفسير ابن عبد السلام لسورة الطور الآيات (١٧ — ٢٨) .

ثم بين ﷻ أنواعا أخرى من تكريمه ﷻ لهم ، فقـال : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ .

والآية الكريمة بيان لحال طائفة من أهل الجنة - وهم الذين شاركتهم ذريتهم الأقل عملاً منهم في الإيمان - إثر بيان حال المتقين بصفة عامة .

والاسم الموصول مبتدأ ، وخبره جملة ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾. والمراد بالذرية هنـا : مـا يشمل الآباء والأبناء وقوله : ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ﴾ معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾ . وقولـه ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ متعلق بالاتباع ، والباء للسببية أو بمعنى في .

ومعنى : ﴿أَلَتۡنَٰهُم﴾ أنقصناهم . يقال : فلان ألَتَ فلانا حقه يألِته - من باب ضـرب - إذا بخسه حقه .

والمعنى : والذين آمنوا بنا حق الإيمان واتبعتهم ذريتهم في هذا الإيمان ، ألحقنا بهم ذريتهم ، بأن جمعناهم معهم في الجنة ، وما نقصنا هؤلاء المتبوعين شيئا من ثـواب أعمـالهم ، بسبب إلحاق ذريتهم بهم في الدرجة ، بل جمعنا بينهم في الجنة . وساوينا بينهم في العطاء - حتى ولو كان بعضهم أقل من بعض في الأعمال - فضلا منا وكرما .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله : يخبر ﷻ عن فضله وكرمه ، وامتنانـه ولطفـه بخلقـه وإحسانه : أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان ، يلحقهم بآبائهم في المنزلـة وإن لم يبلغوا عملهم ، لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم ، فيجمع بينهم علـى أحسـن الوجوه ، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل ، ولا ينقص ذاك من عمله ومنزلته .

للتساوي بينه وبين ذاك . ولهذا قال : ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ عن ابن عباس قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته ، وإن كانوا دونه في العمل ، لتقر بهم عينه ، ثم قرأ هذه الآية .

وفى رواية أخرى عنه قال – عندما سئل عن هذه الآية – : هم ذرية المؤمنين يموتون على الإيمان ، فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم ، ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوها شيئا .

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى تنكير الإيمان؟ قلت : معناه الدلالة على أنه إيمان خاص عظيم المترلة ، ويجوز أن يراد : إيمان الذرية الدانى المحل ، كأنه قال : بشيء من الإيمان ، لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم .

قال الجمل : والذرية هنا تصدق على الآباء والأبناء ، فإن المؤمن إذا كان عمله الصالح أكثر ألحق به من هو دونه في العمل أبا كان أو ابنا ، وهذا منقول عن ابن عباس وغيره .

...وقوله : ﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي : كل إنسان مرهون بعمله عند الله – تعالى – فإن كان عمله صالحا سعد وفاز ، وأطلق نفسه من كل ما يسوؤها ويحزنها ، وإن كان غير ذلك جوزي على حسب عمله وسعيه .

والتعبير بقوله ﴿رَهِينٌ﴾ للإشعار بأن كل إنسان مرهن بعمله ، حتى لكأن العمل بمترلة الدّين ، وأن الإنسان لا يستطيع الفكاك منه إلا بعد أدائه .

ثم بين – سبحانه – جانبا آخر من مظاهر فضله على عباده المؤمنين فقال : ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾ . أي : وأمددنا هؤلاء المؤمنين – على سبيل الزيادة عما عندهم بفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وبلحم لذيذ تشتهيه نفوسهم .

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي : يتجاذبون على سبيل المداعبة ، ويتعاطون على سبيل التكريم ، الأواني المملوءة بالخمر التي هي لذة للشاربين .

﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي : لا يصدر منهم في أعقاب شربهم لتلك الخمر ، ما جرت به العادة في أعقاب شرب خمر الدنيا ، من أن الشارب لها يصدر منه كلام ساقط لا خير فيه ، ويأتي من القوال والأفعال ما يعاقب عليه . ويرتكب الإثم بسببه .

قال صاحب الكشاف : ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ أي : في شربها ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي : لا يتكلمون في أثناء الشرب بسقط الحديث ، ومالا طائل تحته ، كفعل المتنـادمين في الـدنيا علـى الشراب في سفههم وعربدتهم ، ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله ، أي : ينسب إلى الإثم لـو فعله في دار التكليف من الكذب والشتم والفواحش ، وإنما يتكلمون بالحكم وبـالكلام الحسن متلذذين بذلك ، لأن عقولهم ثابتة غير زائلة وهم حكماء علماء .

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أي : ويطوف عليهم بتلك الكئوس المليئة بالخمر ، غلمان لهم ، لكي يكونوا في خدمتهم .

﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي : كأن هؤلاء الغلمان في صفائهم ونقائهم ، لؤلـؤ مصـون ومحفوظ في صدفه لم تنله الأيدي .

يقال : كَنَنْتُ الشيء كَنًّا وكُنُوناً ، إذا جعلته في كِنٍّ ، وسترته عن الأعين .

ثم حكى ﷻ تساؤلهم وهم في الجنة ، فقـال : ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي : وأقبل بعضهم على بعض وهم في الجنة ، يسأل أحدهم الآخر عن أحوالـه وعـن أعماله ، وعن حسن عاقبته .

﴿قَالُوا﴾ أي : قال كل مسئول لسائله : ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ أي : إنا كنا في الدنيا ونحن نعيش بين أهلنا خائفين من أهوال يوم القيامة ، وكنا نقدم العمـل الصالح الذي نرجو أن ننال بسببه رضا ربنا : فقبـل - تعـالى - بفضـله منـا هـذا العمل﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي فتكرم علينا بمغفرته ورضوانه .

﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ أي : وأنقذنا من عذاب النار التي تنفذ بحرها وسعيرها ، إلى العظام والمسام ، نفاذ الريح الحارة إلى الأجساد ، فتؤثر فيها تأثير السم في البدن .

قال صاحب الكشاف : والسموم : الريح الحارة التي تدخل المسام ، فسميت بهـا نـار جهنم ، لأنها بهذه الصفة .

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ ﴾ أي : إنا كنا من قبل في الدنيا ندعوه أن يجنبنا هذا العذاب كما كنا – أيضا – نخلص له العبادة والطاعة .

﴿إِنَّهُۥ﴾ ﷻ ﴿هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي : هو المحسن على عباده ، الرحيم بهم .

فالبر – بفتح الباء – مشتق من البِرّ – بكسرها – ، بمعنى المحسن ، يقال : بر فلان في يمينه ، إذا صدق فيها ، وأحسن أداءها .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة ، قد بشرت المتقين ببشارات متعددة ، وذكرت نعما متعددة أنعم بها ﷻ عليهم . اهـ

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ١٧﴾ والمتقون هم الذين قاموا بطاعة الله امتثالاً لأمره واجتناباً لنهيه، هذه هي التقوى، فالتقوى طاعة الله في امتثال أمره واجتناب نهيه، فالذي يصلي امتثالاً لأمر الله نقول: هو متق، والذي يدع الزنا نقول: هو متقٍ بترك الزنا، وإنما سمي ذلك تقوى لأنه وقاية من عذاب الله، فإن الإنسان إذا قام بطاعة الله فقد اتخذ وقاية من عذاب الله ﷻ هؤلاء المتقون يقول الله ﷻ : ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ﴾ وجنات جمع جنة، وهي الدار التي أعدها الله تعالى للمتقين في الآخرة، بدليل قول الله تبارك وتعالى:

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ﴾ [آل عمران] وإذا قلنا: إن الجنة هي الدار التي أعدها الله تعالى لعباده في الدار الآخرة، فهل يمكن أن تكون في الدنيا؟ نقول: أما بالنسبة لدخول الجنة التي هي الجنة فهذا لا يمكن في الدنيا، أما بالنسبة لكون الإنسان يأتيه من نعيم الجنة ما يأتيه، فهذا يمكن، وذلك في القبر إذا سُئل الإنسان عن ربه، ودينه، ونبيه، فأجاب الصواب، فإنه يفرش له فراش من الجنة، ويُفتح له باب إلى الجنة، ويُفسح له في قبره مُدَّ البصر ، وجمعت الجنات في الآية لأنها أنواع، ذكر الله في سورة الرحمن أربعة أنواع ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦ ﴾ [الرحمن] ثم قال: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ٦٢ ﴾ [الرحمن] هذه الجنان الأربع

تختلف بما جاء في وصفها في سورة الرحمن، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ أي نعيم البدن، ونعيم القلب، فهم في سرور دائم، وهم في صحة دائمة، وهم في حياة دائمة، فجميع أنواع النعيم كاملة لهم، نسأل الله أن يجعلنا منهم ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ الفاكه هو المسرور، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المطففين] أي: مسرورين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: بما أعطاهم ربهم من النعيم، ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ فحصلوا على السلامة من الشرور بوقاية الجحيم، وعلى تمام السرور في جنات النعيم ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ فعل أمر، وهذا الأمر ليس تكليفاً وإنما الأمر هنا للتكريم، أي يقال لهم: كلوا من كل ما في الجنة من النعيم ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ [الرحمن] .

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الرحمن]

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ متكئين حال، أي: حال كونهم متكئين، والمتكئ تدل هيئته على أنه في سرور وانشراح وطمأنينة، لأن الاتكاء يدل على ذلك، والسرر جمع سرير، وهي الكراسي الفخمة المهيئة أحسن تهيئة للجالس عليها، ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي مصفوف بعضها إلى بعض، يصفها الخدم والولدان، ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: قرناهم بحور عين، والحور جمع حوراء، والعين جمع عيناء، والأصل الحور هو البياض، وأما العيناء فهي التي كانت جميلة العين في سوادها وبياضها، فهن حسان الوجوه، حسان الأعين، ثم قال ﷻ :

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: الذين آمنوا واتبعتهم الذرية بالإيمان، والذرية التي يكون إيمانها تبعاً هي الذرية الصغار، فيقول الله ﷻ ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: جعلنا ذريتهم تلحقهم في درجاتهم، وأما الكبار الذين تزوجوا فهم

مستقلون بأنفسهم في درجاتهم في الجنة، لا يلحقون بآبائهم، لأن لهم ذرية فهم في مقرهم، أما الذرية الصغار التابعون لآبائهم فإنهم يرقون إلى آبائهم، وهذه الترقية لا تستلزم النقص من ثواب ودرجات الآباء، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ أي: نقصناهم، يعني أن ذريتهم تلحق بهم، ولا يقال: أخصم من درجات الآباء بقدر ما رفعت من درجات الذرية﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ هذه قاعدة عامة في جميع العاملين أن كل واحد فإنه رهين بعمله لا ينقص منه شيء، أما الزيادة فهي فضل من الله تبارك وتعالى على من شاء من عباده ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أمدهم الله تعالى، أي: أعطاهم عطاء مستمراً إلى الأمد وإلى الأبد بفاكهة وهي ما يتفكه به من المأكولات، ﴿وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ أي: مما يشتهونه ويستلذونه، وقد بين الله تبارك وتعالى نوع هذا اللحم بأنه لحم طير، وهو أشهى ما يكون من اللحم وأبراه وأمراه ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا﴾ أي: أن أهل الجنة ينازع بعضهم بعضاً على سبيل المداعبة، وعلى سبيل الأنس والانشراح ﴿كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ والمراد بها كأس الخمر، ومعنى ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ أنه لا يحصل بها ما يحصل من خمر الدنيا، فإن خمر الدنيا يحصل بها السكر والهذيان، ولكن خمر الآخرة ليس فيها لغو ولا تأثيم، أي: لا يلغو بعضهم على بعض، ولا يتكلمون بالهذيان، ولا يعتدي بعضهم على بعض ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: يتردد على أهل الجنة وهم على سررهم متكئين ﴿غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ﴾ أي: غلمان مهيئون لهم في الخدمة التامة المريحة ﴿كَأَنَّهُمۡ﴾ أي: الغلمان ﴿لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾ أي: محفوظ عن الرياح وعن الغبار وعن غير ذلك مما يفسده، ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي صار بعضهم يسائل بعضاً، لكنه على وجه الأدب يتكلم معه وهو مقابل له لوجهه فلا يصعر خده له ولا

يستدبره، بل يتكلم معه بأدب ومقابلة تامة ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قـال بعضـهم لـبعض: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ﴾ أي: في الدنيا ﴿فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ أي خائفين من عـذاب الله ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ أي: أنعم علينا بنعمة عظيمة، ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي: عذاب النار ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ﴾ أي: قبل أن نصل إلى هذا المقر، وذلك في الـدنيا ﴿نَدۡعُوهُ﴾ أي: نعبده ونسأله، لأن الدعاء يطلق على معنيين: على العبادة، وعلى السـؤال، فمـن إطلاقه على العبادة قول الله تبارك وتعـالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر].

وأما الدعاء بمعنى السؤال ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة] فقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾ يشمل دعاء العبـادة كالصـلاة، والصـدقة، والصيام، والحج، وبر الوالدين وصلة الأرحام، كل هذا دعاء، وإن كان هو عبادة، فلـو سألت الداعي لماذا تعبد الله، ولو سألت العابد لماذا تعبد الله؟ لقال: أرجو رحمته وأخاف عذابه، فتكون هذه العبادة بمعنى الدعاء، كذلك ندعوه دعاء مسألة، لا يسألون غـير الله ولا يلجئون إلا إلى الله، لأنهم يعلمون أنهم مفتقرون إليه، وأنه هو القادر على كل شـيء ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿ٱلۡبَرُّ﴾ بمعنى الواسع الإحسان والرحمة، ومن ذلـك البريـة، للمكان الخالي من الأبنية، فالمعنى أنه جل وعـلا واسـع الإحسـان والعطـاء والجـود ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ أي ذو الرحمة البالغة، يرحم بها من يشاء من عباده تبارك وتعالى، وفي هـذه الآيات بيان نعيم أهل الجنة، وفيها أيضاً أن الله ﷻ لما ذكر عذاب أهل النار ذكر نعـيم أهل الجنة، لأن هذا القرآن الكريم مثاني تثنى فيه المعاني، إذا ذكر فيه الخير ذكر فيه الشر، وإذا ذكر فيه نعيم المتقين ذكر فيه جحيم الكافرين، وهكذا حتى يكون قارئ القرآن بين

الخوف والرجاء، إن قرأ آيات النعيم رجا، وإن قرأ آيات العذاب خاف، فيعبد الله تبارك وتعالى بهذا وهذا، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل الجنات الناجين من الدركات، إنه على كل شيء قدير.اهـ

من هداية الآيات :

١- فضل التقوى وكرام أهلها .

٢- بيان منة الله وفضله على أهل الإيمان والتقوى وهم أولياء الله تعالى .

٣- مشروعية الدعاء بكلمة هنيئا لمن أكل أو شرب ائتساء بأهل الجنة .

٤- الإيمان والأعمال الصالحة سبب في دخول الجنة وليست ثمنا لها لأن الجنة أغلى من عمل الإنسان ، وإنما العمل الصالح يزكي النفس فيؤهل صاحبها لدخول الجنة فالباء في قوله ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سببية وليست للعوض كما في قولك بعتك الدار بألف مثلا .

٥- وصف كامل لأهل الجنة وهو تقرير في نفس الوقت للبعث والجزاء ما يكون فيه .

٦- فضل الإيمان وكرامة أهله عند الله بإلحاق الأبناء قليل العمل الصالح بآبائهم الكثيري العمل الصالح .

٧- تقرير قاعدة أن المرء يوم القيامة يكون رهين كسبه لا يفكه إلا الله ﷻ فمن استطاع أن يفك رقبته فليفعل وذلك بالإيمان والإسلام والإحسان .

٨- فضيلة الإشفاق في الدنيا من عذاب الآخرة .

٩- فضل الدعاء والتضرع إلى الله تعالى .اهـ[1]

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٣/٣٩٧ -٣٩٩ تفسير سورة الطور الآيات (١٧ – ٢٨) .

سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ ﴾

شرح الكلمات :

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ : أي انفتحت أبواباً لنـــزول الملائكـــة إلى الأرض لتســـوق الخلائق إلى المحشر .

﴿فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴾ : أي السماء محمرة احمرار الأدم أو الفرس الأحمر وذابـــت فكانت كالدهان في صفائها وذوبانها .

﴿ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴾: أي يوم يخرجون من قبورهم لا يسألون عن ذنوبهم لما لهم من علامات كاسوداد الوجوه وبياضها ، ويسألون عند الحساب .[1]

من أهوال يوم القيامة :

[ومن هنا إلى نهاية السورة تبدأ مشاهد اليوم الآخر . مشهد الانقلاب الكوني يوم القيامة . وما يعقبه من مشاهد الحساب . ومشاهد العذاب والثواب .

ويبدأ استعراض هذه المشاهد بمشهد كوني يتناسب مع مطالع السورة ومجالها الكوني :

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾ وردة حمراء ، سائلة كالدهان . . ومجموع الآيات التي وردت في صفة الكون يوم القيامة تشير كلها إلى وقـــوع دمـــار كامل في هذه الأفلاك والكواكب ، بعد انفلاتها من النسق الذي يحكمها الآن ، وينســـق

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري : ٣/ ٤٣٧ تفسير سورة الرحمن الآيات (٣٧-٤٥) ط/ دار الحديث .

بين مداراتها وحركاتها . منها هذه الآية . ومنها : ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ ﴾ [الواقعة] ومنها : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ ﴾ [القيامة] ومنها ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ ﴾ [التكوير] ومنها ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ ﴾ [الانفطار] ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ ﴾ [الانشقاق] وهذه وغيرها تشير إلى ذلك الحادث الهائل الذي سيقع في الكون كله . ولا يعلم حقيقته إلا الله . ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٨ ﴾ ولا تكذيب عندئذ ولا نكران . .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩ ﴾ . . وذلك في موقف من مواقف ذلك اليوم المشهود . الذي ستكون فيه مواقف شتى . منها ما يسأل فيه العباد ، ومنها ما لا يسألون فيه عن شيء . ومنها ما تجادل كل نفس عن نفسها ، وما تلقي به التبعة على شركائها ، ومنها ما لا يسمح فيه بكلمة ولا جدال ولا خصام! فهو يوم طويل مديد . وكل موقف من مواقفه هائل مشهود .

وهنا موقف : ﴿ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ . ذلك حين تعرف صفة كل فرد وعمله . وتبدو في الوجوه معالم الشقوة سواداً ، ومعالم النجوة بياضاً ، ويظهر هذا وذاك في سيما الوجوه . ففي هذا الموقف هل من تكذيب ونكران : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٠ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ۝٤١ ﴾ .

وهو مشهد عنيف ومع العنف الهوان . حيث تجمع الأقدام إلى الجباه ، ثم يقذف المجرمون على هذه الهيئة إلى النار . . فهل حين ذلك من تكذيب أو نكران .

وبينما المشهد معروض ، والأخذ بالنواصي والأقدام والقذف في النار مستمر ، يلتفت السياق إلى شهود هذا الاستعراض ، وكأنهم حاضرون عند تلاوة السورة فيقول لهم :

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ . . هذه هي حاضرة معروضة - كما ترون ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ . . متناه في الحرارة كأنه الطعام الناضج على النار! وهم يتراوحون بين جهنم وبين هذا السائل الآني . انظروا إنهم يطوفون الآن! ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ هذه صفة العذاب الأليم ... اهـ [1]

من هداية الآيات :

١- بيان الانقلاب الكوني وخراب العالم للقيامة . ٢- يبعث الناس من قبورهم ولهم علامات تميزهم فيعرف السعيد والشقي .

٣- التنديد بالإجرام وهو الشرك والظلم والمعاصي [2]

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ

---

(١) انظر الظلال : ٦/ ٣٤٥٦ ، ٣٤٥٧ في ظلال سورة الرحمن الآيات (٣٧ – ٤٦) .

(٢) انظر تفسير الجزائري : ٣/ ٤٣٨ لسورة الرحمن الآيات (٣٧ – ٤٦) ط/ دار الحديث .

إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ ﴾

شرح الكلمات :

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ : أي سواد الوجوه وزرقة العيون .

﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ : أي تضم ناصية المجرم الى قدميه ويؤخذ فيلقى في جهنم .

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا﴾ : أي يقال لهم توبيخاً وتبكيتاً هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون في الدنيا .

﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ : أي الذين أجرموا على أنفسهم بالشرك والمعاصي .

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ : أي يسعون مترددين بينها وبين ماء حار قد انتهت حرارته إلى حد لا مزيد عليه وهو الحميم الآن يُسقونه إذا عطشوا واستغاثوا يطلبون الماء لإرواء غلتهم العطشة .

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ : أي ولمن خاف الوقوف بين يدي الله في عرصات القيامة فآمن واتقى جنتان .

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾ : أي أغصان من شأنها أن تُورق وتُثمر وتمد الظل .

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ : أي من كل ما يتفكه به من أنواع الفواكه صنفان

﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ : أي بطائن الفرش من استبرق وهو ما غلظ من الديباج والظهائر من السندس وهو مارقّ من الديباج الذي هو الحرير .

﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ﴾ : أي وما يُجنى من ثمار الجنة دان قريب التناول يناله القائم والقاعد .﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ : أي قاصرات النظر بأعينهن على أزواجهن فقط .

﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ : أي لم يفتضهن قبل أزواجهن إنس ولا جان .

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ۝٥٨﴾ : أي كأنهن في جمالهن الياقوت في صفائه والمرجان اللؤلؤ الأبيض .

﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ۝٦٠﴾ : أي ما جزاء الإحسان بالطاعة إلا الإحسان بالنعيم .(١)

معنى الآيات :

[ما زال السياق الكريم في عرض أحوال القيامة وأهوال الموقف فقال جل جلاله وعظم سلطانه ....قوله تعالى ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ﴾ أي باسوداد وجوههم وزرقة أعينهم ﴿فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾ أي فيجمع الملك المكلف الإنس أو الجن المجرم بين ناصيته وقدميه ويأخذه فيرمي به في نار جهنم ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبنعمة العدالة أم بنعمة إكرام المتقين الصالحين . قولوا لا بشيء من آلائك ربنا نكذبن فلك الحمد .

وقوله تعالى ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي يقال لهم توبيخاً وتبكيتاً هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون على أنفسهم بالشرك والمعاصي في الحياة الدنيا قال تعالى ﴿يَطُوفُونَ﴾ أي يسعون مترددين ﴿بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ أي ماء حار اشتدت حرارته فبلغت حداً لا مزيد عليه يسقونه إذا استغاثوا من العطش . ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إن خزي المجرمين وتعذيبهم نعمة تُقرها الفطرة البشرية ولا يقدرها إلا من ذاق طعم الخوف والعذاب الذي

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٣/ ٤٣٨ لسورة الرحمن الآيات (٤٦-٦١) ط/ دار الحديث

يتزله المجرمون بالمتقين فلذا كان تعذيبهم يوم القيامة نعمة ، كما أن هذا العرض لأحوال يوم القيامة وأهوالها نعمة إذ عليه آمن المؤمنون واتقى المتقون ، فلذا قال تعالى بعد وصف حال أهل النار ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

وما زال السياق الكريم في تعداد النعم وذكر أنواعها فقال تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي الوقوف بين يديه في ساحة فصل القضاء يوم القيامة فأطاعه بأداء الفرائض واجتناب المحرمات ﴿جَنَّتَانِ﴾ أي بستانان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إي إثابة أحدكم الذي إذا هم بالمعصية ذكر قيامه بين يدي ربه فتركها فأثابه الله بجنتين . وقوله ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ هذا وصف للجنتين وصف للجنتين وصفهما بأنهما ذواتا أفنان جمع فنن لون ألوان ولأشجارها أغصان من شأنها تورق وتثمر وتمد الظلال ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبهذا النعيم والإثابة للمتقين تكذبان .

وقوله ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾ أي في الجنتين ذواتي الأفنان فيهما عينان تجريان بالماء العذب الزلال الصافي خلال تلك القصور والأشجار ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يا معشر الجن والإنسان أبمثل هذا العطاء والإفضال تكذبان؟ وقول الرحمن ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ أي في تينك[1] الجنتين من كل فاكهة من الفواكه صنفان فلا يكتفي بصنف واحد إتماماً للنعيم والتنعُّم ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبمثل هذا الإنعام والإكرام لأهل التقوى تكذبان؟ وقوله ما أوسع رحمته وهو الرحمن ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ أي حال تنعمهم ﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ على الأرائك بطائن تلك الفرش ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو الغليظ من الديباج أما الظواهر فهي السندس وهو مارق من الديباج . وقوله ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي

---

(١) هكذا في الأصل ولعل المراد (تلك)

وثمارها التي تجنى من أشجارها دانية أي قريبة التناول يتناولها المتقى وهو مضطجع أو قاعد أو قائم ، لا شوك فيها ولا بعد لها ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أبمثل هذا الإنعام والإكرام تكذبان . قول الرحمن : ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ أي وفي تينك الجنتين نساء من الحور العين ﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ أي العين على أزواجهن فلا ترى إلا زوجها أي فلا تنظر إلا إلى زوجها وتقول له وعزة ربي وجلاله وجماله ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك فالحمد لله الذي جعلك زوجي وجعلني زوجك .اهـ (١)

من هداية الآيات :

١- فضل الخوف من الله تعالى وذلك كأنْ تعرض للعبد المعصية فيتركها خوفا من الله تعالى .

٢- فضل نساء أهل الجنة في حبهن لأزواجهن بحيث لا ينظرن إلا إليهم .

٣- بيان أن أفضل النساء في الدنيا تلك التي تقصر نظرها على زوجها فتحبه ولا تحب غيره من الرجال .

٤- بيان أن الجن المتقين يدخلون الجنة ولهم أزواج كما للإنس سواء بسواء .

٥- الإشادة بالإحسان وبيان جزائه والإحسان هو إخلاص العبادة لله والإتيان بها على الوجه الذي شرع أداؤها عليه ، مع الإحسان إلى الخلق بكف الأذى عنهم وبذل الفضل لمن احتاجه منهم .اهـ (٢)

وقفة أخرى مع الآيات :

جواب « إذا » محذوف مقصود به الإبهام ، كأنه يقول : ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ فما أعظم الهول ، وانشقاق السماء انفطارها عند القيامة . وقال قتادة : السماء اليوم خضراء وهي يوم القيامة حمراء ، فمعنى قوله : ﴿ وَرْدَةً ﴾ أي محمرة كالوردة وهي النوار المعروف

(١) انظر أيسر التفاسير للجزائري : ٣/ ٤٣٨، ٤٣٩ تفسير سورة الرحمن الآيات (٣٧ – ٥٦) .

(٢) نفس المصدر السابق :٣/ ٤٤٠ .

. وهذا قول الزجاج والرماني . وقال ابن عباس وأبو صالح والضحاك : هي من لون الفرس الورد ، فأنث لكون ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ مؤنثة .

واختلف الناس في قوله :﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ فقال مجاهد والضحاك : هو جمع دهن ، قالوا وذلك أن السماء يعتريها يوم القيامة ذوب وتميع من شدة الهول . وقال بعضهم : شبه لمعانها بلمعان الدهن . وقال جماعة من المتأولين الدهان : الجلد الأحمر ، وبه شبهها ، وأنشد منذر بن سعيد : [الطويل]

يعن الدهان الحمر كل عشية ... بموسم بدر أو بسوق عكاظ

وقوله تعالى : ﴿لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ﴾ نفي للسؤال . وفي القرآن آيات تقتضي أن في القيامة سؤالاً ، وآيات تقتضي نفيه كهذه وغيرها ، فقال بعض الناس ذلك في مواطن دون مواطن ، وهو قول قتادة وعكرمة وقال ابن عباس وهو الأظهر في ذلك أن السؤال متى أثبت فهو بمعنى التوبيخ والتقرير ، ومتى نفي فهو بمعنى الاستخبار المحض والاستعلام ، لأن الله تعالى عليم بكل شيء . وقال الحسن ومجاهد : لا يسأل الملائكة عنهم ، لأنهم يعرفونهم بالسيما ، والسيما التي يعرف بها ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ هي سواد الوجوه وزرق العيون في الكفرة ، قاله الحسن . ويحتمل أن يكون غير هذا من التشويهات .

واختلف المتأولون في قوله تعالى : ﴿فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾. فقال ابن عباس : يؤخذ كل كافر بناصيته وقدميه فيطوى يجمع كالحطب ويلقى كذلك في النار . وقال النقاش : روي أن هذا الطي على ناحية الصلب قعساً وقاله الضحاك . وقال آخرون : بل على ناحية الوجه ، قالوا فهذا معنى : ﴿فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾ . وقال قوم في كتاب الثعلبي : إنما يسحب الكفرة سحباً ، فبعضهم يجر بقدميه ، وبعضهم بناصيته ، فأخبر في هذه الآية أن الأخذ يكون ﴿بِٱلنَّوَٰصِي﴾ ويكون ب ﴿وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾ .

وقوله : ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ﴾ قبله محذوف تقديره : يقال لهم على جهة التقريع والتوبيخ وفي مصحف ابن مسعود : « هذه جهنم التي كنتما بها تكذبان تصليانها لا تموتان فيها ولا تحييان » .

وقرأ جمهور الناس : ﴿ يَطُوفُونَ ﴾ بفتح الياء وضم الطاء وسكون الواو . وقرأ طلحة بن مصرف : « يُطَوّفون » بضم الياء وفتح الطاء وشد الواو . وقرأ أبو عبد الرحمن : « يطافون » ، وهي قراءة علي بن أبي طالب . والمعنى في هذا كله أنهم يترددون بين نار جهنم وجمرها ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ ﴾ وهو ما غلي في جهنم من مائع عذابها . والحميم : الماء السخن . وقال قتادة : إن العذاب الذي هو الحميم يغلي منذ خلق الله جهنم . وأنى الشيء : حضر ، وأنى اللحم أو ما يطبخ أو يغلى : نضج وتناهى حره والمراد منه . ويحتمل قوله : ﴿ ءَانٍ ﴾ أن يكون من هذا ومن هذا . وكونه من الثاني أبين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ [الأحزاب] أنى ولكل حاملة تمام ... ويشبه أن يكون الأمر في المعنيين قريباً بعضه من بعض ، والأول أعم من الثاني .اهـ (١)

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾

---

(١) انظر المحرر الوجيز تفسير سورة الرحمن الآيات (٣٧ — ٤٤) .

معاني الكلمات :

﴿ وَمِن دُونِهِمَا ﴾ وسوى الجنتين الأوليين ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ أخريان .

﴿ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴾ سوداوان لشدَّة الخضرة .

﴿ فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ ﴾ نساء فاضلات الأخلاق ﴿ حِسَانٌ ﴾ الوجوه .

﴿ حُورٌ ﴾ سود الأحداق ﴿ مَّقۡصُورَٰتٌ ﴾ محبوساتٌ ﴿ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴾ من الدُّرِّ المُجوَّفة .

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ ﴾ وهو ما فضل من الفرش والبسط . وقيل : الوسائد .

﴿ وَعَبۡقَرِيٍّ ﴾ أيْ : الزَّرابي والطَّنافس ﴿ حِسَانٍ ﴾ ثُمَّ ختم السورة بما ينبغي أن يُمجَّد به ويُعظَّم ، فقال : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ .اهـ [(١)]

المعنى العام :

وقوله ﷻ : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ ﴾ قال ابْنُ زَيْدٍ وغيره : معناه أنَّ هاتين دون تَيْنِكَ في المترلة والقُرْبِ ، فالأُولَيَانِ للمقرَّبين ، وهاتان لأصْحَابِ اليَمِينِ ، وعن ابن عباس : أنَّ المعنى : أنَّهُمَا دونهما في القرب إلى المُنَعَّمِينَ ، وأنَّهما أفضلُ من الأُوليَيْنِ ، قال: وأكثر الناس على التأويل الأول .

واختار الترمذيُّ الحكيمُ التأويلَ الثاني ، وأطنب في الاحتجاج له في «نوادر الأصول» له [٢٥٥] وخرَّجَ البخاريُّ هنا من طريق عبد الله بن قيس عن أبيه أن النبيَّ ﷺ قال : ((جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا . . .))[(٢)] الحديث ، وفيه : ((إنَّ في الجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ ، عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلاً ، في كُلِّ

---

(١) انظر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز تفسير سورة الرحمن الآيات (٦٢ – ٧٨) .

(٢) رواه البخاري (فتح) : ٨/٥٢٠ ك/ التفسير ب/ تفسير سورة الرحمن قوله تعالى ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ ح/ ٤٨٧٨

زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الآخَرِينَ ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ)) (١) انتهى ، و ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾ معناه : قد علا لَوْنَهُمَا دُهْمَةٌ وَسَوَادٌ في النَّظْرَةِ والخُضْرَةِ ، قال البخاريُّ : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾ : سوداوان من الرِّيِّ ، انتهى ، والنَّضَّاخَةُ : الفَوَّارَةُ التي يَهِيجُ ماؤُها ، وكَرَّرَ النخلَ والرُّمَّانَ ، وهما من أفضل الفاكهة؛ تشريفاً لهما ، وقالت أُمُّ سَلَمَةَ : قلتُ : يا رسول الله ، أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ قالَ : خَيْرَاتُ الأَخْلاَقِ ، حِسَانُ الْوُجُوهِ» وَقُرِىَء شاذّاً : «خَيِّرَاتٌ» بشَدِّ الياء المكسورة [٢٥٦] وفي «صحيح البخاريِّ» من حديث أنس عن النبيِّ ﷺ : ((لَرَوْحَةٌ في سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ غَدْوَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ أَوْ مَوْضِعُ قَيْدِ سَوْطِهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَلَوْ أَنَّ امرأةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ اطلعت إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ لأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلأَتْهُ رِيحاً ، وَلَنَصِيفُهَا على رَأْسِهَا يعني الخِمَارَ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)) (٢) وقوله ﷻ : ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ أي : محجوباتٌ مَصُونَاتٌ في الخيام ، وخيامُ الجَنَّة بُيُوتُ اللؤلؤ ، قال عمر بن الخَطَّاب ﷺ : هي دُرٌّ مُجَوَّفٌ ، ورواه ابن مَسْعُودٍ عن النبيِّ ﷺ. قال الداوديُّ : وعن ابن عباس : والخيمة لؤلؤة مجوَّفة فَرْسَخٌ في فَرْسَخٍ ، لها أربعة آلاف مِصْرَاعٍ ، انتهى .

و﴿رَفْرَفٍ﴾ : ما تدلى من الأَسِرَّةِ من عالي الثياب والبُسُطِ ، وقاله ابن عَبَّاس وغيره ، وما يتدلى حول الخِبَاءِ مِنَ الْخِرَقِ الهَفَّافَة يُسَمَّى رَفْرَفاً ، وكذلك يُسَمِّيه الناسُ اليومَ ، وقيل غَيْرُ هذا ، وما ذكرناه أَصْوَبُ ، والعَبْقَرِيُّ : بُسُطٌ حِسَانٌ ، فيها صُوَرٌ وغَيْرُ ذلك ، تُصْنَعُ بعَبْقَر ، وهو موضعٌ يُعْمَلُ فيه الوشْيُ والدِّيبَاجُ ونحوه ، قال ابن عباس : العَبْقَرِيُّ :

---

(١) رواه البخاري (فتح) : ٨/٥٢١ ك/ التفسير ب/ تفسير سورة الرحمن قوله تعالى ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ ح/ ٤٨٧٩

(٢) البخاري فتح : ٦/١٦ ك/ الجهاد والسير ب/ الحور العين وصفتهن ح/ ٢٧٩٦

الزَّرَابِيُّ ، وقال ابن زيد : هي الطَّنَافِس ، قال الخليل والأصمعيُّ : العَرَبُ إذا استحسنَتْ شيئاً واستجادَتْهُ قالَتْ : عَبْقَرِيٌّ ،

[٢٥٧] قال : ومنه قوله ﷺ في عُمَرَ : ((فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ)) [١] .

وقوله ﷻ : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٧٨ ﴾ : هذا الموضعُ مِمَّا أُرِيدَ فيه بالاسم مُسَمَّاهُ ، والدعاءُ بهاتَيْنِ الكلمتَيْنِ حَسَنٌ مَرْجُوُّ الإجابةِ ،

[٢٥٨] وقد روى الترمذي عَنْ أَنسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((أَلِظُّوا بِيَا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ)) [٢] اهـ [٣]

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ :

[هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، قال الله تعالى: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢ ﴾ وقد تقدم في الحديث: ((جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما)) [٤]، فالأوليان للمقربين، والأخريان لأصحاب اليمين .

وقال أبو موسى: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين.

وقال ابن عباس: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢ ﴾ من دونهما في الدرج. وقال ابن زيد: من دونهما في الفضل.

والدليل على شرف الأوليين على الأخريين وجوه: أحدها: أنه نعت الأولين قبل هاتين، والتقديم يدل على الاعتناء ثم قال: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢ ﴾ . وهذا ظاهر في شرف التقدم وعلوه على الثاني.

---

(١) البخاري ك/ المناقب ب/ قول النبي ﷺ لو كنت متخذاً خليلاً ح/ ٣٦٦٤ ومسلم (٢٣٩٢) .

(٢) صحيح : الترمذي ك/ الدعوات ح/ ٣٥٢٥ .

(٣) انظر تفسير الثعالبي لسورة الرحمن الآيات (٦٢ – ٧٨) .

(٤) البخاري (٤٨٧٨) .

وقال هناك: ﴿ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴿٤٨﴾ ﴾ : وهي الأغصان أو الفنون في الملاذ، وقـال هاهنـا: ﴿ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾ أي سوداوان من شدة الري.

قال ابن عباس في قوله: ﴿ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴾ قد اسودتا من الخضرة، من شدة الري من المـاء ؛ وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن فُضَيْل، حدثنا عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴾ : قال: خضـراوان. ورُوي عـن أبي أيوب الأنصاري، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن أبي أوْفَى، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد -في إحدى الروايات-وعطاء، وعطية العَوْفي، والحسن البصري، ويحيى بن رافـع، وسفيان الثوري، نحو ذلك..

وقال محمد بن كعب: ﴿ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴾: ممتلئتان من الخضرة. وقال قتادة: خضراوان مـن الري ناعمتان. ولا شك في نضارة الأغصان على الأشجار المشبكة بعضـها في بعـض.

وقال هناك: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ﴿٥٠﴾ ﴾ ، وقال هاهنا: ﴿نَضَّاخَتَانِ ﴾ ، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي فياضتان. والجري أقوى من النضخ.

وقال الضحاك: ﴿نَضَّاخَتَانِ ﴾ أي ممتلئتان لا تنقطعان.

وقال هنـاك: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴿٥٢﴾ ﴾، وقـال هاهنـا: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ﴿٦٨﴾ ﴾ ، ولا شك أن الأولى أعم وأكثر في الأفراد والتنويع على فاكهـة، وهـي نكرة في سياق الإثبات لا تعم؛ ولهذا فسر قوله: ﴿وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ﴾ من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخاري وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما.

[٢٥٩] قال عبد بن حميد: حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا حصين بن عمـر، حـدثنا مخارق، عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب قال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أفي الجنة فاكهة ؟ قال: ((نعم، فيها فاكهة ونخـل ورمـان)).

قالوا: أفيأكلون كما يأكلون في الدنيا؟ قال: ((نعم وأضعاف)). قالوا: فيقضون الحوائج؟ قال: ((لا ولكنهم يعرقون ويرشحون، فيذهب الله ما في بطونهم من أذى)) [(١)] .

ثم قال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ قيل: المراد خيرات كثيرة حسنة في الجنة، قاله قتادة. وقيل: خيرات جمع خيرة، وهي المرأة الصالحة الحسنة الخُلُق الحسنة الوجه، قاله الجمهور.

... ولهذا قرأ بعضهم: ﴿فِيهِنَّ خَيِّرَٰتٌ﴾ بالتشديد ﴿حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾ ثم قال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ ، وهناك قال: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ ، ولا شك أن التي قد قَصَرَت طرفها بنفسها أفضل ممن قُصِرت، وإن كان الجميع مخدرات.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن جابر، عن القاسم بن أبي بزَّة، عن أبي عبيدة، عن مسروق، عن عبد الله قال: إن لكل مسلم خَيرة، ولكل خَيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب، يدخل عليها كل يوم تحفة وكرامة وهدية لم تكن قبل ذلك، لا مَرّاحات ولا طَمّاحات، ولا بخرات ولا ذفرات، حور عين، كأنهن بيض مكنون.

وقوله: ﴿فِى ٱلْخِيَامِ﴾ ،

[٢٦٠] قال البخاري: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد، حدثنا أبو عمران الجوني، عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: ((إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلا في كل زاوية منها أهلٌ ما يَرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون)). [(٢)]

---

(١) سنده ضعيف : أخرجه عبد بن حميد في مسنده : ١/ ٣٩ ح/ ٣٦ رواه عن يحيى بن عبد الحميد، عن حصين بن عمر الأحمسي وهو ضعيف .

(٢) البخاري (٤٨٨٠) .

ورواه أيضا من حديث أبي عمران، به . وقال: ((ثلاثون ميلاً)).

[٢٦١] وأخرجه مسلم من حديث أبي عمران، به. ولفظه: ((إن للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلاً))[١]. اهـ [٢]

ثم هناك داخل الجنة جنتان أخريان . وهما كما يقول تعالى : ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ فهناك أيضاً جنّتان أُخريان ؛ وهاتان الجنتان ذواتا أفنان ، أي أن فيهما أغصاناً نضرة حسنةً من جميع الشجر وألوان الثمار المتنوعة . وفي هاتين الجنتين داخل الجنة عيْنان تجريان بالماء الصافي العذْب . أما الجنة الكبرى فان فيها أنهاراً متعدّدة كما ورد في عدة آيات . فكيف تكذّبون بهذه النعم الجليلة التي لا تُحصَى أيها الجاحدون!؟ .

هذا ويجلس أهل الجنتين متكئين على أنواع من فُرش الحرير ، وفي متناول أيديهم ثمارُ الجنتين يقطفون منها متى شاءوا ما يلذّ لهم وما يطيب ؛ وعندهم ما يشاءون من الحُور العفيفات اللاتي لا ينظُرن إلى أحدٍ سوى أزواجهن ، كأنهن في الحسن والجمال الياقوتُ والمرجان ، عذارى لم يمَسَهنّ أحد قبل أزواجهن ؛ ذلك كله جزاء من خافَ مقام ربه ، وعَبدَه وأخلص في عبادته ، وسعى في إعمار الدنيا وأعطى من ماله وجاهه وبذل ما يستطيع .﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ ثم هناك داخل الجنة جنتان أخريان . وهما كما يقول تعالى : ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ لفريق آخر من المؤمنين العاملين المخلصين وهما ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ﴾ خضراوان لونهما يميلُ إلى السواد من شدّة الخضرة .

وفي هاتين الجنتين عينان من الماء العذب تفوران بالماء لا تنقطعان ، كما أن ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ وأنواع منوعة من افخر الفاكهة . وقد خص النخلَ والرمان لأن الله تعالى أودع فيهما كثيراً من المزايا الهامة . فثمر النخل غذاء كامل ، فيه نسبة عالية من

(١) مسلم : (٢٨٣٨) .

(٢) انظر تفسير ابن كثير : ٢٧٩/٤ ، ٢٨٠ تفسير سورة الرحمن الآيات (٦٢ – ٧٨) .

الكالسيوم والحديد والفوسفور التي يحتاج إليها الجسم . وفيه عدد من الفيتامينات المفيدة ، وهو يحتوي أيضا على نسبة من البروتينات والدهنيات .

كذلك في الرمان نسبة مرتفعة من حمض الليمونيك الذي يساعد عند احتراقه على تقليل أثر الحموضة في البول والدم ، مما يكون سببا في تجنب النِّقرس وتكوين بعض حصى الكلى ، مع احتوائه على نسبة لا بأس بها من السكّريات السهلة الاحتراق ، والمولّدة للطاقة . وهناك فوائد هامة في قشر ثمر الرمان ، وقشور سُوقِ أشجاره .

وفي هاتين الجنتين زوجات طيّبات الأخلاق وفيّات جميلات ، من الحور العين الملازمات لمجالسهن في الخيام ، لم يقربْهن أحدٌ من الإنس ولا الجان .

وهؤلاء المؤمنون مع أزواجهم في غاية السعادة والسرور ، متكئين على فُرُشٍ عليها وسائد وأغطية خُضْر وطنافس حسان عجيبة الصنع ...، ويكنّون عنه بِعَبْقَرَ . فبأي نعمة من نعم ربكما تكذبان أيها الثقلان!؟ اهـ (١)

من هداية الآيات :

١- بيان أن نعيم الآخرة أعظم وأجل من نِعم الدنيا .

٢- فضيلة التمر والرمان فلنبحث منافعهما فإن الحقيقة بنت البحث .

٣- فضل المرأة المقصورة في بيتها وذم الولاجة الخراجة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما .

٤- بيان أن الجن يدخلون الجنة ويسعدون فيها .

٥- البركة تنال ببسم الله الرحمن الرحيم . اهـ (٢)

---

(١) انظر تفسير القطان لسورة الرحمن الآيات (٦٠ – ٦٨) .

(٢) انظر تفسير الجزائري : ٤٤٢/٤ لسورة الرحمن الآيات (٦٢ – ٧٨) ط/ دار الحديث .

سُورَةُ ٱلْوَاقِعَةُ

بين يدي السورة الكريمة :

الواقعة . . اسم للسورة وبيان لموضوعها معاً . فالقضية الأولى التي تعالجها هذه السورة المكية هي قضية النشأة الآخرة ، رداً على قولة الشاكين فيها ، المشركين بالله ، المكذبين بالقرآن : ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ . ومن ثم تبدأ السورة بوصف القيامة . وصفها بصفتها التي تنهي كل قول ، وتقطع كل شك ، وتشعر بالجزم في هذا الأمر . . الواقعة . . ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾﴾ . . وتذكر من أحداث هذا اليوم ما يميزه عن كل يوم ، حيث تتبدل أقدار الناس ، وأوضاع الأرض ، في ظل الهول الذي يبدل الأرض غير الأرض ، كما يبدل القيم غير القيم سواء : ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾﴾ . . الخ .

ثم تفصل السورة مصائر هذه الأزواج الثلاثة : السابقين وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة . وتصف ما يلقون من نعيم وعذاب وصفاً مفصلاً أوفى تفصيل ، يوقع في الحس أن هذا أمر كائن واقع ، لا مجال للشك فيه ، وهذه أدق تفصيلاته معروضة للعيان . حتى يرى المكذبون رأي العين مصيرهم ومصير المؤمنين . وحتى يقال عنهم هنالك بعد وصف العذاب الأليم الذي هم فيه : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ . . وكأن العذاب هو الحاضر والدنيا هي الماضي الذي يذكر للترذيل والتقبيح . ترذيل حالهم في الدنيا وتقبيح ما كانوا عليه من تكذيب!

وبهذا ينتهي الشوط الأول من السورة . ويبدأ شوط جديد يعالج قضية العقيدة كلها ، متوخياً توكيد قضية البعث التي هي موضوع السورة الأول؛ بلمسات مؤثرة ، يأخذ مادتها وموضوعها مما يقع تحت حس البشر ، في حدود المشاهدات التي لا تخلو منها تجربة إنسان ، أياً كانت بيئته ، ودرجة معرفته وتجربته .

يعرض نشأتهم الأولى من مني يُمنى . ويعرض موتهم ونشأة آخرين مثلهم من بعدهم في مجال التدليل على النشأة الأخرى ، التي لا تخرج في طبيعتها ويسرها عن النشأة الأولى ، التي يعرفونها جميعاً ؛ ويعرض صورة الحرث والزرع ، وهو إنشاء للحياة في صورة من صورها . إنشاؤها بيد الله وقدرته . ولو شاء الله لم تنشأ ، ولو شاء لم تؤت ثمارها .

ويعرض صورة الماء العذب الذي تنشأ به الحياة كلها . وهو معلق بقدرة الله ينزله من السحائب . ولو شاء جعله ملحاً أجاجاً ، لا ينبت حياة ، ولا يصلح لحياة .

وصورة النار التي يوقدون ، وأصلها الذي تنشأ منه . . الشجر . . وعند ذكر النار يلمس وجدانهم منذراً . ويذكرهم بنار الآخرة التي يشكون فيها ؛ وكلها صور من مألوفات حياتهم الواقعة ، يلمس بها قلوبهم ، ولا يكلفهم بها إلا اليقظة....كذلك يتناول هذا الشوط قضية القرآن الذي يحدثهم عن ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ فيشكون في وعيده فيلوح بالقسم بمواقع النجوم ، ويعظم من أمر هذا القسم لتوكيد أن هذا الكتاب هو قرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون ، وأنه تنزيل من رب العالمين .

ثم يواجههم في النهاية بمشهد الاحتضار . في لمسة عميقة مؤثرة . حين تبلغ الروح الحلقوم ، ويقف صاحبها على حافة العالم الآخر؛ ويقف الجميع مكتوفي الأيدي عاجزين ، لا يملكون له شيئاً ، ولا يدرون ما يجري حوله ، ولا ما يجري في كيانه . ويخلص أمره كله لله ، قبل أن يفارق هذه الحياة . ويرى هو طريقه المقبل ، حين لا يملك أن يقول شيئاً عما يرى ولا أن يشير! ؛ ثم تختم السورة بتوكيد الخبر الصادق ، وتسبيح الله الخالق : ﴿إِنَّ

﴿ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ . . فيلتئم المطلع والختام أكمل التئام .اهـ (١)

شرح الكلمات :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ : أي قامت القيامة وقيل فيها الواقعة لأنها واقعة لا محالة .

﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ : أي نفس تكذب بها بأن تنفيها كما نفتها في الدنيا .

﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ : أي مظهرة لخفض أقوام بدخولهم النار ، ولرفع آخرين بدخولهم الجنة

﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾ : أي حركت حركة شديدة .

﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ : أي فتتت تفتيتاً .

﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ : أي غباراً منتشراً .

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾ : أي في القيامة أصنافاً ثلاثة .

﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ : أي الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم .

﴿ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ : أي تعظيم لشأنهم بدخولهم الجنة .

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ : أي الشمال الذين يؤتون كتبهم بشمائلهم .

﴿ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ : أي تحقير لشأنهم بدخولهم النار .

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ : أي إلى الخير وهم الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة في أول الدعوة .

﴿ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ : تعظيم لشأنهم .

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ : أي هم المقربون الذين يقربهم الله منه يوم القيامة إذا أدخلهم الجنة .

---

(١) انظر الظلال :٦/٣٤٦١ ، ٣٤٦٢ في ظلال سورة الواقعة ط/ دار الشروق .

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ : في بساتين النعيم الدائم .

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ : أي جماعة من الأمم الماضية .

﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ : أي من أمة محمد صلى الله عليه وسلم هؤلاء هم السابقون .

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ : أي منسوجة مشبكة بالذهب والجواهر .

﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ : أي على شكل الأولاد لا يهرمون فيخدموهم أبداً .

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾: يطوف عليهم الولدان الخدم بأكواب وهي أقداح لا عرا لها ، وأباريق لها عرا وخراطيم .

﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ : أي وإناء لشرب الخمر ومعين بمعنى جارية من نهر لا ينقطع أبداً .

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾ : أي لا يحصل لهم من شربها صداع .

﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ : أي ولا تذهب عقولهم يقال نزف الشارب وأنزف إذا ذهب عقله . بالسكر .

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ : أي يختارون منها ما يروق لهم ويعجبهم وإن كانت كلها معجبة

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ : أي ولهم نساء بيض عين أي واسعة الأعين وشديدات سواد العيون وبياضها .

﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ : أي أولئك الحور العين هن في جمالهن وصفائهن كأمثال اللؤلؤ المصون .

﴿لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ : أي لا يسمعون في الجنة لغواً أي فاحش الكلام وما لا خير فيه ولا ما يوقع في الإثم .

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ : إلا قولا سلاما سلاماً أي لا يسمعون إلا السلام من الملائكة ومن بعضهم بعضاً .

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ : هذا شروع في ذكر الزوج الثـاني مـن الأزواج الثلاثة فذكر السابقين وما أعد لهم وهذا ذِكرٌ لأصحاب اليمين وما أعد لهم من نعيم مقيم

﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾ : في شجر السدر وثمرهُ النبق ومخضود لا شوك فيه .

﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾ : أي شجر موز منضود الحمل من أعلاه إلى أسفله فليس له ساق بارزة

﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾ : أي دائم إذ لا شمس تنسخه وإن ظل شجرة في الجنة يسير الراكب فيـه مائة سنة لا يقطعه .

﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ﴾ : أي مصبوب لا يحتاج المتنعم بأن يصبه بيده بل هو سـائل في غـير أخدود أو أنبوب .

﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ : أي غير مقطوعة في زمن ، ولا ممنوعة بثمن .

﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾ : أي الحور العين اللائي تقدم ذكرهن في قوله وحور عين . إذْ كانت الواحدة منهن في الدنيا عجوزاً شمطاء عمشاء رمصاء فأنشأها ربها إنشاء جديداً بِكْراً تتغنج وتتعشق عرباء تتودد لزوجها وتتحبب .

﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾ : الواحدة بكر وهي التي لم تفتض بكارتها بعد وتسمى العذراء .

﴿عُرُبًا﴾ : الواحدة عروب وهي المتحببة إلى زوجها الحسنة التبعل .

﴿أَتۡرَابٗا﴾ : أي مستويات في السن الواحدة يقال لها تِرابٌ والجمع أتراب .

﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ : وهم الذين يؤخذ بهم في عرصات القيامة ذات اليمين وهم أهل الإيمان في الدنيا والعمل الصالح فيها .

﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ : أي من الأمم السابقة .

﴿وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾: أي من أمة محمد ﷺ .

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾ : أي هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال في الموقف يوم القيامة وهم أهل الشرك والمعاصي في الدنيا .

﴿ فِي سَمُومٍ ﴾ : أي ريح حارة تنفذ في مسام الجسد .

﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ : أي ماء حار شديد الحرارة .

﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ : أي دخان شديد السواد .

﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾: أي لا بارد كغيره من الظلال ولا كريم حسن المنظر .

﴿ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ : أي في الدنيا .

﴿ مُتْرَفِينَ ﴾ : أي منعمين لا ينهضون بالتكاليف الشرعية ولا يتعبون في طاعة الله ورسوله .

﴿ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ : أي الذنب العظيم وهو الشرك .

﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا ﴾ : أي كانا ينكرون البعث الآخر .

﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ : أي لوقت يوم معلوم وهو يوم القيامة .

﴿ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴾ : أي الضالون عن طريق الهدى المكذبون بالبعث والجزاء .

﴿ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ : أي من أخبث الشجر المرّ في غاية الكراهة والبشاعة طعماً ولوناً .

﴿ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴾ : أي شاربون شرب الإبل العطاش ، إذ الهيمان العطشان والهيمى العطشى .

﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ : أي هذا ما أعد لهم من قرىً يوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ : أي أوجدناكم من العدم .

﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ : أي فهلا تصدقون بالبعث إذ القادر على الإنشاء قادر على الإعادة بعد الفناء البلى .

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ : أي الذي تصبونه من المني بالجماع في أرحام نسائكم .

﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥ﴾ : أي بشراً أم نحن الخالقون له بشراً .

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ : أي قضينا به عليكم وكتبناه عليكم وجعلنا لكل واحد أجلاً معيناً لا يتعداه ولا يتأخر منه بحال من الأحوال .

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ : أي بعاجزين .

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ : أي ما أنتم عليه من الخلق والصور .

﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ : أي ونوجدكم في صور لا تعلمونها وهذا تهديد لهم بمسخهم وتحويلهم إلى أبشع حيوان وأقبحه .

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ : أي ولقد علمتم أن الذي خلقكم لكم كيف تم وكيف كان .

﴿تَذَكَّرُونَ﴾ : فتعلمون أن الذي خلقكم أول مرة قادر على إعادة خلقكم مرة أخرى بعد موتكم وفنائكم .

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ : أي من إثارة الأرض بالمحراث وإلقاء البذر فيها .

﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥ﴾ : أي تنبتونه .

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ : أي نحن المنبتون له يقال زرَعَه الله أي أنبته .

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ : أي لو نشاء لجعلنا الزرع حطاماً يابساً بعد أن أصبح سنبلاً وقارب أن يفرك فتحرمون منه .

﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ : أي تتعجبون في مجالسكم من الجائحة التي أصابت زرعكم .

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ : أي قائلين إنا لمغرمون أي ما أنفقناه على حرثه ورعايته بذلناه فيه ليس لنا من حظ ولا جد أي غير محظوظين ولا مجدودين .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴾ : أي أخبرونا عن الماء الذي تشربونه وحياتكم متوقفة عليه

﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ ﴾ : أي من السحاب في السماء إلى الأرض .

﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾ : أي له إلى الأرض .

﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا ﴾ : أي ملحاً مراً لا يمكن شربه .

﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ : أي فهلا تشكرون أي الله بالإيمان والطاعة .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾ : أي أخبرونا عن النار التي تخرجون من الشجر .

﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ ﴾: أي خلقتم شجرها كالمرخ والعفار والكلخ .

﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾ : أي نحن المنشئون لتلك الأشجار .

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً ﴾ : أي جعلنا تلك النار تذكرة أي تذكر بنار جهنم .

﴿ وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ : أي بُلغةً للمسافرين يتبلغون بها في سفرهم .

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ : أي نزه اسم ربك عما لا يليق به كذكره بغير احترام ولا تعظيم أو الاسم صلة والتقدير نزه ربك عن الشريك ومن ذلك قولك سبحان ربي العظيم

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ ﴾ : أي فأقسمُ ولا صلة لتقوية الكلام وتأكيد القسم .

﴿ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ : أي بمساقطها لغروبها وبمنازلها أيضا ومطالعها كذلك .

﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ : أي القسم بها .

﴿ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ : أي لو كنتم من أهل العلم لعلمتم عظم القسم .

﴿ إِنَّهُۥ ﴾ : أي المتلو عليكم لقرآن كريم وهو الذي كذب به المشركون .

﴿ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ : أي مصون وهو المصحف .

﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ : أي من الملائكة والأنبياء وكل طاهر غير محدث حــدثا أكبر وأصغر[1]

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ : أي مترل من رب العالمين وهو الله جل جلاله .

﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ : أي القرآن .

﴿ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾ : أي تلينون القول للمكذبين به بممالأة منكم لهم على التكذيب به والكفر

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ : أي شكر الله على رزقكم .

﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ : أي تكذيبكم بسقيا الله وتقولون مطرنا بنوء كذا وكذا .

﴿ فَلَوْلَآ ﴾ : أي فهلاّ وهي للحض على العمل والحث عليه .

﴿ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴾ : أي مجرى الطعام وذلك وقت الترع .

﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ : أي وأنتم أيها الممرضون والعواد تنظرون إليه .

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ : أي ورسلنا ملك الموت وأعوانه أقرب إلى المتحضر منكم .

﴿ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ : أي الملائكة .

﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ : أي فهلا إن كنتم غير مدينين أي محاسبين بعد الموت .

﴿ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ : أي ترجعون الروح إلى الجسم بعد وشوك مفارقتها لــه إن كنتم صادقين في إنكم لا تبعثون ولا تحاسبون .

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ ﴾ : أي الميت .

---

(١) هذه قضية فقهية فيها تفصيل طويل فليراجع في مكانه في كتب الفروع .

﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ : أي من السابقين وهو الصنف الأول من الأصناف الثلاثة التي تقدمت في أول السورة .

﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾: أي استراحة وريحان أي رزق حسن وجنّة نعيم .

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ : أي من الصنف الثاني فسلام لك يا صاحب اليمين ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ . أي من إخوانك يسلمون عليك فإنهم في جنات النعيم .

﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ : أي فله نزل من ماء حار شديد الحرارة .

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ : أي احتراق بها .

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ : أي إن الذي قصصناه عليك في هذه السورة لهو حق اليقين

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾: أي نزه وقدس اسم ربك العظيم .

((والآن مع وقفات والسورة الكريمة))

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا إسرائيل، ويحيى بن آدم، حدثنا إسرائيل، عن سِمَاك بن حرب؛ أنه سمع جابر بن سَمُرَة يقول: كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم، ولكنه كان يخفف. كانت صلاته أخف من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجر "الواقعة" ونحوها من السور .

[﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ : من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها، كمـا قـال:

﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحاقة]

وقوله: ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ أي: ليس لوقوعها إذا أراد الله كونها صارف يصرفها، ولا دافع يدفعها، كما قال: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ [الشورى:٤٧]، وقال: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ ﴾ [المعارج]، وقـال تعـالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنعام] .

ومعنى ﴿كَاذِبَةٌ﴾ كما قال محمد بن كعب: لا بد أن تكون. وقال قتادة: ليس فيها مثنوية ولا ارتداد ولا رجعة.

قال ابن جرير: والكاذبة: مصدر كالعاقبة والعافية.

وقوله: ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ ﴾ أي: تخفض أقواما إلى أسفل سـافلين إلى الجحـيم، وإن كانوا في الدنيا أعزّاء. وترفع آخرين إلى أعلى عليّين، إلى النعيم المقيم، وإن كانوا في الدنيا وضعاء. وهكذا قال الحسن وقتادة، وغيرهما.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يزيد بن عبد الرحمن بن مصعب المعنى، حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرؤاسي، عن أبيه، عن سِمَاك، عن عِكْرِمَة، عن ابن عبـاس: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾ تخفض أناسًا وترفع آخرين.

وقال عبيد الله العتكي، عن عثمان بن سراقة، ابن خالة عمر بن الخطاب: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾ قال: الساعة خفضت أعداء الله إلى النار، ورفعت أولياء الله إلى الجنة.

وقال محمد بن كعب: تخفض رجالا كانوا في الدنيا مرتفعين، وترفع رجالا كانوا في الدنيا مخفوضين.

وقال السُّدِّيّ: خفضت المتكبرين، ورفعت المتواضعين.

وقال العَوْفيّ، عن ابن عباس: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ أسمعت القريب والبعيد. وقال عكرمة: خفضت فأسمعت الأدنى، ورفعت فأسمعت الأقصى. وكذا قال الضحاك، وقتادة.

وقوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾ أي: حركت تحريكا فاهتزت واضطربت بطولها وعرضها. ولهذا قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغير واحد في قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾ أي: زلزلت زلزالا شديداً.

وقال الربيع بن أنس: ترج بما فيها كرج الغربال بما فيه.

وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ [الزلزلة]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ [الحج].

وقوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ أي: فُتِّتَتْ فتًّا. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعِكْرِمَة، وقتادة، وغيرهم.

وقال ابن زيد: صارت الجبال كما قال الله ﷻ: ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾ [المزمل]

وقوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾، قال أبو إسحاق، عن الحارث، عن علي، ﷺ: ﴿هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ كرهَج الغبار يسطع ثم يذهب، فلا يبقى منه شيء.

وقال العَوْفيّ عن ابن عباس في قوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾: الهباء الذي يطير من النار، إذا اضطرمت يطير منه الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئا.

وقال عكرمة: المنبث: الذي ذرته الريح وبثته. وقال قتادة: ﴿هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ كيبيس الشجر الذي تذروه الرياح.

وهذه الآية كأخواهّا الدالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة، وذهاها وتسييرها ونسفها -أي قلعها- وصيرورهّا كالعهن المنفوش ؛ وقوله: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ ﴾ أي: ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: قوم عن يمين العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن[1]، ويؤتون كتبهم بأيماهم، ويؤخذ هم ذات اليمين. قال السُّدِّيّ: وهم جمهور أهل الجنة. وآخرون عن يسار العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر، ويؤتون كتبهم بشمائلهم، ويؤخذ هم ذات الشمال، وهم عامة أهل النار - عياذًا بالله من صنيعهم-وطائفة سابقون بين يديه وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم سادهّم، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء، وهم أقل عددا من أصحاب اليمين؛ ولهذا قال: ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة في آخر السورة وقت احتضارهم، وهكذا ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ الآية [فاطر:٣٢]، وذلك على أحد القولين في الظالم لنفسه كما تقدم بيانه.

قال سفيان الثوري، عن جابر الجعفي، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ ﴾ قال: هي التي في سورة الملائكة: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ .

وقال ابن جُرَيْج عن ابن عباس: هذه الأزواج الثلاثة هم المذكورون في آخر السورة وفي سورة الملائكة؛وقال يزيد الرقاشي: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً

(١) هذا التفسير كان يحتاج إلى دليل توضيح ليثبت به

﴿٧﴾ قال: أصنافا ثلاثة.وقال مجاهد: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾ قال : يعني: فرقا ثلاثة. وقال ميمون بن مِهْران: أفواجا ثلاثة. وقال عُبَيد الله العتكي، عن عثمان بن سراقة ابن خالة عمر بن الخطاب: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾ اثنان في الجنة، وواحد في النار.... وقال محمد بن كعب وأبو حَرْزَةَ يعقوب بن مجاهد: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ : هم الأنبياء، عليهم السلام. وقال السُّدِّيّ: هم أهل عليين. وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ ، قال[1]: يوشع بن نون، سبق إلى موسى، ومؤمن آل "يس"، سبق إلى عيسى، وعلي بن أبي طالب، سبق إلى محمد رسول الله ﷺ . رواه ابن أبي حاتم، عن محمد بن هارون الفلاس، عن عبد الله بن إسماعيل المدائني البزاز، عن شُعَيب بن الضحاك المدائني، عن سفيان بن عُيَيْنَة، عن ابن أبي نَجِيح به.

وقال ابن أبي حاتم: وذكر محمد بن أبي حماد، حدثنا مِهْرَان، عن خارجة، عن قُرَّةَ، عن ابن سِيرين: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ الذين صلوا للقبلتين.ورواه ابن جرير من حديث خارجة، به.وقال الحسن وقتادة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: من كل أمة. وقال الأوزاعي، عن عثمان بن أبي سودة أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ ثم قال: أولهم رواحًا إلى المسجد، وأولهم خروجًا في سبيل الله.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾وهذه الأقوال كلها صحيحة، فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا، كما قال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ

---

(١) الأصل أن هذا اللفظ عام يشمل كل سابق في كل عصر ومصر والعبرة في التنزيل بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب .

وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحديد: ٢٢]، فمن سابق إلى هذه الدنيا وسبق إلى الخير، كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

[٢٦٢] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن زكريا القزاز الرازي، حدثنا خارجة بن مُصعَب، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو قال: قالت الملائكة: يا رب، جعلت لبني آدم الدنيا فهم يأكلون ويشربون ويتزوجون، فاجعل لنا الآخرة. فقال: لا أفعل. فراجعوا ثلاثا، فقال: لا أجعل من خلقت بيدي كمن قلت له: كن، فكان . ثم قرأ عبد الله: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ وقد روى هذا الأثر الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في كتابه: "الرد على الجهمية"، ولفظه: فقال الله ﷻ : ((**لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي، كمن قلت له: كن فكان**)) اهـ [(١)]

ثم ذكر ﷻ حالة أخرى للسابقين المقربين ، فقال : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾ قرأ الجمهور ﴿ سُرُرٍ ﴾ بضم السين والراء الأولى ، وقرأ أبو السماك ، وزيد بن عليّ بفتح الراء ، وهي لغة كما تقدّم ، والموضونة : المنسوجة ، والوضن : النسج المضاعف . قال الواحدي : قال المفسرون : منسوجة بقضبان الذهب ، وقيل : مشبكة بالدرّ ، والياقوت ، والزبرجد ، وقيل : إن الموضونة المصفوفة . وقال مجاهد : الموضونة : المرمولة بالذهب ، وانتصاب ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا ﴾ على الحال ، وكذا انتصاب ﴿ مُتَقَٰبِلِينَ ﴾ والمعنى : مستقرّين على سرر متكئين عليها متقابلين لا ينظر بعضهم قفا بعض ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ

---

(١) انظر تفسير ابن كثير : ٤/ ٢٨٢، ٢٨٣ بتصرف يسير لسورة الواقعة الآيات (١ – ١٦) .

مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ الجملة في محل نصب على الحال من المقربين ، أو مستأنفة لبيان بعض ما أعدّ الله لهم من النعيم ، والمعنى : يدور حولهم للخدمة غلمان لا يهرمون ، ولا يتغيرون ، بل شكلهم شكل الولدان دائماً . قال مجاهد : المعنى لا يموتون . وقال الحسن ، والكلبي : لا يهرمون ، ولا يتغيرون . قال الفراء : والعرب تقول للرجل إذا كبر و لم يشمط : إنه لمخلد . وقال سعيد بن جبير : مخلدون : مقرطون . قال الفراء : ويقال : مخلدون : مقرطون ، يقال : خلد جاريته : إذا حلاها بالخلدة ، وهي القرطة . وقال عكرمة : مخلدون : منعمون ، ومنه قول امرىء القيس :

وهل ينعمن إلاّ سعيد مخلد قليل الهموم ما يبيت بأوجال

وقيل : مستورون بالحلية ، وروي نحوه عن الفراء ، ومنه قول الشاعر :

ومخلدات باللجين كأنما أعجازهنّ أقاوز الكثبان

وقيل : مخلدون : ممنطقون ، قيل : وهم ولدان المسلمين الذين يموتون صغاراً ولا حسنة لهم ولا سيئة ، وقيل : هم أطفال المشركين ،[1] ولا يبعد أن يكونوا مخلوقين في الجنة للقيام بهذه الخدمة ، والأكواب : هي الأقداح المستديرة الأفواه التي لا آذان لها ولا عرى ، وقد مضى بيان معناها في سورة الزخرف ، والأباريق : هي ذات العرى والخراطيم ، واحدها إبريق ، وهو الذي يبرق لونه من صفائه ، ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي : من خمر جارية ، أو من ماء جار ، والمراد به ها هنا : الخمر الجارية من العيون ، وقد تقدّم بيان معنى الكأس في سورة الصافات ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي : لا تتصدّع رؤوسهم من شربها ، كما تتصدّع من شرب خمر الدنيا . والصداع : هو الداء المعروف الذي يلحق الإنسان في رأسه ، وقيل : معنى لا يصدعون لا يتفرقون كما يتفرق الشرّاب ، ويقوّي هذا المعنى

---

(١) يرى شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : أن أطفال المسلمين الذين ماتوا صغاراً لا يكونوا خداماً لأهل الجنة وإنما هؤلاء الولدان المخلدون من ضمن نعيم أهل الجنة خلقهم الله خصيصاً لذلك ، وأما أبناء المسلمين فينعمون مع ذرياتهم المسلمة المؤمنة .

قراءة مجاهد : ﴿ يَصَّدَّعُونَ ﴾ بفتح الياء وتشديد الصاد ، والأصـل يتصـدعون ، أي : يتفرقون ، والجملة مستأنفة لبيان ما أعد الله لهم من النعيم ، أو في محل نصب على الحال ، وجملة : ﴿وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها ، وقد تقدم اختلاف القـراء في هذا الحرف في سورة الصافات ، وكذلك تقدّم تفسيره ، أي : لا يسـكرون فتـذهب عقولهم ، من أنزف الشـارب : إذا نفـد عقلـه ، أو شـرابه ،..... ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي : يختارونه ، يقال : تخيرت الشيء : إذا أخذت خيره . قرأ الجمهور : ﴿ وَفَٰكِهَةٍ ﴾ بالجر كذا ﴿وَلَحْمِ﴾ عطفاً على ﴿ بِأَكْوَابٍ ﴾ أي : يطوفون علـيهم هـذه الأشياء المأكول والمشروب والمتفكه به . وقرأ زيد بن عليّ ، وأبو عبد الرحمن برفعهمـا على الابتداء ، والخبر مقدّر ، أي : ولهم فاكهة ولحم ، ومعـنى : ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ : ممـا يتمنونه وتشتهيه أنفسهم . ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ قرأ الجمهور ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ برفعهما عطفاً على ولدان أو على تقدير مبتدأ ، أي : نساؤهم حور عين ، أو على تقدير خبر ، أي : ولهم حور عين ، وقرأ حمزة ، والكسائي بجرّهما عطفاً علـى أكواب . قال الزجاج : وجائز أن يكون معطوفاً على جنات ، أي : هم في جنـات وفي حور ، على تقدير مضاف محذوف ، أي : وفي معاشرة حور . قال الفـراء : في توجيـه العطف على أكواب إنه يجوز الجرّ على الاتباع في اللفظ ، وإن اختلفـا في المعـنى؛ لأن الحور لا يطاف بهنّ ، كما في قول الشاعر :

إذا مَا الغانيـاتُ بَـرزنَ يَوْمـاً ... وَزَججّـن الحَواجـبَ والعُيُونـا

والعين لا تزجج ، وإنما تكحل ، ومن هذا قول الشاعر :

علفتها تبناً وماء بارداً ... وقول الآخر : متقلداً سيفاً ورمحاً ... قـال قطـرب : هـو معطوف على الأكواب والأباريق من غير حمل على المعنى . قال : ولا ينكر أن يطـاف عليهم بالحور : ويكون لهم في ذلك لذة . وقرأ الأشهب العقيلي ، والنخعي ، وعيسى بن

عمر بنصبهما على تقدير إضمار فعل ، كأنه قيل : ويزوّجون حوراً عيناً ، أو ويعطون ، ورجح أبو عبيد ، وأبو حاتم قراءة الجمهور . ثم شبههنّ سبحانه باللؤلؤ المكنون ، وهو الذي لم تمسه الأيدي ، ولا وقع عليه الغبار ، ﴿جَزَآءً﴾ في قوله : ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ على أنه مفعول له ، أي : يفعل بهم ذلك كله للجزاء بأعمالهم . ويجوز أن يكون مصدراً مؤكداً لفعل محذوف أي : يجزون جزاءً ، وقد تقدّم تفسير الحور العين في سورة الطور وغيره : ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ اللغو : الباطل من الكلام ، والتأثيم : النسبة إلى الإثم . قال محمد بن كعب : لا يؤثم بعضهم بعضاً ، وقال مجاهد : لا يسمعون شتماً ، ولا مأثماً ، والمعنى : أنه لا يقول بعضهم لبعضهم أثمت؛ لأنهم لا يتكلمون بما فيه إثم . ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ القيل القول ، والاستثناء منقطع ، أي : لكن يقولون قيلاً ، أو يسمعون قيلاً ، وانتصاب ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ على أنه بدل من ﴿قِيلًا﴾، أو صفة له ، أو هو مفعول به ﴿قِيلًا﴾ أي : إلاّ أن يقولوا : سلاماً سلاماً ، واختار هذا الزجاج ، أو على أنه منصوب بفعل هو محكي ب ﴿قِيلًا﴾ أي : إلاّ قيلاً سلموا سلاماً سلاماً ، والمعنى في الآية : أنهم لا يسمعون إلاّ تحية بعضهم لبعض .

لما فرغ ﷻ من ذكر أحوال السابقين ، وما أعدّه لهم من النعيم المقيم ، ذكر أحوال أصحاب اليمين ، فقال : ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ ...وهي خبر المبتدأ ، وهو أصحاب اليمن ، وقوله : ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ خبر ثان ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أي : هم في سدر مخضود ، والسدر : نوع من الشجر ، والمخضود : الذي خضد شوكه ، أي : قطع فلا شوك فيه . قال أمية بن أبي الصلت يصف الجنة :

إن الحدائق في الجنان ظليلة ... فيها الكواعب سدرها مخضود

وقال الضحاك ، ومجاهد ، ومقاتل بن حيان : إن السدر المخضود : الموقر حمـــلاً ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾ قال أكثر المفسرين : إن الطلح في الآية هو شجر الموز . وقال جماعـــة : ليس هو شجر الموز ، ولكنه الطلح المعروف وهو أعظم أشجار العرب . قـــال الفـــراء ، وأبو عبيدة : هو شجر عظام لها شوك . قال الزجاج : الطلح هو أمّ غيلان ، ولها نـــور طيب ، فخوطبوا ووعدوا ما يحبون ، إلاّ أن فضله على ما في الدنيا كفضل سائر مـــا في الجنة على ما في الدنيا . قال : ويجوز أن يكون في الجنة ، وقد أزيل شوكه . قال السدي : طلح الجنة يشبه طلح الدنيا لكن له ثمر أحلى من العسل ، والمنضود : المتراكب الذي قد نضد أوله وآخره بالحمل ليس له سوق بارزة . قال مسروق : أشجار الجنة من عروقهـــا إلى أفنانها نضيد ثمر كله ، كلما أخذت ثمرة عاد مكانها أحسن منها ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي : دائم باق لا يزول ، ولا تنسخه الشمس . قال أبو عبيدة : والعرب تقول لكل شيء طويل لا ينقطع : ممدود ، ومنه قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ [الفرقان: ٤٥] والجنة كلها ضلّ [أي ظل] لا شمس معه . قال الربيع بن أنس : يعني ظلّ العرش ، ومن استعمال العرب للممدود في الدائم الذي لا ينقطع قول لبيد :

غلب العزاء وكان غير مغلـــب دهـــر طويـــل دائـــم ممـــدود

﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾ أي : منصبّ يجري بالليل والنهار أينما شاءوا لا ينقطع عنهم ، فهو مسكوب يسكبه الله في مجاريه ، وأصل السكب . الصبّ ، يقال : سكبه سكباً ، أي : صبه ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾﴾ أي : ألوان متنوعة متكثرة ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ ﴾ في وقت من الأوقات ، كما تنقطع فواكه الدنيا في بعض الأوقات ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أي : لا تمتنع علـــى من أرادها في أي وقت على أيّ صفة ، بل هي معدّة لمن أرادها لا يحول بينه وبينها حائل

. قال ابن قتيبة : يعني : أنها غير محظورة عليها كما يحظر على بساتين الدنيا . ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي : مرفوع بعضها فوق بعض ، أو مرفوعة على الأسرّة .

وقيل : إن الفرش هنا كناية عن النساء اللواتي في الجنة ، وارتفاعها كونها على الأرائك ، أو كونها مرتفعات الأقدار في الحسن والكمال . ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾ أي : خلقناهنّ خلقاً جديداً من غير توالد ، وقيل : المراد نساء بني آدم . والمعنى : أن الله سبحانه أعادهنّ بعد الموت إلى حال الشباب ، والنساء وإن لم يتقدّم لهنّ ذكر لكنهن قد دخلن في أصحاب اليمين ، وأما على قول من قال : إن الفرش المرفوعة عين النساء ، فمرجع الضمير ظاهر . ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾ ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ [الرحمن] ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ العرب جمع عروب ، وهي المتحببة إلى زوجها . قال المبرد : هي العاشقة لزوجها ، ومنه قول لبيد :

وفي الخباء عروب غير فاحشة ... ريا الروادف يعشي ضوؤها البصرا

وقال زيد بن أسلم : هي الحسنة الكلام . قرأ الجمهور بضم العين والراء . وقرأ حمزة ، وأبو بكر عن عاصم بإسكان الراء ، وهما لغتان في جمع فعول ، والأتراب : هنّ اللواتي على ميلاد واحد ، وسنّ واحد . وقال مجاهد : أتراباً أمثالاً وأشكالاً . وقال السديّ : أتراباً في الأخلاق لا تباغض بينهن ولا تحاسد . قوله : ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ متعلق بـ ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ ، أو بجعلنا ، أو ب ﴿أَتْرَابًا﴾ ، والمعنى : أن الله أنشأهنّ لأجلهم ، أو خلقهنّ لأجلهم ، أو هنّ مساويات لأصحاب اليمين في السنّ ، أو هو خبر لمبتدأ محذوف ، أي : هنّ لأصحاب اليمين ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ هذا راجع إلى قوله : ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ أي : هم ثلة من الأوّلين ، وثلة من الآخرين ، وقد تقدم تفسير الثلة عند ذكر السابقين ، والمعنى : أنهم جماعة ، أو أمة ،

أو فرقة ، أو قطعة من الأوّلين ، وهم من لدن آدم إلى نبينا صلى الله عليه وسلم ، وجماعة ، أو أمة ، أو فرقة ، أو قطعة من الآخرين ، وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقـال أبو العالية ، ومجاهد ، وعطاء بن أبي ربـاح ، والضـحاك : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ يعني : من سابقي هذه الأمة ، ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ اهـ

﴿ عُرُبًا ﴾ يعني : محبات ، عاشقات ، لأزواجهن ، لا يردن غيرهم قرأ حمزة ، وعاصـم ، في إحدى الروايتين ﴿ عُرْبًا ﴾ بجزم الراء . والباقون بالضم . ومعناهما واحد . وقـال أبـو عبيد : نقرأ بالضم لأنها أقيس في العربية ، لأن واحدها عَرُوب ، وجمعها عـرب ، مثـل صَبُور وصُبُر ، وشكور وشكر . ثم قال :﴿ أَتْرَابًا ﴾ يعني : مستويات في السن ، كـأنهن على ميلاد واحد ، بنات ثلاث وثلاثين . وروي عن عكرمة أنه قال : أهل الجنة مـيلاد ثلاثين سنة ، رجالهم ونساؤهم ، قامة أحدهم ستون ذراعاً على قامة أبـيهم آدم عليـه السلام ، شباب جرد مكمولون ، أحسنهم يرى كالقمر ليلة البدر ، وآخرهم كالكوكب الدري في السماء ، يبصر وجهه في وجهها ، وكبده في كبدها ، وفي مخ ساقها ، وتبصر هي وجهها في وجهه ، وفي كبده وفي مخ ساقه ، ولا يبزقون ، ولا يتمخطون ، وما كان فوق ذلك من الأذى فهو أبعد ، ﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ﴾ يعني : هذا الـذي ذكـر كرامة لأصحاب اليمين .

ثم قال ﷻ : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ يعني : جماعة مـن أول هذه الأمة ، وجماعة من الآخرين . فذكر في السابقين أنهم جماعة من الأولين ، وقليل من الآخرين ، لأن السابق في أخر الأمة قليل ، وأما أصحاب اليمين يكون جماعة مـن أول الأمة ، وجماعة من آخر الأمة .اهـ [1]

---

(١) انظر بحر العلوم للسمرقندي تفسير سورة الواقعة الآيات (١٦ – ٤٠) .

وقال السمرقندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

ثم ذكر الصنف الثالث فقال : ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ ﴾ يعني : ما لأصحاب الشمال من شدة ، وشر ، وهوان .

ثم وصف حالهم فقال : ﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ والسموم : الزمهرير يقطع الوجوه وسائر الجسوم . ويقال : السموم : النار الموقدة . والحميم : الماء الحار الشديد ، ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ واليحموم الدخان يعني : دخان جهنم أسود ﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ يعني : ﴿ لَّا بَارِدٍ ﴾ شرابهم ﴿وَلَا كَرِيمٍ ﴾ منقلبهم .

ثم بين أعمالهم التي استحقوا بها العقوبة بأعمالهم الباطلة فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ يعني : كانوا في الدنيا متكبرين في ترك أمر الله تعالى . ويقال : كانوا مشركين ﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾ يعني : يثبتون على الذنب العظيم ، وهو الشرك . وإنما سمِّي الشرك حنثاً ، لأنهم كانوا يحلفون بالله ، لا يبعث الله من يموت ، وكانوا يصرون على ذلك . وقال القتبي : ﴿ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ اليمين الغموس . وقال مجاهد : الذنب العظيم . وقال ابن عباس : ﴿ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ هو الشرك ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ ﴾ مع شركهم ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ يعني : بعدما صرنا تراباً ، وعظاماً بالية ، صرنا أحياء بعد الموت ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ الذين : مضوا قبلنا ، وصاروا تراباً .قال الله تعالى : قل يا محمد ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ يعني : الأمم الخالية ﴿ لَمَجْمُوعُونَ ﴾ وهذه الأمة مجموعة ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ في يوم القيامة يجتمعون فيه ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ بالبعث ﴿ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ

﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ يعني : يملؤون من طلعهـا البطـون ، ﴿ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ ﴾ يعني : على إثره يشربون من الحميم ﴿ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾ يعني : كشرب الهيم ، وهي الإبل التي يصيبها داء ، فلا تروى من الشراب . ويقـال : الأرض التي أصابتها الشمس وهي أرض سهلة من الرملة . قرأ نافع ، وعاصم ، وحمـزة ﴿شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ بضم الشين . والباقون : بالنصب . فمن قرأ بالضم ، فهو اسم . ومـن قـرأ : بالنصب ، فهو المصدر . ويقال : كلاهما مصدر شربت .

ثم قال : ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾ يعني : جزاءهم يوم الجزاء . ويقال : معناه هو الذي ذكرناه من الزقوم والشراب طعامهم وشربهم يوم الحساب .اهـ (١)

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

قوله : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ تحضيض ، أي : فهلا تصدقون بالبعث؛ لأن الإعادة كالابتداء . وقيل : المعنى نحن خلقنا رزقكم ، فهلا تصدقون أن هذا طعامكم إن لم تؤمنوا ، أو متعلق التصديق محذوف ، تقديره : فلولا تصدقون بخلقنا .

قوله : ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ هي بمعنى : « أخبروني » ومفعولها الأول ﴿مَّا تُمْنُونَ﴾ والثاني الجملة الاستفهامية . وقد تقدم تقريره .

والمعنى : ما تصبُّونه من المنِيّ في أرحام النِّساء .وقرأ العامَّة : ﴿تُمْنُونَ﴾ بضم التَّاء ، مـن «أمنى يمني » . وابن عبَّاس وأبو السِّمال : بفتحها من « مَنَى يَمْنِي » .

---

(١) المصدر السابق بتصرف .

قال الزمخشري : يقال : أمنى النُّطفة ومناها ، قال الله تعالى : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ فظاهر هذا أنه استشهاد للثلاثي ، وليس فيه دليل له ، إذ يقال من الرباعي أيضاً : تُمـنى ، كقولك : « أنت تكرم » وهو من « أكرم » .

وقال القرطبي : ويحتمل أن يختلف معناهما عندي ، فيكون « أمْنَى » إذا أنزل عند جماع ، و « مَنَى » إذا أنزل عند احتلام ، وفي تسمية المنيِّ منيًّا وجهان :

أحدهما : لإمنائه ، وهو إراقته .

الثاني : لتقديره ، وهو المَنّ الذي يوزن به؛ لأنه مقدار لذلك ، فكـذلك المَنِـيّ مقـدار صحيح لتصوير الخِلْقَة .

فصل في تحرير معنى الآية:

والمعنى : أنتم تصورون منه الإنسان ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ المقدّرون المصـورون ، وهـذا احتجاج عليهم ، وبيان للآية الأولى ، أي : إذا أقررتم بأنا خالقوه لا غـير ، فـاعترفوا بالبعث .

قال مقاتل : نحن خلقناكم و لم تكونوا شيئاً ، وأنتم تعلمون ذلك ، فهلاَّ تصدقون بالبعث قوله : ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾ .

قرأ ابن كثير : ﴿قَدَّرْنَا﴾ بتخفيف الدال .

والباقون : بتشديدها .

وهما لغتان بمعنى واحد في التقدير الذي هو القضاء ، وهذا أيضاً احتجاج ، أي : الـذي يقدر على الإماتة يقدر على الخَلْق وإذا قدر على الخَلْق قدر على البعث .اهـ [1]

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي تقذفونَ في الأرحامِ من النطفِ وقرىء بفتحِ التاءِ من مَنَـى النطفةَ بمعنى أمنَاها ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ ﴾ أي تقدرونَهُ وتصورونَهُ بشـراً سـوياً ﴿أَمْ نَحْنُ

---

(١) انظر تفسير اللباب لابن عادل تفسير سورة الواقعة الآيات (٥٧ – ٦٢) .

﴿ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ له من غيرِ دخلٍ شيءٍ فيه ، وأم قيل : منقطعةٌ لأن ما بعدها جملةٌ فالمعنى بل أنحنُ الخالقونَ على أنَّ الاستفهامَ للتقريرِ وقيل : متصلة ومجيءُ الخالقونَ بعد نحن بطريقِ التأكيد لا بطريقِ الخبريةِ أصالةً ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي قسمناهُ عليكم ووقتنا موتَ كلِّ أحدٍ بوقتٍ معينٍ حسبما تقتضيهِ مشيئتنا المبنيةُ على الحكمِ البالغةِ وقرىء قدَرْنا مخففاً ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي إنا قادرونَ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ لا يغلبنا أحدٌ على أن نُذهبكم ونأتي مكانَكم بأشباهكم من الخلقِ ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الخلقِ والأطوارِ ولا تعهدون بمثلها ... المعْنى وننشئكم في البعثِ على غيرِ صوركم في الدُّنيا فيمن هذا شأنه كيف يعجزُ عن إعادتِكم وقيلَ : المعنى وما يسبقنا أحدٌ فيهرب من الموت أو بغير وقته وعلى أن نبدل إلخ إما حالٌ من فاعل قدرنا أو علةٌ للتقديرِ وعلى بمعنى اللام وبينهما اعتراضٌ .

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ هي خلقُهم من نطفةٍ ثم من علقةٍ ثم من مضغةٍ وقيل : هي فطرةُ آدمَ عليه السلام من التراب ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فهلا تتذكرون أنَّ من قدرَ عليها قدر على النشأةِ الأُخرى حتماً فإنه أقلُّ صنعاً لحصولِ الموادِّ وتخصيصِ الأجزاءِ وسبقِ المثالِ وفيه دليلٌ على صحةِ القياسِ وقرىء فَلْولاَ تذكُرُون من الثلاثيِّ وفي الخبرِ عجباً كلَّ العجبِ للمكذبِ بالنشأةِ الآخرةِ وهو يرى النشأةَ الأولى وعجباً للمصدق بالنشأة الآخرةِ وهو يسعى لدار الغرور .

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي تبذرونَ حبَّه وتعملونَ في أرضِه ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ تنبتونَهُ وتردونه نباتاً يرفّ ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ أي المنبتونَ لا أنتمُ والكلامُ في أم كما مر آنفاً ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ هشيماً متكسراً متفتتاً بعد ما أنبتناهُ وصارَ بحيثُ طمعتم في حيازة غلالهِ ﴿فَظَلْتُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تتعجبونَ من سوءِ حالِه إثر ما

شاهدتُموه على أحسن ما يكون من الحالِ أو تندمونَ على ما تعبتُم فيه وأنفقتُم عليه أو على ما اقترفتُم لأجله من المعاصِي فتتحدثون فيه والتفكّه التنقلُ بصنوفِ الفاكهةِ وقد استعير للتنقلِ بالحديثِ وقُرِىءَ تفكّنُون أن تتندمونَ وقُرِىءَ فظِلتم بالكسرِ وفظَلِلتُم على الأصل .اهـ (١)

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي وتقولون فحذف القول ومعنى الغرم ذهاب المال بغير عوض وقيل معناه لموقع بنا وقال ابن عباس رضي الله عنهما لمعذبون يعني أنهم عذبوا بذهاب أموالهم بغير فائدة والمعنى إنا غرمنا الحب الذي بذرناه فذهب بغير عوض ، ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي ممنوعون والمعنى حرمنا الذي كنا نطلبه من الريع في الزرع ، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ ذكرهم الله تعالى نعمه عليهم بإنزال المطر الذي لا يقدر عليه إلا الله ﷻ : ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ قال ابن عباس شديد الملوحة وقيل مراً لا يمكن شربه ﴿فَلَوْلَا﴾ أي فلا ﴿تَشْكُرُونَ﴾ يعني نعمة الله عليكم ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ يعني تقدحون من الزند ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ يعني التي تقدح منها النار وهي المرخ والعفار وهما شجرتان تقدح منهما النار وهما رطبتان وقيل أراد جميع الشجر الذي توقد منه النار

(١) تفسير أبو السعود لسورة الواقعة الآيات (٥٧ – ٦٥) .

﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا﴾ يعني نار الدنيا ﴿تَذْكِرَةً﴾ أي للنار الكبرى إذا رأى الرائي هذه النار ذكر بها نار جهنم فيخشى الله ويخاف عقابه وقيل موعظة يتعظ بها المؤمن

[٢٦٣] عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ « نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ ». قَالُوا وَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ « فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا ».(١)

﴿وَمَتَاعًا﴾ أي بلغة ومنفعة ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ يعني للمسافرين والمقوي النازل في الأرض القواء وهي القفر الخالية البعيدة من العمران والمعنى أنه ينتفع بها أهل البوادي والسفار فإن منفعتهم أكثر من المقيم فإنهم يوقدونها بالليل لتهرب الشماع ويهتدي بها الضال إلى غير ذلك من المنافع هذا قول أكثر المفسرين وقيل المقوين الذين يستمتعون بها في الظلمة ويصطلون بها من البرد وينتفعون بها في الطبخ والخبز إلى غير ذلك من المنافع وقيل المقوي من الأضداد يقال للفقير مقو لخلوه من المال ويقال للغني مقو لقوته على ما يريد والمعنى أن فيها متاعاً ومنفعة للفقراء والأغنياء جميعاً لا غنى لأحد عنها . اهـ (٢)

* رتب على ما مضى من الكلام المشتمل على دلائل عظمة القدرة الإلهية وعلى أمثال لتقريب البعث الذي أنكروا خبره ، وعلى جلائل النعم المدمجة في أثناء ذلك أن أمر الله رسوله ﷺ بأن يتره تتريهاً خاصاً معقباً لما تفيضه عليه تلك الأوصاف الجليلة الماضية من تذكر جديد يكون التتريه عقبه ضرباً من التذكر في جلال ذاته والتشكر لآلائه فإن للعبادات مواقع تكون هي فيها أكمل منها في دونها ، فيكون لها من الفضل ما يجزل ثوابه فالرسول ﷺ لا يخلو عن تسبيح ربه والتفكرِ في عظمة شأنه ولكن لاختلاف التسبيح والتفكر من تجدد ملاحظة النفس ما يجعل لكل حال من التفكر مزايا تكسبه خصائص وتزيده ثواباً .

---

(١) مسلم نووي : ١٧ / ٣١٠ ك/ الجنة وصفة نعيمها وأهلها ب/ جهنم أعاذنا الله منها ح/ ٢٨٨٤٣ وانظر سنن الترمذي ك/ صفة جهنم عن رسول الله ﷺ ب/ ما جاء أن ناركم هذه جزء من سبعين جزءً من نار جهنم ح/ ٢٥٨٩ .

(٢) انظر تفسير الخازن لسورة الواقعة الآيات (٦٦ – ٧٣) .

فالجملة عطف على جملة ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ ، وهي تذييل ؛ والتسبيح : التنـزيه ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ في سورة البقرة (٣٠) .

واسم الرب : هو ما يدل على ذاته وجُماع صفاته وهو اسم الجلالة ، أي بأن يقول : سبحان الله ، فالتسبيح لفظ يتعلق بالألفاظ .

ولما كان الكلام موضوعاً للدلالة على ما في النفس كان تسبيح الاسم مقتضياً تنزيه مُسماه وكان أيضاً مقتضياً أن يكون التسبيح باللفظ مع الاعتقاد لا بمجرد الاعتقاد لأن التسبيح لما علق بلفظ اسم تعين أنه تسبيح لفظي ، أي قُلْ كلاماً فيه معنى التنزيه ، وعلّقه باسم ربك ، فكل كلام يدل على تنـزيه الله مشمول لهذا الأمر ولكن محاكاة لفظ القرآن أولى وأجمع بأن يقول : سُبحان الله . ويؤيد هذا ما قالته عائشة رضي الله عنها إنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ [النصر : ٣]

[٢٦٤] كان رسول الله ﷺ يقول في سجوده : ((**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن**)) أي يتأوله على إرادة ألفاظه .

والباء الداخلة على { اسم } زائدة لتوكيد اللصوق ، أي اتصالِ الفعل بمفعوله وذلك لوقوع الأمر بالتسبيح عقب ذكر عدة أمور تقتضيه حسبما دلت عليه فاء الترتيب فكان حقيقاً بالتقوية والحث عليه ، وهذا بخلاف قوله : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ [الأعلى] لوقوعه في صدر جملته كقوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأحزاب] وهذا الأمر شامل للمسلمين بقرينة أن القرآن متلوّ لهم وأن ما تفرع الأمر عليه لا يختص علمه بالنبي ﷺ فلما أُمر بالتسبيح لأجله فكذلك من عَلمه من المسلمين .

والمعنى : إذ علمتم ما أنزلنا من الدلائل وتذكرتم ما في ذلك من النعم فنزهوا الله وعظّموه بقُصارى ما تستطيعون .

و ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صالح لأن يجعل وصفاً ل ﴿رَبِّكَ﴾ ، وهو عظيم بمعنى ثبوت جميع الكمال له وهذا مجاز شائع ملحق بالحقيقة؛ وصالح لأن يكون وصفاً ل ﴿بِٱسْمِ﴾ والاسم عظيم عظمة مجازية ليُمْنه ولعظمة المسمّى به .

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

تفريع على جملة ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ يُعرِب عن خطاب من الله تعالى موجه إلى المكذبين بالبعث القائلين : ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾، انتقل به إلى التنويه بالقرآن لأنهم لما كذبوا بالبعث وكان إثباتُ البعث من أهم ما جاء به القرآن وكان مما أغراهُم بتكذيب القرآن اشتمالُه على إثبات البعث الذي عَدُّوه محالاً ، زيادة على تكذيبهم به في غير ذلك مما جاء به من إبطال شركهم وأكاذيبهم ، فلما قامت الحجة على خطئهم في تكذيبهم ، فقد تبين صدق ما أنبأهم به القرآن فثبت صدقه ولذلك تهيأ المقام للتنويه بشأنه .

والفاء لتفريع القَسم على ما سبق من أدلة وقوع البعث فإن قوله : ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ﴾ ، إخبار بيوم البعث وإنذار لهم به وهم قد أنكروه ، ولأجل استحالته في نظرهم القاصر كذبوا القرآن وكذّبوا من جاء به ، ففرع على تحقيق وقوع البعث والإنذار به تحقيق أن القرآن متره عن النقائص وأنه تتريل من الله وأن الذي جاء به مبلغ عن الله .

فتفريع القسم تفريع معنويٌّ باعتبار المقسم عليه ، وهو أيضاً تفريع ذِكري باعتبار إنشاء القسم إن قالوا لكم : أقسم بمواقع النجوم .

وقد جاء تفريع القَسم على ما قبله بالفاء تفريعاً في مجرد الذكر في قول زهير :

فأقسمت بالبيت الذي طَافَ حوله رجال بَنَوْه من قريش وجُرهم

عقب أبيات النسِيب من معلّقته ، وليس بين النسيب وبين ما تفرع عنه من القسم مناسبة وإنما أراد أن ما بعد الفاء هو المقصود من القصيد ، وإنما قدم له النسيب تنشيطاً للسامع وبذلك يظهر البَون في النظم بين الآية وبين بيت زهير .

و ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ ﴾ بمعنى : أقسم ، و ﴿ لَآ ﴾ مزيدة للتوكيد ، وأصلها نافية تدل على أن القائل لا يقدم على القسم بما أقسم به خشية سوء عاقبة الكذب في القسم .

وبمعنى أنه غير محتاج إلى القسم لأن الأمر واضح الثبوت ، ثم كثر هذا الاستعمال فصار مراداً تأكيد الخبر فساوى القسم بدليل قوله عقبه : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ ، وهذا الوجه الثاني هو الأنسب بما وقع من مثله في القرآن .

وعلى الوجهين فهو إدماج للتنويه بشأن ما لو كان مُقسِماً لأقسم به . وعلى الوجه الثاني يكون قوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ ﴾ بمعنى : وإن المذكور لشيء عظيم يُقسم به المقسمون ، فإطلاق قسم عليه من إطلاق المصدر وإرادة المفعول كالخلق بمعنى المخلوق .

وعن سعيد بن جبير وبعض المفسرين : أنهم جعلوا ﴿ لَآ ﴾ حرفاً مستقلاً عن فعل ﴿ أُقْسِمُ ﴾ واقعاً جواباً لكلام مقدر يدل عليه بعده من قوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ ردّاً على أقوالهم في القرآن أنه شعر ، أو سحر ، أو أساطير الأولين ، أو قول كاهن ، وجعلوا قوله : ﴿ أُقْسِمُ ﴾ استئنافاً .

وقال ابـن عاشـور : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

إذا جرينا على ما فَسر به المفسرون تكون هذه الجملة عطفاً على جملـة ﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ عطفَ الجملة على الجملة فتكون داخلة في حيّز الاستفهام ومستقلة بمعناها والمعنى : أفتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ، وهو تفريع على ما تضمنه الاستدلال بتكوين نسل الإنسان وخلق الحَب ، والماء في المزن ، والنار من أعواد الاقتداح ، فإن في مجمـوع ذلك حصول مقومات الأقوات وهي رزق ، والنسل رزق ، يقال : رُزق فلان ولَـداً ، لأن الرزق يطلق على العطاء النافع ، قال لبيد :

رُزقتْ مرابيعَ النجـومِ وصَـابَها وَدْقُ الرواعد جَوْدُهـا فرهامهـا

أي أعطيتْ وقال تعالى : ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الـذاريات] فعطف الإطعام على الرزق والعطف يقتضي المغايرة .

والاستفهام المقدر بعد العاطف إنكاري ، وإذ كان التكذيب لا يصح أن يجعل رزقاً تعين بدلالة الاقتضاء تقدير محذوف يفيده الكلام فقدره المفسرون : شُكْر رزقكم ، أو نحوه ، أي تجعلون شكر الله على رزقه إياكم أن تكذبوا بقدرته على إعادة الحياة ، لأهم عـدلوا عن شكر الله تعالى فيما أنعم به عليهم فاستنقصوا قدرته على إعادة الأجسام ، ونسـبوا الزرع لأنفسهم ، وزعموا أن المطر تمطره النجوم المسماة بالأنواء فلذلك قال ابن عباس : نزلت في قولهم : مُطرنا بنوء كذا ، أي لأهم يقولونه عن اعتقاد تأثير الأنواء في خَلْق المطر ، فمعنى قول ابن عباس : نزلت في قولهم : مطرنا بنوء كذا ، أنه مراد من معنى الآية .

قال ابن عطية : أجمع المفسرون على أن الآية توبيخ للقائلين في المطر الذي يترله الله رزقاً : هذا بنوء كذا وكذا اهـ .

[٢٦٥] أشار هذا إلى ما روي في «الموطأ» عَنْ زَيْدِ بْنِ خالدِ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ قَالَ : صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلاةَ الصُّبحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ : ((أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟)) قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : ((قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ)) (١).

، وليس فيه زيادة فنزلت هذه الآية ولو كان نزولها يومئذ لقاله الصحابي الحاضر ذلك اليوم .

ووقع في «صحيح مسلم» عن ابن عباس أنه قال : «مطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر ، قالوا : هذه رحمة الله ، وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا . قال فنزلت : ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ حتى بلغ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ فزاد على ما في حديث زيد بن خالد قوله فنزلت : ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ الخ .

وزيادة الراوي مختلف في قبولها بدون شرط أو بشرط عدم اتحاد المجلس ، أو بشرط أن لا يكون ممن لا يغفل مثله عن مثل تلك الزيادة عادةً وهي أقوال لأئمة الحديث وأصول الفقه ، وابن عباس لم يكن في سن أهل الرواية في مدة نزول هذه السورة بمكة فعلى قوله : فنزلت تأويل منه ، لأنه أراد أن الناس مُطروا في مكة في صدر الإسلام فقال المؤمنون قولاً وقال المشركون قولاً فنزلت آية ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ تنديداً على

---

(١) انظر الموطأ ك/ الاستسقاء ب/ الاستمطار بالنجوم ح/ ٤٥٢ ط/ مكتبة الصفا وانظر فتح الباري لابن حجر العسقلاني : ٢/ ٦٣٥ ك/ الاستسقاء ب/ قوله تعالى ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ ح/ ١٠٣٨ وانظر صحيح مسلم بشرح النووي : ٢/٢٤٦، ٢٤٧ ك/ الإيمان ب/ بيان كفر من قال مطرنا بنوء ح/ ٧١ ط/ المنار ورواه أبو داود في سننه ك/ الطب ب/ في النجوم ح/ ٣٩٠٦ ط/ أولاد الشيخ .

المشركين منهم بعقيدة من العقائد التي أنكرها الله عليهم وأن ما وقع في الحديبية مطر آخر لأن السورة نزلت قبل الهجرة . اهـ (١)

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

ثم انتقلت الآيات إلى توبيخهم على أمر آخر ، وهو غفلتهم عن قدرة الله ﷻ ووحدانيته وهم يشاهدون آثار قدرته أمام أعينهم فقال ﷻ : ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾

ولو في الموضعين للتحضيض على التذكر والاعتبار ، ولإبراز عجزهم في أوضح صورة ، إذ إظهار عجزهم هو المقصود هنا بالحض . .

وقوله ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ ظرف متعلق بقوله ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ أي : تردونها ، وقد قدم عليه لتهويله ، والتشويق إلى الفعل المحضوض عليه ، وهو إرجاع الروح إلى صاحبها .

والضمير في ﴿بَلَغَتِ﴾ يعود إلى الروح ، وهي وإن كانت لم تذكر إلا أنها مفهومه من الكلام .

والحلقوم : مجرى الطعام وأل فيه للعهد الجنسي .

---

(١) انظر التحرير والتنوير لابن عاشور تفسير سورة الواقعة الآيات (٧٥ – ٨٢) .

وجملة : ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ حال من ضمير ﴿بَلَغَتِ﴾ ، ومفعول ﴿تَنظُرُونَ﴾ محذوف والتقدير : تنظرون وتبصرون صاحب الروح وهو في تلك الحالة العصيبة .

وجملة ﴿ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ جواب الشرطين في قولــه : ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ وفي قوله : ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ .

وجملة ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ مستأنفة لتأكيد توبيخهم على جهالاتهم وعدم اعتبارهم حتى في أوضح المواقف التي تدل على قدرة خالقهم ﷻ .

والمعنى : إذ كنتم - أيها الجاحدون المكذبون - لم تعتبروا و لم تتعظوا بكل ما سقناه لكم من ترغيب وترهيب على لسان رسولنا محمد ﷺ فهلا اعتبرتم واتعظتم وآمنتم بوحـــدانيتنا وقدرتنا . . . حين ترون أعز وأحب إنسان إليكم ، وقـــد بلغـــت روحــــه حلقومــــه ، وأوشكت على أن تفارق جسده . .

﴿وَأَنتُمْ﴾ أيها المحيطون بهذا المحتضر العزيز عليكم ﴿حِينَئِذٍ﴾ أي : حين وصل الأمر بــه إلى تلك الحالة التي تنذر بقرب نهايته ، أنتم ﴿حِينَئِذٍ﴾ إلى ما يقاسيه من غمرات الموت ، وتبصرون ما فيه من شدة وكرب ، وتحرصون كل الحرص على انجائه مما حل به ولكـــن حرصكم يذهب أدراج الرياح .

﴿وَنَحْنُ﴾ في هذه الحالة وغيرها ، ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ أي : ونحن أقرب إليــه مــنكم بعلمنا وبقدرتنا ، حيث إنكم لا تعرفون حقيقة ما هو فيه من أهوال ولا تدركون عظـــيم ما فيه من كرب ، ولا تقدرون على رفع شيء من قضائنا فيه وفي غيره .

وقوله : ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ استدراك للكلام السابق . أي : ونحن أقــرب إلى هـــذا المحتضر منكم ، ولكنكم لا تدركون ذلك لجهلكم بقدرتنا النافذة ، وحكمتنا البالغة . . .

﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ أي : فهلا إن كنتم غير عاجزين عن رد قضـــائنا في هذا المحتضر الحبيب إليكم ، وغير مبروبين لنا ، وخاضـــعين لســـلطاننا . . يقـــال : دان السلطان الرعية ، إذا ساسهم وأخضعهم لنفوذه .

هلا إن كنتم غير خاضعين لنا ﴿ تَرْجِعُونَهَآ ﴾ أي : ترجعون الروح إلى صاحبها ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ في اعتقادكم بأن آلهتكم تستطيع الدفاع عنكم وفى اعتقادكم أنه لا بعث ولا حساب بعد الموت ، وفى توهمكم أن هناك قوة سوى قوة الله ﷻ يمكنها أن تســـاعدكم عند الشدائد والمحن . وهكذا نجد هذه الآيات الكريمة ، تقيم أوضح الأدلة وأكثرها تأثيرا في النفوس ، على كمال قدرة الله ﷻ وعلى نفاذ مشيئته وإرادته . .

فهي تتحدى البشر جميعا أن يعيدوا الروح إلى أحب الناس إليهم ، وهم واقفون من حوله وقفة الحائر المستسلم . العاجز عن فعل أي شيء من شأنه أن يدفع عن هذا المحتضر ما فيه من كرب ، أو أن يؤخر انتزاعه روحه من جسده ، ولو لزمن قليل .

ثم تمضى السورة الكريمة بعد ذلك ، في بيان مصير هذه الروح ، التي توشك أن تســـتدبر الحياة الفانية ، وتستقبل الحياة الباقيـــة فتقـــول : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾

والروح : بمعنى الراحة والأمان والاطمئنان والريحان شجر طيب الرائحة .

أي : فأما إن كان صاحب هذه النفس التي فارقت الدنيا ، من المقربين إلينـــا الســـابقين بالخيرات . . . فله عندنا راحة لا تقاربها راحة ، وله رحمة واسعة ، وله طيب رائحة عند قبض روحه ، وعند نزوله في قبره ، وعند وقوفه بين أيدينا للحساب يوم الـــدين ، ولـــه جنات ينعم فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿ وَأَمَّآ ﴾ إن كان هذا الإنسان ﴿ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ وهم الذين ثقلت موازين حسناتهم ﴿ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ ﴾ أي : فتقول له الملائكة عند قبض روحه وفي قبره ، وفي الجنة ، سلام لك يا صاحب اليمين ، من أمثالك أصحاب اليمين .

قال الآلوسي : وقوله : ﴿ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ ﴾ قيل هو على تقدير القول .
أي : فيقال لذلك المتوفى منهم : سلام لك عما يشغل القلب من جهتهم فإنهم في خير .
أي : كن فارغ البال من جهتهم فإنهم بخير .
وذكر بعض الأجلة أن هذه الجملة ، كلام يفيد عظمة حالهم ، كما يقال : فلان ناهيك به ، وحسبك أنه فلان ، إشارة إلى أنه ممدوح فوق حد التفصيل .

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ ﴾ هذا المتوفى ﴿ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ وهم أصحاب الشمال ﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ أي : فله نزل - أي : مكان - ﴿ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ أي : من ماء قد بلغ أقصى درجات الحرارة وعبر عن المكان الذي ينزل فيه بالنزل ، على سبل التهكم ، إذا النزل في الأصل يطلق على ما يقدم للضيف على سبل التكريم . .

وقوله : ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ ﴾ أي : وله - أيضا - إدخال في نار جهنم التي تشوى جسده وتحرقه .

﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾ أي : إن هذا الذي قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - في هذه السورة وغيرها ، لهو الحق الثابت الذي لا يحوم حوله شك أو ريب .

فقوله : ﴿ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أي : لهو اليقين الحق . . .

أو هو من إضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين ، كما في قوله ﷻ : ﴿ مِّنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ق] إذ الحبل هو الوريد ، والقصد من مثل هذا التركيب التأكيد .

ثم ختم ﷻ السورة الكريمة بقوله : ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ أي : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك – أيها الرسول الكريم – فنزه ربك العظيم في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، عن كل ما لا يليق به اهـ (١)

ما يستفاد من لآيات

١- تقرير البعث والجزاء بذكر أحوال الدار الآخرة .

٢- بيان شيء من نعيم أهل الجنة وخاصة السابقين منهم .

٣- بيان أن السابقين يكونون من سائر الأمم المسلمة .

٤- بيان فضل خمر الجنة على خمر الدنيا المحرمة .

٥- تقرير قاعدة أن الجزاء من جنس العمل .

٦- بيان إكرام الله وإنعامه على المؤمنين المتقين .

٧- بيان أن العجوز في الدنيا إذا دخلت الجنة تصير شابة حسناء حوراء عروباً .

٨- تقرير أن ثمن الجنة الإيمان والتقوى فلا دخل للحسب ولا للنسب والأول كالآخر على حد سواء فيها .

٩- بيان أن الله تعالى يقسم بما يشاء من مخلوقاته ، وان العبد لا يقسم إلا بربه تعالى

١٠- تقرير الوحي الإلهي وإثبات النبوة المحمدية ، وأن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى .

١١- وجوب صيانة القرآن الكريم ، وحرمة مسه على غيره طهارة .

١٢- حرمة المداهنة في دين الله تعالى وهي أن يتنازل عن شيء من الدين ليحفظ شيئا من دنياه والمداراة جائزة وهي أن تنازل عن شيء من دنياه ليحفظ شيئاً من دينه .

---

(١) انظر التفسير الوسيط للشيخ سيد طنطاوي لسورة الواقعة الآيات (٨٣ – ٩٦) .

١٣- تقرير عقيدة البعث والجزاء .

١٤- بيان عجز كل الناس أمام قدرة الله تعالى .

١٥- إن في عجز الإنسان على رد روح المحتضر ليعيش بعد ذلك ولو ساعة دليلا على أنه لا إله إلا الله

١٦- بيان فضل السابقين عن أصحاب اليمين .

١٧- مشروعية قول العبد سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وهما من الكلم الطيب وكذا سبحان ربي العظيم حال الركوع . اهـ [١]

---

(١)انظر التفسير الميسر لسورة الواقعة الآيات (٨٣ – ٩٦) .

سُورَةُ الحَدِيدَ

عناصر السورة الرئيسة

هذه السورة بجملتها دعوة للجماعة الإسلامية كي يتحقق في ذاتها حقيقة إيمانها . هذه الحقيقة التي تخلص بها النفوس لدعوة الله؛ فلا تضن عليها بشيء ، ولا تحتجز دونها شيئاً . لا الأرواح ولا الأموال؛ ولا خلجات القلوب ولا ذوات الصدور . . وهي الحقيقة التي تستحيل بها النفوس ربانية بينما تعيش على الأرض . موازينها هي موازين الله ، والقيم التي تعتز بها وتسابق إليها هي القيم التي تثقل في هذه الموازين ....وعلى أساس هذه الحقيقة الكبيرة تدعو السورة الجماعة الإسلامية إلى البذل في سبيل الله . بذل النفس وبذل المال : ﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾

وعلى أساس هذه الحقيقة الكبيرة كذلك تدعو الجماعة الإسلامية إلى الخشوع لذكر الله وللحق الذي أنزله الله ليجيء البذل ثمرة لهذا الخشوع المنبعث من الحقيقة الإيمانية الأولى :

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

وكذلك تضع قيم الدنيا وقيم الآخرة في ميزان الحق؛ وتدعو الجماعة الإسلامية لاختيار

الكفة الراجحة ، والسباق إلى القيمة الباقية : ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ وظاهر من سياق السورة – إلى جانب عمومية الدعوة الدائمة إلى تلك الحقيقة – أنها كانت تعالج كذلك حالة واقعة في الجماعة الإسلامية عند نزول هذه السورة في المجتمع المدني في فترة تمتد من العام الرابع الهجري إلى ما بعد فتح مكة .

فإلى جانب السابقين من المهاجرين والأنصار ، الذين ضربوا أروع مثال عرفته البشرية ، في تحقيق حقيقة الإيمان في نفوسهم ، وفي البذل والتضحية بأرواحهم وأموالهم ، في خلوص نادر ، وتجرد كامل ، وانطلاق من أوهاق الأرض وجوانب الغريزة ومعوقات الطريق إلى الله .

إلى جانب هذه الفئة الممتازة الفذة ، كانت هناك – في الجماعة الإسلامية – فئة أخرى ليست في هذا المستوى الإيماني الخالص الرفيع – وبخاصة بعد الفتح عندما ظهر الإسلام ، ودخل فيه الناس أفواجاً ، وكان من بينهم من لم يدركوا بعد حقيقة الإيمان الكبيرة ، و لم يعيشوا بها ولها كما عاشت تلك الفئة السابقة الخالصة المخلصة لله .

هؤلاء المسلمون من الفئة الأخرى كان يصعب عليهم البذل في سبيل الله؛ وتشق عليهم تكاليف العقيدة في النفس والمال؛ وتزيدهم قيم الحياة الدنيا وزينتها؛ فلا يستطيعون الخلاص من دعائها وإغرائها .

وهؤلاء – بصفة خاصة – هم الذين تهتف بهم هذه السورة تلك الهتافات الموحية التي أسلفنا نماذج منها ، لتخلص أرواحهم من تلك الأوهاق والجواذب ، وترفعها إلى مستوى الحقيقة الإيمانية الكبرى ، التي تصغر معها كل قيم الأرض ، وتذوب في حرارتها كل عوائقها!

كذلك كانت هنالك طائفة أخرى - غير هؤلاء وأولئك - هي طائفة المنافقين ، مختلطة غير متميزة . وبخاصة حين ظهرت غلبة الإسلام ، واضطر المنافقون إلى التخفي والانزواء؛ مع بقاء قلوبهم مشوبة غير خالصة ولا مخلصة يتربصون الفرص وتجرفهم الفتن . وهـؤلاء تصور السورة مصيرهم يوم يميزون ويعزلون عن المـؤمنين :﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾

وهذا إلى جانب من بقي في الجزيرة من أهل الكتاب من اليهود والنصـارى . والسـورة تشير إلى شيء من أحوالهم ومواقفهم السابقة والحاضرة في ذلك الأوان؛ كالإشارة السابقة إلى قسوة قلوبهم عند تحذير الذين آمنوا أن يكونـوا ﴿ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ وهي إشارة إلى اليهود خاصـة في الغالب . . وكالإشارة إلى النصارى قرب نهاية السـورة في قولـه : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ

وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ولما كان مدار السورة على تحقيق حقيقة الإيمان في القلب؛ وما ينبثق عن هذه الحقيقة من خشوع وتقوى ، ومن خلوص وتجرد ، ومن بذل وتضحية ، فقد سارت في إقرار هذه الحقيقة في النفوس التي كانت تواجهها - والتي توجد في كل مجتمع إسلامي - على نسق مؤثر ، أشبه ما يكون بنسق السور المكية ، ...

فيها تعريف به مع الإيحاء الآسر بالخلوص له ، نتيجة للشعور بحقيقة الألوهية المتفـــردة ، وسيطرتها المطلقة على الوجود ، ورجعة كل شيء إليها في نهاية المطاف ، مع نفاذ علمها إلى خبايا القلوب وذوات الصدور ، واتجاه كل شيء إليها بالعبادة والتسبيح : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ﴾ . .

وهذا المطلع بذاته ... كاف وحده ليهز القلوب هزاً . ويوقع فيهـــا الرهبـــة والخشـــية والارتعاش ، كما يوقع فيها الرغبة الحية في الخلوص لله والالتجاء إليه ، والتجـــرد مـــن العوائق والأثقال المعوقة عن تلبية الهتاف إلى الخلاص من الشح بالأنفس والأموال . ولكن سياق السورة تضمن كثيراً من المؤثرات تتخلل ذلك الهتاف وتؤكده في مواضع شـــتى .

كتلك الصورة الوضيئة للمؤمنين والمؤمنـــات ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ وتلـــك الصورة التي تقرر ضآلة الحياة وقيمها إلى جانب قيم الآخرة وما يتم فيها من الأمور الكبار .

كذلك جاءت لمسة أخرى ترد القلوب إلى حقيقة القــدر المسـيطرة علــى الوجــود :

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

كي تستقر النفس وتطمئن لما يصيبها من خير أو شر ، وهي في طريقهــا إلى الله . فلا تطير جزعاً ، ولا تبطر فرحاً ، وهي تواجه الضراء والسراء . ولا تشرك بــالله سبباً ولا ظرفاً ولا حادثاً . فكله بقدر مقسوم لأجل معلوم . ومرد الأمر كلــه في النهاية إلى الله ....اهـــ (١)

شرح الكلمات :

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ : أي نزه الله تعالى جميع مــا في الســموات والأرض بلسان الحال والمقال .

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ : أي في ملكه ، الحكيم في صنعه وتدبيره .

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ : أي يملك جميع ما في السموات والأرض يتصرف كيف يشاء .

﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ﴾ : يحيى بعد العدم ويميت بعد الإيجاد والإحياء .

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ : وهو على فعل كل ما يشاء قدير لا يعجزه شيء .

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ﴾ : أي ليس قبله شيء وهو الآخر الذي ليس بعده شيء .

﴿وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ : أي الظاهر الذي ليس فوقه شيء والباطن الذي ليس دونه شيء .

---

(١) انظر الظلال للأستاذ / سيد قطب مقدمة تفسير سورة الحديد .

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ : أي لا يغيب عن علمه شيء ولو كان مثقال ذرة في السموات والأرض .

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ : أي من أيام الدنيا مقدرة بها ...

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ : أي ارتفع عليه وعلا .

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ : أي ما يدخل في الأرض من كل ما يدخل فيها من مطر وأموات .

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ : أي من نبات ومعادن .

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ : أي من رحمة وعذاب .

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ : أي يصعد فيها من الأعمال الصالحة والسيئة .

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ : أي بعلمه بكم وقدرته عليكم أينما كنتم .

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ : أي لا يخفي عليه من أعماله عباده الظاهرة الباطنة شيء .

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ : أي مرد كل شيء إلى الله خالقه ومدبره يحكم فيه بما يشاء .

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ : أي يدخل جزءاً من الليل في النهار وذلك في الصيف .

﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ : ويدخل جزءاً من النهار في الليل وذلك في الشتاء كما يدخل كامل أحدهما في الآخر فلا يبقى إلا ليل أو نهار إذْ أحدهما دخل في ثانيهما .

﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ : أي ما في الصدور من المعتقدات والأسرار والنيات .

مع الآيات الكريمات:

[يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وسعة سلطانه، أن جميع ما في السـموات والأرض مـن الحيوانات الناطقة والصامتة وغيرها، والجوامد تسبح بحمد رها، وتنـزهه عما لا يليـق بجلاله، وألها قانتة لرها، منقادة لعزته، قد ظهرت فيها آثار حكمته، ولهذا قـال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فهذا فيه بيان عموم افتقار المخلوقات العلوية والسفلية لربهـا، في جميـع أحوالها، وعموم عزته وقهره للأشياء كلها، وعموم حكمته في خلقه وأمره.

ثم أخبر عن عموم ملكه، فقـال: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: هـو الخالق لذلك، الرازق المدبر لها بقدرته ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ الذي ليس قبله شيء، ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ الذي ليس بعده شيء ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ الذي ليس فوقه شيء، ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ الذي ليس دونه شيء. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قد أحـاط علمه بالظواهر والبواطن، والسرائر والخفايا، والأمور المتقدمة والمتأخرة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواء يليق بجلاله، فوق جميع خلقه، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من حب وحيوان ومطر، وغير ذلك. ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وشجر وحيوان وغـير ذلك، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الملائكة والأقدار والأرزاق.

﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ﴾ من الملائكة والأرواح، والأدعية والأعمال، وغير ذلك. ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ كقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾[المجادلة: ٧] وهذه المعية، معية العلم والاطلاع، ولهذا توعد ووعد على المجازاة بالأعمال بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ أي: هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال، وما صدرت عنه تلك الأعمال، من بر وفجور، فمجازيكم عليها، وحافظها عليكم.

﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً، يتصرف فيهم بما شاءه من أوامره القدرية والشرعية، الجارية على الحكمة الربانية، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ من الأعمال والعمال، فيعرض عليه العباد، فيميز الخبيث من الطيب، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ﴾ أي: يدخل الليل على النهار، فيغشيهم الليل بظلامه، فيسكنون ويهدأون، ثم يدخل النهار على الليل، فيزول ما على الأرض من الظلام، ويضيء الكون، فيتحرك العباد، ويقومون إلى مصالحهم ومعايشهم، ولا يزال الله يكور الليل على النهار، والنهار على الليل، ويداول بينهما، في الزيادة والنقص، والطول والقصر، حتى تقوم بذلك الفصول، وتستقيم الأزمنة، ويحصل من المصالح ما يحصل بذلك، فتبارك الله رب العالمين، وتعالى الكريم الجواد، الذي أنعم على عباده بالنعم الظاهرة والباطنة، ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بما يكون في صدور العالمين، فيوفق من يعلم أنه أهل لذلك، ويخذل من يعلم أنه لا يصلح لهدايته اهـ [1]

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص٩٤١ تفسير سورة الحديد الآيات (١ – ٦) ط/ التوفيقية

من مشاهد الآخرة في هذه السورة :

تمهيد :

إن القرآن قد عبَّر عن الهدى والإيمان والقرآن ومطلق الطاعات وهذا النور لا يملكــه إلا مالك الدنيا والآخرة ، فهو يسكبه في قلب من يشاء بحكمته وعلمه ﷻ بناءً على قــدره النافذ قال تعالى : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [النـور: ٣٥] ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور] وعليه فكل امرئ بحسبه في الدنيا والآخرة فمستقل ومستكثر والله لا يضيع جهد العاملين ولا أجر المصلحين فإذا ما خلص العمل أضفى نوراً على قلب المرء وحياته : ﴿ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ويجد هذا النــور في محيــاه وسوف يختم له بإذن الله فللتوحيد إشراق في الوجه عند الموت ثم يكون ذلــك في القــبر نوراً وحبوراً وسروراً ثم عند القيام لــرب العــالمين :﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحديد] أما المنافقون الذين احتالوا ومكروا وخادعوا فإنهم يعاملون من جرَّاء ما قدمت لهم أنفسهم فيحرمون النور ويحجبون عن الله تعالى وذلك أعظم الحرمان فاللهم اجعل لنا نوراً في الدنيا والآخرة .

قــال تعــالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ

ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

الصورة شاخصة بارزة لمن كان له قلب

إنه هتاف موح مؤثر آسر . وهو يقول للعباد الفقراء المحاويج : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ . . وبمجرد تصور المسلم أنه هو الفقير الضئيل يقرض ربه ، كفيل بأن يطير به إلى البذل طيراناً! إن الناس ليتسابقون عادة إلى إقراض الثري المليء منهم -وهم كلهم فقراء- لأن السداد مضمون . ولهم الاعتزاز بأن أقرضوا ذلك الثري المليء! فكيف إذا كانوا يقرضون الغني الحميد؟! ولا يكلهم ﷻ إلى هذا الشعور وحده ، ولكن يعدهم على القرض الحسن ، الخالص له ، المجرد من كل تلفت إلى سواه . يعدهم عليه الضعف في المقدار ، والأجر الكريم بعد ذلك من عند الله : ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ .

ثم يعرض لهم صفحة وضيئة من ذلك الأجر الكريم ، في مشهد من مشاهد اليوم الذي يكون فيه ذلك الأجر الكريم .

والمشهد هنا بإجماله وتفصيله جديد - بين المشاهد القرآنية - وهو من المشاهد التي يحييها الحوار بعد أن ترسم صورها المتحركة رسماً قوياً .

نحن الذين نقرأ القرآن اللحظة نشهد مشهداً عجيباً . هؤلاء هم المؤمنون والمؤمنات نراهم . ولكننا نرى بين أيديهم وبأيمانهم إشعاعاً لطيفاً هادئاً . ذلك نورهم يشع منهم ويفيض بين أيديهم . فهذه الشخوص الإنسانية قد أشرقت وأضاءت وأشعت نوراً يمتد منها فيرى أمامها ويرى عن يمينها . . إنه النور الذي أخرجها الله إليه وبه من الظلمات . والذي أشرق في أرواحها فغلب على طينتها ... ثم ها نحن أولاء نسمع ما يوجه إلى المؤمنين والمؤمنات من تكريم وتبشير ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ . .

ولكن المشهد لا ينتهي عند هذا المنظر الطريف اللطيف . . إن هناك المنافقين والمنافقات ، في حيرة وضلال ، وفي مهانة وإهمال . وهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ . . فحيثما تتوجه أنظار المؤمنين والمؤمنات يشع ذلك النور اللطيف الشفيف . ولكن أنى للمنافقين أن يقتبسوا من هذا النور وقد عاشوا حياتهم كلها في الظلام؟ إن صوتاً مجهلاً يناديهم : ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ . . ويبدو أنه صوت للتهكم ، والتذكير بما كان منهم في الدنيا من نفاق ودس في الظلام : ارجعوا وراءكم إلى الدنيا . إلى ما كنتم تعملون . ارجعوا فالنور يلتمس من هناك . من العمل في الدنيا . ارجعوا فليس اليوم يلتمس النور! وعلى الفور يفصل بين المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات . فهذا يوم الفصل إن كانوا في الدنيا مختلطين في الجماعة : ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ . . ويبدو أنه سور يمنع الرؤية ولكنه لا يمنع الصوت . فها هم أولاء المنافقون ينادون المؤمنين ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾. . فما بالنا نفترق عنكم؟ ألم نكن معكم في الدنيا نعيش في صعيد واحد؟ وقد بعثنا معكم هنا في صعيد واحد؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ كان الأمر كذلك . ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ . . فصرفتموها عن الهدى . ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ . . فلم تعزموا و لم تختاروا الخيرة الحاسمة . ﴿وَٱرْتَبْتُمْ ﴾ . . فلم يكن لكم من اليقين ما تعزمون به العزمة الأخيرة . ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ ﴾ . الباطلة في أن تنجوا وتربحوا بالذبذبة وإمساك العصا من طرفيها! ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾. . وانتهى الأمر . ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾. . وهو الشيطان الذي كان يطمعكم ويمنيكم .

ثم يستطرد المؤمنون في التذكير والتقرير ، كأنما هم أصحاب الموقف المحكومون فيه :

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ أم لعلها كلمة الملأ الأعلى ، أو نطق الله الكريم .أ هـ الظلال

شرح الكلمات :

﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ : أي يتقدمهم نورهم الذي اكتسبوه بالإيمان والعمل الصالح بمسافات بعيدة يضيء لهم الصراط الذي يجتازونه إلى الجنة .

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ : أي تقول لهم الملائكة الذين أعدوا لاستقبالهم بشراكم .﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ : أي النجاة من النار ودخول الجنة وهو الفوز العظيم الذي لا أعظم منه .﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ : أي الذين كانوا يخفون الكفر في نفوسهم ويظهرون الإيمان والإسلام بألسنتهم .﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ : أي أنظروا إلينا بوجوهكم نأخذ من نوركم ما يضيء لنا الطريق .

﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ : أي يقال لهم استهزاءً بهم ارجعوا وراءكم إلى الدنيا حيث يطلب النور هناك بالإيمان وصالح الأعمال بعد التخلي عن الشرك والمعاصي فيرجعون وراءهم فلم يجدوا شيئاً .

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ : أي فضرب بينهم وبين المـ[illegible]ـين بسور عال له باب باطنه الذي هو من جهة المؤمنين الرحمة .

﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ : أي الذي من جهة المنافقين في عرصات القيامة العذاب .

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ : أي ينادي المنافقون المؤمنين قائلين ألم نكن معكم في الدنيا على الطاعات أي فنصلي كما تصلون ونجاهد كما تجاهدون وننفق كما تنفقون .

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ : أي كنتم معنا على الطاعات .

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ : أي بالنفاق وهو كفر الباطن وبغض الإسلام والمسلمين .

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ : أي الدوائر بالمسلمين أي كنتم تنتظرون متى يهزم المؤمنون فتعلنون عن كفركم وتعودون إلى شرككم .

﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ : أي وغركم بالإيمان بالله ورسوله حيث زين لكم الكفر وكره إليكم الإيمان الشيطان .

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ : أي مال تفدون به أنفسكم إذ لا مال يومئذ ينفع ولا ولد .

﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ : أي ولا فدية تقبل من الذين كفروا .

﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ : أي مستقركم ومكان إيوائكم النار وهي أولى بكم لخبث نفوسكم .﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ : أي مصيركم الذي صرتم إليه وهو النار .

معنى الآيات :

قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ هذا الظرف متعلق بقوله ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ في آخر الآية السابقة أي لهم أجر كريم يوم ترى المؤمنين والمؤمنات في عرصات القيامة نورهم الذي اكتسبوه بإيمانهم وصالح أعمالهم في دار الدنيا ذلك النور يمشي أمامهم يهديهم إلى طريق الجنة ، وقد أعطوا كتبهم بأيمانهم . وتقول لهم الملائكة الذين أعدوا لتلقيهم واستقبالهم ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي تجري الأنهار أنهار الماء واللبن والخمر والعسل من خلال الأشجار والقصور ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين أبداً لا يموتون ولا يخرجون . قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ إذ هو نجاة من النار ودخول الجنان في جوار الرحمن . وقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ بدل من قوله يوم ترى المؤمنين والمؤمنات ، والمنافقون والمنافقات وهم الذي كانوا في الحياة الدنيا يخفون الكفر

في أنفسهم ويظهرون الإيمان بألسنتهم والإسلام بجوارحهم يقولون ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا﴾ أي اقبلوا علينا بوجوهكم ذات الأنوار ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي نأخذ من نوركم ما يضيء لنا الطريق مثلكم قيل فيقال لهم استهزاء بهم ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ إشارة إلى أن هذا النور يطلب في الدنيا بالإيمان وصالح الأعمال فيرجعون إلى الوراء وفوراً يضرب بينهم وبين المؤمنين بسور عال ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ﴾ وهو يلي المؤمنين ﴿فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾ وهو يلي المنافقين ﴿مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ فيأخذون في ندائهم ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ على الطاعات أيها المؤمنون فقد كنا نصلي معكم نجاهد معكم وننفق كما تنفقون فيقول لهم المؤمنون ﴿بَلَىٰ﴾ أي كنتم معنا في الدنيا على الطاعات في الظاهر ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بالنفاق ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بنا الدوائر لتعلنوا عن كفركم وتعودوا إلى شرككم ، ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أي شككتم في صحة الإسلام وفي عقائده ومن ذلك البعث الآخر ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ الكاذبة والأطماع في أن محمداً لن ينتصر وأن دينه لن يظهر ، ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بنصر رسوله وإظهار دينه ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي بالإيمان بالله أي بعد معاجلته لكم بالعذاب والستر عليكم وعدم كشف الستار عنكم وإظهاركم على ما أنتم عليه من الكفر ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ أي الشيطان إذ هو الذي زين لكم الكفر وذكركم بعفو الله وعدم مؤاخذته لكم .اهـ [١].

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٣/ ٤٦٤ ، ٤٦٥ لسورة الحديد الآيات (١٢ – ١٥) ط/ دار الحديث .

الطريق إلى النجاة من الخزي في القيامة

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

والمعنى:

لما ذكر حال المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة، كان ذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها، والاستكانة لعظمته، فعاتب الله المؤمنين [على عدم ذلك]، فقال: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي: ألم يجئ الوقت الذي تلين به قلوبهم وتخشع لذكر الله، الذي هو القرآن، وتنقاد لأوامره و زواجره، وما نزل من الحق الذي جاء به محمد ﷺ ؟ وهذا فيه الحث على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى، ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلهية والأحكام الشرعية كل وقت، ويحاسبوا أنفسهم على ذلك، ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ ﴾ أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه، ولا ثبتوا، بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم وزال إيقانهم، ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ فالقلوب تحتاج في كل وقت إلى أن تذكر بما أنزله الله، وتناطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك، فإن ذلك سبب لقسوة القلب وجمود العين.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ فإن الآيات تدل العقول على العلم بالمطالب الإلهية، والذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الأموات بعد موتهم، فيجازيهم بأعمالهم، والذي أحيا الأرض بعد موتها بماء المطر

قادر على أن يحيي القلوب الميتة بما أنزله من الحق على رسوله، وهذه الآية تدل على أنه لا عقل لمن لم يهتد بآيات الله و لم ينقد لشرائع الله.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ بالتشديد أي: الذين أكثروا من الصدقات الشرعية، والنفقات المرضية، ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ بأن قدموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون مدخرا لهم عند رهم، ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ وهو ما أعده الله لهم في الجنة، مما لا تعلمه النفوس.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ والإيمان عند أهل السنة: هو ما دل عليه الكتاب والسنة، هو قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، فالذين جمعوا بين هذه الأمور هم الصديقون أي: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين، ودون مرتبة الأنبياء.

[وقوله] ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾

[٢٦٦] كما ورد في الحديث الصحيح: ((**إن في الجنة مائة درجة، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله**)) وهذا يقتضي شدة علوهم ورفعتهم، وقربهم الله تعالى.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾ فهذه الآيات جمعت أصناف الخلق، المتصدقين، والصديقين، والشهداء، وأصحاب الجحيم، فالمتصدقون الذين كان جل عملهم الإحسان إلى الخلق، وبذل النفع إليهم بغاية ما يمكنهم، خصوصا بالنفع بالمال في سبيل الله.

والصديقون هم الذين كملوا مراتب الإيمان والعمل الصالح، والعلـــم النـــافع، والـــيقين الصادق، والشهداء هم الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمـــة الله ، وبـــذلوا أنفســـهم وأموالهم فقتلوا، وأصحاب الجحيم هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله.

وبقي قسم ذكرهم الله في سورة فاطر، وهم المقتصدون الذين أدوا الواجبـــات وتركـــوا المحرمات، إلا أنهم حصل منهم تقصير ببعض حقوق الله وحقوق عباده، فهـــؤلاء مـــآلهم الجنة، وإن حصل لهم عقوبة ببعض ما فعلوا.

مقارنة بين الدنيا والآخرة

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾

المعنى:

يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، ويبين غايتها وغاية أهلها، بأنها لعـــب ولهـــو، تلعب بها الأبدان، وتلهو بها القلوب، وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا، فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات أعمارهم بلهو القلوب، والغفلة عن ذكر الله وعما أمامهم من الوعد والوعيد، وتراهم قد اتخذوا دينهم لعبا ولهوا، بخلاف أهـــل اليقظـــة وعمـــال الآخرة، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله، ومعرفته ومحبته، وقد أشغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقربهم إلى الله، من النفع القاصر والمتعدي.

وقوله: ﴿وَزِينَةٞ﴾ أي: تزين في اللباس والطعام والشراب، والمراكب والدور والقصـــور والجاه. وغير ذلك﴿وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾ أي: كل واحد من أهلها يريد مفاخرة الآخر، وأن

يكون هو الغالب في أمورها، والـذي لـه الشـهرة في أحوالهـا، ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ أي: كل يريد أن يكون هو الكاثر لغيره في المال والولد، وهـذا مصـداقه، وقوعه من محبي الدنيا والمطمئنين إليها.

بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها، فجعلها معبرا ولم يجعلها مستقرا، فنافس فيما يقربه إلى الله، واتخذ الوسائل التي توصله إلى الله وإذا رأى من يكاثره وينافسه بـالأموال والأولاد، نافسه بالأعمال الصالحة.

ثم ضرب للدنيا مثلا بغيث نزل على الأرض، فاختلط به نبات الأرض مما يأكـل النـاس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وأعجب نباته الكفار، الذين قصـروا همهـم ونظرهم إلى الدنيا جاءها من أمر الله [ما أتلفها] فهاجت ويبست، فعادت علـى حالهـا الأولى، كأنه لم ينبت فيها خضراء، ولا رؤي لها مرأى أنيق، كذلك الدنيا، بينمـا هـي زاهية لصاحبها زاهرة، مهما أراد من مطالبها حصل، ومهما توجه لأمر من أمورها وجد أبوابه مفتحة، إذ أصابها القدر بما أذهبها من يده، وأزال تسلطه عليها، أو ذهب به عنها، فرحل منها صفر اليدين، لم يتزود منها سوى الكفن، فتبا لمن أضحت هي غاية أمنيته ولها عمله وسعيه ؛ وأما العمل للآخرة فهو الذي ينفع، ويُدخر لصاحبه، ويصحب العبد على الأبد، ولهذا قـال تعـالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أي: حـال الآخرة، ما يخلو من هذين الأمرين: إما العذاب الشديد في نار جهنم، وأغلالهـا وسلاسـلها وأهوالها لمن كانت الدنيا هي غايته ومنتهى مطلبه، فتجرأ على معاصي الله، وكذب بآيات الله، وكفر بأنعم الله ؛ وإما مغفرة من الله للسيئات، وإزالة للعقوبات، ورضوان من الله، يحـل من أحله به دار الرضوان لمن عرف الدنيا، وسعى للآخرة سعيها.فهذا كله مما يـدعو إلى الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ أي: إلا متاع يتمتع به وينتفع به، ويستدفع به الحاجات، لا يغتر به ويطمئن إليه إلا أهـل العقول الضعيفة الذين يغرهم بالله الغرور.

ثم أمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته، وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة، من التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبعد عن الذنوب ومظانها، والمسابقة إلى رضـوان الله بالعمـل الصالح، والحرص على ما يرضي الله على الدوام، من الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع، ولهذا ذكر الله الأعمال الموجبة لذلك، فقــال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ والإيمان بالله ورسله يدخل فيه أصول الــدين وفروعهــا، ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي: هذا الذي بيناه لكم، وذكرنا لكم فيه الطرق الموصلة إلى الجنة، والطرق الموصلة إلى النار، وأن فضل الله بالثواب الجزيل والأجر العظيم من أعظم منته على عبــاده وفضــله. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الذي لا يحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليــه أحد من خلقه اهــ[١]

من هداية الآيات :

١- التحذير من الغفلة ونسيان ذكر الله وما عنده من نعيم وما لديه من نكال وعذاب .

٢- وجوب التذكير للمؤمنين والوعظ والإرشاد والتعليم خشية أن تقسوا قلوبهم فيفسقوا كما فسق أهل الكتاب ويكفروا كما كفروا .

٣- تقرير حقيقة وهي أن الأرض تحيا بالغيث والقلوب تحيا بالعلم والمواعظ والتذكير بالله

٤- بيان أصناف المؤمنين ورتبهم وهم المتصدقون والمقرضون في سبيل الله أموالهم والمؤمنين بالله ورسله حق الإيمان والصديقون وشهداء الجهاد في سبيل الله جعلنا الله منهم

٥- التحذير من الاغترار بالحياة الدنيا .

٦- الدعوة إلى المسابقة في طلب مغفرة الذنب ودخول الجنة .

٧- بيان الجنة ما يُكسبها وهو الإيمان بالله ورســله ومســتلزماته مــن التوحيــد والعمـل الصالح .اهــ[٢]

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٩٤٥ لسورة الحديد الآيات (٢٠ – ٢١) .

(٢) انظر أيسر التفاسير للجزائري : ٣/ ٤٧٠ تفسير سورة الحديد الآيات (٢٠ – ٢١) .

سورة المجادلة

البعث وأحوال الناس فيه :

﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾

وقفات مع الآيات :

قوله : ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي ذلك الذي تقدم من بيان حكم الظهار شرعه لكم لتؤمنوا بالله ورسوله إذ الإيمان اعتقاد وقول وعمل ، فطاعة الله ورسوله إيمان ومعصيتهما من الكفران . وقوله تعالى ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي لا تعتدوها بل قفوا عندها وللكافرين بها المتعدين لها عذاب أليم أي ذو ألم موجع جزاء تعديهم حدود الله .اهـ (١)

في سياق السورة توكيد أن الذين يحادون الله ورسوله وهم أعداء الجماعة المسلمة التي تعيش في كنف الله مكتوب عليهم الكبت والقهر في الأرض ، والعذاب المهين في الآخرة ، مأخوذون بما عملوا مما أحصاه الله عليهم ، ونسوه هم وهم فاعلوه! ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ . .

---

(١) انظر أيسر للجزائري : ٣/ ٤٧٨ تفسير سورة المجادلة الآيات (٤ — ٦) .

ثم توكيد وتذكير بحضور الله سبحانه وشهوده لكل نجوى في خلوة ، يحسب أصحابها أنهم منفردون بها . والله معهم أينما كانوا : ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ . . وهي صورة تملأ القلب كذلك بوجود الله وحضوره ، كما تملؤه برقابته واطلاعه .اهـ (١)

المخالفون عقيدة الولاء والبراء وما ينتظرهم في القيامة :

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

شرح الكلمات :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾ : أي ألم تنظر إلى المنافقين الذي تولوا .

﴿قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ : أي اليهود .

﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ : أي ما هم منكم أيها المؤمنون ولا منهم أي من اليهود بل هم مذبذبون .

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ : أي يحلفون لكم أنهم مؤمنون وهم يعلمون أنهم غير مؤمنين .

---

(١) انظر الظلال : ٦/ ٣٥٠٤ في ظلال سورة المجادلة الآيات (٤ — ٧) ط/ دار الشروق .

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ : أي قبح الله عملهم من شدتها .

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ : أي ستراً على أنفسهم وأموالهم فادعوا الإيمان كذباً وحلفوا أنهم مؤمنون وما هم بمؤمنين .

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ : أي فصدوا بتلك الأيمان المؤمنين عن سبيل الله التي هي جهادهم وقتالهم .

﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ : أي يوم يبعثهم من قبورهم يوم القيامة يحلفون لله أنهم كانوا مؤمنين كما يحلفون اليوم لكم أنهم مؤمنون .

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ : أي يظنون في أيمانهم الكاذبة أنهم على شيء من الحق .

﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ : أي غلب عليهم الشيطان .

﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ : فلم يذكروه بألسنتهم إلا تقية ولا يذكرون وعده ولا وعيده .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ : أي أولئك البعداء أتباع الشيطان وجنده .

﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ : أي إن أتباع الشيطان وجنده هم المغبونون الخاسرون في صفقة حياتهم .

معنى الآيات :

في هذه الأيام التي نزلت فيها هذه السورة كان النفاق بالمدينة بالغاً أشده ، وكان اليهود كذلك كثيرين ومتحزبين ضد الإسلام والمسلمين وذلك قبل إجلائهم من المدينة ففي هذه الآية يحذر الله تعالى رسوله والمؤمنين من العدوين معاً ويكشف الستار عنهم ليظهرهم على حقيقتهم ليحذرهم المؤمنين[1] فيقول تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي تنظر يا رسولنا إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم وهم اليهود تولاهم المنافقون ولاية نصرة وتحزب ضد

(١) لعله (أي يحذر المؤمنين منهم) .

الرسول والمؤمنين . يقول تعالى هؤلاء المنافقون ما هم منكم أيها المؤمنون ولا منهم من اليهود بل هم مذبذبون حيارى يترددون بينكم وبين اليهود معكم في الظاهر ومع اليهود في الباطن .

وقوله تعالى : ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي أنهم كاذبون إذ كانوا يأتون رسول الله ويحلفون له أنهم مؤمنون به وبما جاء به وهم يعلمون أنهم كاذبون إذ هم غير مؤمنين به ولا مصدقين . فتوعدهم الله ﷻ بقوله : ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي هيأ لهم وأحضروه وذلك يوم القيامة ، وندد بصنيعهم وقبح سلوكهم بقوله إنهم ساء ما كانوا يعملون ولذا أعد لهم العذاب الشديد لسوء سلوكهم وقبح أعمالهم .

وقوله تعالى : ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾ أي اتخذ هؤلاء المنافقون أيمانهم التي يحلفونها لكم بأنهم مؤمنون وما هم بمؤمنين اتخذوها ستارة ووقاية يقون بها أنفسهم من القتل وأموالهم من الأخذ فصدوا بتلك الأيمان الكاذبة المؤمنين عن سبيل الله التي هي قتالهم لأنهم كفار مشركون يجب قتالهم حتى يدخلوا في دين الله أو يهلكوا لأنهم ليسوا أهل كتاب فتقبل منهم الجزية .اهـ(١)

وقوله تعالى ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي يوم القيامة يهانون ويذلون به .

وقوله تعالى ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ﴾ أي يوم القيامة أموالهم التي يجمعونها ويتمتعون بها اليوم كما لا تغني عنهم أولادهم الذين يعتزون بهم من الله شيئاً من الإغناء فلا تقبل منهم فدية فيفتدون بأموالهم ولا يطلبون من أولادهم نصرة فينصرونهم . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون لا يخرجون منها ولا يموتون فيها ولا يحيون .

وقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ إي اذكر يا رسولنا يوم يبعثهم الله جميعاً في عرصات القيامة فيحلفون له أنهم كانوا مؤمنين كما يحلفون لكم اليوم أنهم مؤمنون . ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾

---

(١) أيسر التفاسير:٣/ ٤٨٥ ، ٤٨٦ تفسير سورة المجادلة الآيات (١٥ – ١٩) .

أي يظنون أنهم على شيء من الصواب والحق ﴿شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝١٨ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي غلب عليهم ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ فلا يذكرونه إلا قليلاً كما أنساهم ذكر وعده ووعيده فلذا هم لا يرغبون فيما عنده ولا يرهبون مما لديه. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي أتباعه وجنده. ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي أتباعه وجنده ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي المغبونون في صفقتهم في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة.

من هداية الآيات:

١- حرمة موالاة اليهود.

٢- حرمة الحلف على الكذب وهي اليمين الغموس.

٣- من علامات استحواذ الشطيان على الإنسان تركه لذكر الله بقلبه ،نفس المصدر(١).

[ثم يعود السياق إلى المنافقين الذين يتولون اليهود، فيصور بعض أحوالهم ومواقفهم، ويتوعدهم بافتضاح أمرهم، وسوء مصيرهم، وانتصار الدعوة الإسلامية وأصحابها على الرغم من كل تدبيراتهم.

* وهذه الحملة القوية على المنافقين الذين يتولون قوماً غضب الله عليهم وهم اليهود تدل على أنهم كانوا يمعنون في الكيد للمسلمين، ويتآمرون مع ألد أعدائهم عليهم؛ كما تدل على أن سلطة الإسلام كانت قد عظمت، بحيث يخافها المنافقون، فيضطرون عندما يواجههم رسول الله ﷺ والمؤمنون بما يكشفه الله من تدبيراتهم ومؤامراتهم إلى الحلف بالكذب لإنكار ما ينسب إليهم من مؤامرات وأقوال؛ وهم يعلمون أنهم كاذبون في هذه الأيمان. إنما هم يتقون بأيمانهم ما يتوقعونه من مؤاخذتهم بما ينكشف من دسائسهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ أي وقاية. وبذلك يستمرون في دسائسهم للصد عن سبيل الله!

---

(١) أيسر التفاسير: ٣/ ٤٨٧ ط/ دار الحديث.

والله يتوعدهم مرات في خلال هذه الآيات : ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ . . ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ . . ﴿ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ . .

ويصور مشهدهم يوم القيامة في وضع مزر مهين ، وهم يحلفون لله كما يحلفون للنـاس : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ ﴾ . . مما يشير إلى أن النفاق قد تأصـل في كيانهم ، حتى ليصاحبهم إلى يوم القيامة . وفي حضرة الله ذي الجلال . الـذي يعلـم خفايا القلوب وذوات الصدور! ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ﴾ .اهـ (١)

وقفة مع قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ .

ألم يأن لنا كمسلمين أن ننظر في هذه الآيات مستحضرين هذه المشاهد الشاخصة ، وأن القيامة لا مفر منها ولا محيد عنها ، ثم ننظر إلى أعمالنا وأقوالنا وجوارحنا وتصوراتنا فترد ذلك كله بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ فلا نظلم أنفسنا ، ونعرضها للإهانة في القيامـة والطريق طويل والخطر دائم والأمر مخوف والزاد قليل ، وآه من طول الطريق وقلة الـزاد إنك إن أخفيت الأعمال الطالحة عن العباد فكيف برب العباد ، إن أناساً ذكر الله حالهم يوم القيامة أنهم نسوا أعمالهم ولكن الله لا ينسـى ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ [مريم] ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ ﴾ [المجادلة: ٦] ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾ [مريم] ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف]

فخفف الحمل واستغفر من الذنب ، وتب إلى ربك وأقبل عليه حتى لا تثقل أوزارك على كاهلك فتسقطك في نار تلظى : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [القمر]

---

(١)انظر الظلال : ٦/ ٣٥١٣ في ظلال سورة المجادلة الآيات (١٥ – ١٩) ط/ دار الشروق .

سُورَةُ الصف

بين يدي السورة

هذه السورة تستهدف أمرين أساسيين واضحين في سياقها كل الوضوح ، إلى جانب الإشارات والتلميحات الفرعية التي يمكن إرجاعها إلى هذين الأمرين الأساسيين :

تستهدف أولاً أن تقرر في ضمير المسلم أن دينه هو المنهج الإلهي للبشرية في صورته الأخيرة ، سبقته صور منه تناسب أطواراً معينة في تاريخ البشرية ، وسبقته تجارب في حياة الرسل وحياة الجماعات ، تمهد كلها لهذه الصورة الأخيرة من الدين الواحد ، الذي أراد الله أن يكون خاتمة الرسالات . وأن يظهره على الدين كله في الأرض . .

ومن ثم يذكر رسالة موسى ليقرر أن قومه الذين أرسل إليهم آذوه وانحرفوا عن رسالته فضلوا ، ولم يعودوا أمناء على دين الله في الأرض : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ . . وإذن فقد انتهت قوامة قوم موسى على دين الله؛ فلم يعودوا أمناء عليه ، مذ زاغوا فأزاغ الله قلوبهم ، ومذ ضلوا فأضلهم الله والله لا يهدي القوم الفاسقين .

ويذكر رسالة عيسى ليقرر أنه جاء امتداداً لرسالة موسى ، ومصداقاً لما بين يديه من التوراة ، وممهداً للرسالة الأخيرة ومبشراً برسولها؛ ووصلة بين الدين الكتابي الأول والدين الكتابي الأخير : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ ﴾ . . وإذن فقد جاء ليسلم أمانة الدين الإلهي التي حملها بعد موسى إلى الرسول الذي بشر به .

وكان مقرراً في علم الله وتقديره أن تنتهي هذه الخطوات إلى قرار ثابت دائم . وأن يستقر دين الله في الأرض في صورته الأخيرة علي يدي رسـوله الأخـير ﷺ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .

هذا الهدف الأول الواضح في السورة يقوم عليه الهدف الثاني . فإن شعور المسـلم بهـذه الحقيقة ، وإدراكه لقصة العقيدة ، ولنصيبه هو من أمانتها في الأرض . . يستتبع شـعوره بتكاليف هذه الأمانة شعوراً يدفعه إلى صدق النية في الجهاد لإظهار دينه على الدين كلـه كما أراد الله وعدم التردد بين القول والفعل؛ ويقبح أن يعلن المؤمن الرغبة في الجهـاد ثم ينكص عنه ، كما يبدو أنه حدث من فريق من المسلمين كما تذكر الروايات . . ومن ثم يجيء في مطلع السورة بعد إعلان تسبيح الكون وما فيـه لله . . ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾

ثم يدعوهم في وسط السورة إلى أربح تجارة في الدنيا والآخـرة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

ثم يختم السورة بنداء أخير للذين آمنوا ، ليكونوا أنصار الله كما كان الحواريون أصحاب عيسى أنصاره إلى الله ، على الرغم من تكذيب بني إسرائيل بـه وعـدائهم لله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ

قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ . .

هذان الخطان واضحان في السورة كل الوضوح ، يستغرقان كل نصوصه تقريباً . فلا يبقى إلا التنديد بالمكذبين بالرسالة الأخيرة وهذه قصتها وهذه غايتها وهذا التنديد متصل دائماً بالخطين الأساسيين فيها . وذلك قول الله تعالى ، عن رسول الله ﷺ بعد ذكر تبشير عيسى عليه السلام به : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ .

وفيه يتضح في ضمير المسلم أن دينه هو دين الله في صورته الأخيرة في الأرض؛ وأن أمانة العقيدة في البشرية كلها موكولة إليه؛ يعلم أنه مكلف أن يجاهد في سبيل الله ، كما يحب الله؛ ويتضح طريقه ، فلا يبقى في تصوره غبش ، ولا يبقى في حياته مجال للتمتمة والغمغمة في هذه القضية ، أو للتردد والتلفت عن الهدف المرسوم والنصيب المقسوم في علم الله وتقديره منذ بعيد .

وفي أثناء توجيهه إلى هذا الهدف الواضح يوجه كذلك إلى خلق المسلم وطبيعة ضميره . وهو أن لا يقول ما لا يفعل ، وألا يختلف له قول وفعل ،اهـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ .

شرح الكلمات :

﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ : أي أرشدكم إلى تجارة رابحة .

﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ : أي الربح فيها هو نجاتكم من عذاب مؤلم يتوقع لكم .

﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ : أي تصدقون بالله ربّاً وإلهاً وبمحمد نبياً ورسولاً لله تعالى .

﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ : أي وتبذلون أموالكم وأرواحكم جهاداً في سبيل الله تعالى .

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ : أي الدخول في هذه الصفقة التجارية الرابحة خير لكم من تركها حرصاً على بقائكم وبقاء أموالكم مع أنه لا بقاء لشيء في هذه الدار .

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ﴾ : أي هذا هو الربح الصافي مقابل ذلك الثمن الذاهب الزائل .

﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ : الذي هو المال والنفس مع أن الكل لله تعالى واهبكم أنفسكم ومساكن طيبة في جنات عدن . .

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ : أي النجاة من عذاب النار الأليم ثم دخول الجنة والظفر بما فيها من النعيم المقيم هو حقاً الفوز العظيم .

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ : أي وعلاوة أخرى تحبونها قطعاً إنها نصر من الله لكم ولدينكم ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ وفتح قريب للأمصار والمدن ، وما يتبع ذلك من رفعة وسعادة وهناء .

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ : أي وبشر يا رسولنا المؤمنين الصادقين بذاك الفوز وهذه العلاوة .

﴿كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ : أي لتنصروا دينه ونبيه وأولياءه .

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ : أي فكونوا أنتم أيها المؤمنون مثل الحواريين ، والحواريون هم أصحاب عيسى وهم أول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً .

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ : بعيسى عليه السلام ، وقالوا إنه عبد الله رفع إلى السماء .

﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ : أي من بني إسرائيل فقالوا إنه ابن الله رفعه إليه .

﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ : فاقتتلت الطائفتان : فنصرنا وقوينا الذين آمنوا .

﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ : أي غالبين عالين .

معنى الآيات :

قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠)﴾ أي يا من صدقتم الله ورسله هل لنا أن ندلكم على تجارة عظيمة الربح ثمرتها النجاة من عذاب أليم في الدنيا والآخرة . وقوله ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ هذا هو رأس المال الذي تقدمونه . إيمان بالله ورسوله حق الإيمان ، جهاد لله بالنفس والمال وأنبه إلى أن هذه الصفقة التجارية خير لكم من عدمها إن كنتم تعلمون ربحها وفائدتها .

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إنها النجاة من العذاب الدنيوي والأخروي أولاً ، ثم مغفرة ذنوبكم وإدخالكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، أي من تحت قصورها وأشجارها ، ومساكن طيبة في جنات عدن أي إقامة دائمة . ثانياً ثم زاد الحق في ترغيبهم فقال ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ إنه النجاة من النار ، ودخول الجنة ، فلا فوز أعظم منه قط هذا ولكم علاوة على ذلك الربح العظيم وهي ما أخبر تعالى عنها بقوله : ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أي وفائدة أخرى تحبونها : ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي لكم على أعدائكم ولدينكم على سائر الأديان ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ لمكة ولباقي المدن والقرى في الجزيرة وما وراءها .اهـ[1]

وبعد إن حث الله تعالى على الجهاد في سبيله ، ونهى المسلمين أن يكونوا مثلَ قوم موسى أو قوم عيسى – بيّن هنا أن الإيمان بالله والجهادَ في سبيله بالمال والنفس تجارةٌ رابحة ، لأن

(١) انظر أيسر التفاسير للجزائري : ٣/ ٥١٩ تفسير سورة الصف الآيات (١٠ – ١٤) ط/ دار الحديث .

المجاهدين ينالون الفوز بالدنيا ، فيظفر واحدهم بالنصر والغنائم وكرائمِ الأموال والثوابَ العظيم في الآخرة إذ يحظى بالغفران ، ورضوان الله ، والخلود في جنات عدن .

فهذه هي التجارة الرابحة ، الثبات على الإيمان بالله ورسوله ، والجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، وذلك هو الخير العظيم ، ثم يتبعه الغفران ، والخلود ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ وأيّ فوز أعظم من هذا !!

ثم أتبع ذلك كله ببشرى عظيمة يحبها المؤمنون وينتظرونها وهي : ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ نعمة كبرى تحبونها : النصر من الله ، وفتح مكة . وهو آت قريب . وقد أنجز الله وعده .

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يا محمد بهذه النعم ، وان الله تعالى نصرَهم لأنهم آمنوا حقيقة ، وجاهدوا جهاداً كبيرا و لم ينتظروا من أحدٍ أن يساعدَهم وهم قاعدون . . كما يفعل العرب والمسلمون اليوم .

ثم أمر الله تعالى المؤمنين أن يعملوا ويجدّوا ويكونوا أنصار الله في كل حين ، فلا يتخاذلوا ولا يتناحروا ويتحاربوا ، وان لا يتواكلوا فيقعدوا ويطلبوا النصر ، بل عليهم أن يعملوا ويجاهدوا حتى يكتب الله لهم النصر . فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ فاستعدّوا وأعدّوا من قوتكم ما استطعتم ، ولا تنتظروا من أعدائكم أن يحلّوا لكم قضيتكم وينصروكم وكيف ينصرونكم والبلاء منهم ، وهم الذين يدعمون عدوكم ويمدّونه بالمال والسلاح !!

وخلاصة القول : كونوا أنصار الله في جميع أعمالكم وأقوالكم واستعدّوا دائما ، كما استجاب الحواريّون لعيسى .

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾

وانتم أيها المسلمون في هذا العصر إذا كنتم تريدون أن تبقوا في بلادكم وأن تستردوا

الأراضي المقدسة وما اغتُصب من وطنكم ، على يد اليهود والدولة الكـبرى حليفتـهم والمؤيدة لهم - فجاهدوا جهاداً حقيقيا في سبيل الله ينصركم الله ، وتصـبحوا ظـاهرين غالبين .اهـ [١]

من هداية الآيات :

١- فضل الجهاد بالمال والنفس وأنه أعظم تجارة رابحة .

٢- تحقيق بشرى المؤمنين التي أمر الله رسوله أن يبشرهم بها فكان هذا برهاناً على صحة الإسلام وسلامة دعوته .

٣- بيان استجابة المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ لما طلب منهم من نصرة رسول الله ﷺ ودينه والمؤمنين معه . وهي نصرة الله تعالى المطلوبة .اهـ [٢]

---

(١) انظر تفسير القطان ، تفسير سورة الصف الآيات (١٠ – ١٤) .

(٢) انظر أيسر التفاسير للجزائري : ٣/ ٥٢٠ تفسير سورة الصف الآيات (١٠ – ١٤) .

سُورَةُ التغابن

بين يدي السورة الكريمة :

هذه السورة أشبه شيء بالسور المكية في موضوعها وفي سياقها وفي ظلالها وإيحاءاتها ، وبخاصة المقاطع الأولى منها . فلا يكاد الجو المدني يتبين إلا في فقراتها الأخيرة .

والفقرات الأولى إلى ابتداء النداء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾. تستهدف بناء أسس العقيدة ، وإنشاء التصور الإسلامي في القلوب بأسلوب السور المكية التي تواجه الكفار المشركين ابتداء . وتخاطبهم بهذا التصور خطاب المبتدئ في مواجهته . ثم هي تستخدم المؤثرات الكونية والنفسية كما تستعرض مصائر الغابرين من المكذبين قبلهم؛ وتعرض عليهم مشاهد القيامة لإثبات البعث ، وتوكيده توكيداً شديداً ، يدل على أن المخاطبين به من المنكرين الجاحدين .

فأما الفقرات الأخيرة فهي تخاطب الذين آمنوا بما يشبه خطابهم في السور المدنية ، لحثهم على الإنفاق ، وتحذرهم فتنة الأموال والأولاد . وهي الدعوة التي تكررت نظائرها في العهد المدني بسبب مقتضيات الحياة الإسلامية الناشئة فيها . كما أن فيها ما قد يكون تعزية عن مصاب أو تكاليف وقعت على عاتق المؤمنين ، ورد الأمر فيها إلى قدر الله ، وتثبيت هذا التصور . . وهو ما يتكرر في السور المدنية وبخاصة بعد الأمر بالجهاد وما ينشأ عنه من تضحيات .

ولقد وردت روايات أن السورة مكية ، ووردت روايات أخرى أنها مدنية مع ترجيحها . وكدت أميل إلى اعتبارها مكية تأثراً بأسلوب الفقرات الأولى فيها وجوها . ولكني أبقيت اعتبارها مدنية مع الرأي الراجح فيها لأنه ليس ما يمنع أن تكون الفقرات الأولى فيها خطاباً للكفار بعد الهجرة سواء كانوا كفار مكة أم كفار القريبين من المدينة . كما أنه

ليس ما يمنع أن يستهدف القرآن المدني في بعض الأحيان جلاء أسس العقيدة ، وإيضاح التصور الإسلامي ، هذا الأسلوب الغالب على أسلوب القرآن المكي . . والله أعلم . .

والمقطع الأول في السورة يستهدف بناء التصور الإيماني الكوني ، وعرض حقيقة الصلة بين الخالق سبحانه وهذا الكون الذي خلقه . وتقرير حقيقة بعض صفات الله وأسمائه الحسنى وأثرها في الكون وفي الحياة الإنسانية :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾

وهذا التصور الكوني الإيماني هو أدق وأوسع تصور عرفه المؤمنون في تاريخ العقيدة . ولقد جاءت الرسالات الإلهية كلها بوحدانية الله ، وإنشائه لهذا الوجود ولكل مخلوق ، ورعايته لكل كائن في الوجود . . لا نشك في هذا لأن القرآن يحكيه عن الرسل وعن الرسالات كلها . ولا عبرة بما نجده في الكتب المفتراة والمحرفة؛ أو فيما يكتبه عن الديانات المقارنة أناس لا يؤمنون بالقرآن كله أو بعضه ...... ومن شأن هذا التصور أن يدرك القلب البشري بمقدار ما يطيق حقيقة الألوهية وعظمتها ، ويشعر بالقدرة الإلهية ويراها في آثارها المشهودة في الكون ، ويحسها في ذوات الأنفس بآثارها المشهودة والمدركة؛ ويعيش في مجال هذه القدرة وبين آثارها التي لا تغيب عن الحس والعقل والإلهام . ويراها محيطة بكل شيء ، مهيمنة على كل شيء ، مدبرة لكل شيء ، حافظة لكل شيء ، لا يند عنها شيء . سواء في ذلك الكبير والصغير والجليل والحقير .

ومن شأنه كذلك أن يعيش القلب البشري في حساسية مرهفة ، وتوفز دائم ، وخشية وارتقاب ، وطمع ورجاء؛ وأن يمضي في الحياة معلقاً في كل حركة وكل خالجة بالله ،

شاعراً بقدرته وهيمنته ، شاعراً بعلمه ورقابته ، شاعراً بقهره وجبروته ، شاعراً برحمته وفضله ، شاعراً بقربه منه في كل حال .

وأخيراً فإن من شأنه أن يحس بالوجود كله متجهاً إلى خالقه فيتجه معه ، مسبحاً بحمد ربه فيشاركه تسبيحه ، مدبراً بأمره وحكمته فيخضع لشريعته وقانونه . . ومن ثم فهو تصور إيماني كوني بهذا المعنى ، وبمعان أخرى كثيرة تتجلى في المواضع المتعددة في القرآن التي تضمنت عرض جوانب من هذا التصور الإيماني الشامل الكامل المحيط الدقيق .

وأقرب مثل منها ما ورد في ختام سورة الحشر ، في هذا الجزء .

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ﴾ فكل ما في السماوات والأرض متوجه إلى ربه ، مسبح بحمده؛ وقلب هذا الوجود مؤمن ، وروح كل شيء في هذا الوجود مؤمنة ، والله مالك كل شيء . وكل شيء شاعر بهذه الحقيقة . والله محمود بذاته ممجّد من مخلوقاته . فإذا وقف الإنسان وحده في خضم هذا الوجود الكبير كافر القلب جامد الروح ، متمرداً عاصياً ، لا يسبح لله ، ولا يتجه إلى مولاه ، فإنه يكون شاذاً بارز الشذوذ ، كما يكون في موقف المنبوذ من كل ما في الوجود ..... والمقطع الثالث بقية للمقطع الثاني يحكي تكذيب الذين كفروا بالبعث وظاهر أن الذين كفروا هم المشركون الذين كان الرسول ﷺ يواجههم بالدعوة وفيه توجيه للرسول أن يؤكد لهم أمر البعث توكيداً وثيقاً . وتصوير لمشهد القيامة ومصير المكذبين والمصدقين فيه؛ ودعوة لهم إلى الإيمان والطاعة ورد كل شيء لله فيما يقع لهم في الحياة .اهـ [(١)]

وبعد هذه الدعوة يعود إلى استكمال مشهد البعث الذي أكده لهم أوثق توكيد :

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ . .

فأما أنه يوم الجمع فلأن جميع الخلائق في جميع الأجيال تبعث فيه ، كما يحضره الملائكة وعددهم لا يعلمه إلا الله . ولكن قد يقربه إلى التصور ؛

---

(١) انظر الظلال : ٦/ ٣٥٨٣ ، ٣٥٨٤ في ظلال سورة التغابن الآيات (١ – ٤) ط/ دار الشروق .

[٢٦٧] ما جاء في حديث أبي ذرٍّ قال : قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنِّي أرَى مَا لاَ تَـرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لاَ تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقٌّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَـابِعَ إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ ». لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ.(١)

والسماء التي ليس فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك . هي هذا الاتساع الهائل الذي لا يعرف له البشر حدوداً . والذي تبدو فيه شمس كشمسنا ذرة كالهبـاءة الطـائرة في الفضاء! فهل هذا يقرب شيئاً للتصور البشري عن عدد الملائكة ؟ إنهم من يين الجمـع في يوم الجمع!

وفي مشهد من هذا الجمع يكون التغابن! والتغابن مفاعلة من الغبن . وهو تصوير لما يقـع من فوز المؤمنين بالنعيم؛ وحرمان الكافرين من كل شيء منه ثم صيرورتهم إلى الجحـيم . فهما نصيبان متباعدان .

---

(١) حسن: هكذا أخرجه أحمد (٥ / ١٧٣) مصرحا بأن قوله : ((و الله لوددت ...)) من قـول أبي در ورواه البخاري [الفتح] مختصراً من حديث أبي هريرة : ١١/ ٣٥١ ك/ الرقاق ب/ قول النبي ﷺ : ((لـو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً)) ح/ ٦٤٨٥ .ورواه الحاكم في " المستدرك " (٢ / ٥١٠) ح/ ٣٨٨٣ و انظر سنن الترمذي ك/ الزهد عن رسول الله ﷺ ب/ في قول النبي ﷺ : ((لو تعلمون ما أعلـم لضحكتم قليلاً)) ح/ ٢٣١٢ ورواه ابن ماجة في سننه : ٤/ ٢٤١ ك/ الزهد ب/ الحزن والبكاء ح/ ٤١٩٠ وذكره الألباني في الصحيحة : ٢٩٩/٤ وقال الألباني حديث حسن . وهذا لفظ الترمذي .

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾

شرح الكلمات :

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾ : أي قالوا كاذبين إنهم لن يبعثوا أحياء من قبورهم .

﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ : قل لهم يا رسولنا بلى لتبعثن ثم تنبئون بما عملتم .

﴿وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ : أي وبعثكم وحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم شيء يسير على الله

﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ : أي وآمنوا بالقرآن الذي أنزلناه .

﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ : أي يوم القيامة إذ هو يوم الجمع .

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ : أي يغبن المؤمنون الكافرين يأخذ منازل الكفار في الجنة واخذ الكفار منازل المؤمنين في النار .

﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: أي تكفيره تعالى عنهم سيئاتهم وإدخالهم جنات تجرى من تحتها الأنهار هو الفوز العظيم .

﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ : أي قبح المصير الذي صاروا إليه وهو كونهم أهلاً للجحيم[1] .

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري : ٣/ ٥٣٥ تفسير سورة التغابن الآيات (٧-١٠) ط/ دار الحديث .

مع الآيات تحليلياً:

ما زال السياق الكريم في مطلب هداية قريش إنه بعد أن ذكرهم بمصير الكافرين من قبلهم وفي ذلك دعوة واضحة لهم إلى الإيمان بتوحيد الله وتصديق رسوله . دعـاهم هنـا إلى الإيمان بأعظم أصل من أصول الهداية البشرية وهو الإيمان بالبعث والجزاء وهم ينكـرون ويجاحدون ويعاندون فيه فقال في أسلوب غير المواجهة بالخطاب زعـم الـذين كفـروا والزعم ادعاء باطل وقول إلى الكذب أقرب منه إلى الصدق . أن لن يبعثوا أي أنهـم إذا ماتوا لن يبعثوا أحياء يوم القيامة .

قل لهم يا رسولنا : ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ ولازم ذلك الجزاء العادل علـى كل أعمالكم وهي أعمال فاسدة غير صالحة مقتضية للعذاب والخزي في جهـنم ﴿ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أي وأعلمهم أن بعثهم وتنبئهم بأعمالهم وإثابتهم عليها أمر سهل هين لا صعوبة فيه وبعد هذه اللفتة اللطيفة دعاهم دعوة كريمة إلى طريق سعادتهم ونجاتهم فقـال عز وجل : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي صدقوا بتوحيد الله وبنبوة رسوله وبالنور الـذي أنزلنا وهو القرآن الكريم ، واعملوا الصالحات وتباعدوا عن السيئات ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي وسيجزيكم بأعمالكم . وذلـك ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ وهـو يـوم القيامة ويجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها ذلك يوم التغابن الحقيقي حيث يرث أهل الجنة منازل أهل النار في الجنة ويرث أهل النار منازل أهل الجنة في النار ، وهذا قـائم علـى أساس أن الله تعالى أوجد لكل إنسان منزلاً في الجنة وآخر في النار ، فمن آمـن وعمـل صالحا دخل الجنة وحاز منزله ومنزل إنسان آخر هو في النار فحصل بذلك الغبن بينه وبين من هو في النار قد ورث منزله فيها وبعد هذا الدعاء الخاص الموجه إلى كفار قريش قـال ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبـداً ذلك الفوز العظيم لأنه ناج من النار ودخول الجنة هذا وعده الصادق لمن آمـن وعمـل

صالحاً ، وقال : والتكذيب مانع من العمل الصالح قطعـاً إذاً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ النار والخلود فيها هذا وعيده تعالى المقابل لوعده السـابق اللهم اجعلنا من أهل وعدك ولا تجعلنا من أهل وعيدك يا واسع الفضل يا رحمن[1] .

من هداية الآيات :

١- تقرير البعث والجزاء .

٢- تقرير التوحيد والنبوة .

٣- بيان كون القرآن نوراً فلا هداية في هذه الحياة إلا به فمن طلبها في غيره ما اهتدى .

٤- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح وبيان أنهما مفتاح دار السلام .

٥- التحذير من الكفر والتكذيب بالقرآن وشرائعه وأحكامه فان ذلك يقود إلى النار .

قريش وإنكار البعث :

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾

هذا ضرب ثالث من ضروب كفر المشركين المخاطبين بقوله : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ الخ ، وهو كفرهم بإنكارهم البعث والجزاء .

والجملة ابتدائية . وهذا الكلام موجه إلى النبي ﷺ بقرينة قوله : ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ . وليس هـذا من الإظهار في مقام الإضمار ولا من الالتفات بل هو ابتداء غرض مخاطبٍ به غيرُ مـن كان الخطاب جارياً معهم .

وتتضمن الجملة تصريحاً بإثبات البعث ذلك الذي أوتي إليه فيما مضى يفيد بالحق في قوله : ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ وبقولـه : ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كمـا علمته آنفاً .

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري . ٣/ ٥٣٦ ، ٥٣٧ تفسير سورة التغابن الآيات (٧-١٠)

والزعم : القول الموسوم بمخالفة الواقع خطأ فمنه الكذب الذي لم يتعمد قائله أن يخالف الواقع في ظن سامعه . ويطلق على الخبر المستغرب المشكوك في وقوع ما أُخبر به ، وعن شُريح : لكل شيء كنية وكنية الكذب زعموا (أراد بالكنية الكناية) . فبَيْن الزعم والكذب عموم وخصوص وجهي .

وفي الحديث «بئس مطية الرجل إلى الكذب زعموا» ، أي قول الرجل زعموا كذا .

وروى أهل الأدب أن الأعشى لما أنشد قيس بن معد يكرب الكِندي قوله في مدحه :

ونبئتُ قيساً ولم أبلُه ... كما زَعموا خيرَ أهل اليمن

غضب قيس وقال له : «وما هو إلا الزعم» .

ولأجل ما يصاحب الزعم من توهم قائله صدق ما قاله أُلحق فعلُ زعم بأفعال الظن فنصب مفعولين . وليس كثيراً في كلامهم ، ومنه قول أبي ذؤيب :

فإن تزعميني كنتُ أجهلُ فيكم ... فإني شَرَيْتُ الحِلم بَعدَكِ بالجهل

ومن شواهد النحو قول أبي أمية أوس الحنفي: ... زعمتْني شيخاً ولستُ بشيخ إنما الشيخ من يَدبّ دبيباً ... والأكثر أن يقع بعد فعل الزعم (أنّ) المفتوحة المشددة أو المخففة مثل التي في هذه الآية فيسد المصدرُ المنسبك مسدّ المفعولين . والتقدير : زعم الذين كفروا انتفاء بعثهم ....والمراد ب ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ هنا المشركون من أهل مكة ومن على دينهم واجتلاب حرف ﴿لَّن﴾ لتأكيد النفي فكانوا موقنين بانتفاء البعث .

ولذلك جيء إبطال زعمهم مؤكّداً بالقَسَم لينقض نفيهم بأشد منه ، فأُمر النبي ﷺ بأن يبلغهم عن الله أن البعث واقع وخاطبهم بذلك تسجيلاً عليهم أن لا يقولوا ما بلغناه ذلك

وجملة ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ معترضة بين جملة ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ وجملة ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾

وحرف ﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب للإبطال خاصٍ بجواب الكلام المنفي لإبطاله ؛ وجملة ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ ارتقاء في الإبطال .و ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الرتبي فإن إنباءهم بما عملوا أهم من إثبات البعث . اهـ (١)

* والإنباء : الإخبار ، وإنباؤهم بما عملوا كناية عن محاسبتهم عليه وجزائهم عما عملوه ، فإن الجزاء يستلزم علم المجازَى بعمله الذي جوزي عليه فكانَ حصول الجزاء بمنزلة إخباره بما عمله كقوله تعالى : ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ [لقمان : ٢٣] .

وهذا وعيد وتهديد بجزاء سَيِّءٍ لأن المقام دليل على أن عملهم سَيء وهو تكذيب الرسول ﷺ وإنكار ما دعاهم إليه ؛ وجملة ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ تذييل ، والواو اعتراضية .

واسم الإشارة : إما عائد إلى البعث المفهوم من ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ مثل قوله : ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة : ٨] أي العدل أقرب للتقوى ، وإما عائد إلى معنى المذكور من مجموع ﴿لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ .

وأخبر عنه ب ﴿يَسِيرٌ﴾ دون أن يقال : وَاقِـع كما قال : ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾ [الذاريات] ، لأن الكلام لردّ إحالتهم البعث بعلة أن أجزاء الجسد تفرقت فيتعذر جمعها فذكّروا بأن العسير في متعارف الناس لا يعسر على الله وقد قال في الآية الأخرى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم : ٢٧].اهـ (٢)

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ

---

(١) انظر التحرير والتنوير تفسير سورة التغابن الآيات (٤ – ٨) .

(٢) نفس المصدر السابق .

الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ .متعلقٌ بفعل ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ الذي هو كناية عن «تُجَازَوْنَ» على تكذيبكم بالبعث فيكون من تمام ما أُمر النبي ﷺ بأن يقوله لهم ابتداء من قوله تعالى : ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ .

والضمير المستتر في ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ عائد إلى اسم الجلالة في قوله : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ومعنى ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ يجمع المخاطبين والأمم من الناس كلهم ، قال تعالى : ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المرسلات] .

ويجوز أن يراد الجمع الذي في قوله تعالى : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾﴾ [القيامة] ، وهذا زيادة تحقيق للبعث الذي أنكروه .

واللام في ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ يجوز أن يكون للتعليل ، أي يجمعكم لأجل اليوم المعروف بالجمع المخصوص . وهو الذي لأجل جمع الناس ، أي يبعثكم لأجل أن يجمع الناس كلهم للحساب ، فمعنى ﴿الْجَمْعِ﴾ هذا غيرُ معنى الذي في ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ . فليس هذا من تعليل الشيء بنفسه بل هو من قبيل التجنيس .

ويجوز أن يكون اللام بمعنى (في) على نحو ما قيل في قوله تعالى : ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف : ١٨٧] ، وقوله : ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾ [الفجر] وقول العرب : مضى لسبيله ، أي في طريقه وهو طريق الموت .

والأحسن عندي أن يكون اللام للتوقيت ، وهي التي بمعنى (عند) ...، كقوله تعالى : ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء : ٧٨] . وهو استعمال يدل على شدة

الاقتراب ولذلك فسروه بمعنى (عند) ، ويفيد هنا : أنهم مجموعون في الأجل المعين دون تأخير ردًا على قولهم : ﴿لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ ، فيتعلق قوله : ﴿لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ بفعل ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ .

ف ﴿لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ هو يوم الحشر . وفي الحديث : ((يجمع الله الأولين والآخرين)) الخ . جعل هذا المركب الإضافي لقباً ليوم الحشر ، قال تعـالى : ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ⑦﴾ [الشورى] .

وقرأ الجمهور ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ بياء الغائب . وقرأه يعقوب بنون العظمة .

﴿ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ﴾ اعتراض بين جملة ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ بمتعلقها وبين جملـة ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ اعتراضاً يفيد تهويل هذا اليـوم تعريضـاً بوعيد المشركين بالخسارة في ذلك اليوم : أي بسوء المنقلب .

والإتيان باسم الإشارة في مقام الضمير لقصد الاهتمام بهذا اليوم بتمييزه أكمل تمييز مع ما يفيده اسم إشارة البعيد من علوّ المرتبة على نحو ما تقدم في قوله : ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ في سورة [البقرة : ٢] .

﴿ٱلتَّغَابُنِ﴾ : مصدر غابَنه من باب المفاعلة الدالة على حصول الفعل من جانبين أو أكثر وحقيقة صيغة المفاعلة أن تدل على حصول الفعل الواحد من فاعلين فأكثر علـى وجـه المشاركة في ذلك الفعل .

والغبن أن يعطى البائع ثمناً لمبيعه دون حَقِّ قيمته التي يعوِّض بها مثلُه .

فالغبن يؤول إلى خسارة البائع في بيعه ، فلذلك يطلق الغبن على مطلق الخسـران مجـازاً مرسلاً كما في قول الأعشى : ... لا يقبَلُ الرَّشْوَةَ في حُكمه ولا يبالي غَبن الخَاسـر ...

فليست مادة التغابن في قوله : ﴿يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ مستعملة في حقيقتها إذ لا تعارض حـتى يكون فيه غبن بل هو مستعمل في معنى الخسران على وجه المجاز المرسل .

وأما صيغة التفاعل فحملها جمهور المفسرين على حقيقتها من حصول الفعل من جانبين ففسروها بأن أهل الجنة غبنوا أهل النار إذ أهل الجنة أخذوا الجنة وأهل جهنم أخذوا جهنم قاله مجاهد وقتادة والحسن . فحمل القرطبي وغيره كلام هؤلاء الأئمة على أن التغابن تمثيل لحال الفريقين بحال مُتَبايَعَيْن أخذ أحدهما الثمن الوافيَ ، وأخذ الآخر الثمنَ المغبون ، يعني وقوله عقبه ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ ، إلى قوله : ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ قرينة على المراد من الجانبين وعلى كلا المعنيين يكون قوله : ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ إلى قوله : ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ تفصيلاً للفريقين ، فيكون في الآية مجاز وتشبيه وتمثيل ، فالمجاز في مادة الغبن ، والتمثيل في صيغة التغابن ، وهو تشبيه مركب بمنزلة التشبيه البليغ إذ التقدير : ذلك يوم مِثْل التغَابن .

وحمل قليل من المفسرين (وهو ما فسر إليه كلام الراغب في مفرداته) وصرح ابن عطية صيغَة التفاعل على معنى الكثرة وشدة الفعل (كما في قولنا : عافاك الله وتبارك الله) فتكون استعارة ، أي خسارة للكافرين إذ هم مناط الإنذار . وهذا في معنى قوله تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ في سورة [البقرة : ١٦] ، وقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ [الصف : ١٠] .

فصيغة التفاعل مستعملة مجازاً في كثرة حصول الغبن تشبيهاً للكثرة بفعل من يحصل من متعدد والكلام تهديد للمشركين بسوء حالتهم في يوم الجمع ، إذ المعنى : ذلك يوم غبنكم الكثير الشديد بقرينة قوله قبله ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن : ٨] .

ولولا قصد ذلك لما اقتصر على أن ذلك يوم تغابن فإن فيه ربحاً عظيماً للمؤمنين بالله ورسوله والقرآن ، فوزانُ هذا القصر ووزان قوله ﷻ : ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ ﴾ [٢٦٨] وقول النبي ﷺ « إنما المُفلس الذي يفلس يوم القيامة » (١)

وأفاد تعريف جزأي جملة ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾ قصرَ المسند على المسند إليه أي قصر جنس يوم التغابن على يوم الجمع المشار إليه باسم الإشارة ، وهو من قبيل قصر الصفة على الموصوف قصراً إدعائياً ، أي ذلك يوم الغبن لا أيام أسواقكم ولا غيرُها ، فإن عدم أهمية غبن الناس في الدنيا جعل غبن الدنيا كالعدم وجعل يوم القيامة منحصراً فيه جنس الغبن .

وأما لام التعريف في قوله : ﴿ ٱلتَّغَابُنِ ﴾ فهي لام الجنس ، ومن هذا المعنى قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الزمر] اهـ (٢)

---

(١) وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ». قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ « إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ » [مسلم نووي :١٦/١٠٤ ح/٢٥٨١]

(٢) انظر التحرير والتنوير تفسير سورة التغابن الآيات (٤ — ٨).

سُورَةُ ٱلْمُلْك

بين يدي السورة

الحياة الدنيا تبدو في الجاهلية غاية الوجود ، ونهاية المطاف . ولكن السورة تكشف الستار عن عالم آخر هو حاضر للشياطين وللكافرين . وهو خلق آخر حافل بالحركة والتوفز والانتظار : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ
ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا
وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ
قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ
أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾ .

والنفوس في الجاهلية لا تكاد تتجاوز هذا الظاهر الذي تعيش فيه ، ولا تلقي بالاً إلى الغيب وما يحتويه . وهي مستغرقة في الحياة الدنيا محبوسة في قفص الأرض الثابتة المستقرة
... ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ
ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى
جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى
ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾ . .

والطير . إنه خلق يرونه كثيراً ولا يتدبرون معجزته إلا قليلاً . ولكن السورة تمسك بأبصارهم لتنظر وبقلوبهم لتتدبر ،... ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.اهـ [1]

شرح الكلمات :

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ : أي تعاظم وكثر خير الذي بيده الملك أجمع ملكاً وتصرفاً وتدبيراً .

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ : أي وهو على إيجاد كل ممكن وإعدامه قدير .

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ : أي أوجد الموت والحياة فكل حيّ هو بالحياة التي خلق الله وكل ميت هو بالموت الذي خلق الله .

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ : أي أحياكم ليختبركم أيكم يكون أحسن عملاً ثم يميتكم ويحييكم ليجزيكم .

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ : أي وهو العزيز الغالب على ما يريده الغفور العظيم المغفرة للتائبين .

﴿طِبَاقًا﴾ : أي طبقة فوق طبقة وهي السبع الطباق ولا تماس بينها .

﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ : أي من تباين وعدم تناسب .

﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ : أي مرتين مرة بعد مرة .

﴿خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ : أي ذليلاً مبعداً كالاً تعباً منقطعاً عن الرؤية إذ لا يرى خللا .

﴿بِمَصَابِيحَ﴾ : أي بنجوم مضيئة كالمصابيح .

---

(١) انظر الظلال :٦/٣٦٢٩ ، ٣٦٣٠ في ظلال سورة الملك ط/ دار الشروق .

﴿رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ : أي مراجم جمع مرجم وهو ما يرجم به أي يرمى .

﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ : أي وهيأنا لهم عذاب النار المسعرة الشديدة الاتقاد[1] .

معنى الآيات :

قوله ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ①﴾ مجد الرب تعالى نفسه وعظمها وأثنى عليها بما هو أهله من الملك والسلطان والقدرة والعلم والحكمة فقال عز وجل تبارك أي تعاظم وكثر خير الذي بيده الملك الحقيقي يحكم ويتصرف ويدير بعلمه وحكمته لا شريك له في هذا الملك والتدبير والسلطان . ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فما أراد ممكنا إلا كان ، ولا أراد انعدام ممكن إلا انعدم . الذي خلق الموت والحياة لحكمة عالية لا باطلا ولا عبثاً كما يتصور الكافرون والملاحدة الدهريون بل ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ أي خلق الحياة بكل ما فيها ، ليذكر ويشكر من عباده فمن ذكر وشكر وأحسن ذلك ، أعد له جنات ينقله إليها بعد نهاية الدنيا والعمل فيها ، ومن لم يذكر و لم يشكر من عباده فمن وشكر و لم يحسن ذلك بأن لم يخلص فيه لله ، و لم يؤده كما شرع الله أعد له ناراً ينقله إليها بعد نهاية الحياة الدنيا حياة العمل ، إذ هذه الحياة للعمل ، وحياة الآخرة للجزاء على العمل .

وقوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ ثناء آخر أثنى به تعالى على نفسه فأعلم أنه العزيز الغالب الذي لا يُحال بينه وبين ما يريد الغفور العظيم المغفرة إذ يغفر الذنوب للتائب ولو كانت مثل الجبال وزبد البحر . وقوله ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ﴾ هذا ثناء بعظيم القدرة وسعة العلم والحكمة خلق سبع سماوات طباقاً سماء فوق سماء مطابقة لها ولكن من

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري : ٣/ ٥٥٨ تفسير سورة الملك الآيات (١- ٥) ط/ دار الحديث .

غير مماسة إذ ما بين كل سماء وأخرى هواء وفراغ مسيرة خمسمائة عام فالمطابقة المعادلـة والمساواة في الجرم لا بوضع سماء على الأخرى كغطاء القدر مثلاً .[1]

من هداية الآيات :

١- تقرير ربوبية الله تعالى بعرض دلائل القدرة والعلم والحكمة والخير والبركـة وهـي موجبة لألوهيته أي عبادته دون من سواه ﷻ .

٢- بيان الحكمة من خلق الموت والحياة .

٣- بيان الحكمة من خلق النجوم وهي في قول قتادة رحمه الله : أن الله جل ثنـاؤه إنمـا خلق هذه النجوم لثلاث خصال : زينة لسماء الدنيا ، ورجوماً للشـياطين ، وعلامـات يهتدى بها .اهـ[2]

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ
﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ
﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا
نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ
نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾

النار تنتظر أهلها

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ ﴾ ثم يرسم مشهداً لجهنم هـذه ، وهي تستقبل الذين كفروا في غيظ وحنق شديد :

﴿ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ ﴾ وجهنم هنا مخلوقـة حية ، تكظم غيظها ، فترتفع أنفاسها في شهيق وتفور؛ ويملأ جوانحها الغيظ فتكاد تتمزق

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق : ٣/ ٥٦٠ .

من الغيظ الكظيم وهي تنطوي على بغض وكره يبلغ إلى حد الغيظ والحنق على الكافرين!.... ولكنه فيما نحس يقرر حقيقة . فكل خليقة من خلائق الله حية ذات روح من نوعها . وكل خليقة تعرف ربها وتسبح بحمده؛ وتدهش حين ترى الإنسان يكفر بخالقه ، وتتغيظ لهذا الجحود المنكر الذي تنكره فطرتها وتنفر منه روحها . وهذه الحقيقة وردت في القرآن في مواضع شتى تشعر بأنها تقرر حقيقة مكنونة في كل شيء في هذا الوجود .

فقد جاء بصريح العبارة في القرآن : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء]

وورد كذلك : ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾ [سبأ: ١٠] وهي تعبيرات صريحة مباشرة لا مجال فيها للتأويل .

كذلك ورد ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت] مما يحتمل أن يقال فيه إنه مجاز تصويري لحقيقة خضوع السماء والأرض لناموس الله . ولكن هذا التأويل لا ضرورة له . بل هو أبعد من المعنى المباشر الصريح .

ووردت صفة جهنم هذه . كما ورد في موضع آخر تعبير عن دهشة الكائنات وغيظها للشرك بربها :

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [مريم] وكل هذه النصوص تشير إلى حقيقة ، حقيقة إيمان الوجود كله بخالقه ، وتسبيح كل شيء بحمده . ودهشة الخلائق وارتياعها لشذوذ الإنسان حين يكفر ، ويشذ عن هذا الموكب؛ وتحفز هذه الخلائق للانقضاض على

الإنسان في غيظ وحنق؛ كالذي يطعن في عزيز عليه كريم على نفسه، فيغتاظ ويحنق، ويكاد من الغيظ يتمزق. كما هو حال جهنم وهي: ﴿تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾.

كذلك نلمح هذه الظاهرة في خزنة جهنم: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾ وواضح أن هذا السؤال في هذا الموضع هو للتأنيب والترذيل. فهي مشاركة لجهنم في الغيظ والحنق. كما هي مشاركة لها في التعذيب. وليس أمرٌ من الترذيل والتأنيب للضائق المكروب! والجواب في ذلة وانكسار واعتراف بالحمق والغفلة، بعد التبجح والإنكار واتهام الرسل بالضلال: ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾

فالذي يسمع أو يعقل، لا يورد نفسه هذا المورد الوبيء. ولا يجحد بمثل ما جحد به أولئك المناكيد. ولا يسارع باتهام الرسل بالضلال على هذا النحو المتبجح الوقح، الذي لا يستند في الإنكار إلى دليل. ثم ينكر ويدعي ذلك الادعاء العريض على رسل الله الصادقين يقول: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾!

﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ والسحق البعد. وهو دعاء عليهم من الله بعد اعترافهم بذنبهم في الموقف الذي لم يؤمنوا به ولم يصدقوا بوقوعه. والدعاء من الله قضاء. فهم مبعدون من رحمته. لا رجاء لهم في مغفرة، ولا إقالة لهم من عذاب. وهم أصحاب السعير الملازمون له. ويا لها من صحبة! ويا له من مصير! وهذا العذاب، عذاب السعير، في جهنم التي تشهق بأنفاسها وهي تفور، عذاب شديد مروع حقاً. والله لا يظلم أحداً. ونحسب والله أعلم أن النفس التي تكفر بربها وقد أودع فطرتها حقيقة الإيمان ودليله هي نفس فرغت من كل خير. كما فرغت من كل صفة تجعل لها اعتباراً في الوجود، فهي كالحجر الذي توقد به جهنم. وقد انتهت إلى نكسة وارتكاس مكانها هذه النار، إلى غير نجاة منها ولا فرار!

والنفس التي تكفر بالله في الأرض تظل تنتكس وترتكس في كل يوم تعيشه ، حتى تنتهي إلى صورة بشعة مسيخة شنيعة ، صورة منكرة جهنمية نكيرة . صورة لا يماثلها شيء في هذا الكون في بشاعتها ومسخها وشناعتها . فكل شيء روحه مؤمنة ، وكل شيء يسبح بحمد ربه ، وكل شيء فيه هذا الخير ، وفيه هذه الوشيجة التي تشده إلى محور الوجود . . ما عدا هذه النفوس الشاردة المفلتة من أواصر الوجود ، الآبدة الشريرة ، الجاسية الممسوخة النفور . فأي مكان في الوجود كله تنتهي إليه ، وهي مبتوتة الصلة بكل شيء في الوجود؟ إنها تنتهي إلى جهنم المتغيظة المتلمظة ، الحارقة ، المهدرة لكل معنى ولكل حق ولكل كرامة؛ بعد أن لم يعد لتلك النفوس معنى ولا حق ولا كرامة!

والمألوف في سياق القرآن أن يعرض صفحتين متقابلتين في مشاهد القيامة . فهو يعرض هنا صفحة المؤمنين في مقابل صفحة الكافرين ، تتمة لمدلول الآية الثانية في السورة : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ . . بذكر الجزاء بعد ذكر الابتلاء : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ والغيب المشار إليه هنا يشمل خشيتهم لربهم الذي لم يروه ، كما يشمل خشيتهم لربهم وهم في خفية عن الأعين ، وكلاهما معنى كبير ، وشعور نظيف ، وإدراك بصير . يؤهل الجزاء العظيم الذي يذكره السياق في إجمال : وهو المغفرة والتكفير ، والأجر الكبير ، ووصل القلب بالله في السر والخفية ، وبالغيب الذي لا تطلع عليه العيون ، هو ميزان الحساسية في القلب البشري وضمانة الحياة للضمير . . قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا طالوت بن عباد ، حدثنا الحارث بن عبيد ، عن ثابت ، عن أنس ، قال : قالوا : يا رسول الله إنا نكون عندك على حال ، فإذا فارقناك كنا على غيره . قال : ((كيف أنتم وربكم؟)) قالوا : الله ربنا في السر والعلانية . قال : ((ليس ذلكم النفاق)) .

فالصلة بالله هي الأصل . فمتى انعقدت في القلب فهو مؤمن صادق موصول .

وهذه الآية السابقة تربط ما قبلها في السياق بما بعدها ، في تقرير علم الله بالسر والجهر ، وهو يتحدى البشر . وهو الذي خلق نفوسهم ، ويعلم مداخلها ومكامنها ، التي أودعها إياها : ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ أسروا أو اجهروا فهو مكشوف لعلم الله سواء . وهو يعلم ما هو أخفى من الجهر والسر ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ التي لم تفارق الصدور! عليم بها ، فهو الذي خلقها في الصدور ، كما خلق الصدور! ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ألا يعلم وهو الذي خلق؟ ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الذي يصل علمه إلى الدقيق الصغير والخفي المستور .

إن البشر وهم يحاولون التخفي من الله بحركة أو سر أو نية في الضمير ، يبدون مضحكين! فالضمير الذي يخفون فيه نيتهم من خلق الله ، وهو يعلم دروبه وخفاياه . والنية التي يخفونها هي كذلك من خلقه وهو يعلمها ويعلم أين تكون . فماذا يخفون؟ وأين يستخفون؟ والقرآن يعنى بتقرير هذه الحقيقة في الضمير .اهـ[١]

من هداية الآيات :-

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء ببيان ما يجري فيها من عذاب وعقاب .

٢- بيان أن تكذيب الرسل كفر موجب للعذاب ، وتكذيب العلماء كتكذيب الرسل بعدهم أي في وجوب العذاب المترتب على ترك طاعة الله ورسوله .

٣- بيان أن ما يقوله أهل النار في إعترافهم هو ما يقوله الملاحدة اليوم في ردهم على العلماء بأن التدّين تأخر عقلي ونظر رجعي .

٤- تقرير أن الكافر اليوم لا يسمع ولا يعقل أي سماعاً ينفعه وعقلاً عن المهالك باعتراف أهل النار إذ قالوا ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠)﴾.[٢]

---

(١) انظر الظلال : ٦/٣٦٣٤ – ٣٦٣٧ في ظلال سورة الملك الآيات (٦ – ١١) .

(٢) انظر أيسر التفاسير للجزائري : ٣/ ٥٦١ تفسير سورة الملك الآيات (٦ – ١١) ط/ دار الحديث .

سُورَةُ القَلَم

بين يدي السورة

هذه السورة العظيمة مكية ، وقد نزلت في وقت عصيب جداً كان قد اشتد قبل نزولها مكر الماكرين ، وكيد المجرمين ، فأراد الله تعالى أن يخفف على نبيه ﷺ وأن يذب عنه ، وأن يسليه ، وأن يرفع عن كاهله ما أصابه ، وأن يثبت في هذه السورة قيمة أخلاقه وكأن الحبيب ﷺ تاج تتوجت به الأخلاق الكريمة ، وفي هذه السورة تهديد للكافرين : ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ ﴾ [القلم] وفيها بيان لدوام خداعهم وعظيم مكرهم وأنهم يتمنون من النبي ﷺ أن يتراجع ولو عن شيء قليل مما يوحى إليه : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ ﴾ [القلم] وفي السورة إبراز لنعوت الكافرين التي لا ينبغي أن يتدنس بها المؤمن بالله وكلماته من هذه الصفات أن الكافرين مفتونون وأنهم ضالون ، ليسوا مهتدين ، وأنهم مكذبون مهينون ، كثيروا الحلف بالكذب ، غمازون ، همازون ، نمامون ، مناعون للخير معتدون ، ولإن كان القرآن قد أرجع هذه الأوصاف لرجل منهم فالعبرة بالعموم : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝٢٥٤ ﴾ [البقرة] ثم اتجهت السورة إلى قصة أصحاب الجنة وما فيها من عبر لمن أراد أن يتذكر وأن الله تعالى كما ابتلى قريشاً ابتلى أصحاب الجنة فلما انتكسوا وعتوا وعصوا أخذهم الله بعذاب الدنيا فأحرق البخل حديقتهم حتى صارت أثراً بعد عين ، وفي هذا وعيد أكيد وتهديد لمن خالف أمر الله وأمر نبيه ﷺ وفي الصفحة المقابلة ذكر الله تعالى ما أعده للمتقين في جنات النعيم ، ويبرز موقف من مواقف القيامة الشاخصة ، وسورة واضحة للمشركين الذين كفروا بالله وتركوا الصلاة يوم أن يدعوهم إلى الصلاة فلا يستطيعون السجود لأن ظهورهم ستكون طبقة واحدة كجلود الصخر ولأنهم تركوا السجود في الدنيا فما اسطاعوا السجود في الآخرة وتنتهي السورة المباركة بدعوة النبي ﷺ والمسلمين من بعده إلى الصبر الجميل

لحكم الله ﷻ ليجتبيهم الله ﷻ ويصلحهم وأن كيد الكافرين إلى زوال وتبرئة النبي ﷺ مما نسبه إليه وأن القرآن ليس أساطير الأولين وإنما هو ذكر للعالمين .

[وكذلك الابتلاء بالنعمة . فليعلم المشركون أهل مكـة . ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ولينظروا ماذا وراء الابتلاء . . ثم ليحذروا ما هو أكبر من ابتلاء الدنيا وعـذاب الدنيا :﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وكذلك يسوق إلى قريش هذه التجربة من واقع البيئة ، ومما هو متـداول بينـهم مـن القصص ، فيربط بين سنته في الغابرين وسنته في الحاضرين؛ ويلمـس قلـوبهم بـأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم . وفي الوقت ذاته يشعر المؤمنين بأن ما يرونه على المشـركين من كبراء قريش من آثار النعمة والثروة إنما هو ابتلاء من الله ، له عواقبه ، وله نتائجـه . وسنته أن يبتلي بالنعمة كما يبتلي بالبأساء سواء . فأمـا المتبطـرون المـانعون للخـير المخدوعون بما هم فيه من نعيم ، فذلك كان مثلاً لعاقبتـهم : ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ . . وأما المتقون الحذرون فلهم عند ربهم جنات النعـيم :﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾

وهو التقابل في العاقبة ، كما أنه التقابل في المسلك والحقيقة . . تقابل النقيضين اللـذين اختلفت بهما الطريق ، فاختلفت بهما خاتمة الطريق!

وعند هاتين الخاتمتين يدخل معهم في جدل لا تعقيد فيه كذلك ولا تركيب . ويتحـداهم ويحرجهم بالسؤال تلو السؤال عن أمور ليس لها إلا جواب واحد يصعب المغالطة فيـه؛ ويهددهم في الآخرة بمشهد رهيب ، وفي الدنيا بحرب من العزيز الجبار القوي الشديد :

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ

أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

والتهديد بعذاب الآخرة وحرب الدنيا يجيء كما نرى في خلال ذلك الجدل ، وهذا التحدي . فيرفع من حرارة الجدل ، ويزيد من ضغط التحدي .

والسؤال الاستنكاري الأول : ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ يعود إلى عاقبة هؤلاء وهؤلاء التي عرضها في الآيات السابقة . وهو سؤال ليس له إلا جواب واحد . . لا . لا يكون . فالمسلمون المذعنون المستسلمون لربهم ، لا يكونون أبداً كالمجرمين الذين يأتون الجريمة عن لجاج يسمهم بهذا الوصف الذميم! وما يجوز في عقل ولا في عدل أن يتساوى المسلمون والمجرمون في جزاء ولا مصير .

ومن ثم يجيء السؤال الاستنكاري الآخر : ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ . . ماذا بكم؟ وعلام تبنون أحكامكم؟ وكيف تزنون القيم والأقدار؟ حتى يستوي في ميزانكم وحكمكم من يسلمون ومن يجرمون؟!

ومن الاستنكار والإنكار عليهم ينتقل إلى التهكم بهم والسخرية منهم : ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ . . فهو التهكم والسخرية أن يسألهم إن كان لهم كتاب يدرسونه ، هو الذي يستمدون منه مثل ذلك الحكم الذي لا يقبله عقل ولا عدل؛ وهو الذي يقول لهم : إن المسلمين كالمجرمين! إنه كتاب مضحك يوافق هواهم

ويملق رغباتهم ، فلهم فيه ما يتخيرون من الأحكام وما يشتهون! وهو لا يرتكن إلى حـق ولا إلى عدل ، ولا إلى معقول أو معروف!اهـ[1] .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

حول هذه الآيات

﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ أي سلهم يا رسولنا عن زعيمهم الذي يكفـل لهـم مضمون الحكم الذين يحكمون به لأنفسهم من أنهم يعطون في الآخرة أفضل ممـا يعطـى المؤمنون سابعها قوله ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ أي ألهم شـركاء موافقون لهم في هذا الذي قالوه يكلفونه لهم فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في ذلك . بهذه الإستفهامات الإنكارية التقريعية السبعة نفى تعالى عنهم كل ما يمكنهم أن يتشبثوا بـه في تصحيح دعواهم الباطلة عقلاً وشرعاً . وقوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ أي اذكـر لهم يا رسولنا مبينا واقع الأمر يوم القيامة ، ليخجلوا من تشدقهم بـدعواهم السـاقطة الباردة اذكر لهم يوم يعظم الهول ويشتد الكرب ، ويأتي الرب لفصل القضاء ويكشـف عن ساق فيخر كل مؤمن ومؤمنة ساجداً ويحاول المنافقون والمنافقـات السـجود فـلا يستطيعون إذ يكون ظهر أحدهم طبقاً واحداً أي عظماً واحداً فلا يقدر على السـجود وذلك علامة شقائه المترتب على نفاقه في الدنيا .

---

(١) انظر الظلال : ٦/٣٦٦٦ ، ٣٦٦٧ في ظلال سورة القلم الآيات (٣٥- ٤٧) ط/ دار الشروق .

ويدعون إلى السجود أي امتحانا لهم ليعرف من كان يسجد إيماناً واحتساباً ممن كان يسجد نفاقاً ورياء فلا يستطيعون لأن ظهر أحدهم يصبح عظماً واحداً خاشعة أبصارهم لا تطرف من شدة الخوف ترهقهم ذلة أي تغشاهم ذلة عظيمة وقوله وقد كانوا يدعون إلى السجود أي في الدنيا وهم سالمون معافون في أبدانهم ولا يسجدون تكبراً وكفراً بالله ربهم وبشرعه .

من هداية الآيات :

١- تقرير أن المجرمين لا يساوون المؤمنين يوم القيامة إذ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة فمن زعم أنه يعطي المؤمنون من جنات النعيم فهو مخطئ في تصوره كاذب في قوله .

٢- بيان عظم هول يوم القيامة وأن الرب تبارك وتعالى يأتي لفصل القضاء ويكشف عن ساق فلا يبقى أحد إلا سجد وأن الكافر والمنافق لا يستطيع السجود عقوبة له وفضيحة إذ كان في الدنيا يدعى إلى السجود لله فلا يسجد أي إلى الصلاة فلا يصلي تكبراً وكفراً [1]

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري : ٣/ ٥٧٦ تفسير سورة القلم الآيات (٣٤- ٤٣) ط/ دار الحديث .

سُورَةُ الحَاقَّةِ

بين يدي السورة

هذه سورة هائلة رهيبة؛ قل أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة . وهي منـذ افتتاحهـا إلى ختامها تقرع هذا الحس ، وتطالعه بالهول القاصم ، والجد الصارم ، والمشهد تلو المشهد ، كله إيقاع ملح على الحس ، بالهول آناً وبالجلال آناً . وبالعذاب آناً ، وبالحركة القوية في كل آن! والسورة بجملتها تلقي في الحس بكل قوة وعمق إحساساً واحداً بمعنى واحد . . أن هـذا الأمر ، أمر الدين والعقيدة ، جد خالص حازم جازم . جد كله لا هزل فيه . ولا مجـال فيه للهزل . جد في الدنيا وجد في الآخرة ، وجد في ميزان الله وحسابه . جد لا يحتمـل التلفت عنه هنا أو هناك كثيراً ولا قليلاً . وأي تلفت عنه من أي أحد يستنزل غضب الله الصارم ، وأخذه الحاسم ... يبرز هذا المعنى في اسم القيامة المختار في هـذه السـورة ، والذي سميت به السورة : ﴿الْحَاقَّةُ﴾ . وهي بلفظها ... ومعناها تلقي في الحـس معنى الجد والصرامة والحق والاستقرار . وإيقاع اللفظ بذاته أشبه شيء برفع الثقل طـويلاً ، ثم استقراره استقراراً مكيناً . رفعه في مدة الحاء بالألف . وحده في تشديد القاف بعـدها ، واستقراره بالانتهاء بالتاء المربوطة التي تنطق هاء ساكنة .

ويبرز في مصارع المكذبين بالدين وبالعقيدة وبالآخرة قوماً بعد قوم ، وجماعة بعد جماعـة . مصارعهم العاصفة القاصـمة الحاسـمة الجازمـة : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ

بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾ . . وهكذا كل من تلفت عن هذا الأمر أخذ أخذة مروعة داهمة قاصمة ، تتناسب مع الجد الصارم الحاسم في هذا الأمر العظيم الهائل ، الذي لا يحتمل هزلاً ، ولا يحتمل لعباً ، ولا يحتمل تلفتاً عنه من هنا أو هناك!

ويبرز في مشهد القيامة المروع ، وفي نهاية الكون الرهيبة ، وفي جلال التجلي كذلك وهو أروع وأهول : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾ . .

ذلك الهول . وهذا الجلال . يخلعان الجد الرائع الجليل على مشهد الحساب عن ذلك الأمر المهول . ويشاركان في تعميق ذلك المعنى في الحس مع سائر إيقاعات السورة وإيحاءاتها .

هو وما بعده من مقالة الناجين والمعذبين : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ ﴾ . فقد نجا وما يكاد يصدق بالنجاة . ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ ﴾ . . بهذا التفجع الطويل ، الذي يطبع في الحس وقع هذا المصير . .

ثم يبدو ذلك الجد الصارم والهول القاصم في النطق العلوي بالقضاء الرهيب الرعيب ، في اليوم الهائل ، وفي الموقف الجليل : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾ . . وكل فقرة كأنها تحمل ثقل السماوات والأرض ، وتنقض في جلال مذهل ، وفي هول مروع ، وفي جد ثقيل . .

ثم ما يعقب كلمة القضاء الجليل ، من بيان لموجبات الحكم الرهيب ونهاية المذنب الرعيبة : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ . .

ثم يبرز ذلك المعنى في التلويح بقسم هائل ، وفي تقرير الله لحقيقة الدين الأخير : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

وأخيراً يبرز الجد في الإيقاع الأخير . وفي التهديد الجازم والأخذ القاصم لكل من يتلاعب في هذا الأمر أو يبدل . كائناً من كـان ،...: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ . . فهو الأمر الذي لا تسامح فيه ولا هوادة ولا لين . .

وعندئذ تختم السورة بالتقرير الجازم والقول الفصل الأخير عن هذا الأمر الخطير : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾ . . وهو الختام الذي يقطع كـل قـول ، ويلقي بكلمة الفصل ، وينتهي إلى الفراغ من كل لغو ، والتسبيح باسم الله العظيم . .

ذلك المعنى الذي تتمحض السورة لإلقائه في الحس ، يتكفل أسلوبها وإيقاعها ومشاهدها وصورها وظلالها بإلقائه وتقريره وتعميقه بشكل مؤثر حي عجيب .

إن أسلوب السورة يحاصر الحس بالمشاهد الحية ، المتناهية الحيوية ، بحيث لا يملك منـها فكاكاً ، ولا يتصور إلا أنها حية واقعة حاضرة ، تطالعه بحيويتها وقوتها وفاعليتها بصورة عجيبة!

فهذه مصارع ثمود وعاد وفرعون وقرى لوط (وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ) حاضرة شاخصة ، والهول المروع يجتاح مشاهدها لا فكاك للحس منها . وهذا مشهد الطوفان وبقايا البشرية محمولة في الجارية مرسوماً في آيتين اثنتين سريعتين . . ومن ذا الذي يقرأ : ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾. . ولا يتمثل لحسه منظر العاصفة المزمجرة المحطمة المدمرة . سبع ليال وثمانية أيام . ومشهد القوم بعدها صرعى مجدلين ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ .

وهو مشهد حي ماثل للعين ، ماثل للقلب ، ماثل للخيال! وكذلك سائر مشاهد الأخذ الشديد العنيف في السورة .

ثم هذه مشاهد النهاية المروعة لهذا الكون . . هذه هي تخايل للحس ، وتقرقع حوله ، وتغمره بالرعب والهول والكآبة . ومن ذا الذي يسمع : ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ . . ولا يسمع حسه القرقعة بعد ما ترى عينه الرفعة ثم الدكة!! ومن الذي يسمع : ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ . . ولا يتمثل خاطره هذه النهاية الحزينة ، وهذا المشهد المفجع للسماء الجميلة المتينة؟! ثم من الذي لا يغمر حسه الجلال والهول وهو يسمع : ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾. .

ومشهد الناجي الآخذ كتابه بيمينه والدنيا لا تسعه من الفرحه ، وهو يدعو الخلائق كلها لتقرأ كتابه في رنة الفرح والغبطة : ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ !

ومشهد الهالك الآخذ كتابه بشماله . والحسرة تئن في كلماته ونبراته وإيقاعاته :
﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾﴾ ومن ذا الذي لا يرتعش حسه ، وهو يسمع ذلك القضاء الرهيب : ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾ . . وهو يشهد كيف يتسابق المأمورون إلى تنفيذ الأمر الرهيب الجليل في ذلك البائس الحسير!

وحالة هناك : ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾ وأخيراً فمن ذا الذي تأخذه الرجفة وتلفه الرهبة ، وهو يتمثل في الخيال صورة التهديد الشديد : ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ . .

إنها مشاهد من القوة والحيوية والحضور بحيث لا يملك الحس أن يتلفت عنها طوال السورة ، وهي تلح عليه ، وتضغط ، وتتخلل الأعصاب والمشاعر في تأثير حقيقي عنيف![1].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ من أسماء يوم القيامة، لأنها تحق وتنزل بالخلق، وتظهر فيها حقائق الأمور، ومخبآت الصدور، فعظم تعالى شأنها وفخمه، بما كرره من قوله: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ

---

(١) الظلال : ٦/ ٣٦٧٤ – ٣٦٧٦ ط/ دار الشروق .

﴿٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٣﴾ فإن لها شأنا عظيما وهولا جسيما، ومن عظمتها أن الله أهلك الأمم المكذبة بها بالعذاب العاجل .

ثم ذكر نموذجا من أحوالها الموجودة في الدنيا المشاهدة فيها، وهو ما أحله من العقوبات البليغة بالأمم العاتية فقال: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ﴾ وهم القبيلة المشهورة سكان الحجر الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحاً ﷺ، ينهاهم عما هم عليه من الشرك، ويأمرهم بالتوحيد، فردوا دعوته وكذبوه وكذبوا ما أخبرهم به من يوم القيامة، وهي القارعة التي تقرع الخلق بأهوالها، وكذلك عاد الأولى سكان حضرموت حين بعث الله إليهم رسوله هوداً ﷺ يدعوهم إلى عبادة الله وحده فكذبوه وكذبوا بما أخبر به من البعث فأهلك الله الطائفتين بالهلاك المعجل ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥﴾ وهي الصيحة العظيمة الفظيعة، التي انصدعت منها قلوبهم وزهقت لها أرواحهم فأصبحوا موتى لا يرى إلا مساكنهم وجثثهم.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ﴾ أي: قوية شديدة الهبوب لها صوت أبلغ من صوت الرعد القاصف ﴿عَاتِيَةٖ﴾ أي: عتت على خزانها، على قول كثير من المفسرين، أو عتت على عاد وزادت على الحد كما هو الصحيح.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا﴾ أي: نحسا وشرا فظيعا عليهم فدمرهم وأهلكتهم، ﴿فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ﴾ أي: هلكى موتى ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ أي: كأنهم جذوع النخل التي قد قطعت رءوسها الخاوية الساقط بعضها على بعض. ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ٨﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي المتكرر.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضاً : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ

(١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨)﴾

لما ذكر ما فعله تعالى بالمكذبين لرسله وكيف جازاهم وعجل لهم العقوبة في الدنيا وأن الله نجى الرسل وأتباعهم كان هذا مقدمة لذكر الجزاء الأخروي وتوفية الأعمال كاملة يـوم القيامة. فذكر الأمور الهائلة التي تقع أمام القيامة وأن أول ذلك أنه يـنفخ إسـرافيل ﴿فِي الصُّورِ﴾ إذا تكاملت الأجساد نابتة. ﴿نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ فتخرج الأرواح فتدخل كـل روح في جسدها فإذا الناس قيام لرب العالمين.

﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤)﴾ أي: فتتت الجبال واضمحلت وخلطـت بالأرض ونسفت على الأرض فكان الجميع قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا. هذا ما يصنع بالأرض وما عليها.

وأما ما يصنع بالسماء، فإنها تضطرب وتمور وتتشقق ويتغير لونها، وتهي بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذاك إلا لأمر عظيم أزعجها، وكرب جسيم هائل أوهاها وأضعفها.

﴿وَالْمَلَكُ﴾ أي: الملائكة الكرام ﴿عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ أي: على جوانب السـماء وأركانهـا، خاضعين لربهم، مستكينين لعظمته.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧)﴾ أملاك في غاية القوة إذا أتى للفصـل بـين العباد والقضاء بينهم بعدله وقسطه وفضله.

ولهذا قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ علـى الله ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ لا مـن أجسـامكم وأجسادكم ولا من أعمالكم وصفاتكم، فإن الله تعالى عالم الغيب والشهادة.

ويحشر العباد حفاة عراة غرلا في أرض مستوية، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، فحينئذ يجازيهم بما عملوا، ولهذا ذكر كيفية الجزاء اهـ (١)

وقال الأستاذ سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والقرآن يخاطب كل مستوى وكل نفس بما يؤثر فيها ، وبما تستجيب له حين يدعوها . والأرض تحتوي اليوم في بعض نواحيها قلوباً أقسى ، وطبائع أجسى ، وجبلات لا يؤثر فيها إلا كلمات من نار وشواظ كهذه الكلمات . ومشاهد وصور مثيرة كهذه المشاهد والصور المثيرة . .

وفي ظل هذه المشاهد العنيفة المثيرة ، المتوالية منذ أول السورة ، مشاهد الأخذ في الدنيا والآخرة ، ومشاهد التدمير الكونية الشاملة ، ومشاهد النفوس المكشوفة العارية ، ومشاهد الفرحة الطائرة والحسرة الغامرة .اهـ

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾

وهؤلاء هم أهل السعادة يعطون كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم تمييزا لهم وتنويها بشأنهم ورفعا لمقدارهم، ويقول أحدهم عند ذلك من الفرح والسرور ومحبة أن يطلع الخلق على ما من الله عليه به من الكرامة: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي: دونكم كتابي فاقرأوه فإنه يبشر بالجنات، وأنواع الكرامات، ومغفرة الذنوب، وستر العيوب.

والذي أوصلني إلى هذه الحال، ما من الله به علي من الإيمان بالبعث والحساب، والاستعداد له بالممكن من العمل، ولهذا قال: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ أي: أيقنت فالظن –هنا– بمعنى اليقين.

---

(١) السعدي [المجلد الواحد] ص ٩٩٠، ٩٩١ تفسير سورة الحاقة الآيات (١٣-١٨) ط/ التوفيقية .

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ أي: جامعة لما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وقد رضوها ولم يختاروا عليها غيرها.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾ المنازل والقصور عالية المحل.

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي: ثمرها وجناها من أنواع الفواكه قريبة، سهلة التناول على أهلها، ينالها أهلها قياما وقعودا ومتكئين.

ويقال لهم إكراما: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: من كل طعام لذيذ، وشراب شهي، ﴿هَنِيئًا﴾ أي: تاما كاملا من غير مكدر ولا منغص.

وذلك الجزاء حصل لكم ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ من الأعمال الصالحة - وترك الأعمال السيئة- من صلاة وصيام وصدقة وحج وإحسان إلى الخلق، وذكر لله وإنابة إليه.اهـ

[﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ وعرف أنه مؤاخذ بسيئاته ، وأن إلى العذاب مصيره ، فيقف في هذا المعرض الحافل الحاشد ، وقفة المتحسر الكسير الكئيب . . ﴿فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ وهي وقفة طويلة ، وحسرة مديدة ، ونغمة يائسة ، ولهجة بائسة . والسياق يطيل عرض هذه الوقفة حتى ليخيل إلى السامع أنها لا تنتهي إلى نهاية ، وأن هذا التفجع والتحسر سيمضي بلا غاية! وذلك من عجائب العرض في إطالة بعض المواقف ، وتقصير بعضها ، وفق الإيحاء النفسي الذي يريد أن يتركه في النفوس . وهنا يراد طبع موقف الحسرة وإيحاء الفجيعة من وراء هذا المشهد الحسير . ومن ثم يطول ويطول ، في تنغيم وتفصيل . ويتمنى ذلك البائس أنه لم يأت هذا الموقف ، ولم يؤت كتابه ، ولم يدر ما حسابه؛ كما يتمنى أن لو كانت هذه القارعة هي القاضية ، التي تنهي

وجوده أصلاً فلا يعود بعدها شيئاً . . ثم يتحسر أن لا شيء نافعه مما كان يعتز به أو يجمعه : ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ ﴾ . . ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ ﴾ . . فلا المال أغنى أو نفع . ولا السلطان بقي أو دفع ... :﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾ . .

يا للهول الهائل! ويا للرعب القاتل! ويا للجلال الماثل!

﴿ خُذُوهُ ﴾ . .كلمة تصدر من العلي الأعلى . فيتحرك الوجود كله على هذا المسكين الصغير الهزيل . ويبتدره المكلفون بالأمر من كل جانب ، كما يقول ابن أبي حاتم بإسناده عن المنهال بن عمرو : إذا قال الله تعالى : خذوه ابتدره سبعون ألف ملك . وإن الملك منهم ليقول هكذا فيلقي سبعين ألفاً في النار . . كلهم يبتدر هذه الحشرة الصغيرة المكروبة المذهولة!

﴿ فَغُلُّوهُ ﴾ . .فأي السبعين ألفاً بلغه جعل الغل في عنقه . . !﴿ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ﴾ . . ونكاد نسمع كيف تشويه النار وتصليه . .﴿ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾ . . وذراع واحدة من سلاسل النار تكفيه! ولكن إيحاء التطويل والتهويل ينضح من وراء لفظ السبعين وصورها . ولعل هذا الإيحاء هو المقصود! .

فإذا انتهى الأمر،نشرت أسبابه على الحشود:﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ ﴾.اهـ[1]

[﴿ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ ﴾ أي : من الجهة التي يعلم أن الإتيان منها تؤدى إلى هلاكه وعذابه .﴿ فَيَقُولُ ﴾ على سبيل التحسر والتفجع ﴿ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴾ أي : فيقول يا ليتني لم أعط هذا الكتاب ، لأن إعطائي إياه بشمالي دليل على عذابي وعقابي .

---

(١) الظلال الجزء السادس في ظلال سورة الحاقة الآيات (٣٠ — ٣٢) .

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ أي : ويا ليتني لم أعرف شيئا عن حسابي ، فإن هذه المعرفة التي لم أحسن الاستعداد لها ، أوصلتني إلى العذاب المبين .

﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ أي : ويا ليت الموتة التي متها في الدنيا ، كانت هي الموتة النهائية التي لا حياة لي بعدها .

فالضمير للموتة التي ماتها في الدنيا ، وإن كان لم يجر لها ذكر ، إلا أنها عرفت من المقام .

والمراد بالقاضية : القاطعة لأمره ، التي لا بعث بعدها ولا حساب . . لأن ما وجده بعدها أشد مما وجده بعد حلوله بها .

قال قتادة : تمنى الموت ولم يكن عنده في الدنيا شيء أكره منه . وشر من الموت ما يطلب منه الموت .

ثم أخذ الذي أوتى كتابه بشماله يتحسر على تفريطه وغروره ، ويحكى القرآن ذلك فيقول : ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾﴾ أي : هذه الأموال التي كنت أملكها في الدنيا ، وأتفاخر بها . لم تغن عنى شيئا من عذاب الله ، ولم تنفعني ولو منفعة قليلة .

فما نافية ، والمفعول محذوف للتعميم ، ويجوز أن تكون استفهامية والمقصود بها التوبيخ .

أي : أي شيء أغنى عنى مالي ؟ إنه لم يغن عنى شيئا ؟

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ أي : ذهب عنى ، وغاب عنى في هذا اليوم ما كنت أتمتع به في الدنيا من جاه وسلطان ، ولم يحضرني شيء منه ، كما أن حججي وأقوالي التي كنت أخاصم بها المؤمنين . قد ذهبت أدراج الرياح .

وعدى الفعل ﴿هَلَكَ﴾ بعن ، لتضمنه معنى غاب وذهب .

وخلال هذا التفجع والتحسر الطويل . . . يأتي أمر الله – تعالى الذي لا يرد ، فيقول ﷻ للزبانية المكلفين بإنزال العذاب بالكافرين : ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾﴾ أي : خذوا هذا الكافر ، فاجمعوا يديه إلى عنقه .

فقوله : ﴿خُذُوهُ﴾ معمول لقول محذوف . وهو جواب عن سؤال نشأ مما سبق من الكلام . فكأنه قيل : وماذا يفعل به بعد هذا التحسر والتفجيع . فكان الجواب : أمـــر الله ﷻ ملائكته بقوله : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ﴾ . .وقوله : ﴿فَغُلُّوهُ﴾ من الغُل - بضم الغين - وهو ربط اليدين إلى العنق على سبيل الإذلال

﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ﴾ أي : ثم بعد هذا التقييد والإذلال . . اقذفوه بــه إلى الجحــيم ، وهى النار العظيمة ، الشديدة التأجج والتوهج .

ومعنى ﴿صَلُّوهُ﴾ بالغوا في تصليته النار ، بغمسه فيها مرة بعد أخرى . يقال : صَلِى فلان النار ، إذا ذاق حرها ، وصَلّى فلان فلانا النار ، إذا أدخله فيها . وقلبه على جمرها كمــا تقلب الشاة في النار .

﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾ والسلسلة : اسم لمجموعة مــن حلَــق الحديد ، يربط بها الشخص لكي لا يهرب ، أو لكي يزاد في إذلاله وهو المراد هنا .

وقوله : ﴿ذَرْعُهَا﴾ أي : طولها ، كما في قوله - تعالى - : ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [التوبة] وقوله : ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ من السُّلك بمعنى الإدخــال في الشيء ، كما في قوله - تعــالى - ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [المدثر] أي : مــا أدخلكم فيها .

أي : خذوا هذا الكافر ، فقيدوه ثم أعدوه للنار المحرقة . ثم اجعلوه مغلــولا في سلســلة طولها سبعين ذرعا ، بحيث تكون محيطة به إحاطة تامة . أي ألقوا به في الجحــيم وهــو مكبل في أغلاله .

و ﴿ثُمَّ﴾ في كل آية جئ بها للتراخي الرتبي ، لأن كل عقوبة أشد مـن سـابقتها . إذ إدخاله في السلسلة الطويلة . أعظم من مطلق إلقائه في الجحيم كما أن إلقاءه في الجحيم ، أشد من مطلق أخذه وتقييده .

وفى هذه الآيات ما فيها من تصوير يبعث في القلوب الخوف الشديد ، ويحملـها علـى حسن الاستعداد لهذا اليوم . الذي لا تغنى فيه نفس عن نفس شيئا .

[ثم بين ﷻ الأسباب التي أدت بهذا الشقي إلى هذا المصير الأليـم فقـال : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤﴾ أي : إن هذا الشقي إنما حل به ما حل من عذاب . . لأنه كان في الدنيا ، مصرا على الكفر ، وعلى عدم الإيمـان بـالله الواحد القهار . .وكان كذلك ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ أي : لا يحـث نفســه ولا غـيره ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي : على بذل طعامه أو طعام غيره للمسكين ، الذي حلت به الفاقة والمسكنة .

ولعل وجه التخصيص لهذين الأمرين بالذكر ، أن أقبح شيء يتعلق بالعقائد ، وهو الكفر بالله ﷻ وأن أقبح شيء في الطباع ، هو البخل وقسوة القلب .

ثم ختم ﷻ هذه الآيات ، بزيادة لبيان للمصير الأليم لهذا الشقي فقال : ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي : يوم القيامة ﴿هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ أي : ليس له في هذا اليوم من صديق ينفعه ، أو من قريب يشفق عليه ، أو يحميه ، أو يدفع عنه .

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦﴾ أي : وليس له في جهنم من طعام سوى الغسـلين وهـو صديد أهل النار . . أو شجر يأكله أهل النار ، فيغسل بطونهم ، أي : يخرج أحشـاءهم منها ، أو ليس لهم إلا شر الطعام وأخبثه .

﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ﴾ أي : الغسلين ﴿إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ أي : إلا الكافرون الذين تعمدوا ارتكـاب الذنوب ، وأصروا عليها ، من خَطِئَ الرجل : إذا تعمد ارتكاب الذنب .

فالخاطئ هو من يرتكب الذنب عن تعمد وإصرار . والمخطئ : هو من يرتكب الـذنب عن غير إصرار وتعمد .

وهكذا . نجد الآيات الكريمة قد ساقت أشد ألوان الوعيد والعذاب . . للكافرين ، بعد أن ساقت قبل ذلك ، أعظم أنواع النعيم المقيم للمؤمنين .

وبعد هذا العرض - الذي بلغ الذروة في قوة التأثير - لأهوال يوم القيامة ، ولبيان حسن عاقبة المتقين ، وسوء عاقبة المكذبين . . بعد كل ذلك أخذت السورة في أواخرهـا ، في تقرير حقيقة هذا الدين ، وفى تأكيد صدق الرسول ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، وفى بيان أن هذا القرآن من عنده ﷻ وحده اهـ [1]

---

(١) انظر التفسير الوسيط لسورة الحاقة الآيات (٣٠- ٣٧) .

سُورَةُ ٱلْمَعَارِجِ

بين يدي السورة

والحقيقة الأساسية التي تعالج السورة إقرارها هي حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء؛ وعلى وجه الخصوص ما فيها من عذاب للكافرين ، كما أوعدهم القرآن الكريم . وهي تلم في طريقها إلى إقرار هذه الحقيقة بحقيقة النفس البشرية في السراء والضراء . وهـــي حقيقـــة تختلف حين تكون مؤمنة وحين تكون خاوية من الإيمان . كما تلم بسمات النفس المؤمنة ومنهجها في الشعور والسلوك ، واستحقاقها للتكريم . وبهوان الذين كفروا على الله وما أعده لهم من مذلة ومهانة تليق بالمستكبرين . . وتقرر السورة كذلك اخـــتلاف القـــيم والمقاييس في تقدير الله وتقدير البشر ، واختلاف الموازين . .

وتؤلف هذه الحقائق حلقة من حلقات العلاج الطويل لعقابيل الجاهلية وتصـــوراتها ، أو جولة من جولات المعركة الشاقة في دروب النفس البشرية ومنحنياتها . تلك المعركة التي خاضها القرآن فانتصر فيها في النهاية مجرداً من كل قوة غير قوته الذاتيـــة . فقـــد كـــان انتصار القرآن الحقيقي في داخل النفس البشرية ابتداء قبل أن يكون له سيف يدفع الفتنـــة عن المؤمنين به فضلاً على أن يرغم به أعداءه على الاستسلام له!

معاني الكلمات

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ : أي دعا داع بعذاب واقع .

﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ : أي فهو واقع لا محالة .

﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ : أي ذي العلو والدرجات ومصاعد الملائكة وهي السموات .

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ : أي تصعد الملائكة وجبريل إلى الله تعالى .

﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ : أي تصعد الملائكة وجبريل من منتهى أمره من أسفل الأرض السابعة إلى منتهى أمره من فوق السموات السبع في يوم مقداره خمسون ألف سنة بالنسبة لصعود غير الملائكة من الخلق .

﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾ : أي العذاب الذي يطالبون به لتكذيبهم وكفرهم بالبعث .

﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ : أي كذائب النحاس .

﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾ : أي كالصوف المصبوغ ألوانا في الخفة والطيران بالريح .

﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا﴾ : أي قريب قريبه لانشغال كل بحاله .

﴿يُبَصَّرُونَهُمۡ﴾ : أي يبصر الأحماء بعضهم بعضا ويتعارفون ولا يتكلمون .

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ : أي وزوجته .

﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ﴾ : أي عشيرته التي تضمه إليها نسباً وتحميه من الأذى عند الشدة .

﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾: أي أن جهنم هي لظى ﴿نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ﴾ جمع شواة جلدة الرأس .

﴿أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ : أي عن طاعة الله ورسوله وتولى عن الإيمان فأنكره وتجاهله .

﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ : أي جمع المال وجعله في وعاء ومنع الله تعالى فيه فلم ينفق منه في سبيل الله . ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ : أي إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعا أي كثير الجزع سريعة وكثير المنع حريصا عليه .

﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ : أي لا يقطعونها أبداً ما داموا أحياء يعقلون .

﴿حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾ : أي نصيب معيّن عينه الشارع وهو الزكاة .

﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ : أي الطالب الصدقة والذي لا يطلبها حياء وتعففا .

﴿يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ : أي يؤمنون بيوم القيامة للبعث والجزاء .

﴿مُّشۡفِقُونَ﴾ : أي خائفون متوقعون العذاب عند المعصية .

﴿لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ : أي صائنون لها عن النظر إليها وعن الفاحشة .

﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ : أي من السُّريات من الجواري التي يملكونها .

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ : أي المعتدون الظالمون المتجاوزون الحلال إلى الحرام .

﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾ : أي ما ائتمنوا عليه من أمور الدين والدنيا .

﴿رَٰعُونَ﴾ : أي حافظون غير مفرطين .

﴿قَآئِمُونَ﴾ : أي يقيمون شهاداتهم لا يكتمونها ولا يحرفونها .

﴿يُحَافِظُونَ﴾ : أي يؤدونها في أوقاتها في جماعات مع كامل الشروط والأركان والواجبات والسنن .(١)

معنى الآيات :

قوله تعالى إن الإنسان أي هذا الآدمي المنتصب القامة الضاحك الذي سمي بالإنسان لأنسه بنفسه ورؤية محاسنها ولنسيانه واجب شكر ربّه هذا الإنسان خلق هلوعاً قابلا لوصف الهلع فيه عند بلوغه سن التمييز والهلع مرض نفسي عرضه الذي يُعرَف به جزعه الشديد متى مسه الشر ، ومنعه القوي للخير متى مسه وظفر به . فقد فسر تعالى الهلع بقوله ، ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ . ثم ذكر تعالى ما يعالج به هذا المرض باستثنائه من جنس الإنسان من يتصفون بالصفات الآتية وهي عبارة عن عبادات شرعية بعضها فعل وبعضها ترك من شأنها القضاء على هذا المرض الخطير المسمى بالهلع

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري :٣/ ٥٨٨ – ٥٩١ تفسير سورة المعارج الآيات (١-٣٥) ط/ دار الحديث .

والذي لا يعالج إلا بما وصف تعالى في قولــه : ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ إدامة الصلاة بالمواظبة عليها ليل نهار إذ قال تعالى ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ وبشرط أن تؤدى إيماناً واحتساباً وأداءً صحيحا بمراعـاة شروطها وأركانها وسننها .

٢ - الاعتراف بما أوجب الله في المال من حق وإعطاء ذلك الحق بطيب نفس لمن سـأل ولمن لم يسال ممن هم أهل للزكاة والصدقات لقولـه ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ .

٣ - التصديق الكامل بيوم القيامة وهو البعث والجزاء لقوله تعـالى ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾ .

٤ - الاشفاق والخوف من عذاب الله عند عروض خاطر المعصية بترك واجب أو فعـل محرم لقوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي دائما وأبداً لأن عذاب ربهم غير مأمون الوقوع .

٥ - حفظ الفرج بستره عن أعين الناس م عدا الزوج وصيانته من فاحشة الزنا واللـواط وجلد عميرة أي الاستمناء باليد والمعروف اليوم بالعادة السرية لقوله تعـالى ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ من السـراري ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ في إتيانهم أزواجهم وجواريهم اللائي ملكوهنّ بالجهاد أو الشراء الشرعي وقوله تعالى ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ﴾ أي طلب ما وراء الزوجة والسريّة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي الظالمون الذين تجاوزوا الحلال إلى الحرام فكانوا بذلك معتدين ظالمين .

٦- حفظ الأمانات والعهود ومن أبرز الأمانات وأقوى العهود ما التزم به العبد من عبادة الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله والوفاء بذلك حتى الموت زيادة علـى أمانـات النـاس

والعهود لهم الكل واجب الحفظ والرعاية لقوله ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي حافظون .

٧ – إقامة الشهادة بالاعتدال فيها بحيث يؤديها ولا يكتمها ويؤديها قائمة لا اعوجــاج فيها لقوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ .

٨ – المحافظة على الصلوات الخمس مستوفاة الشروط والركان من الخشوع إلى الطمأنينة في الركوع والسجود والاعتدال في القيامة لقوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ بعد أدائها وعدم قطعها بحال من الأحوال .

فهذه الوصفة الربانية متى استعملها الإنسان المؤمن تحت إشراف عالم ربّاني إن وجده وإلاّ فتطبيقها بدون إشراف ينفع بإذن الله متى اجتهد المؤمن في حسن تطبيقها برئ من ذلــك المرض الخطير وأصبح أهلا لإكرام الله تعالى في الدار الآخرة قال تعــالى في ختــام هــذه الوصفة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي أولئك المطبقون لهذه الوصفة الناجحون فيها ﴿فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ في جوار ربهم اللهم اجعلنا منهم يا غفور يا رحيم .(١)

من هداية الآيات :

١- بين شر صفات الإنسان وإنها الهلع .

٢- بيان الدواء لهذا الداء داء الهلع الذي لا فلاح معه ولا نجاح .

٣- انحصار العلاج في ثماني صفات أو ثماني مركبات دوائية .

٤- وجوب العمل بما اشتملت عليه الوصفة من واجبات .اهــ (٢)

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري :٣/ ٥٩١ – ٥٩٢ تفسير سورة المعارج الآيات (١٩-٣٥)

(٢) المصدر السابق .

وقال السعدي رحمه الله: ﴿يَوْمَ﴾ أي: القيامة، تقع فيه هذه الأمور العظيمة فـ ﴿تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ وهو الرصاص المذاب من تشققها وبلوغ الهول منها كل مبلغ.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾ وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذلك هباء منثورا فتضمحل، فإذا كان هذا القلق والانزعاج لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة، فما ظنك بالعبد الضعيف الذي قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار؟

أليس حقيقا أن ينخلع قلبه وينزعج لبه، ويذهل عن كل أحد؟ ولهذا قال: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: يشاهد الحميم، وهو القريب حميمه، فلا يبقى في قلبه متسع لسؤال حميمه عن حاله، ولا فيما يتعلق بعشرتهم ومودتهم، ولا يهمه إلا نفسه.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ الذي حق عليه العذاب ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ﴾ أي: زوجته ﴿وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي: قرابته ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ أي: التي جرت عادتها في الدنيا أن تتناصر ويعين بعضها بعضا، ففي يوم القيامة، لا ينفع أحد أحدا، ولا يشفع أحد إلا بإذن الله.

بل لو يفتدي المجرم المستحق للعذاب بجميع ما في الأرض ثم ينجيه لم ينفعه ذلك.

﴿كَلَّآ﴾ أي: لا حيلة ولا مناص لهم، قد حقت عليهم كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ، وذهب نفع الأقارب والأصدقاء.

﴿إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾ أي: للأعضاء الظاهرة والباطنة من شدة عذابها .

﴿تَدْعُواْ﴾ إليها ﴿مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾ أي: أدبر عن اتباع الحق وأعرض عنه، فليس له فيه غرض، وجمع الأموال بعضها فوق بعض وأوعاها، فلم ينفق منها، فـإن النار تدعوهم إلى نفسها، وتستعد للالتهاب بهم......

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: خائفون وجلون، فيتركون لذلك كل مـا يقربهم من عذاب الله.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ أي: هو العذاب الذي يخشى ويحذر.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾﴾ فلا يطأون بها وطأ محرما، من زنى أو لواط، أو وطء في دبر، أو حيض، ونحو ذلك، ويحفظونها أيضا من النظر إليها ومسها، ممن لا يجـوز لـه ذلك، ويتركون أيضا وسائل المحرمات الداعية لفعل الفاحشة.

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي: سرياتهم ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ في وطئهن في المحل الذي هو محل الحرث.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير الزوجة وملك اليمين ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾، اهـ[1]

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص٩٩٤ ، ٩٩٥ تفسير سورة المعارج الآيات (٨ – ٣٥) .

سُورَةُ ٱلْمُزَّمِّلِ

بين يدي السورة

المزمل: المتغطي بثيابه كالمدثر، وهذا الوصف حصل من رسول الله ﷺ حين أكرمه الله برسالته، وابتدأه بإنزال جبريل إليه، فرأى أمرا لم ير مثله، ولا يقدر على الثبات له إلا المرسلون، فاعتراه في ابتداء ذلك انزعاج حين رأى جبريل عليه السلام ، فأتى إلى أهله، فقال: ((زملوني زملوني)) وهو ترعد فرائصه، ثم جاءه جبريل فقال: اقرأ فقال: " ما أنا بقارئ ، فغطه حتى بلغ منه الجهد، وهو يعالجه على القراءة، فقرأ ﷺ، ثم ألقى الله عليه الثبات، وتابع عليه الوحي، حتى بلغ مبلغا ما بلغه أحد من المرسلين .

فسبحان الله، ما أعظم التفاوت بين ابتداء نبوته ونهايتها، ولهذا خاطبه الله بهذا الوصف الذي وجد منه في أول أمره.

فأمره هنا بالعبادات المتعلقة به، ثم أمره بالصبر على أذية أعدائه ، ثم أمره بالصدع بأمره، وإعلان دعوتهم إلى الله، فأمره هنا بأشرف العبادات، وهي الصلاة، وبآكد الأوقات وأفضلها، وهو قيام الليل.

ومن رحمته تعالى، أنه لم يأمره بقيام الليل كله، بل قال: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢﴾ .

ثم قدر ذلك فقال: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣﴾ أي: من النصف ﴿قَلِيلًا﴾ بأن يكون الثلث ونحوه.

﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: على النصف، فيكون الثلثين ونحوها. ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكر، وتحريك القلوب به، والتعبد بآياته، والتهيؤ والاستعداد التام له، فإنه قال: ﴿سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥﴾ أي: نوحي إليك هذا القرآن الثقيل، أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه، وما كان بهذا الوصف، حقيق أن يتهيأ له، ويرتل، ويتفكر فيما يشتمل عليه.

ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل، فقال: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: الصلاة فيه بعد النوم ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ أي: أقرب إلى تحصيل مقصود القرآن، يتواطأ على القرآن القلب واللسان، وتقل الشواغل، ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره، وهذا بخلاف النهار، فإنه لا يحصل به هذا المقصود ، ولهذا قال: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧﴾ أي: ترددا على حوائجك ومعاشك، يوجب اشتغال القلب وعدم تفرغه التفرغ التام.

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ شامل لأنواع الذكر كلها ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ أي: انقطع إلى الله تعالى، فإن الانقطاع إلى الله والإنابة إليه، هو الانفصال بالقلب عن الخلائق، والاتصاف بمحبة الله، وكل ما يقرب إليه، ويدني من رضاه.

﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ وهذا اسم جنس يشمل المشارق والمغارب كلها، فهو تعالى رب المشارق والمغارب، وما يكون فيها من الأنوار، وما هي مصلحة له من العالم العلوي والسفلي، فهو رب كل شيء وخالقه ومدبره.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود إلا وجهه الأعلى، الذي يستحق أن يخص بالمحبة والتعظيم، والإجلال والتكريم، ولهذا قال: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ أي: حافظا ومدبرا لأمورك كلها.

فلما أمره الله بالصلاة خصوصا، وبالذكر عموما، وذلك يحصل للعبد ملكة قوية في تحمل الأثقال، وفعل الثقيل من الأعمال، أمره بالصبر على ما يقول فيه المعاندون له ويسبونه ويسبون ما جاء به، وأن يمضي على أمر الله، لا يصده عنه صاد، ولا يرده راد، وأن يهجرهم هجرا جميلا وهو الهجر حيث اقتضت المصلحة الهجر الذي لا أذية فيه، فيقابلهم بالهجر والإعراض عنهم وعن أقوالهم التي تؤذيه، وأمره بجدالهم بالتي هي أحسن.

﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي: اتركني وإياهم، فسأنتقم منهم، وإن أمهلتهم فلا أهملهم، وقوله: ﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ أي: أصحاب النعمة والغنى، الذين طغوا حين وسع الله عليهم من

رزقه، وأمدهم من فضله كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق]. ثم توعدهم بما عنده من العقاب، فقال: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾

أي: إن عندنا ﴿أَنكَالًا﴾ أي: عذاباً شديداً، جعلناه تنكيلاً للذي لا يزال مستمراً على الذنوب. ﴿وَجَحِيمًا﴾ أي: نارا حامية ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ وذلك لمرارته وبشاعته، وكراهة طعمه وريحه الخبيث المنتن، ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: موجعاً مفظعاً، وذلك ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ من الهول العظيم، ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ الراسيات الصم الصلاب ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تبس بعد ذلك، فتكون كالهباء المنثور. اهـ

يا أيها المتغطي بثيابه، قم للصلاة في الليل إلا يسيرًا منه. قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلا حتى تَصِلَ إلى الثلث، أو زد على النصف حتى تصل إلى الثلثين، واقرأ القرآن بتُؤَدَة وتمهُّلٍ مبيِّنًا الحروف والوقوف.

إنا سننزل عليك -أيها النبي- قرآنًا عظيمًا مشتملا على الأوامر والنواهي والأحكام الشرعية.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ ﴾ إن العبادة التي تنشأ في جوف الليل هي أشد تأثيرًا في القلب، وأبين قولا لفراغ القلب مِن مشاغل الدنيا.

إن لك في النهار تصرفًا وتقلبًا في مصالحك، واشتغالا واسعًا بأمور الرسالة، ففرِّغ نفسك ليلا لعبادة ربك..... ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ ﴾

إن لهم عندنا في الآخرة قيودًا ثقيلة ونارًا مستعرة يُحرقون بها يوم تضطرب الأرض والجبال وتتزلزل حتى تصير الجبال تَلاً من الرمل سائلاً متناثرًا، بعد أن كانت صُلبة جامدة. وطعامًا كريهًا ينشَب في الحلوق لا يستساغ، وعذابًا موجعًا.

إنا أرسلنا إليكم- يا أهل "مكة"- محمدًا رسولا شاهدًا عليكم بما صدر منكم من الكفر والعصيان، كما أرسلنا موسى رسولا إلى الطاغية فرعون، فكذَّب فرعون بموسى، و لم

يؤمن برسالته، وعصى أمره، فأهلكناه إهلاكًا شديدًا. وفي هذا تحذير من معصية الرسول محمد، ﷺ؛ خشية أن يصيب العاصي مثل ما أصاب فرعون وقومه.اهـ (١)

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩)﴾

شرح الكلمات:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ : أي المتلفف بثيابه أي النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ : أي صل .

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ : أي نصف الليل .

﴿نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ : أي انقص من النصف إلى الثلث .

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ : أي إلى الثلثين فأنت مخير في أيها تفعل تقبل .

﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ : أي ترسل في قراءته وبيّنه تبييناً .

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا﴾ : أي قرآنا .

﴿ثَقِيلًا﴾ : أي محملة ثقيلا العمل به لما يحوى من التكاليف .

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ : أي ساعة الليل من صلاة العشاء فما فوق كل ساعة تُسمى ناشئة .

﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ : أي هي أقوى موافقة السمع للقلب على تفهم القرآن فيها .

---

(١) انظر التفسير الميسر لسورة المزمل مقدمة السورة .

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ : أي أبين قولا وأصوب قراءة من قراءة النهار لسكون الأصوات .

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ : أي دم على ذكره ليلا ونهارا على أي وجه من تسبيح وتهليل وتحميد .

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ : أي انقطع إليه في العبادة وفي طلب الحاجة وفي كل ما يهمك .

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي لا معبود بحق سواه ولا تنبغي العبادة لغيره .

﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ : أي فوض جميع أمورك إليه فإنه يكفيك .

معنى الآيات :

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ نادى الربّ تبارك وتعالى نبيّه محمداً ﷺ مذكراً إياه بتلك الساعة السعيدة التي فاجأه فيها الوحي لأول مرة فرجع بها ترجف بوادره فانتهى إلى خديجة وهو يقول زملوني دثروني فالمزمل هو المتزمل أي المتلفف في ثيابه ليقول له ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾ أي صل في الليل ﴿نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾﴾ إلى الثلث ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي على النصف إلى الثلثين وامتثل الرسول أمر ربّه فقام مع أصحابه حتى تورمت أقدامهم . ثم خفف الله تعالى عنهم ونزل آخر هذه السورة بالرخصة في ترك القيام الواجب وبقى الندب والاستحباب وقوله تعالى ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ يرشده ربّه إلى أحسن التلاوة وهي الترسل وعدم السرعة حتى يبيّن الكلمات تبييناً ويترقى القلب في معانيها . وقوله ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ يخبره ربّه تعالى بأنه سيلقي عليه قولا ثقيلا هو القرآن فإنه ثقيل مهيب ذو تكاليف العمل بها ثقيل إنها فرائض وواجبات أعلمه ليوطن نفسه على العمل ويهيئها لحمل الشريعة علما وعملا ودعوة . وقوله ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾ يخبر تعالى مُعلما أن ساعات الليل من بعد صلاة العشاء إلى آخر الليل القيام فيها يجعل السمع يواطئ القلب على فهم معاني القرآن الذي يقرأه المصلي

، وقوله وأقوم قيلا أي أبين قولا وأصوب قراءة من قراءة الصلاة في النهار . وقولـه ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧﴾ يخبر تعالى رسوله بأن له في النهار أعمالاً تشغله عن قراءة القرآن فلذا أرشده إلى قيام الليل وترتيل القرآن لتفرغه من عمل النهار وقوله ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ أي داوم على ذكره ليلاً ونهاراً على أي وجه كان الذكر من تسبيح وتحميد وتكبير وتهليل .

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝١٩﴾ أي: إن هذه الموعظة التي نبأ الله بها من أحوال يوم القيامة وأهواله ، تذكرة يتذكر بها المتقون، ويزدجر بها المؤمنون، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: طريقا موصلا إليه، وذلك باتباع شرعه، فإنه قد أبانه كل البيان، وأوضحه غاية الإيضاح، وفي هذا دليل على أن الله تعالى أقدر العباد على أفعالهم، ومكنهم منها، لا كما يقوله الجبرية: إن أفعالهم تقع بغير مشيئتهم، فإن هذا خلاف النقل والعقل.اهـ (١)

من هداية الآيات :

١- الندب إلى قيام الليل وأنه دأب الصالحين وطريق المتقربين .

٢- الندب إلى ترتيل القرآن وترك العجلة في تلاوته .

٣- صلاة الليل أفضل من صلاة النهار لتواطئ السمع والقلب فيها على فهم القرآن

٤- الندب إلى ذكر الله تعالى بأي وجه من صلاة وتسبيح وطلب علم ودعاء وغير ذلك(٢)

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ١٠٠٤ تفسير سورة المزمل الآية (١٩) .

(٢) تفسير الجزائري : ٣/ ٦١٠ تفسير سورة المزمل الآيات (١-٩) ط/ دار الحديث .

سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ

محاور السورة

ينطبق على هذه السورة من ناحية سبب نزولها ، ووقت نزولها ما سبق ذكره عن سورة « المزمل » . فهناك روايات بأنها هي أول ما نزل بعد سورة العلق ، ورواية أخرى بأنها نزلت بعد الجهر بالدعوة وإيذاء المشركين للنبي ﷺ .

قال البخاري ، حدثنا يحيى ، حدثنا وكيع ، عن علي بن المبارك ، عن يحيى بن أبي كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن؟ قال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ . . قلت : يقولون ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، وقلت له مثل ما قلت لي ، فقال جابر : لا أحدثك إلا ما حدثنا به رسول الله ﷺ : « جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت ، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً . فأتيت خديجة فقلت : ((**دثروني وصبوا عليّ ماء بارداً**)) قال : فدثروني وصبوا عليّ ماء بارداً . قال : فنزلت : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ وقد رواه مسلم من طريق عقيل ، عن ابن شهاب ، عن أبي سلمة . قال : أخبرني جابر بن عبد الله ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث عن فترة الوحي ، فقال في حديثه : « فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصري قبل السماء ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء ، قاعد على كرسي بين السماء والأرض ، فجثيت منه حتى هويت إلى الأرض فجئت إلى أهلي فقلت : زملوني ، فدثروني ، فأنزل الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ . . إلى ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ قال أبو

سلمة : والرجز الأوثان . ثم حمي الوحي وتتابع « . . ورواه البخاري من هـذا الوجـه أيضاً . . وهذا لفظ البخاري .

وعلق ابن كثير في التفسير على هذا الحديث بقوله : وهذا السياق هو المحفـوظ ، وهـو يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا لقوله : ((فإذا الملك الذي جاءني بحـراء)) وهـو جبريل ، حين أتاه بقولـه . . ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ [العلـق] ثم إنه حصل بعد هذا الفترة ، ثم نزل الملك بعد هذا . ووجه الجمع أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة .

فهذه رواية . وهناك رواية أخرى . . قال الطبراني . حدثنا محمد بن علي بـن شـعيب السمسار ، حدثنا الحسن بن بشر البجلي ، حدثنا المعاف بن عمران ، عن إبراهيم بن يزيد ، سمعت ابن أبي مليكة يقول : سمعت ابن عباس يقول : إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً ، فلما أكلوا منه قال : ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم : ساحر.... وتكاد تكون هذه الرواية هي ذاتها التي رويت عن سورة « المزمل » . . مما يجعلنا لا نسـتطيع الجزم بشيء عن أيتهما هي التي نزلت أولاً . والتي نزلت بهذه المناسبة أو تلك .

غير أن النظر في النص القرآني ذاته يوحي بأن مطلع هـذه السـورة إلى قولـه تعـالى : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾ ربما يكون قد نزل مبكراً في أوائل أيام الدعوة . شأنه شان مطلع سورة المزمل إلى قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ ﴾ وهذا وذلك لإعداد نفس الرسول ﷺ للنهوض بالتبعة الكبرى ، ومواجهة قريش بعد ذلك بالدعوة جهاراً وكافة ، مما سيترتب عليـه مشـاق كثيرة متنوعة ، تحتاج مواجهتها إلى إعداد نفسي سابق . . ويكون ما تلا ذلك في سورة

المدثر ، وما تلا هذا في سورة المزمل ، قد نزلا بعد فترة بمناسبة تكذيب القوم وعنادهم ، وإيذائهم للنبي ﷺ بالاتهام الكاذب والكيد اللئيم .

إلا أن هذا الاحتمال لا ينفي الاحتمال الآخر ، وهو أن يكون كل من المطلعين قد نزل متصلاً بما تلاه في هذه السورة وفي تلك ، بمناسبة واحدة ، وهي التكذيب ، واغتمام رسول الله ﷺ للكيد الذي كادته قريش ودبرته . . ويكون الشأن في السورتين هو الشأن في سورة القلم على النحو الذي بيناه هناك .

وأياً ما كان السبب والمناسبة فقد تضمنت هذه السورة في مطلعها ذلك النداء العلوي بانتداب النبي ﷺ لهذا الأمر الجلل؛ وانتزاعه من النوم والتدثر والدفء إلى الجهاد والكفاح والمشقة : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ . . مع توجيهه ﷺ إلى التهيؤ لهذا الأمر العظيم ، والاستعانة عليه بهذا الذي وجهه الله إليه : ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾. . وكان ختام التوجيه هنا بالصبر كما كان هناك في سورة المزمل!

وتضمنت السورة بعد هذا تهديداً ووعيداً للمكذبين بالآخرة ، وبحرب الله المباشرة ، كما تضمنت سورة المزمل سواء : ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾.

وبمناسبة مشهد سقر . والقائمين عليها التسعة عشر . وما أثاره هذا العدد من بلبلة وفتنة وتساؤل وشك واستهزاء في أوساط المشركين وضعاف الإيمان ، تتحدث السورة عن حكمة الله في ذكر هذا العدد ، ثم تفتح كوة على حقيقة غيب الله ، واختصاصه بهذا الغيب ، وهي كوة تلقي ضوءاً على جانب من التصور الإيماني لحقيقة غيب الله المكنون :

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾ . .

ثم يصل أمر الآخرة وسقر ومن عليها بمشاهد كونية حاضرة ، ليجمع على القلوب إيحاء هذه وتلك في معرض الإيقاظ والتحذير : ﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾ . .

كما يعرض مقام المجرمين ومقام أصحاب اليمين ، حيث يعترف المكذبون اعترافاً طويلاً بأسباب استحقاقهم للارتهان والقيد في يوم الجزاء والحساب ، يعقب عليه بكلمة الفصل في أمرهم الذي لا تنفعهم فيه شفاعة شافع : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ . .

وفي ظل هذا المشهد المخزي ، والاعتراف المهين ، يتساءل مستنكراً موقف المكذبين من الدعوة إلى التذكرة والنجاة من هذا المصير ، ويرسم لهم مشهداً ساخراً يثير الضحك والزراية من نفارهم الحيواني الشموس : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ ﴾ ويكشف عن حقيقة الغرور الذي يساورهم فيمنعهم من الاستجابة لصوت المذكر الناصح . ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ ﴾ اهـ (١)

---

(١) الظلال :٦/ ٣٧٥١ – ٣٧٥٣ في ظلال سورة المدثر ط/ دار الشروق .

شرح الكلمات :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ : أي يا أيها المدثر أي المُتلفف في ثيابه وهو النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ : أي خَوف أهل مكة النار إن لم يؤمنوا ويوحدوا .

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ : أي عظم ربك من إشراك المشركين .

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ : أي طهر ثيابك من النجاسات .

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ : أي أدم هجرانك للأوثان .

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ : أي لا تمنن على ربك ما تقوم به من أعمال لأجله طاعة له .

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾ : أي نفخ في الصور النفخة الثانية .

﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ : أي اتركني ومن خلقته وحيداً منفرداً بلا مال ولا ولد فأنا أكفيكه .

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ : أي يشهدون المحافل وتُسمع شهادتهم وأغلب الوقت حاضرون ولا يغيبون .

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾ : أي بسطت له في العيش والعمر والولد والجاه حتى كان يلقب بريحانة قريش .

﴿عَنِيدًا﴾ : أي معانداً وهو الوليد بن المغيرة المخزومي .

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ : أي سأكلفه يوم القيامة صعود جبل من نار كلما صعد فيه هوى في النار أبداً .

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ : أي فيما يقول في القرآن الذي سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم وقدر في نفسه ذلك .

﴿ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢﴾ : أي تروّى في ذلك ثم عبس أي قبض ما بين عينيه ثم يسر أي كلح وجهه .

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ : أي عن الإيمان واستكبر عن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم .

﴿سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ : أي ينقل من السحرة كمسيلمة وغيره .

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ : سأدخله جهنم وسقر اسم لها يدخله فيها لإحراقه بنارها .

﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ : أي لا تترك شيئا من اللحم ولا العصب إلا أهلكته ثم يعود كما كان لإدامة العذاب .

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ : أي محرقة مسودة لظاهر جلد الإنسان وهو بشرته والجمع بشر .

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ : أي ملكاً وهم خزنتها .

﴿أَصْحَابَ النَّارِ﴾ : أي خزنتها مالك وثمانية عشر معه .

﴿إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ : أي لم نجعلهم بشراً ولا جنًّا حتى لا يرحموهم بحكم الجنس .

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ : أي كونهم تسعة عشر .

﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ : أي ليستخفوا بهم كما قال أبو الأشُدين الجُمحي فيزدادوا ضلالا .

﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ : أي ليحصل اليقين لأهل التوراة والإنجيل بموافقة القرآن لكتابيهما التوراة والإنجيل .

﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾ : أي ولا يشك أهل الكتاب والمؤمنون في حقيقة ذلك .

﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ : أي مرض النفاق .

﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ أي : أي شيء أراد الله بهذا العدد الغريب استنكاراً منهم .

﴿كَذَٰلِكَ﴾ : أي مثل اضلال منكر هذا العدد وهدى مصدقه يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء .

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ : أي وما النار إلا ذكرى للبشر يتذكرون بها .

﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾ : أي ولى ومضى .

﴿إِذَآ أَسْفَرَ﴾ : أي أضاء وظهر .

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ : أي جهنم لإحدى البلايا العظام .

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ : أي عذاب جهنم نذير لبني آدم .

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ : أي أيها الناس .

﴿أَن يَتَقَدَّمَ﴾ : أي بالطاعة .

﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ : أي بالمعصية .

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ : أي مأمورة منهية .

﴿رَهِينَةٌ﴾ : أي مرهونة مأخوذة بعملها في جهنم .

﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ : أي المؤمنين فهم ناجون من النار وهم في جنات النعيم يتساءلون عن المجرمين .

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ : أي بخلا بما آتاهم الله .

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ﴾: أي في الباطل وفيما يكره الله تعالى مع الخائضين .

﴿نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ : بيوم المجازاة والثواب ولا نصدق بثواب ولا عقاب .

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ : أي الموت .

﴿عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ : أي الموعظة منصرفين لا يسمعونها ولا يقبلون عليها .

﴿حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ : أي كأنهم حمر وحشية مستنفرة .

﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ : أي هربت من أسدٍ أشدَّ الهرب .

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ﴾ : أي ليس هناك قصور في الأدلة والحجج التي قدمت لهم بل يريد كل واحد منهم .

﴿أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ : أي يصبح وعند رأسه كتاب من الله رب العالمين إلى فـــلان آمن بنبينا محمد واتبعه .

﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ : أي عظة وعبرة .

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ : أي قرأه واتعظ به .

﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ : أي هو أهل لأن يتقي لعظمه سلطانه وأليم عقابه .

﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ : أي وأهل لأن يغفر للتائبين من عباده والموحدين .(١)

صورة حية من قلب القيامة

وانطلاق أصحاب اليمين وانفلاتهم من الرهن والقيد موكول إلى فضل الله الذي يبـــارك حسناتهم ويضاعفها . وإعلان ذلك في هذا الموقف وعرضه يلمس القلوب لمسة مـــؤثرة . يلمس قلوب المجرمين المكذبين ، وهم يرون أنفسهم في هذا الموقف المهين ، الذي يعترفون فيه فيطيلون الاعتراف ، بينما المؤمنون الذين كانوا لا يحفلونهم في الدنيا ، ولا يـــالونهم ، في موقف الكرامة والاستعلاء ، يسألونهم سؤال صاحب الشأن المفوض في الموقف : ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ . . ويلمس قلوب المؤمنين الذين كانوا يلاقون من المجرمين مـــا

---

(١) تفسير الجزائري : ٣/ ٦١٥-٦٢٢ معاني الكلمات . ط/ دار الحديث .

يلاقون في الأرض ، وهم يجدون أنفسهم اليوم في هذا المقام الكريم وأعداءهم المستكبرين في ذلك المقام المهين . . وقوة المشهد تلقي في نفوس الفريقين أنه قائم اللحظة وأنهم فيه قائمون . . وتطوي صفحة الحياة الدنيا بما فيها كأنه ماض انتهى وولى! والاعتراف الطويل المفصل يتناول الجرائر الكثيرة التي انتهت بالمجرمين إلى سقر ، يعترفون بها هم بألسنتهم في ذلة المستكين أمام المؤمنين : ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ . . وهي كناية عن الإيمان كله ، تشير إلى أهمية الصلاة في كيان هذه العقيدة ، وتجعلها رمز الإيمان ودليله ، يدل إنكارها على الكفر ، ويعزل صاحبها عن صف المؤمنين .

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ . . وهذه تلي عدم الإيمان ، بوصفها عبادة الله في خلقه ، بعد عبادته سبحانه في ذاته . ويدل ذكرها بهذه القوة في مواضع شتى على الحالة الاجتماعية التي كان القرآن يواجهها ، وانقطاع الإحسان للفقير في هذه البيئة القاسية ، على الرغم من الفخر بالكرم في مواضع المفاخرة والاختيال ، مع تركه في مواضع الحاجة والعطف الخالص البريء .

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾. . وهي تصف حالة الاستهتار بأمر العقيدة ، وحقيقة الإيمان ، وأخذها مأخذ الهزل واللعب والخوض بلا مبالاة ولا احتفال . وهي أعظم الجد وأخطر الأمر في حياة الإنسان؛ وهي الشأن الذي ينبغي أن يفصل فيه ضميره وشعوره قبل أن يتناول أي شأن آخر من شؤون هذه الحياة ، فعلى أساسها يقوم تصوره وشعوره وقيمه وموازينه . وعلى ضوئها يمضي في طريق الحياة . فكيف لا يقطع فيها برأي ولا يأخذها مأخذ الجد؟ ويخوض فيها مع الخائضين ، ويلعب فيها مع اللاعبين؟

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾ وهذه أس البلايا . فالذي يكذب بيوم الدين تختل في يده جميع الموازين ، وتضطرب في تقديره جميع القيم ، ويضيق في حسه مجال الحياة ، حين يقتصر على هذا العمر القصير المحدود في هذه الأرض؛ ويقيس عواقب الأمور بما يتم منها في هذا المجال الصغير القصير ، فلا يطمئن إلى هذه العواقب ، ولا يحسب حساب التقدير

الأخير الخطير . . ومن ثم تفسد مقاييسه كلها ويفسد في يده كل أمر من أمور هذه الدنيا ، قبل أن يفسد عليه تقديره للآخرة ومصيره فيها .. وينتهي من ثم إلى شر مصير .

والمجرمون يقولون : إننا ظللنا على هذه الأحوال ، لا نصلي ، ولا نطعم المسكين ، ونخوض مع الخائضين ، ونكذب بيوم الدين . .﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾. . الموت الذي يقطع كل شك وينهي كل ريب ، ويفصل في الأمر بلا مرد . . ولا يترك مجالاً لندم ولا توبة ولا عمل صالح . . بعد اليقين . .ويعقب السياق على الموقف السيئ المهين ، بقطع كل أمل في تعديل هذا المصير :﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ . .فقد قضي الأمر ، وحق القول ، وتقرر المصير ، الذي يليق بالمجرمين المعترفين! وليس هنالك من يشفع للمجرمين أصلاً . وحتى على فرض ما لا وجود له فما تنفعهم شفاعة الشافعين!

وأمام هذا الموقف المهين الميئوس منه في الآخرة ، يردهم إلى موقف في الفرصة المتاحة لهم في الأرض قبل مواجهة ذلك الموقف؛ وهم يصدون عنها ويعرضون ، بل يفرون من الهدى والخير ووسائل النجاة المعروضة عليهم فيها ، ويرسم لهم صورة مضحكة تثير السخرية والعجب من أمرهم الغريب :﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ﴿٥٠﴾ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ﴿٥١﴾﴾ . .ومشهد حمر الوحش وهي مستنفرة تفر في كل اتجاه ، حين تسمع زئير الأسد وتخشاه . . مشهد يعرفه العرب . وهو مشهد عنيف الحركة . مضحك أشد الضحك حين يشبه به الآدميون! حين يخافون! فكيف إذا كانوا إنما ينفرون هذا النفار الذي يتحولون به من آدميين إلى حمر ، لا لأنهم خائفون مهددون بل لأن مذكراً يذكرهم بربهم وبمصيرهم ، ويمهد لهم الفرصة ليتقوا ذلك الموقف الزري المهين ، وذلك المصير العصيب الأليم؟!

إنها الريشة المبدعة ترسم هذا المشهد وتسجله في صلب الكون ، تتملاه النفوس ، فتخجل وتستنكف أن تكون فيه ، ويروح النافرون المعرضون أنفسهم يتوارون من الخجل ، ويطامنون من الإعراض والنفار ، مخافة هذا التصوير الحي العنيف!

تلك هيئتهم الخارجية . ﴿حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ۝٥٠ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ۝٥١﴾ ثم لا يدعهم حتى يرسم نفوسهم من الداخل ، وما يعتلج فيها من المشاعر :﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ۝٥٢﴾ . . فهو الحسد للنبي ﷺ أن يختاره الله ويوحي إليه؛ والرغبة الملحة أن ينال كل منهم هذه المترلة ، وأن يؤتى صحفاً تنشر على الناس وتعلن . . ولا بد أن الإشارة هنا كانت بصدد الكبراء الذين شق عليهم أن يتخطاهم الوحي إلى محمد بن عبد الله ﷺ ، فقالوا : ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف]. . ولقد علم الله أين يضع رسالته واختار لها ذلك الإنسان الكريم الكبير العظيم . فكان الحنق الذي يغلي في الصدور ، والذي يكشف عنه القرآن ، وهو يعلل ذلك ...والنفار! ثم يستمر في رسم صورة النفوس من داخلها ، فيضرب عما ذكره من ذلك الطمع والحسد ، ويذكر سبباً آخر للإعراض والجحود . وهو يردع في نفوسهم ذلك الطمع الذي لا يستند إلى سبب من صلاح ولا من استعداد لتلقي وحي الله وفضله :

﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ۝٥٣﴾ .اهـ[1]

من هداية الآيات :

١- الجد طابع المسلم ، فلا كسل ولا خمول ولا لهو ولا لعب ومن فارق هذه فليتهم نفسه في إسلامه .

٢- وجوب تعظيم أسمائه وصفاته وتعظيم كلامه وكتابه ، وتعظيم شعائره وتعظيم ما عظم .

٣- وجوب الطهارة للمؤمن بدناً وثوبا ومسجداً . أكلاً وشرباً وفراشاً ونفساً وروحا .

٤- حرمة العجب فلا يعجب المؤمن بعمله ولا يزكي به نفسه ولو صام الدهر ، وأنفق الصخرة وجاهد الدهر .

٥- وجوب الصبر على الطاعات فعلا وعلى المعاصي تركاً وعلى البلاء تسليما ورضا .

---

(١) انظر الظلال :٦/ ٣٧٦١ - ٣٧٦٣ في ظلال سورة المدثر .

٦- المال والبنون والجاه من عوامل الطغيان إلاّ أن يُسلّم الله عبده من فتنتها .

٧- من أكفر الناس من يعاند في آيات الله يريد صرف الناس عنها وإبطال هدايتها .

٨- بيان ما ظفر به طاغية قريش الوليد بن المغيرة من لعنة وعذاب شديد .

٩- تقرير الوحي وإثبات النبوة المحمدية .

١٠- تقرير البعث والجزاء .(١)

---

(١) الجزائري : ٣/ ٦١٨ ، ٦١٩ .

سُورَةُ ٱلقِيَٰمَةِ

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ
﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ
﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ
﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ
عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ﴿١٤﴾ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾

شرح الكلمات :

﴿لَآ ﴾ : أي ليس الأمر كما يدعي المشركون من أنه لا بعث ولا جزاء .

﴿أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ : أي الذي كذب به المكذبون .

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ : أي لتُبعثن ولتحاسبن ولتعاقبن أيها المكذبون الضالون .

﴿ٱللَّوَّامَةِ﴾ : أي التي إن أحسنت لامت عن عدم الزيادة وإن أساءت لامت عن عدم التقصير .

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ : أي الكافر الملحد .

﴿أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾ : أي ألاّ نجمع عظامه لنحييه للبعث والجزاء .

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ﴾ : أي بلى نجمعها حال كوننا قادرين مع جمعها على تسوية بنانه .

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾ : أي نجعل أصابعه كخف البعير أو حافر الفرس فلا يقدر على العمل الذي يقدر عليه الآن مع تفرقة أصابعه . كما نحن قادرون على جمع تلك العظام

الدقيقة عظام البنان وردّها كما كانت كما نحن قادرون على تسوية تلك الخطوط الدقيقة في الأصابع والتي تختلف بين إنسان وإنسان اختلاف الوجوه والأصوات واللهجات .

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ : أي بإنكار البعث والجزاء .

﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ : أي ليواصل فجوره زمانه كله ولذلك أنكر البعث .

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ : أي يسأل سؤال استنكار واستهزاء واستخفاف .

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ : أي دهش وتحير لمّا رأى ما كان به يكذب .

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ : أي أظلم بذهاب ضوئه .

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ : أي ذهب ضوءهما وذلك في بداية الانقلاب الكوني الذي تنتهي فيه هذه الحياة .

﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ : أي إلى أين الفرار .

﴿كَلَّا﴾ : ردع له عن طلب الفرار .

﴿لَا وَزَرَ﴾ : أي لا ملجأ يتحصن به .

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ : أي هو شاهد على نفسه حيث تنطق جوارحه بعمله .

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ : أي فلا بد من جزائه ولو ألقى معاذيره .اهـ (١)

مع السورة الكريمة

يقول الحق جلّ جلاله : ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ أي : أقسم . وإدخال ﴿لَآ﴾ النافية على فعل القسم شائع ، كإدخاله على المقسم به في « لا وربك » و « لا والله » ، وفائدتها : توكيد القسم ، وقيل : صلة ، كقوله : ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد : ٢٥] وقيل

---

(١) أنظر أيسر التفاسير للجزائري : ٣/ ٦٢٤ تفسير سورة القيامة الآيات (١ – ١٥) .

: هي نفي وَرَدَ لكلام معهود قبل القسم ، كأنهم أنكروا البعث ، فقيل : لا ، أي : ليس الأمر كذلك ، ثم قال : أقسم ﴿بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إنّ البعث لواقع . وأيًا ما كان ففي الإقسام على تحقيق البعث بيوم القيامة من الجزالة ما لا يخفى . وقيل : أصله : لأُقسم ، كقراءة ابن كثير على أنّ اللام للابتداء ، و ﴿أُقْسِمُ﴾ : خبر مبتدأ مضمر ، أي : لأنا أُقسم ، ويُقويه أنه في الإمام بغير ألف ثم أشبع فجاء الألف .

﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ ، الجمهور على أنه قسم آخر ، وقال الحسن : الثانية نفي ، أي : أُقسم بيوم القيامة لا بالنفس اللوّامة ، فيكون ذمًّا لها ، وعلى أنه قسم يكون مدحاً لها ، أي : أقسم بالنفس المتقية ، التي تلوم صاحبها على التقصير ، وإن اجتهدت في الطاعة . أو : بالنفس المطمئنة اللائمة للنفس الأمّارة ، وقيل : المراد الجنس ، ...؛ لأنّ هذا القدر من اللوم لا يكون مدراراً للإعظام بالإقسام ، وإن صدَر عن النفس المؤمنة المحسنة ، فكيف من الكافرة المندرجة تحت الجنس ، ...

وجواب القسم : لتُبعثنّ ، دليله : ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي : الكافر المنكرِ للبعث ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ بعد تفرّقها ورجوعها عظاماً رفاتاً مختلطاً بالتراب ، أو : نسفَتْها الرياح وطيَّرتْها في أقطار الأرض ، أو : ألقتها في البحار . وقيل : إنّ عَديّ بن ربيعة ، ختَنَ الأخنس بن شريق ، ..... ﴿بَلَىٰ﴾ أي : نجمعها حال كوننا ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ أي : أصابعه كما كانت في الدنيا بلا انفصال ولا تفاوت مع صغرها ، فكيف بكبار العِظام ؟! ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾ : عطف على ﴿أَيَحْسَبُ﴾ إمّا على أنه استفهام توبيخي ، أضرب عن التوبيخ بذلك إلى التوبيخ بهذا ، أو : على أنه إيجاب انتقل إليه عن الاستفهام ، أي : بل يريد ليدوم على فجوره فيما بين يديه من الأوقات ، وما يستقبله من الزمان ، لا يرعوي عنه .

قال القشيري : ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ أي : يعزم على أنه يستكثر من معاصيه في مستأنف وقته ، ولا يحلّ عقدةَ الإصرار من قلبه ، فلا تصحّ توبتُه؛ لأنّ التوبة من شرطها : العزم على أن لا يعودَ إلى مثل ما عَمِل ، فإذا كان استحلى الزلّة في قلبه ، وتفكّر في الرجوع إلى مثلـه فلا تصح ندامتُه . هـ . وقيل : ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ أي : يكفر بما قُدامه ، ويدل علـى هـذا قوله : ﴿يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾﴾ أي : متى يكون؟ استبعاداً واستهزاءً .اهـ (١)

من هداية الآيات :

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء .

٢- بيان إفضال الله على العبد في خلقه وتركيب أعضائه .

٣- معجزة قرآنية اثبتها العلم الصناعي الحديث وهي عدم تسوية خطوط الأصابع .

٤- فكما خالف تعالى بين الإنسان والإنسان وبين صوت وصوت فرّق بـين خطـوط الأصابع فلذا استعملت في الإمضاءات وقبلت في الشهادات .

٥- تقرير مبدأ أن المؤمن يثاب على ما أخر من سنة حسنة يُعمل بها بعده كما يأثم بترك السنة السيئة يُعمل بها كذلك بعده .

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾

شرح الكلمات :

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ : أي لا تحرك بالقرآن لسانك قبل فراغ جبريل منه .

﴿لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ : أي مخافة أن يتفلت منك .﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ : أي في صدرك .

---

(١) انظر البحر المديد لابن عجينة تفسير سورة القيامة الآيات (١ – ٦) .

﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ : أي قراءتك له بحيث نُجريه على لسانك .﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ : أي قرأه جبريل عليك .﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ : أي استمع قراءته .﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ : أي لك بتفهيمك ما يشكل عليك من معانيه .﴿كَلَّا﴾ : أي ليس الأمر كما تزعمون أنه لا بعث ولا جزاء .
﴿تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ : أي الدنيا فيعملون لها .﴿وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ : أم ويتركون الآخرة فلا يعملون لها .﴿نَّاضِرَةٌ﴾ : أي حسنة مضيئة .﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ : أي إلى الله تعالى ربها ناظرة بحيث لا تحجب عنه تعالى .﴿بَاسِرَةٌ﴾ : أي كالحة مسودة عابسة .﴿تَظُنُّ﴾ : أي توقن .
﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ : أي داهية عظيمة تكسر فقار الظهر .اهـ(١)

* مشهد يوم القيامة وما يجري فيه من انقلابات كونية ، ومن اضطرابات نفسية ، ومن حيرة في مواجهة الأحداث الغالبة حيث يتجلى الهول في صميم الكون ، وفي أغوار النفس وهي تروغ من هنا ومن هناك كالفأر في المصيدة! وذلك رداً على تساؤل الإنسان عن يوم القيامة في شك واستبعاد ليومها المغيب ، واستهانة بها ولجاج في الفجور . فيجيء الرد في إيقاعات سريعة ، ومشاهد سريعة ، وومضات سريعة : ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾

ومن هذه المشاهد مشهد المؤمنين المطمئنين إلى ربهم ، المتطلعين إلى وجهه الكريم في ذلك الهول . ومشهد الآخرين المقطوعين الصلة بالله ، وبالرجاء فيه ، المتوقعين عاقبة ما أسلفوا من كفر ومعصية وتكذيب . وهو مشهد يعرض في قوة وحيوية كأنه حاضر لحظة قراءة القرآن . وهو يعرض رداً على حب الناس للعاجلة ، وإهمالهم للآخرة . وفي الآخرة يكون

---

(١) تفسير الجزائري : ٣/ ٦٢٦ ، ٦٢٧ تفسير سورة القيامة الآيات (١٦ — ٢٥) .

هذا الذي يكـــون : ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ . .

وفي ثنايا السورة وحقائقها تلك ومشاهدها تعترض أربع آيات تحتوي توجيهـاً خاصـاً للرسول ﷺ وتعليماً له في شأن تلقي هذا القرآن . ويبدو أن هذا التعليم جـاء بمناسـبة حاضرة في السورة ذاتها . إذ كان الرسول ﷺ يخاف أن ينسى شيئاً مما يوحى إليه ، فكان حرصه على التحرز من النسيان يدفعه إلى استذكار الوحي فقرة فقرة في أثنـاء تلقيـه؛ وتحريك لسانه به ليستوثق من حفظه . فجاءه هذا التعليم : {﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾ . . جاءه هذا التعليم ليطمئنه إلى أن أمر هذا الوحي ، وحفظ هذا القرآن ، وجمعه ، وبيان مقاصده . . كل أولئك موكول إلى صاحبه . ودوره هو ، هو التلقي والبلاغ . فليطمئن بالاً ، وليتلق الوحي كاملاً ، فيجده في صدره منقوشاً ثابتاً . . وهكذا كان . . فأما هذا التعليم فقد ثبت في موضعه حيث نزل . . أليس من قول الله؟ وقـول الله ثابـت في أي غرض كان؟ ولأي أمر أراد؟ وهذه كلمة من كلماته تثبت في صلب الكتاب شأنها شـأن بقية الكتاب . . ودلالة إثبات هذه الآيات في موضعها هذا من السورة دلالـة عميقـة موحية على حقيقة لطيفة في شأن كل كلمات الله في أي اتجاه . . وفي شأن هذا القـرآن وتضمنه لكل كلمات الله التي أوحى بها إلى الرسول ﷺ لم يُخرم منها حرف ، ولم تنـد منها عبارة . فهو الحق والصدق والتحرج والوقار! وهكذا يشعر القلب وهو يواجه هذه السورة أنه محاصر لا يهرب . مأخوذ بعمله لا يفلت . لا ملجأ له من الله ولا عاصـم . مقدرة نشأته وخطواته بعلم الله وتدبيره ، في النشأة الأولى وفي النشأة الآخـرة سـواء ، بينما هو يلهو ويلعب ويغتـر ويتبطـر : ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾

وفي مواجهة تلك الحشود من الحقائق والمؤثرات واللمسات والإيحاءات يسمع التهديد الملفوف : ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ فيكون له وقعة ومعناه!

وهكذا تعالج السورة عناد هذا القلب وإعراضه وإصراره ولهوه . وتشعره بالجد الصارم الحازم في هذا الشأن ، شأن القيامة ، وشأن النفس ، وشأن الحياة المقدرة بحساب دقيق . ثم شأن هذا القرآن الذي لا يخرم منه حرف ، لأنه من كلام العظيم الجليل ، الذي تتجاوب جنبات الوجود بكلماته ، وتثبت في سجل الكون الثابت ، وفي صلب هذا الكتاب الكريم .

وقد عرضنا نحن لحقائق السورة ومشاهدها فرادى لمجرد البيان . وهي في نسق السورة شيء آخر . إذ أن تتابعها في السياق ، والمزاوجة بينها هنا وهناك ، ولمسة القلب بجانب من الحقيقة مرة ، ثم العودة إليه بالجانب الآخر بعد فترة . . كل ذلك من خصائص الأسلوب القرآني في مخاطبة القلب البشري؛ مما لا يبلغ إليه أسلوب آخر ، ولا طريقة أخرى . . فلنأخذ في مواجهة السورة كما هي في سياقها القرآني الخاص :﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾

هذا التلويح بالقسم مع العدول عنه أوقع في الحس من القسم المباشر؛ وهذا الوقع هو المقصود من العبارة ، وهو يتم أحسن تمام بهذا الأسلوب الخاص ، الذي يتكرر في مواضع مختلفة من القرآن . . ثم تبرز من ورائه حقيقة القيامة وحقيقة النفس اللوامة .

وحقيقة القيامة سيرد عنها الكثير في مواضعه في السورة . فأما النفس اللوامة ففي التفسيرات المأثورة أقوال متنوعة عنها . . فعن الحسن البصري : إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ وإن الفاجر يمضي قدماً ما يعاتب نفسه . . وعن الحسن : ليس أحد من أهل السماوات والأرضين إلا يلوم نفسه يوم القيامة . . وعن عكرمة : تلوم على الخير والشر : لو فعلت كذا وكذا! كذلك عن سعيد بن جبير . . وعن ابن عباس : هي النفس اللؤوم . وعنه أيضاً : اللوامة المذمومة . وعن مجاهد : تندم على ما فات وتلوم عليه . . وعن قتادة : الفاجرة .اهـ

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

شرح الكلمات :

﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ : أي النفس .﴿ٱلتَّرَاقِىَ﴾ : جمع ترقوة أي عظام الحلق .﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ : أي وقال من حوله من عواده أو ممرضيه هل هناك من يرقيه ليشفى؟ ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ : أي أيقن أنه الفراق للدنيا لبلوغ الروح الحلقوم .﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ : أي التقت إحدى ساقيه بالأخرى أو التفت شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة وما فيها من أهوال .

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ : أي إذا بلغت الروح الحلقوم تساق إلى ربها وخالقها لتلقى جزاءها .﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ : أي الإنسان الذي يحسب أن لن يجمع الله عظامه ما صدق ولا صلى .﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ﴾ : أي بالقرآن .﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ : أي عن الإيمان .

﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ : أي يتبختر في مشيته إعجابا بنفسه .﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ : أي وليك المكروه أيها المعجب بنفسه المكذب بلقاء ربه .﴿فَأَوْلَىٰ﴾ : أي فهو أولى بك .﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ : أي وليك المكروه مرة ثانية فأولى فهو أولى بك أيضا .﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ : أي مهملا لا يكلف في الدنيا ولا يحاسب ويجزى في الآخرة .﴿يُمْنَىٰ﴾ : أي تصب في الرحم .

﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ : أي خلق الله منها الإنسان فسواه بتعديل أعضائه .[1]

مع الآيات :

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء فقوله تعالى ﴿كَلَّآ﴾ أي ليس الأمر كما تحسب أيها الإنسان أن الله لا يجمع عظامك ولا يحييك ولا يجزيك انظر إليك وأنت على فراش الموت إلى أين يكون مساقك إذا بلغت روحك التراقي من عظام حلقك وقال عوادك وممرضوك هل من راق يرقيك أو طبيب يداويك وأيقنت أنه الفراق لدنياك وأهلك وذويك ، والتفت ساقك اليمنى باليسرى وشدة فراقك الدنيا بشدة إقبالك على الآخرة هنا انظر إلى أين يذهب بك أما جسمك فإلى مقره في الأرض تواريك ، وأما روحك فإلى ربك ليحكم فيك . وقد كذبت بآياته وكفرت بالآية . فلا صدقت ولا صليت ، ولكن كذبت وتوليت كان هذا نصيبك من دينك ، وأما دنياك ، فقد كنت تتمطى استكبارا وتتبختر إعجابا . إذاً ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ أي وليك الهلاك في الدنيا ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ أي وليك العذاب في الأخرى وعودة غلى تقريعك وتوبيخك يا من كفرت ربك وتنكرت لأصلك اسمع ما يُقال لك أحسبت أنك تترك سدى ، تعيش سبهللا ، لا تؤمر ولا تنهى ، لا يؤخذ منك ولا تُعطى كلا ألم تك قبل كفرك وجحودك نطفة قطرة ماء من منيّ تمنى قل بلى أو أولى لك فأولى ، ثم كنت علقة فخلقك الله جل جلاله منها

---

(١) أيسر التفاسير : ٣/ ٦٢٨ ط/ دار الحديث

فسوىّ خلقك بتعديل أعضائك فجعل من نوعك الذكر والأنثى . قل لي بربك هل تنكر ذلك فإن قلت لا . قلنا أليس الله بقادر على أن يحيى الموتى؟ سبحانك اللهم بلى .

من هداية الآيات :

١- مشروعية الرقية إذا كانت بالقرآن أو الكلم الطيب .

٢- التنويه بشأن الزكاة والصلاة فرائض ونوافل .

٣- تحريم العجب والكبرياء والتبختر في المشي .

٤- تقرير عقيدة البعث والجزاء .

٥- الإنسان لم يخلق عبثا والكون كله كذلك .

٦- مشروعية قول سبحانك اللهم بلى لمن قرأ هذه الآية أو سمعها إماماً كان أو مأمومـاً وهي ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ .اهـ [1]

---

(١) أنظر أيسر التفاسير : ٣/ ٦٢٩ تفسير سورة القيامة الآيات (٢٦ – ٤٠) .

سُورَةُ ٱلۡإِنسَٰنِ

بين يدي السورة

في بعض الروايات أن هذه السورة مدنية ، ولكنها مكية؛ ومكيتها ظاهرة جداً ، في موضوعها وفي سياقها ، وفي سماتها كلها . لهذا رجحنا الروايات الأخرى القائلة بمكيتها . بل نحن نلمح من سياقها أنها من بواكير ما نزل من القرآن المكي . . تشي بهذا صور النعيم الحسية المفصلة الطويلة ، وصور العذاب الغليظ ، كما يشي به توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الصبر لحكم ربه ، وعدم إطاعة آثم منهم أو كفور؛ مما كان يتنزل عند اشتداد الأذى على الدعوة وأصحابها في مكة ، مع إمهال المشركين وتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم على الحق الذي نزل عليه ، وعدم الميل إلى ما يدهنون به . . كما جاء في سورة القلم ، وفي سورة المزمل ، وفي سورة المدثر ، مما هو قريب من التوجيه في هذه السورة . . واحتمال أن هذه السورة مدنية في نظرنا هو احتمال ضعيف جداً ، يمكن عدم اعتباره!

والسورة في مجموعها هتاف رخي ندي إلى الطاعة ، والالتجاء إلى الله ، وابتغاء رضاه ، وتذكر نعمته ، والإحساس بفضله ، واتقاء عذابه ، واليقظة لابتلائه ، وإدراك حكمته في الخلق والإنعام والابتلاء والإملاء . .

وهي تبدأ بلمسة رفيقة للقلب البشري : أين كان قبل أن يكون؟ من الذي أوجده؟ ومن الذي جعله شيئاً مذكوراً في هذا الوجود؟ بعد أن لم يكن له ذكر ولا وجود : ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾ . .

تتلوها لمسة أخرى عن حقيقة أصله ونشأته ، وحكمة الله في خلقه ، وتزويده بطاقاته ومداركه : ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ٢﴾.

ولمسة ثالثة عن هدايته إلى الطريق ، وعونه على الهدى ، وتركه بعد ذلك لمصيره الــذي يختاره : ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ . .

وبعد هذه اللمسات الثلاث الموحية ، وما تثيره في القلب من تفكير عميق ، ونظــرة إلى الوراء . ثم نظرة إلى الأمام ، ثم التحرج والتدبر عند اختيار الطريق . . بعد هذه اللمسات الثلاث تأخذ السورة في الهتاف للإنسان وهو على مفرق الطريق لتحذيره من طريق النار . . وترغيبه في طريق الجنة ، بكل صور الترغيب ، وبكل هواتف الراحة والمتاع والنعــيم والتكريم : ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ . .

وقبل أن تمضي في عرض صور المتاع ترسم سمات هؤلاء الأبرار في عبارات كلها انعطاف ورقة وجمال وخشوع يناسب ذلك النعيم الهانئ الرغيــد : ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾.

ثم تعرض جزاء هؤلاء القائمين بالعزائم والتكاليف ، الخائفين من اليوم العبوس القمطرير ، الخيرين المطعمين على حاجتهم إلى الطعام ، يبتغون وجه الله وحده ، لا يريدون شــكوراً من أحد ، إنما يتقون اليوم العبوس القمطرير!

تعرض جزاء هؤلاء الخائفين الوجلين المطعمين المؤثرين . فإذا هو الأمن والرخاء والنعــيم اللين الرغيد : ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۝١٥ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨ ۞

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا
﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا
﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾

فإذا انتهى معرض النعيم اللين الرغيد المطمئن الهانئ الودود ، اتجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ لتثبيته على الدعوة في وجه الإعراض والكفر والتكذيب وتوجيهه إلى الصبر وانتظار حكم الله في الأمر؛ والاتصال بربه والاستمداد منه كلما طال الطريق : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا
عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ
رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ﴾ . .

ثم تذكيرهم باليوم الثقيل الذي لا يحسبون حسابه؛ والذي يخافه الأبرار ويتقونه ، والتلويح لهم بهوان أمرهم على الله ، الذي خلقهم ومنحهم ما هم فيه من القوة ، وهو قادر على الذهاب بهم ، والإتيان بقوم آخرين؛ لولا تفضله عليهم بالبقاء ، لتمضي مشيئة الابتلاء .

ويلوح لهم في الختام بعاقبة هذا الابتلاء : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ
يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ
هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ . .

تبدأ السورة بالتذكير بنشأة الإنسان وتقدير الله في هذه النشأة ، على أساس الابتلاء ، وتختم ببيان عاقبة الابتلاء ، كما اقتضت المشيئة منذ الابتداء . فتوحي بذلك البدء وهذا الختام بما وراء الحياة كلها من تدبير وتقدير ، لا ينبغي معه أن يمضي الإنسان في استهتاره غير واع ولا مدرك ، وهو مخلوق ليبتلى ، وموهوب نعمة الإدراك لينجح في الابتلاء .

وبين المطلع والختام ترد أطول صورة قرآنية لمشاهد النعيم . أو من أطولها إذا اعتبرنا ما جاء في سورة الواقعة من صور النعيم ، وهو نعيم حسي في جملته ، ومعه القبول والتكريم ، وهو بتفصيله هذا وحسيته يوحي بمكيته ، حيث كان القوم قريبي عهد بالجاهلية ، شديدي التعلق بمتاع الحواس ، يبهرهم هذا اللون ويعجبهم ، ويثير تطلعهم ورغبتهم .اهـ (١)

شرح الكلمات :

﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ : أي قد أتى .

﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ : أي آدم عليه السلام .

﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ : أي أربعون سنة (٢).

﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ : أي لا نباهة ولا رفعة له لأنه طين لازب وحمأ مسنون وذلك قبل أن ينفخ الله تعالى فيه الروح .

﴿أَمْشَاجٍ﴾ : أي أخلاط من ماء المرأة وماء الرجل .

﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ : أي نختبره بالتكاليف بالأمر والنهي عند تأهله لذلك بالبلوغ والعقل .

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ : أي بينا له طريق الهدى ببعثة الرسل وإنزال الكتب .

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ : أي هيأنا .

﴿سَلَٰسِلَا۟﴾ : أي يسحبون بها في نار جهنم .

﴿وَأَغْلَٰلًا﴾: أي في أعناقهم .

---

(١) انظر الظلال :٦/٣٧٧٧ - ٣٧٧٩ في ظلال سورة الإنسان ط/ دار الشروق .

(٢) ترك ذلك اللفظ على أصله هو الأوجه أي وقت من الدهر والزمن .

﴿وَسَعِيرًا﴾ : أي ناراً مسعرة مهيجة .

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ : أي المطيعين لله ورسوله الصادقين في إيمانهم وأقوالهم وأحوالهم .

﴿مِزَاجُهَا﴾ : أي ما تمزج به وتخلط .﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾ : أي يجرونها ويُسيلونها حيث شاءوا .

﴿شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ : أي ممتداً طويلاً فاشياً منتشراً .﴿عَبُوسًا﴾ : أي تكلح الوجوه من طوله وشدته . ﴿نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ : أي حسنا ووضاءة في وجوههم وفرحاً في قلوبهم .

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ : أي على الأسرة بالحجلة واحد الأرائك أريكة .﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ : أي ولا برداً شديداً ولا قمراً إذ هي تضاء من نفسها .﴿وَدَانِيَةً﴾ : أي قريبة منهم ظلال أشجار الجنة .﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ : أي بحيث ينالها المؤمن قائماً وقاعداً ومضطجعاً .

﴿وَأَكْوَابٍ﴾ : أي أقداح بلا عُرا .﴿مِن فِضَّةٍ﴾ : أي يرى باطنها من ظاهرها .

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ : أي على قدر الشاربين بلا زيادة ولا نقص .

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا﴾ : أي خمراً .﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ : أي ما تمزج وتخلط به زنجبيلا ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ : أي بصفة الولدان لا يشيبون .﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ : أي من سلكه أو من صدفه لحسنهم وجمالهم وانتشارهم في الخدمة .﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ : أي في الجنة رأيت نعيما لا يوصف وملكا واسعا لا يقدر .﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ : أي حرير .﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ : أي ما غلظ من الديباج .﴿وَحُلُّوٓا۟﴾ : أي تحليهم الملائكة بها .﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ : أي فائقا على النوعين السابقين ولذا أسند سقيه إلى الله ﷻ.﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ : أي النعيم .

﴿مَّشْكُورًا﴾ : أي مرضيا مقبولا . ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ : أي شيئا فشيئا ولم ينزله جملة واحدة لحكمة بالغة .

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ : أي عليك بحمل رسالتك وإبلاغها إلى الناس .

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ : الآثم هنا عتبة بن ربيعة والكفور الوليد بن المغيرة[1] .

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ : أي صل الصبح والظهر والعصر .

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ : أي صل صلاة المغرب والعشاء .

﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ : أي تهجد بالليل نافلة لك .

﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ : أي الدنيا .

﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ : أي يوم القيامة .

﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ : أي قوينا أعضاءهم ومفاصلهم .

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ : أي جعلنا أمثالهم في الخلقة بدلا منهم بعد أن نهلكهم .

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ : أي عظة للناس .

﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ : أي طريقا إلى مرضاته وجواره بالإيمان والعمل الصالح وترك الشرك والمعاصي .

﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ : أي الجنة .

﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ : أي في النار والأليم ذو الألم الموجع .اهـ[2]

وقفات مع الآيات

ذكر الله في هذه السورة الكريمة أول حالة الإنسان ومبتدأها ومتوسطها ومنتهاها.

فذكر أنه مر عليه دهر طويل وهو الذي قبل وجوده، وهو معدوم بل ليس مذكورا.

---

(١) والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

(٢) انظر أيسر التفاسير للجزائري:٣/ ٦٣٠ ، ٦٣٣ ، ٦٣٥ تفسير سورة الإنسان ط/ دار الحديث .

ثم لما أراد الله تعالى خلقه، خلق [أباه] آدم من طين، ثم جعل نسله متسلسلا ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ أي: ماء مهين مستقذر ﴿نَّبْتَلِيهِ ﴾ بذلك لنعلم هل يرى حاله الأولى ويتفطن لها أم ينساها وتغره نفسه؟ فأنشأه الله، وخلق له القوى الباطنة والظاهرة، كالسمع والبصر، وسائر الأعضاء، فأتمها له وجعلها سالمة يتمكن بها من تحصيل مقاصده.

ثم أرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب، وهداه الطريق الموصلة إلى الله ، ورغبه فيها، وأخبره بما له عند الوصول إلى الله.

ثم أخبره بالطريق الموصلة إلى الهلاك، ورهبه منها، وأخبره بما له إذا سلكها، وابتلاه بذلك، فانقسم الناس إلى شاكر لنعمة الله عليه، قائم بما حمله الله من حقوقه، وإلى كفور لنعمة الله عليه، أنعم الله عليه بالنعم الدينية والدنيوية، فردها، وكفر بربه، وسلك الطريق الموصلة إلى الهلاك. ثم ذكر تعالى حال الفريقين عند الجزاء فقال:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾

إلى آخر الثواب أي: إنا هيأنا وأرصدنا لمن كفر بالله، وكذب رسله، وتجرأ على المعاصي ﴿سَلَٰسِلَا۟ ﴾ في نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة] .

﴿وَأَغْلَٰلًا ﴾ تغل بها أيديهم إلى أعناقهم ويوثقون بها.

﴿وَسَعِيرًا ﴾ أي: نارا تستعر بها أجسامهم وتحرق بها أبدانهم، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] وهذا العذاب دائم لهم أبدا، مخلدون فيه سرمداً.

وأما ﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ وهم الذين برت قلوبهم بما فيها من محبة الله ومعرفته، والأخلاق الجميلة، فبرت جوارحهم ، واستعملوها بأعمال البر أخــبر أنهـــم ﴿يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ﴾ أي: شراب لذيذ من خمر قد مزج بكافور أي: خلط به ليبرده ويكسر حدته، وهذا الكـــافور [في غاية اللذة] قد سلم من كل مكدر ومنغص، موجود في كافور الدنيا، فــإن الآفــة الموجودة في الأسماء التي ذكر الله أنها في الجنة وهي في الدنيا تعدم في الآخرة .

كما قال تعـــالى: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ۝٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ۝٢٩﴾ ﴿وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ ﴿۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾ ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾

﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ أي: ذلك الكأس اللذيذ الذي يشربون به، لا يخافون نفاده، بل له مادة لا تنقطع، وهي عين دائمة الفيضان والجريان، يفجرهـــا عبـــاد الله تفجـــيرا، أنى شاءوا، وكيف أرادوا، فإن شاءوا صرفوها إلى البســاتين الزاهـــرات، أو إلى الريـــاض الناضرات، أو بين جوانب القصور والمساكن المزخرفات، أو إلى أي: جهة يرونهـــا مـــن الجهات المونقات.

وقد ذكر جملة من أعمالهم في أول هذه السورة، فقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ أي: بما ألزموا بـــه أنفسهم لله من النذور والمعاهدات، وإذا كانوا يوفون بالنذر، وهو لم يجـــب علـــيهم، إلا بإيجابهم على أنفسهم، كان فعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية، من بـــاب أولى وأحـــرى، ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ أي: منتشراً فاشياً، فخافوا أن ينالهم شره، فتركوا كـــل سبب موجب لذلك، ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: وهم في حال يحبون فيها المـــال والطعام، لكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم، ويتحرون في إطعـــامهم أولى النـــاس وأحوجهم ﴿مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾ .

ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه الله تعالى، ويقولون بلسان الحال: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ أي: لا جزاء ماليا ولا ثناء قولياً.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا﴾ أي: شديد الجهمة والشر ﴿قَمۡطَرِيرٗا﴾ أي: ضنكا ضيقا، ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ فلا يحزنهم الفزع الأكبر، وتتلقاهم الملائكة ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝١٠٣﴾ [الأنبياء].

﴿وَلَقَّىٰهُمۡ﴾ أي: أكرمهم وأعطاهم ﴿نَضۡرَةٗ﴾ في وجوههم ﴿وَسُرُورٗا﴾ في قلوبهم، فجمع لهم بين نعيم الظاهر والباطن ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ على طاعة الله، فعملوا ما أمكنهم منها، وعن معاصي الله، فتركوها، وعلى أقدار الله المؤلمة، فلم يتسخطوها، ﴿جَنَّةٗ﴾ جامعة لكل نعيم، سالمة من كل مكدر ومنغص، ﴿وَحَرِيرٗا﴾ كما قال ﷻ ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ۝٢٣﴾ [الحج] ولعل الله إنما خص الحرير، لأنه لباسهم الظاهر، الدال على حال صاحبه. ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ الاتكاء: التمكن من الجلوس، في حال الرفاهية والطمأنينة [الراحة]، والأرائك هي السرر التي عليها اللباس المزين، ﴿لَا يَرَوۡنَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿شَمۡسٗا﴾ يضرهم حرها ﴿وَلَا زَمۡهَرِيرٗا﴾ أي: بردا شديدا، بل جميع أوقاتهم في ظل ظليل، لا حر ولا برد، بحيث تلتذ به الأجساد، ولا تتألم من حر ولا برد.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ۝١٤﴾ أي: قربت ثمراتها من مريدها تقريبا ينالها، وهو قائم، أو قاعد، أو مضطجع.

ويطاف على أهل الجنة أي: يدور [عليهم] الخدم والولدان ﴿بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ﴾ أي: مادتها من فضة، وهي على صفاء القوارير، وهذا من أعجب الأشياء، أن تكون الفضة الكثيفة من صفاء جوهرها وطيب معدنها على صفاء القوارير.

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي: قدروا الأواني المذكورة على قدر ريهم، لا تزيد ولا تنقص، لأنها لو زادت نقصت لذتها، ولو نقصت لم تف بريهم . ويحتمل أن المراد: قدرها أهل الجنة بنفوسهم بمقدار يوافق لذاتهم، فأتتهم على ما قدروا في خواطرهم.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة من كأس، وهو الإناء المملوء من خمر ورحيق، ﴿كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أي: خلطها ﴿زَنجَبِيلًا﴾ ليطيب طعمه وريحه.

﴿عَيْنًا فِيهَا﴾ أي: في الجنة، ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ سميت بذلك لسلاستها ولذتها وحسنها.

﴿وَيَطُوفُ﴾ على أهل الجنة، في طعامهم وشرابهم وخدمتهم.

﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: خلقوا من الجنة للبقاء، لا يتغيرون ولا يكبرون، وهم في غاية الحسن، ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ منتشرين في خدمتهم ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾ من حسنهم ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ وهذا من تمام لذة أهل الجنة، أن يكون خدامهم الولدان المخلدون، الذين تسر رؤيتهم، ويدخلون على مساكنهم، آمنين من تبعتهم، ويأتونهم بما يدعون وتطلبه نفوسهم، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ﴾ أي: هناك في الجنة، ورمقت ما هم فيه من النعيم ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ فتجد الواحد منهم، عنده من القصور والمساكن والغرف المزينة المزخرفة، ما لا يدركه الوصف، ولديه من البساتين الزاهرة، والثمار الدانية، والفواكه اللذيذة، والأنهار الجارية، والرياض المعجبة، والطيور المطربة [المشجية] ما يأخذ بالقلوب، ويفرح النفوس.

وعنده من الزوجات. اللاتي هن في غاية الحسن والإحسان، الجامعات لجمال الظاهر والباطن، الخيرات الحسان، ما يملأ القلب سرورا، ولذة وحبورا، وحوله من الولدان

المخلدين، والخدم المؤبدين، ما به تحصل الراحة والطمأنينة، وتتم لذة العيش، وتكمل الغبطة ؛ ثم علاوة ذلك وأعظمه الفوز برؤية الرب الرحيم، وسماع خطابه، ولذة قربه، والابتهاج برضاه، والخلود الدائم، وتزايد ما هم فيه من النعيم كل وقت وحين، فسبحان الملك المالك، الحق المبين، الذي لا تنفد خزائنه، ولا يقل خيره، فكما لا نهاية لأوصافه فلا نهاية لبره وإحسانه.

﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٌ﴾ أي: قد حللتهم ثياب السندس والإستبرق الأخضران، اللذان هما أجل أنواع الحرير، فالسندس: ما غلظ من الديباج والإستبرق: ما رق منه. ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ أي: حلوا في أيديهم أساور الفضة، ذكورهم وإناثهم، وهذا وعد وعدهم الله، وكان وعده مفعولا لأنه لا أصدق منه قيلا ولا حديثا.

وقوله:﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي: لا كدر فيه بوجه من الوجوه، مطهرا لما في بطونهم من كل أذى وقذى.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الجزاء الجزيل والعطاء الجميل ﴿كَانَ لَكُمۡ جَزَآءً﴾ على ما أسلفتموه من الأعمال، ﴿وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ أي: القليل منه، يجعل الله لكم به من النعيم المقيم ما لا يمكن حصره.

وقوله تعالى لما ذكر نعيم الجنة ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ فيه الوعد والوعيد وبيان كل ما يحتاجه العباد، وفيه الأمر بالقيام بأوامره وشرائعه أتم القيام، والسعي في تنفيذها، والصبر على ذلك. ولهذا قال: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ أي: اصبر لحكمه القدري، فلا تسخطه، ولحكمه الديني، فامض عليه، ولا يعوقك عنه عائق. ﴿وَلَا تُطِعۡ﴾ من المعاندين، الذين يريدون أن يصدوك ﴿ءَاثِمًا﴾ أي: فاعلا إثما ومعصية ولا ﴿كَفُورًا﴾ فإن طاعة الكفار والفجار والفساق، لا بد أن تكون في

المعاصي، فلا يأمرون إلا بما تهواه أنفسهم. ولما كان الصبر يساعده القيـام بعبـادة الله ، والإكثار من ذكره أمره الله بذلك فقـال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ أي: أول النهار وآخره، فدخل في ذلك، الصلوات المكتوبات وما يتبعها من النوافل، والذكر، والتسبيح، والتهليل، والتكبير في هذه الأوقات.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ أي: أكثر [له] من السجود، ولا يكون ذلك إلا بالإكثار من الصلاة . ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ وقد تقدم تقييد هذا المطلق بقولـه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾ [المزمل] [وقوله] ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: المكذبين لـك أيهـا الرسول بعد ما بينت لهم الآيات، ورغبوا ورهبوا، ومع ذلك، لم يفد فيهم ذلك شيئا، بل لا يزالون يؤثرون، ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ ويطمئنون إليهـا، ﴿وَيَذَرُونَ﴾ أي: يتركـون العمـل ويهملون ﴿وَرَآءَهُمْ﴾ أي: أمامهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ وهو يوم القيامة، الذي مقداره خمسـون ألف سنة مما تعدون، وقال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر] فكأنهم ما خلقوا إلا للدنيا والإقامة فيها.اهـ

من هداية الآيات :

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء .

٢- بيان إفضال الله على العبد في خلقه وتركيب أعضائه .

٣- معجزة قرآنية اثبتها العلم الصناعي الحديث وهي عدم تسوية خطوط الأصابع .

٤- فكما خالف تعالى بين الإنسان والإنسان وبين صوت وصوت فرّق بـين خطـوط الأصابع فلذا استعملت في الإمضاءات وقبلت في الشهادات .

٥- تقرير مبدأ أن المؤمن يثاب على ما أخر من سنة حسنة يُعمل بها بعده كما يأثم بترك السنة السيئة يُعمل بها كذلك بعده .

٦- مشروعية الرقية إذا كانت بالقرآن أو الكلم الطيب .

٧- التنويه بشأن الزكاة والصلاة فرائض ونوافل .

٨- تحريم العجب والكبرياء والتبختر في المشي .

٩- تقرير عقيدة البعث والجزاء .

١٠- الإنسان لم يخلق عبثا والكون كله كذلك .

١١- مشروعية قول سبحانك اللهم بلى لمن قرأ هذه الآية أو سمعها إماماً كان أو مأموماً وهي ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القيامة]

١٢- بيان نشأة الإنسان الأب والإنسان الابن وما تدل عليه من إفضال الله وإكرامه لعباده .

١٣-حاستا السمع والبصر وجودهما معاً أو وجود إحداهما ضروري للتكليف مع ضميمة العقل

١٤بيان أن الإنسان أمامه طريقين فليسلك أيهما شاء وكل طريق ينتهي به إلى غاية فطريق الرشد يوصل إلى الجنة دار النعيم ، وطريق الغي يوصل إلى دار الشقاء الجحيم .

١٥- وجوب الوفاء بالنذر فمن نذر شيئا لله وجب أن يفي بنذره إلا أن ينذر معصية فلا يجوز له الوفاء بنذره فيها فمن قال لله على أن أصوم يوم أو شهر كذا وجب عليه أن يصوم ومن قال لله علي أن لا أصل رحمي ، أو أن لا أصلي ركعة مثلا فلا يجوز له الوفاء بنذره وليصل رحمه وليصل صلاته ولا كفارة عليه .

١٦- الترغيب في إطعام الطعام للمحتاجين إليه من فقير ويتيم وأسير .

سُورَةُ المُرْسَلَات

بين يدي السورة

هذه السورة ...وهي تقف القلب وقفة المحاكمة الرهيبة ، حيث يواجه بسيل من الاستفهامات والاستنكارات والتهديدات ، تنفذ إليه كالسهام المسنونة!

وتعرض السورة من مشاهد الدنيا والآخرة ، وحقائق الكون والنفس ، ومناظر الهول والعذاب ما تعرض . وعقب كل معرض ومشهد تلفح القلب المذنب لفحة كأنها من نار : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾! ويتكرر هذا التعقيب عشر مرات في السورة .... وهو أنسب تعقيب لملامحها الحادة ، ومشاهدها العنيفة ، وإيقاعها الشديد

وهذه اللازمة تذكرنا باللازمة المكررة في سورة « الرحمن » عقب عرض كل نعمة من نعم الله على العباد : ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن] كما تذكرنا باللازمة المكررة في سورة « القمر » عقب كل حلقة من حلقات العذاب : ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ [القمر] وتكرارها هنا على هذا النحو يعطي السورة سمة خاصة ، وطعماً مميزاً . . حاداً . .وتتوالى مقاطع السورة وفواصلها قصيرة سريعة عنيفة ، متعددة القوافي . كل مقطع بقافية . ويعود السياق أحياناً إلى بعض القوافي مرة بعد مرة . ويتلقى الحس هذه المقاطع والفواصل والقوافي بلذعها الخاص ،... واحدة إثر واحدة ....ومنذ بداية السورة والجو عاصف ثائر بمشهد الرياح أو الملائكة : ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾. . وهو افتتاح يلتئم مع جو السورة وظلها تمام الالتئام .

وللقرآن في هذا الباب طريقة خاصة في اختيار إطار للمشاهد في بعض السور من لون هذه المشاهد وقوتها . . وهذا نموذج منها ، كما اختار إطاراً من الضحى والليل إذا سجى

لمشاهد الرعاية والحنان والإيواء في « سورة الضحى » وإطاراً من العاديات الضابحة الصاخبة المثيرة للغبار لمشاهد بعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور في سورة «والعاديات» . . وغيرها كثير ؛ وكل مقطع من مقاطع السورة العشرة بعد هذا المطلع ، يمثل جولة أو رحلة في عالم ، تتحول السورة معه إلى مساحات عريضة من التأملات والمشاعر والخواطر والتأثرات والاستجابات . . أعرض بكثير جداً من مساحة العبارات والكلمات ، وكأنما هذه سهام تشير إلى عوالم شتى !

والجولة الأولى تقع في مشاهد يوم الفصل . وهي تصور الانقلابات الكونية الهائلة في السماء والأرض ، وهي الموعد الذي تنتهي إليه الرسل بحسابها مع البشر : ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾

والجولة الثانية مع مصارع الغابرين ، وما تشير إليه من سنن الله في المكذبين : ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ .

والجولة الثالثة مع النشأة الأولى وما توحي به من تقدير وتدبير : ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ .

والجولة الرابعة في الأرض التي تضم أبناءها إليها أحياء وأمواتاً ، وقد جهزت لهم بالاستقرار والماء المحيي : ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ﴿٢٧﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ . .

والجولة الخامسة مع المكذبين وما يلقونه يوم الفصل من عذاب وتأنيب : ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾ . .

والجولة السادسة والسابعة استطراد مع موقف المكذبين ، ومزيد من التأنيب والترذيل : ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

والجولة الثامنة مع المتقين ، وما أعد لهم من نعيم : ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾

والجولة التاسعة خطفة سريعة مع المكذبين في موقـف التأنيـب : ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

والجولة العاشرة خطفة سريعة مع المكذبين في موقف التكذيب : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ . .

والخاتمة بعد هذه الجولات والاستعراضات والوخزات والإيقاعـات : ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

وهكذا يمضي القلب مع سياق السورة السريع ، وكأنه يلهث مـع إيقاعهـا وصـورها ومشاهدها . فأما الحقائق الموضوعية في السورة فقد تكرر ورودها في سور القرآن والمكية منها بوجه خاص ولكن الحقائق القرآنية تعرض من جوانب متعددة ، وفي أضواء متعددة ، وبطعوم ومذاقات متعددة ، وفق الحالات النفسية التي تواجهها ، ووفق مداخل القلوب

وأحوال النفوس التي يعلمها مترل هذا القرآن على رسوله ، فتبدو في كل حالة جديدة ، لأنها تستجيش في النفس استجابات جديدة .

وفي هذه السورة جدة في مشاهد جهنم . وجدة في مواجهة المكذبين بهذه المشاهد . كما أن هناك جدة في أسلوب العرض والخطاب كله . ومن ثم تبرز شخصية خاصة للسورة . حادة الملامح . لاذعة المذاق .اهـ (١)

شرح الكلمات :

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ : المرسلات الرياح الطيبة والعرف المتابعة .

﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾: فالرياح الشديدة الهبوب المضرة لشدتها .

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ : الرياح تنشر المطر وتفرقه في السماء نشرا .

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ : أي فالملائكة تلقى بالوحي على الأنبياء للتذكير به .

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ : أي للأعذار بالنسبة إلى أقوام أو إنذار بالنسبة إلى آخرين .

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ : أي إنما توعدون أيها الناس لكائن لا محالة .

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ : أي محي نورها وذهبت .

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ : أي انشقت وتصدعت .

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ : أي نسفت فإذا هي هباء منبث مفرق هنا وهناك .

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ : أي جمعت لوقت حدد لها لتحضر فيه .

﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ : أي اليوم الذي يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق .(٢)

---

(١) الظلال : ٦/ ٣٧٨٩ – ٣٧٩١ ط/ دار الشروق

(٢) الجزائري : ٦٣٧/٣ ط/ دار الحديث

معنى الآيات :

قوله تعالى ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾ هذا بداية قسم الله تعالى أقسم فيه بعدة أشياء من مخلوقاتــه ولله أن يقسم بما شاء ، والحكمة من الإقسام أن تسكن النفوس للخبر وتطمئن إلى صدق المخبر فيه وبذلك يحصل الغرض من إلقاء الخبر على السامعين والمقسم به هنا المرســلات وهي الرياح المتابعة الطيبة العذبة والعاصفات منها وهي الشديدة الهبوب التي قد تعصف بالأشجار وتقتلعها وبالمباني وتهدمها ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾ وهي الرياح المعتدلة الــتي تنشـر السحاب وتفرقه أو تسوقه للإمطار وإنزال المطر ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا﴾ وهي آيــات القــرآن الكريم تفرق بين الحق والباطل ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ٥ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ٦﴾ وهي الملائكــة تلقى بالوحي على من اصطفى الله تعالى من عباده للأعذار والإنذار أي تعذر أناسا وتنذر آخرين هذا هو القسم والقسم هو الله والمقسم عليه هو قوله جل ذكره ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أيها الناس من خير أو شر ﴿لَوَٰقِعٞ﴾ أي كائن لا محالة وعليه فأصلحوا أعمــالكم بعــد تصحيح نياتكم فإن الجزاء واقع لا يتخلف أبدا ولا يتغير ولا يتبدل ومتى يقع هذا الموعود الكائن لا محالة والجواب يقع في يوم الفصل إذاً فما هو يوم الفصل والجواب يوم يحضر الله الشهود من الملائكة والرسل ويفصل بين الناس ومتى يكون يوم الفصــل والجــواب إذا النجوم طمست أي ذهب نورها ومحى وإذا السماء فرجت أي انشقت وتصــدعت وإذا الجبال نسفت أي فتت وإذا الرسل أقتت أي حدد لها وقت معين تحضر فيه وهــو يــوم الفصل وما أدراك ما يوم الفصل تفخيم لشانه وإعلام بهوله وقوله تعالى ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي يوم يقع الفصل العذاب الهائل الكبير ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بالله وبآياته ولقائه ورسوله .[١]

---

(١) المصدر السابق ٦٣٨/٣

من هداية الآيات :

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء .

٢- لله تعالى أن يقسم بما يشاء من خلقه وليس للعبد أن يقسم بغير خالقه عز وجل .

٣- علامات القيامة وظاهرة الانقلاب الكوني العام وهي انطماس ضوء النجوم وانفراج السماء ونسف الجبال .(١)

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ (١٧) كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨)﴾

شرح الكلمات :

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ : أي كقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم إلى البعثة النبوية وذلك بتكذيبهم .

﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾ : أي إن أصروا على التكذيب ككفار مكة .

﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ : أي مثل ذلك الهلاك نهلك المجرمين .

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ : أي إذا جاء وقت الهلاك ويل فيه للمكذبين .

﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ : أي المنيّ والمهين الضعيف .

﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ : أي حريز وهو الرحم .

﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ : أي إلى وقت الولادة .

---

(١) المصدر السابق .

﴿فَقَدَرْنَا﴾ : أي خلقه .

﴿فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾ : أي نحن على الخلق والتقدير .

﴿كِفَاتًا﴾ : أي تكفت الناس أي تضمهم أحياء فوق ظهرها وأمواتا في بطنها .

﴿رَوَٰسِىَ شَـٰمِخَـٰتٍ﴾ : أي جبال عاليات .

﴿فُرَاتًا﴾ : أي عذباً .(١)

معنى الآيات :

قوله تعالى ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ إنه لما أقسم تعالى على وقوع ما أوعد به المكذبين من عذاب يوم القيامة وذكر وقت مجيئه وعلامات ذلك وذكر أن الرسل أقتت ليوم الفصل وهو اليوم الذي يفصل فيه تعالى بين الخلائق فيقتص من الظالم للمظلوم ، ويجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته وتوعد المكذبين بذلك فقال ويل يومئذ للمكذبين دلل هنا على قدرته على إهلاك المكذبين بما سبق له أن فعله بالمكذبين فقال في استفهام تقريري لا ينكر ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ من الأمم السابقة كعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط إلى زمن البعثة النبوية ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ فقد أهلك أكابر مجرمي قريش في بدر وقوله ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ وهو وعيد صريح وحقا والله لقد أهلك المجرمين ولو ينج من الهلاك مجرم وويل يومئذ للمكذبين وقوله تعالى ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾. هذا استدلال آخر على قدرة الله وعلمه اللذين لا يتم البعث والجزاء إلا عليهما قدرة لا يعجزها شيء

---

(١) الجزائري : ٣/ ٦٣٩ .

وعلم لا يخفى معه شيء فقال مستفهما استفهاما تقريريا ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي ضعيف هو المني ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي الماء ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ أي حريز حصين وهو الرحم ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ وهو زمن الولادة ﴿فَقَدَرْنَا﴾ أي خلق الجنين على أحسن صورة أدق تركيب المسافات بين الأعضاء كما بين العينين كما بين اليدين والرجلين كما بين الأذنين كلها مقدرة تقديرا عجيبا لا تزيد ولا تنقص ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ على الخلق والتقدير معا والجواب بلى و لم إذاً تكفرون وتكذبون؟ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ وقوله ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ هذا استدلال آخر على قدرة الله على البعث والجزاء والاستفهام فيه للتقرير أيضا ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾ أي مكان كفاية مأخوذ من كفت الشيء إذا ضمه غلى بعضه بعضا والأرض ضامة للناس كافية لهم كافتة الأحياء على ظهرها يسكنون ويأكلون ويشربون والأموات في بطنها لا تضيق هم أبدا كما لم تضق بالأحياء ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ أي جبال عاليات ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ أي عذبا وهو ماء السماء ناقعا في الأرض وجاريا في الأودية والأنهار والجواب بلى ، بلى إذاً مالكم أيها المشركون كيف تكذبون؟ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ أي ويل لهم إذا حان وقت هلاكهم أي يوم الفصل ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾

من هداية الآيات :

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء .

٢- الاستدلال على البعث والجزاء بالقدرة والعلم إذ هما أساس البعث والجزاء .

٣- بيان إنعام الله تعالى على عباده في خلقهم ورزقهم وتدبير حياتهم أحياء وأمواتا .

٤- بيان أن الناس أكثرهم لا يشكرون .

٥- الوعيد الشديد للمكذبين الكافرين .[1]

﴿انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

شرح الكلمات :

﴿انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ : أي من العذاب .

﴿ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ : أي دخان جهنم إذا ارتفع انقسم إلى ثلاث شعب لعظمته .

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ : أي كنين ساتر يكن ويستر .

﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ : أي ولا يرد شيئا من الحر .

﴿إِنَّهَا﴾ : أي النار .

﴿بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ : أي الشررة الواحدة كالقصر في عظمته وارتفاعه .

﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ : أي الشرر المتطاير من النار الشررة كالقصر في عظمها وارتفاعها وكالجمل في هيئتها ولونها والجمل الصفر السود الذي يميل إلى صفرة .

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ : أي فيه بشيء .

---

(١) المصدر السابق : ٣/ ٦٤٠.

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ : أي في العذر .

﴿جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ : أي من المكذبين قبلكم .

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ : أي حيلة في دفع العذاب فاحتالوا لدفع العذاب عنكم .(١)

معنى الآيات :

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء التي عليها مدار الحياة كلها قوله تعالى ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ هذا يقال للمكذبين يوم القيامة وهم في عرصاتها يقال لهم تقريعاً وتبكيتاً انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون وهو عذاب الآخرة ويتهكم بهم ويسخرون منهم فيقولون انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب وهو دخان النار إذا ارتفع يتشعب إلى ثلاث شعب وذلك لعظمته لا ظليل أي ليس هو ظلا حقيقيا كظل لشجرة والجدار فيكن ويستر ولا يغني من اللهب فيدفع الحر وقال تعالى في وصفها ﴿إِنَّهَا﴾ أي النار ﴿تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ الشررة الواحدة كالقصر في كبره وارتفاعه كأنه أي الشرر جمالة صفراء اي الشررة كالجمل الصفر وهو الأسود المائل غلى الصفرة . ثم قال تعالى ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾ يتوعد المكذبين به وبآياته ولقائه ورسوله ﷺ وقوله تعالى ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي هذا يوم القيامة يوم لا ينطقون أي فيه بشيء ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ أي في الاعتذار فهم يعتذرون لا اعتذار ولا إذن به . ولطول يوم القيامة وتجدد الأحداث فيه يخبر القرآن مرة باعتذارهم وكلامهم في موطن ، وينفيه في آخر ، إذ هو ذاك الواقع في مواطن يتكلمون بل ويحلفون كاذبين وفي مواطن يغلب عليهم الخوف والحزن فلا يتكلمون بشيء وفي مواطن يطلب منهم أن يتكلموا فيتكلموا وفي أخرى لا ، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ

---

(١) الجزائري : ٣/ ٦٤١ .

﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٧﴾ وعيد لكل المكذبين بهذا وبغيره وقوله تعـالى ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨﴾ أي يقال لهم يوم القيامة وهم في عرصاتها هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون جمعناكم فيه أيها المكذبون من هذه الأمة والمكذبين الأولين من قبلها ، ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ أي حيلة على خلاصكم مما أنتم فيه ﴿فَكِيدُونِ﴾ أي احتالوا عليّ وخلصـوا أنفسكم يقال لهم تبكيتا لهم وخزيا وهو عذاب روحي اشد ألماً من العـذاب الجسـماني ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٠﴾ أي ويل يوم إذ يجيء يوم الفصل للمكذبين .اهـ (١)

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ : لا يقي من الحر . ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ : لا يقي الإنسان من لهب النار ﴿بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ : إن جهنم ترمي بشرر من النار كل واحـدة كالقصـر الكـبير . ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ : جمال . ﴿صُفْرٌ﴾ : لونها أصفر . ﴿ظِلَٰلٍ﴾ : واحدها ظل ، وهي ظـلال الأشجار ، والبيوت وغير ذلك ، ويعبر بالظلال عن الرفاهية والنعيم . ﴿وَعُيُونٍ﴾ : ميـاه جارية عذبة تسر الناظرين . ﴿ٱرْكَعُوا﴾ : صلوا .

يبين الله تعالى في الآيات من رقـم ٢٩ ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٩﴾ ، نـوعَ ذلك العذاب الشديد الهائل ، فأخبر تعالى بأنهم يقال لهم : انطلقوا إلى ما كنتم به تكذّبون في الدنيا ، إلى ظلٍ من دخانِ جهنم ، المتشعبِ لكثرته وتفرقه إلى ثلاثِ شعب عظيمـة . وهو مع ذلك لا يُظلُّهم ، ولا يمنع عنهم حرَّ اللهب الذي تقذف به جهنم ، حيث ترمـي بشررٍ عظيم كل واحدة كالقصر الكبير ، وكأنه جمالٌ صفر تنطلق وتتفرق في أعداد غير محصورة . ثم أتبع ذلك بأن الويلَ للمكذبين بذلك اليوم الذي اقسَم الله تعالى بأنه وقاع لا محالة . وهم في ذلك اليوم لا ينطِقون من شدة الدهشة و الخوف والحيرة ، ولا يُسمح لهم

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٣/ ٦٤١ ، ٦٤٢ سورة المرسلات الآيات (٢٩ – ٤٠) .

بالاعتذار فيعتذرون . وكرر أن لهم الويل والهلاك يومئذٍ ، حيث يتم الفصل بين المُحقِّ والمبطِلِ ويجازَى كل واحد بما يستحق .

ثم بين كيف يكون الفصل في ذلك اليوم فقال : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ ﴾ لقد جمعنا بينكم وبين من تقدَّمكم من الأمم ، فإن كان لكم حيلة في دفع العذاب عنكم فاحتالوا لتخلّصوا أنفسكم منه ، ولكن هيهات﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ بوعيد الله .

ثم بين ما يكون للمؤمنين من السعادة والنعيم والكرامة في ذلك اليوم ، فإنهم يكونون في ترفٍ ونعيم ، ويأكلون فواكه مما يشتهون ، فيقال لهم : ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ في الدنيا من الصالحات ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ وكما جزينا هؤلاء المتقين ، نجزي أهل الإحسان لطاعتهم وعبادتهم لنا ، فلا نضيع لهم أجراً . ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ وفي كل هذا تهديد ووعيد . . كلوا من لذائذ الدنيا ، واستمتعوا بشهواتها الفانية فان البقاء فيها قليل ، وأنتم مجرمون لا تستحقون التكريم . وهلاكٌ يومئذ للمكذبين ، فهم إذا قيل لهم صلّوا لله واخشعوا ، لا يُصلّون ولا يخشعون ، بل يصرّون على كفرهم واستكبارهم فالهلاك لهم في ذلك اليوم .

ثم ختم السورة بالتعجب من هؤلاء الجاحدين الذين لم يؤمنوا و لم يستجيبوا لنصح الداعي و لم يتبعوا المرسلين ، فقال :﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

إذا لم يؤمنوا بهذه الدلائل والمعجزات ، و لم يستمعوا لهذا القرآن العظيم ، فبأي كلامٍ بعده يصدّقون .

من هداية الآيات :

١- التهكم والسخرية والتبكيت من أنواع العذاب الروحي يوم القيامة .

٢- عرصات القيامة واسعة والمقام فيها طويل والبلاء فيها شديد .

٣- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر بعض ما يتم فيه .

٤- التكذيب هو رأس الكفر ، وبموجبه يكون العذاب .اهـــ [١]

---

(١) نفس المصدر السابق .

سُورَةُ ٱلنَّبَإِ

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ
فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ
مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾
جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ
شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾
حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً
مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾
يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ
ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ
مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾

[هذا الجزء كله ومنه هذه السورة ذو طابع غالب سوره مكية فيما عدا سورتي «البينة» و « النصر » وكلها من قصار السور على تفاوت في القصر . والأهم من هذا هو طابعها الخاص الذي يجعلها وحده على وجه التقريب في موضعها واتجاهها ... وصورها وظلالها ، وأسلوبها العام .

إنها طرقات متوالية على الحس . طرقات عنيفة قوية عالية . وصيحات . صيحات بنوّم غارقين في النوم! نومهم ثقيل! أو بسكارى مخمورين ثقل حسهم الخُمار! أو بلاهين في سامر راقصين في ضجة وتصدية ومكاء! تتوالى على حسهم تلك الطرقات والصيحات

المنبثقة من سور هذا الجزء كله بإيقاع واحد ونذير واحد : اصحوا . استيقظوا . انظروا . تلفتوا . تفكروا . تدبروا . . إن هنالك إلهاً . وإن هنالك تدبيراً . وإن هنالك تقديراً . وإن هنالك ابتلاء . وإن هنالك تبعة . وإن هنالك حساباً . وإن هنالك جزاء . وإن هنالك عذاباً شديداً . ونعيماً كبيراً . . اصحوا . استيقظوا . انظروا . تلفتوا . تفكروا . تدبروا . . وهكذا مرة أخرى . وثالثة ورابعة . وخامسة . . وعاشرة .... وهم كأنما يفتحون أعينهم وينظرون في خمار مرة ، ثم يعودون لما كانوا فيه! فتعود اليد القوية تهزهم هزاً عنيفاً؛ ويعود الصوت العالي يصيح بهم من جديد؛ وتعود الطرقات العنيفة على الأسماع والقلوب . . وأحياناً يتيقظ النوام ليقولوا : في إصرار وعناد : لا . . ثم يحصبون الصائح المنذر المنبه بالأحجار والبذاء . . ثم يعودون لما كانوا فيه . فيعود إلى هزهم من جديد .

هكذا خيل إلي وأنا أقرأ هذا الجزء . وأحس تركيزه على حقائق معينة قليلة العدد ، عظيمة القدر ، ثقيلة الوزن . وعلى إيقاعات معينة يلمس بها أوتار القلوب . وعلى مشاهد معينة في الكون والنفس . وعلى أحداث معينة في يوم الفصل . وأرى تكرارها مع تنوعها . هذا التكرار الموحي بأمر وقصد!

وهكذا يحس القارئ وهو يقرأ : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ ﴾ [عبس] ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ ﴾ [الطارق] ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الغاشية]

وهو يقرأ : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النازعات] ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ

مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ . . ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [عبس] وهو يقرأ ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ [الانفطار] اهـ [1]

معنى الآيات :

قوله تعالى ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ ﴾ أي عن أي شيء يتساءل رجال قريش فيسأل بعضهم بعضا إنهم يتساءلون عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون إنه ما جاء به محمد ﷺ من التوحيد والنبوة والبعث الآخر . قال تعالى ردعا لهم وتخويفا كلا سيعلمون عند نزع أرواحهم عاقبة تكذيبهم لرسولنا وإنكارهم لتوحيدنا ولقائنا ، ثم كلا سيعلمون يوم يبعثون من قبورهم ويحشرون إلى نار جهنم حين لا ينفعهم علمن ولا يجديهم إيمان .

وقوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ ﴾ الآيات فذكر تعالى من مظاهر القدرة والعلم والرحمة والحكمة ما يوجب الإيمان به وبتوحيده ورسوله ولقائه لو كان القوم يعقلون فقال ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ ﴾ أي فراشاً ووطاءً للحياة عليها ؟ وهل يتم هذا بدون علم وقدرة ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾ تثبت الأرض بها فيأمنون على حياتهم من الميدان وسقوط كل بناء ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ ﴾ الخلق مظهر من مظاهر القدرة والعلم وكونهم أزواجا مظهر من مظاهر الحكمة والرحمة ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ ﴾ أي راحة

---

(١) انظر الظلال :٦/ ٣٨٠٠ في ظلال سورة النبأ ط/ دار الشروق .

لأبدانكم . ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾ سـاتراً بظلامـه . ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ للعيش كسباً له وتمتعاً به . ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ وهي السموات السبع الشديدة القوية البناء لا تفنى ولا تزول إلى أن يأذن هـو ﷻ بزوالهـا ، ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ هو الشمس المشرقة المضيئة . ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ أي السـحابات التي حان لها أن تمطر تشبيهاً لها بالجارية المعصر التي قاربت الحـيض ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ صـباباً وابلا ، وذلك لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافاً الحب كالبر والذرة لطعامكم ، والنبات كالكلأ والعشب لحيواناتكم ، وجنات أي بساتين ملتفة الأشجار غنّاء بالثمار المختلـف الألوان ، والطعوم كل هذه المذكورات مفتقرة إلى قدرة لا يعجزها شيء وعلـمٌ أحـاط بكل شيء وحكمة لا يخلو منها شيء ورحمة تعم كل شيء والله وحده ذو القدرة والعلم والحكمة والرحمة فكيف ينكر توحيده ويكذب رسوله ، ويستبعد بعثه لناس يوم القيامـة لحسابهم ومجازاتهم على أعمالهم في هذه الدار وهي مختلفة منها الصالح ومنها الفاسد هـل من الحكمة في شيء أن يظلم الظالمون ويفسد المفسدون ، ويعـدل العـادلون ويصـلح المصلحون ويموتون سواء ولا يكون هناك حياة أخرى يجزي فيها المسيء بإساءته والمحسن بإحسانه اللهم لا .لا إنه لا بد من حياة أخرى (١)

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ .

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري : ٣/ ٦٤٤ ، ٦٤٥ ط/ دار الحديث .

شرح الكلمات :

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ : أي الفصل بين الخلائق ليجزي كل امرئ بما كسب .

﴿كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ : أي ذا وقت محدد معين لدى الله عز وجل فلا يتقدم ولا يتأخر .

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ : أي يوم ينفخ اسرافيل في الصور .

﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ : أي تأتون أيها الناس جماعات جماعات إلى ساحة فصل القضاء .

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ : أي لنزول الملائكة .

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ : أي ذُهب بها من أماكنها .

﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ : أي مثل السراب فيتراءى ماء وهو ليس بماء فكذلك الجبال .

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ : أي راصدة لهم مرصدة للظالمين مرجعا يرجعون إليها .

﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾: أي دهورا لا نهاية لها .

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ : أي نوما ولا شرابا مما يشرب تلذذا به إذ شرابهم الحميم .

﴿وَغَسَّاقًا﴾ : أي ما يسيل من صديد أهل النار ، جوزوا به عقوبة لهم .

﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ : إذ لا ذنب أعظم من الكفر ، ولا عذاب أعظم من النار .

﴿كِذَّابًا﴾ : أي تكذيبا .

﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ : أي فوق عذابكم الذي أنتم فيه .(١)

---

(١) أيسر التفاسير : ٣/ ٦٤٦ .

معنى الآيات :

بعد أن ذكر تعالى آيات قدرته على البعث والجزاء الذي أنكره المشركون واختلفوا فيه ذكر في هذه الآيات عرضا وافيا للبعث الآخر وما يجري فيه ، وبدأ بذكر الأحداث للانقلاب الكوني ، ثم ذكر جزاء الطاغين تفصيلا فقال ﷻ ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ أي بين الخلائق كان ميقاتا لما أعد الله للمكذبين بلقائه الكافرين بتوحيده المنكرين لرسالة نبيه فيه ، يجزيهم الجزاء الأوفى ، ثم ذكر تعالى أحداثا تسبقه فقال ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي يوم ينفخ إسرافيل نفخة البعث وهي الثانية فتأتون أيها الناس أفواجا أي جماعات . ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي انشقت ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ لنزول الملائكة منها ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ هباء منبثا كالسراب في نظر الرائي . وقوله تعالى ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي إنه بعد الحساب يأتي الجزاء وها هي ذي جهنم قد أرصدت واعدت فهي مرصاد ، مرصاد لمن؟ للطاغين المتجاوزين الحد الذي حدد لهم وهو أن يؤمنوا بربهم ويعبدوه وحده ويتقربوا إليه بفعل محابه وترك مكارهه فتجاوزوا ذلك إلى الكفر بربهم والإشراك به وتكذيب رسوله وفعل مكارهه وترك محابه هؤلاء هم الطاغون الذي أرصدت لهم جهنم فكانت لهم مرصاداً ومرجعاً ومآباً ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ أي دهوراً ، ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ أي نوما لأن النوم يسمى البرد في لغة بعض العرب ، ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ ذا لذة ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ وهو الماء الحار ﴿وَغَسَّاقًا﴾ وهو ما يسيل من صديد أهل النار ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أي موافقا لذنوبهم لأنه لا أعظم من الكفر ذنبا ولا من النار عذاباً ثم ذكر تعالى مقتضى هذا العذاب فقال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي ما كانوا يؤمنون بالحساب ولا بالجزاء ولا يخافون من ذلك ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ أي بآياته وحججه تكذيبا زائدا . وقوله تعالى ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ إذ كانت الملائكة تكتب أعمالهم وتحصيها

عليهم فهم يتلقون جزاءهم العادل ويقال لهم توبيخا وتبكيتا وهم في أشد العذاب وأمـرّه ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ فيعظم عندهم الكرب ويستحكم من نفوسهم اليأس . وهذا جزاء من تنكر لعقله فكفر بربه وآمن بالشيطان وعبد الهوى . والعياذ بالله تعالى[1] .

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة الذي يتساءل عنه المكذبون، ويجحده المعاندون، أنـه يوم عظيم، وأن الله جعله ﴿مِيقَـٰتًا﴾ للخلق.

﴿يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ ويجري فيه من الزعازع والقلاقل ما يشيب له الوليـد، وتترعج له القلوب، فتسير الجبال، حتى تكون كالهباء المبثوث، وتشقق السماء حتى تكون أبوابا، ويفصل الله بين الخلائق بحكمه الذي لا يجور، وتوقد نار جهنم التي أرصـدها الله وأعدها للطاغين، وجعلها مثوى لهم ومآبا، وأنهم يلبثون فيها أحقابا كثيرة و { الحقب } على ما قاله كثير من المفسرين: ثمانون سنة ؛ وهم إذا وردوها ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾ أي: لا ما يبرد جلودهم، ولا ما يدفع ظمأهم.

﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ أي: ماء حارا، يشوي وجوههم، ويقطع أمعـاءهم، ﴿وَغَسَّاقًا﴾ وهـو: صديد أهل النار، الذي هو في غاية النتن، وكراهة المذاق، وإنما استحقوا هذه العقوبـات الفظيعة جزاء لهم ووفاقا على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليها، لم يظلمهم الله، ولكن ظلموا أنفسهم، ولهذا ذكر أعمالهم، التي استحقوا بها هذا الجزاء، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ أي: لا يؤمنون بالبعث، ولا أن الله يجازي الخلق بـالخير والشـر، فلذلك أهملوا العمل للآخرة. ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: كذبوا بها تكـذيبا واضحا صريحا وجاءتهم البينات فعاندوها.

---

(١) نفس المصدر السابق : ٣/ ٦٤٦ ، ٦٤٧ .

﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ﴾ من قليل وكثير، وخير وشر ﴿أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا﴾ أي: كتبناه في اللوح المحفوظ، فلا يخشى المجرمون أنا عذبناهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضيع مــن أعمالهم شيء، أو ينسى منها مثقال ذرة، كمــا قــال تعــالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف]

﴿فَذُوقُواْ﴾ أيها المكذبون هذا العذاب الأليم والخزي الــدائم ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ وكل وقت وحين يزداد عذابهم ؛ وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار أجارنا الله منها .[1]

﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ﴿٣٣﴾ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴿٣٥﴾ جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ﴿٣٧﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾﴾

شرح الكلمات :

﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ : أي الذين اتقوا الشرك والمعاصي خوفا من ربهم وعذابــه .﴿مَفَازًا﴾ : أي مكان فوز ونجاة وهو الجنة .﴿حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا﴾ : أي بساتين وأعنابا .﴿وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا﴾ : أي

---

(١) أنظر تفسير السعدي المجلد الواحد ص١٠١٩ ط/ التوفيقية .

شابات تكعبت ثديهن الواحدة كاعب والجمع كواعب .﴿أَتۡرَابٗا﴾ : أي في سن واحدة وأتراب جمع واحدة تِرب .﴿وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا﴾ : أي خمرا كأسها ملأى بها .

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا﴾ : أي في الجنة لغوا أي باطلا ولا كذبا من القول .

﴿عَطَآءً حِسَابٗا﴾ : أي عطاء كثيرا كافيا يقال أعطاني فأحسبني .﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ (١) ﴾ : ملك عظيم يقوم وحده صفاً والملائكة صفاً وحدهم .﴿مَـَٔابًا﴾ : أي مرجعاً سليماً وذلك بالإيمان والتقوى إذ بهما تكون النجاة . ﴿مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ : أي ما أسلفه في الدنيا من خير وشر ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ : أي حتى لا أعذب وذلك يوم يقول الله تعالى للبهائم كوني ترابا وذلك بعد الاقتصاص لها من بعضها بعضا .(٢)

معنى الآيات :

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء المستلزمة لعقيدة التوحيد والنبوة بعد أن ذكر تعالى حال الطغاة الفجار وبين مصيرهم غاية البيان ثنى بذكر المتقين الأبرار وبين مصيرهم وأنه جنات تجري من تحتها الأنهار فقال وقوله الحق وخبره الصدق ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١﴾ أي مكان فوز ونجاح وبيّنه بقوله ﴿حَدَآئِقَ﴾ أي بساتين ﴿وَأَعۡنَٰبٗا ٣٢ وَكَوَاعِبَ﴾ جمع الفتاة ينكعب ثديها أي يستدير ويرتفع كالكعب وذلك عند بلوغها وقوله في وصفهن ﴿أَتۡرَابٗا﴾ جمع ترب أي في سن واحدة دون الثلاثين سنة ﴿وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ٣٤﴾ أي كأس خمر ملأى ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ﴾ أي في الجنة ﴿لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا﴾ لا قولاً باطلاً ولا كذاباً . وقوله تعالى ﴿جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ٣٦﴾ أي جزاهم ربهم بذلك فجعله

---

(١) هو جبريل عليه السلام لقوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين ...﴾ .

(٢) أيسر التفاسير للجزائري : ٣/ ٦٤٨ .

عطاء كافيا ووصف الجبار نفسه تعليما وتذكيرا فأبدل من قوله ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ : قوله ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي مالكهما والمتصرف فيهما ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ رحمان الدنيا والآخرة ورحيمها ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ ملك عظيم لا يقادر قدره وحده صفا ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ هنا لا يملك أحد من الخلق ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ وقوله ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ بيد يديه ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ﴾ قولا ﴿صَوَابًا﴾ وفي الصحيح أن النبي محمداً ﷺ هو أول من يكلم الله ﷻ في الموقف حيث يأتي تحت العرش فيخر ساجداً فلا يزال ساجداً يحمد الله تعالى . بمحامد يلهمها ساعتئذ فيقول له الرب تعالى أرفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع وقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه ولا شك وهو يوم الفصل وبناء عليه ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾ أي مرجعاً إليه بالإيمان والطاعة . وقوله تعالى ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ أي خوفناكم عذاباً قريباً جداً يبتدئ بالموت ولا ينتهي أبداً ، وذلك ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من خير أو شر أي يرى جزاء عمله عياناً إن كان عمله خيراً جزي بمثله وإن كان شراً جزي بمثله . ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾ إنه لما يرى البهائم بعد القصاص لها صارت تراباً يتمنى الكافر وهو في عذابه أن لو كان ترابا مثل البهائم ولولا العذاب وشدته ودوامه لما تمنى أن يكون ترابا أبداً .

من هداية الآيات :

١- بيان كرامة المتقين وفضل التقوى .

٢- وصف جميل لنعيم الجنة .

٣- ذم الكذب واللغو وأهلهما .

٤- بيان شدة الموقف وصعوبة المقام فيه .

٥- تقرير عقيدة البعث والجزاء .

٦- الترغيب في العمل الصالح واجتناب العمل السيئ الفاسد .اهـ [نفس المصدر السابق]

سُورَةُ النَّازِعَاتُ

﴿وَالنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾
فَالْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾
أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً
﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾

شرح الكلمات :

﴿وَالنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ : أي الملائكة تنزع أرواح الفجار والكفار عند الموت بشدة .

﴿وَالنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ : أي الملائكة تنشط أرواح المؤمنين الصالحين نشطا أي تسلها برفق

﴿وَالسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾ : أي الملائكة تسبح من السماء بأمر الله أي تنزل به إلى الأرض .

﴿فَالسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾ : أي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة .﴿فَالْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ : أي الملائكة تدبر أمر الدنيا أي تنزل بتدبيره من لدن الله المدبر الحكيم ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ : أي النفخة الأولى نفخة الفناء التي يتزلزل كل شيء معها .﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ : أي النفخة الثانية .﴿وَاجِفَةٌ﴾: أي خائفة قلقة .﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ : أي أنرد بعد الموت غلى الحياة إذ الحافرة اسم لأول الأمر ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ : أي رجعة إلى الحياة خاسرة .﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ : أي نفخة واحدة .﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ : أي بوجه الأرض أحياء سميت ساهرة لأن من عليها بها يسهر ولا ينام (١).

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري : ٣/ ٦٥٠ ط/ دار الحديث .

معنى الآيات :

قوله تعالى ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ الآيات هذا قسم عظيم اقسم تعالى به على أنه لا بـد مـن البعث والجزاء حيث كان المشركون ينكرون ذلك حتى لا يقفوا عند حد في سـلوكهم فيواصلوا كفرهم وفسادهم جريا وراء شهواتهم كل أيامهم وطيلة حياتهم كما قال تعـالى ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾﴾ [القيامة] فأقسم تعـالى بخمسـة أشـياء وهـي ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ﴾ ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾ ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾ ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾ ، ورجح أنهـم أصناف من الملائكة وجائز أن يكون غير ذلك ولا حرج إذ العبرة بكونه تعالى قد أقسـم ببعض مخلوقاته على أن البعث حق ثابت وواقع لا محالة ، وتقدير جواب القسم بل تبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم إذ هو معهود في كثير من الإقسام في القرآن كقوله تعالى من سـورة التغـابن ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ وسيتم ذل البعث والجزاء ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾﴾ التي هي النفخة الأولى التي ترجف فيها العوالم كلها ويفنى فيها كل شـيء ، ثم ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ وهـي النفخة الثانية وهي نفخة البعث من القبور أحياء وأن بين النفختين أربعين سنة كما ذكر ذلك رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح وقوله تعـالى ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾﴾ أي خائفة قلقة ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾ أي أبصار أصحاب تلك القلوب خاشعة أي ذليلة خائفة . وقوله تعالى ﴿يَقُولُونَ﴾ أي منكرو البعـث ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾﴾ أي أن نرد بعد الموت إلى الحياة من جديد كما كنا أول مرة ، ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾﴾ أي بالية مفتتة وقولهم هذا استبعاد منهم للبعث وإنكار لـه ، ﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ يعنون أنهم إذا عادوا إلى الحياة مرة أخرى فإن هذه العودة تكون خاسـرة

وهي بالنسبة إليهم كذلك إذ سيخسرون فيها كل شيء حتى أنفسهم كما قال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) ﴾ [الزمر]

قوله تعالى ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) ﴾ أي صيحة واحدة هي نفخة إسرافيل الثانية نفخة البعث ﴿ فَإِذَا هُم ﴾ أولئك المكذبون وغيرهم من سائر الخلق ﴿ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ أي وجه الأرض وقيل فيها الساهرة لأن من عليها يومئذ لا ينامون بل يسهرون أبداً فرد تعالى هذا على منكري البعث الآخر وقرره ﷻ بما لا مزيد عليه إعذاراً وإنذاراً ولا يهلك على الله إلا هالك.

من هداية الآيات :

١- بيان أن الله تعالى يقسم بما يشاء من مخلوقاته بخلاف العبد لا يجوز له أن يقسم بغير ربه تعالى .

٢- بيان أن روح المؤمن تنزع عند الموت نزعاً سريعاً لا يجد من الألم ما يجده الكافر .

٣- تقرير عقيدة البعث والجزاء بالإقسام عليها وذكر كيفية وقوعها .

و الخسران المبين .اهـ (١)

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) ﴾

[وعقب هذا المطلع الغامض الراجف الواجف يجيء المشهد الأول من مشاهد ذلك اليوم . ظله من ظل ذلك المطلع وطابعه من طابعه؛ كأنما المطلع إطار له وغلاف يدل عليه : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩)

---

(١) انظر أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير :٣/٦٥٠، ٦٥١ تفسير سورة النازعات الآيات (١ — ١٤) .

يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ
خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ (١٤)﴾ . .

ومن هنالك . . من هذا الجو الراجف الواجف المبهور المذعور . . يأخذ في عرض مصرع من مصارع المكذبين العتاة في حلقة من قصة موسى مع فرعون : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ
(١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ
أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ
أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥)
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٢٦)﴾ . . وبهذا يلتقي ويمهد لتلك الحقيقة الكبرى .

ثم ينتقل من ساحة التاريخ إلى كتاب الكون المفتوح ، ومشاهد الكون الهائلة ، الشـاهدة بالقوة والتدبير والتقدير للألوهية المنشئة للكون ، المهيمنة على مصائره ، في الدنيا والآخرة . فيعرضها في تعبيرات قوية الأسر .... : ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا
فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا
مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣)﴾ . .

وهنا بعد هذه التمهيدات المقربة وهذه اللمسات الموحية يجيء مشهد الطامة الكبرى ، وما يصاحبها من جزاء على ما كان في الحياة الدنيا . جزاء يتحقق هو الآخـر في مشـاهد تتناسق صورها وظلالها مع الطامة الكـبرى : ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ
الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨)
فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ
هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١)﴾ . .وفي اللحظة التي يغمر الوجدان فيها ذلك الشعور المنبعث مـن

مشاهد الطامة الكبرى ، والجحيم المبرزة لمن يرى ، وعاقبة من طغى وآثر الحياة الدنيا ، ومن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . . في هذه اللحظة يرتد السياق إلى المكذبين بهذه الساعة ، الذين يسألون الرسول صلى الله عليه وسلم عن موعدها .....: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ . .

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

شرح الكلمات :

﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ : أي النفخة الثانية وأصل الطامة الداهية التي تعلو على كل داهية .

﴿مَا سَعَىٰ﴾ : أي ما عمل في الدنيا من خير وشر .

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ : أي كفر وظلم .

﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ : أي باتباع الشهوات .

﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ : أي النار مأواه .

﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ : أي قيامه بين يديه ليسأله عما قدم وأخر .

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ : أي المردى المهلك باتباع الشهوات .

﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ : أي مأواه الذي يأوي إليه بعد الحساب .

﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ : أي القيامة للحساب والجزاء .

﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ : أي متى وقوعها وقيامها .

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ : أي في أي شيء من ذكراها أي ليس عندك علمها حتى تذكرها

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ : أي منتهى علمها إلى الله وحده فلا يعلمها سواه .

﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ : أي في قبورهم[1] .

﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾: أي عشية يوم أو ضحى تلك العشية .

معنى الآيات :

بعد أن بين تعالى مظاهر قدرته في حياة الناس وما خلق لهم فيها تدليلا على البعث والجزاء وذكر في هذه الآيات مظاهر قدرته في معادهم تدليلا على قدرته على بعثهم بعد موقم ومحاسبتهم ومجازاتهم فقال عز من قائل ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ أي القيامة وسميت بالطامة الكبرى لأنها تطم على كل شيء ولا يعظمها شيء لا ريح عاد ولا صيحة ثمود ولا رجفة يوم الظلة . ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ من خير أو شر لأنه أيقن أنه محاسب ومجزيّ بعمله . ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ أي أبرزها فظهرت لمن يراها لا يخفيها شيء . والناس بعد ذلك مؤمن وكافر والطريق طريقان طريق جنة وطريق نار . ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ أي عتا عن أمر ربّه فعصاه و لم يطعه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه . ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾ على الآخرة فعمل للدنيا وصرف كل جهده وطاقته لها ، ولم يعمل

---

(١) وقيل : في الدنيا .

للآخرة فما صام ولا صلى ولا تصدق ولا زكى ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ أي مأواه ومستقره ومثواه شرابه الحميم وطعامه الزقوم ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ وهو الوقوف بين يديه لمساءلته ومجازاته فأدى الفرائض واجتنب النواهي ، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ أي نفسه عن هواها فلم يجبها في هوى يبغضه الله و لم يطعها ف شيء حرمه الله فإن الجنة دار السلام والأبرار والمتقين الأخيار هي مأواه ولنعم المأوى هي حيث العيون الجارية والسرر المرفوعة والأكواب الموضوعة والنمارق المصفوفة والزرابي المبثوثة والكواعب العرب الأتراب ولقاء الأحباب . وقوله تعالى : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾ أي يسألك يا رسولنا المنكرون للبعث عن الساعة أيان قيامها ومتى رسوها وثبوتها وهي كالسفينة سائرة ليل نهار متى ترسو؟ ﴿فِيمَ﴾ أي في أي شيء أنت من ذكراها أي ليس عندك علمها فتذكرها لهم إلى ربك وحده علم وقت مجيئها وساعة رسوها لتنقل الناس من دنياهم إلى آخرتهم ، وبذلك تنتهي رحلتهم ويستقر قرارهم ، وينتهي ليلهم ونهارهم . وقوله تعالى ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ أي ليس إليك يا رسولنا علمها ولا منتهى أمر ما إنما أنت مهمتك غير ما يطلب منك إنها إنذار من يخشى الساعة ويخاف حلولها لإيمانه بها وبما يكون فيها من نعيم وجحيم أما من لا يؤمن بها فهو لا يخافها وسؤاله عنها سؤال استهزاء ، فلا تحفل بهم ولا تهتم لهم فإنهم يوم يرونها كأن لم يلبثوا في دنياهم هذه وقبورهم ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أي عشية يوم أو ضحى تلك العشية لما يستقبلون من أهوال الموقف وفظائع العذاب .

من هداية الآيات :

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر أحوالها وصفاتها .

٢- الناس يوم القيامة مؤمن تقيّ في الجنة ، وكافر وفاجر في النار .

٣- بيان استئثار الله تعالى بعلم الغيب والساعة .

٤- بيان أي الشدائد ينسى بعضها بعضا فإن عذاب القبر يهون أمام عذاب النار اهـ[1]

[والقرآن على طريقته في الإشارة المجملة الموحية المتضمنة لأصل الحقيقة يذكر هنا من هذه الموافقات بناء السماوات ، وإغطاش الليل ، وإخراج الضحى ، ودحو الأرض وإخراج مائها ومرعاها ، وإرساء جبالها . متاعاً للإنسان وأنعامه . وهي إشارة توحي بحقيقة التدبير والتقدير في بعض مظاهرها المكشوفة للجميع ، الصالحة لأن يخاطب بها كل إنسان ، في كل بيئة وفي كل زمان ، فلا تحتاج إلى درجة من العلم والمعرفة ، تزيد على نصيب الإنسان حيث كان . حتى يعم الخطاب بالقرآن لجميع بني الإنسان في جميع أطوار الإنسان ، في جميع الأزمان ؛ ووراء هذا المستوى آماد وآفاق أخرى من هذه الحقيقة الكبرى . حقيقة التقدير والتدبير في تصميم هذا الكون الكبير . واستبعاد المصادفة والجزاف استبعاداً تنطق به طبيعة هذا الكون ، وطبيعة المصادفة التي يستحيل معها تجمع كل تلك الموافقات العجيبة ؛ هذه الموافقات التي تبدأ من كون المجموعة الشمسية التي تنتمي إليها أرضنا هي تنظيم نادر بين مئات الملايين من المجموعات النجمية . وأن الأرض نمط فريد غير مكرر بين الكواكب بموقعها هذا في المنظومة الشمسية . الذي يجعلها صالحة للحياة الإنسانية . ولا يعرف البشر حتى اليوم كوكباً آخر تجتمع له هذه الموافقات الضرورية . وهي تعد بالآلاف! « ذلك أن أسباب الحياة تتوافر في الكوكب على حجم ملائم ، وبعد معتدل ، وتركيب تتلاقى فيه عناصر المادة على النسبة التي تنشط فيها حركة الحياة » .

---

(١) انظر أيسر التفاسير :٣/ ٦٥٧ تفسير سورة النازعات الآيات (٣٤ – ٤٦) ط/ دار الحديث .

« لا بد من الحجم الملائم ، لأن بقاء الجو الهوائي حول الكوكب يتوقف على ما فيه من قوة الجاذبية . »

« ولا بد من البعد المعتدل لأن الجرم القريب من الشمس حار لا تتماسك فيه الأجسام ، والجرم البعيد من الشمس بارد لا تتخلخل فيه تلك الأجسام » .

« ولا بد من التركيب الذي تتوافق فيه العناصر على النسبة التي تنشط بها حركة الحياة ، لأن هذه النسبة لازمة لنشأة النبات ونشأة الحياة التي تعتمد عليه في تمثيل الغذاء » .

« وموقع الأرض حيث هي أصلح المواقع لتوفير هذه الشروط التي لا غنى عنها للحياة ، في الصورة التي نعرفها ، ولا نعرف لها صورة غيرها حتى الآن » .

وتقرير حقيقة التدبير والتقدير في تصميم هذا الكون الكبير ، وحساب مكان للإنسان فيه ملحوظ في خلقه وتطويره أمر يعد القلب والعقل لتلقي حقيقة الآخرة وما فيها من حساب وجزاء باطمئنان وتسليم .

..... ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾. .

إن الحياة الدنيا متاع . متاع مقدر بدقة وإحكام . وفق تدبير يرتبط بالكون كله ونشأة الحياة والإنسان . ولكنه متاع . متاع ينتهي إلى أجله . . فإذا جاءت الطامة الكبرى غطت على كل شيء ، وطمت على كل شيء . على المتاع الموقوت . وعلى الكون المتين المقدر المنظم . على السماء المبنية والأرض المدحوة والجبال المرساة والأحياء والحياة وعلى كل ما كان من مصارع ومواقع . فهي أكبر من هذا كله ، وهي تطم وتعم على هذا كله!

عندئذ يتذكر الإنسان ما سعى . يتذكر سعيه ويستحضره ، إن كانت أحداث الحيـــاة ، وشواغل المتاع أغفلته عنه وأنسته إياه . يتذكره ويستحضره ولكن حيث لا يفيده التذكر والاستحضار إلا الحسرة والأسى وتصور ما وراءه من العذاب والبلوى!

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ . فهي بارزة مكشوفة لكل ذي نظر . ويشدد التعبير في اللفظ ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ تشديداً للمعنى والجرس ، ودفعاً بالمشهد إلى كل عين!

عندئذ تختلف المصائر والعواقب؛ وتتجلى غاية التدبير والتقدير في النشأة الأولى :

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ والطغيان هنا أشمل من معناه القريب . فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى . ومداه أوسع من الطغـــاة ذوي السلطان والجبروت ، حيث يشمل كل متجاوز للهدى ، وكل من آثر الحياة الدنيا ، واختارها على الآخرة . فعمل لها وحدها ، غير حاسب للآخـــرة حســـاباً . واعتبـــار الآخرة هو الذي يقيم الموازين في يد الإنسان وضميره . فإذا أهمل حساب الآخرة أو آثر عليها الدنيا اختلت كل الموازين في يده ، واختلت كل القيم في تقديره ، واختلت كـــل قواعد الشعور والسلوك في حياته ، وعد طاغياً وباغياً ومتجاوزاً للمدى .فأما هـــذا . .

﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ . الجحيم المكشوفة المبرزة القريبة الحاضرة . يوم الطامـــة الكبرى!.... والذي يخاف مقام ربه لا يقدم على معصية ، فإذا أقدم عليها بحكم ضـــعفه البشري قاده خوف هذا المقام الجليل إلى الندم والاستغفار والتوبة . فظل في دائرة الطاعة ونهي النفس عن الهوى هو نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة . فالهوى هو الدافع القوي لكل طغيان ، وكل تجاوز ، وكل معصية . وهو أساس البلوى ، وينبوع الشر ، وقل أن يؤتى الإنسان إلا من قبل الهوى . فالجهل سهل علاجه . ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها .

والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة . وقل أن يثبت غير هـــذا الحاجز أمام دفعات الهوى . ومن ثم يجمع بينهما السياق القرآني في آية واحدة . فالـــذي

يتحدث هنا هو خالق هذه النفس العليم بدائها ، الخبير بدوائها وهو وحده الذي يعلم دروبها ومنحنياتها ، ويعلم أين تكمن أهواؤها وأدواؤها ، وكيف تطارد في مكامنها ومخابئها! ولم يكلف الله الإنسان ألا يشتجر في نفسه الهوى . فهو سبحانه يعلم أن هذا خارج عن طاقته . ولكنه كلفه أن ينهاها ويكبحها ويمسك بزمامها . وأن يستعين في هذا بالخوف . الخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيب . وكتب له بهذا الجهاد الشاق ، الجنة مثابة ومأوى : ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ . . ذلك أن الله يعلم ضخامة هذا الجهاد؛ وقيمته كذلك في تهذيب النفس البشرية وتقويمها ورفعها إلى المقام الأسنى .

إن الإنسان إنسان بهذا النهي ، وبهذا الجهاد ، وبهذا الارتفاع . وليس إنساناً بترك نفسه لهواها ، وإطاعة جواذبه إلى دركها ، بحجة أن هذا مركب في طبيعته . فالذي أودع نفسه الاستعداد لجيشان الهوى ، هو الذي أودعها الاستعداد للإمساك بزمامه ، ونهي النفس عنه ، ورفعها عن جاذبيته؛ وجعل له الجنة جزاء ومأوى حين ينتصر ويرتفع ويرقى .

وهنالك حرية إنسانية تليق بتكريم الله للإنسان . تلك هي حرية الانتصار على هوى النفس والانطلاق من أسر الشهوة ، والتصرف بها في توازن تثبت معه حرية الاختيار والتقدير الإنساني . وهنالك حرية حيوانية ، هي هزيمة الإنسان أمام هـواه ، وعبوديته لشهوته ، وانفلات الزمام من إرادته . وهي حرية لا يهتف بها إلا مخلوق مهزوم الإنسانية مستعبد يلبس عبوديته رداء زائفاً من الحرية!

إن الأول هو الذي ارتفع وارتقى وتهيأ للحياة الرفيعة الطليقة في جنة المأوى . أما الآخر فهو الذي ارتكس وانتكس وتهيأ للحياة في درك الجحيم حيث تهدر إنسانيته ، ويرتد شيئاً توقد به النار التي وقودها الناس من هذا الصنف والحجارة!

وهذه وتلك هي المصير الطبيعي للارتكاس والارتقاء في ميزان هذا الدين الذي يزن حقيقة الأشياء .

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

ولما ذكّر الله ﷻ عباده بهذه النعم الدالة على كمال قدرته ذكرهم بمآلهم الحتمي الـذي لابد منـه، فقـال ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾﴾

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ وذلك قيام الساعة، وسماها طامة لأنها داهيـة عظيمـة تطم كل شيء سبقها. ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ يعني أكبر من كل طامة. ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ لهذا اليوم الذي تكون فيه الطامة الكبرى وهو اليوم الـذي يتـذكر فيـه الإنسان ما سعى، يتذكره مكتوباً، عنده يقرأه هو بنفسه قال الله تعـالى: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[الإسراء]. إذا قرأه تذكر ما سعى أي ما عمل، أما اليوم فإننا قد نسينا ما عملنا، عملنا أعمالاً كثيرة منها الصالح، ومنها اللغو، ومنها السيئ، لكن كل هذا ننساه، وفي يوم القيامة يعرض علينا هذا في كتاب ويقال اقرأ كتابك أنـت بنفسـك ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ فحينئذ يتذكر مـا سـعى ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ]. ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أظهرت تجيء تقاد بسبعين ألف زمام كل زمام فيـه سبعون ألف ملك يجرونها، إذا ألقي منها الظالمون مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبـوراً تأتي ــ والعياذ بالله ــ لمن يرى ويبصر فتنخلع القلوب ويشيب المولود ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾﴾ هذان وصفان هما وصفا أهل النار، الطغيان وهـو مجاوزة الحد، وإيثار الدنيا على الآخرة بتقديمها على الآخرة وكونها أكبر هـم الإنسـان، والطغيان مجاوزة الحد، وحد الإنسان مـذكور في قولـه تعـالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ

وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]. فمن جاوز حده و لم يعبد الله فهذا هو الطاغي لأنه تجاوز الحد، أنت مخلوق لا لتأكل وتتنعم وتتمتع كما تتمتع الأنعام، أنت مخلوق لعبادة الله فاعبد الله عز وجل، فإن لم تفعل فقد طغيت هذا هو الطغيان ألا يقوم الإنسان بعبادة الله. ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾ هما متلازمان فإن الطاغي عن عبادة الله مؤثر للحياة الدنيا لأنه يتعلل بها عن طاعة الله، ويتلهى بها عن طاعة الله، إذا أذن الفجر آثر النوم على الصلاة، إذا قيل له أذكر الله آثر اللغو على ذكر الله وهكذا... ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ أي هي مأواه، والمأوى هو المرجع والمقر وبئس المقر مقر جهنم ـ أعاذنا الله منها ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ يعني خاف القيام بين يديه؛ لأن الإنسان يوم القيامة سوف يقرره الله ﷻ بذنوبه ويقول عملت كذا، عملت كذا، عملت كذا

[٢٦٩] كما جاء في الصحيح، فإذا أقر قال الله له: «قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»، هذا الذي خاف هذا المقام، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ أي عن هواها، والنفس أمّارة بالسوء لا تأمر إلا بالشر. ولكن هناك نفس أخرى تقابلها وهي النفس المطمئنة؛ وللإنسان ثلاث نفوس(١): مطمئنة، وأمارة، ولوامة، وكلها في القرآن، أما المطمئنة ففي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر]. وأما الأمّارة بالسوء ففي قوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣]. وأما اللوامة ففي قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [القيامة]. والإنسان يحس بنفسه بهذه الأنفس؛ يرى في نفسه أحياناً نزعة خير يحب الخير يفعله هذه هي النفس المطمئنة، يرى أحياناً في نفسه نزعة شر يفعله هذه نفس أمارة

---

(١) قال أهل التحقيق أن هذه أوصاف ثلاثة لنفس واحدة فقد تكون أمارة أو تكون لوامة أو لوامة مطمئنة .

بالسوء، تأتي بعد ذلك النفس اللوامة التي تلومه على ما فعل فتجده يندم على ما فعل من المعصية، أو لوامة أخرى تلومه على ما فعل من الخير، فإن من الناس من قد يلـــوم نفســه على فعل الخير وعلى مصاحبة أهل الخير ويقول: كيف أصاحب هؤلاء الذين صدوني عن حياتي.. عن شهواتي.. عن لهوي، وما أشبه ذلك. فاللوامة نفس تلوم الأمارة بالسوء مرة، وتلوم المطمئنة مرة أخرى، فهي في الحقيقة نفس بين نفسين تلوم النفس الأمارة بالسوء إذا فعلت السوء، وتندم الإنسان، وقد تلوم النفس المطمئنة إذا فعلت الخير. ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ الجنة هي دار النعيم التي أعدها الله عز وجل لأوليائه فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قـــال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. هكـــذا جـــاء في القرآن، وجاء في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»، هذه الجنة يدركها الإنسان قبل أن يموت، إذا حضر الأجل ودعت الملائكة النفس للخروج قالت: أخرجي أيتها النفس المطمئنة إلى رضـــوان الله، وتبشر النفس بالجنة، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل: ٣٢]. يقولونه حين التـــوفي ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل] فيبشر بالجنة فتخرج روحه راضية متيسرة سهلة، ولهذا لما حدث النبي عليه الصلاة والسلام فقال: «**من أحـــب لقـــاء الله أحـــب الله لقـــاءه، ومـــن كـــره لقـــاء الله كره الله لقاءه** » قالت عائشة: يا رسول الله: كلنا يكره الموت، قال: ليس الأمر ذلك ــ كلنا يكره الموت بمقتضى الطبيعة ــ ولكن المؤمن إذا بشر بما يبشر به عند الموت أحـــب لقاء الله أحب الموت وسهل عليه»، وإن الكافر إذا بشر ــ والعياذ بالله ــ بما يسوؤه عند الموت كره لقاء الله وهربت نفسه تفرقت في جسده حتى ينتزعوها منه كما ينتزع السفود من الشعر المبلول، والشعر المبلول إذا جر عليه السفود وهو معروف عند الغزالين يكـــاد

يمزقه من شدة سحبه عليه هكذا روح الكافر والعياذ بالله ــ تتفرق في جسده لأنها تبشر بالعذاب فتخاف، فالجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، والإنسان قد يدركها قبل أن يموت بما يبشر به، وقد قال أنس بن النضر ﷺ : يا رسول الله، والله إني لأجد ريح الجنة دون أحد»، وهذا ليس معناه الوجدان الذوقي، وجدان حقيقي، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ : ((إن بعض الناس قد يدرك الآخرة وهو في الدينا))، ثم انطلق فقاتل وقُتل ﷺ ، فالحاصل أن الجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. اهـ [١]

---

(١) انظر تفسير ابن عثيمين لسورة النازعات الآيات (٣٤ – ٤٦) .

سورة عبس

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾
لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ
يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾

شرح الكلمات :

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾ : أي النفخة الثانية .

﴿ وَصَاحِبَتِهِ ﴾ : أي زوجته .

﴿شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ : أي حال تشغله عن شأن غيره .

﴿مُسْفِرَةٌ﴾ : أي مضيئة .

﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ : أي غبار .

﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ : أي ظلمة من سواد ومعنى ترهقها تغشاها .

﴿ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ : أي الجامعون بين الكفر والفجور[1].

معنى الآيات :

بعدما بين تعالى بداية أمر الإنسان في حياته ومعاشه فيها ذكر تعالى معاده ومآله فيها فقال عز من قائل ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ ﴾ وهي القيامة ولعل تسميتها بهذا الاسم الصاخة نظرا إلى نفخة الصور التي تصخ الآذان أي تصمها بمعنى تصيبها بالصمم لشدتها . وهي

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري : ٣/ ٦٦١ ط/ دار الحديث .

النفخة الثانية وقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ﴾ أي زوجته ﴿وَبَنِيهِ﴾ وهؤلاء أقرب الناس إليه ومع هذا يفر عنهم أي يهرب خشية أن يطالبوه بحق لهم عليه فيؤخذ به . وقوله تعالى ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ﴾ أي حال وأمر ﴿يُغْنِيهِ﴾ عن السؤال عن غيره ولو كان أقرب قريب عليه .

[٢٧٠] هنا ورد أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها سألت رسول الله ﷺ قائلة يا نبيّ الله كيف يحشر الرجال ؟ قال « حفاة عراة » ثم انتظرت ساعة فقالت يا نبيّ الله كيف يحشر النساء؟ قال «كذلك حفاة عراة» قالت واسوأتاه من يوم القيامة : قال « وعن ذلك تسألين إنه قد نزلت علي آية لا يضرك كان عليك ثياب أم لا » قالت أي آية هي يا نبيّ الله قال ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ (١). وقوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨)﴾ أي مضيئة مشرقة ﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩)﴾ وهي وجوه المؤمنين والمؤمنات أهل التقوى وجوههم حسنة مشرقة بالأنوار مستبشرون بالقدوم على ربهم والنزول بجواره الكريم . ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي تقوم القيامة ويحشر الناس لفصل القضاء ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي غبار ﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي تغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾. أي ظلمة وسواد أولئك أي الذين عليهم الغبرة وتغشاهم القترة هم ﴿الْكَفَرَةُ﴾ في الدنيا ﴿الْفَجَرَةُ﴾ فيها الذين عاشوا على الكفر والفجور وماتوا على ذلك والفجور هو الخروج عن طاعة الله تعالى بترك الواجبات وغشيان المحرمات كالربا والزنا وسفك الدماء (٢)

---

(١) وسيرد الحديث ببعض ألفاظه وطرقه بعد .

(٢) نفس المصدر السابق .

المعنى العام :

أي: إذا جاءت صيحة القيامة، التي تصخ لهولها الأسماع، وتنزعج لها الأفئدة يومئذ، مما يرى الناس من الأهوال وشدة الحاجة لسالف الأعمال.

﴿يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾ من أعز الناس إليه، وأشفقهم لديه، ﴿مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ أي: زوجته ﴿وَبَنِيهِ﴾ وذلك لأنه ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ أي: قد شغلته نفسه، واهتم لفكاكها، ولم يكن له التفات إلى غيرها، فحينئذ ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء، فأما السعداء، فوجوههم ﴿يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ أي: قد ظهر فيها السرور والبهجة، من ما عرفوا من نجاتهم، وفوزهم بالنعيم، ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ﴾ الأشقياء ﴿يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا﴾ أي: تغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ فهي سوداء مظلمة مدلهمة، قد آيست من كل خير، وعرفت شقاءها وهلاكها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين بهذا الوصف ﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ أي: الذين كفروا بنعمة الله وكذبوا بآيات الله، وتجرأوا على محارمه. نسأل الله العفو والعافية إنه جواد كريم اهـ(١)

﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ القيامة وهي مشتقة من قولك صخ الأذن إذا أصمها بشدة صياحه فكأنه إشارة إلى النفخة في الصور أو إلى شدة الأمر حتى يصخ من يسمعه لصعوبته وقيل هي من قولك أصاخ للحديث إذا استمعه والأول هو الموافق للاشتقاق يفر المرء من أخيه الآية ذكر فرار الإنسان من أحبابه ورتبهم على ترتيبهم في الحنو والشفقة فبدأ فالأقل وختم بالأكثر لأن الإنسان أشد شفقة على بنيه من كل من تقدم ذكره وإنما يفر منهم لاشتغاله بنفسه وقيل إن فراره منهم لئلا يطالبوه بالتبعات والأول أرجح وأظهر لقوله ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص١٠٢٥ لسورة عبس الآيات (٣٣ – ٤٢) .

﴿مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ أي هو مشغول بشأنه من الحساب والثواب والعقاب حتى لا يسعه ذكر غيره وانظر قول الأنبياء عليهم السلام يومئذ نفسي نفسي ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ أي مضيئة من السرور وهو من قولك أسفر الصبح إذا أضاء ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي غبار والقترة أيضا الغبار قال ابن عطية الغبرة من العبوس والكرب كما يقتر وجه المهموم والمريض والقترة هي غبار الأرض وقال الزمخشري الغبرة غبار يعلوها والقترة سواد فيعظم قبحها باجتماع الغبار والسواد) (١)

قال ابن عباس : الصاخة اسم من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده وقال ابن جرير : لعله اسم للنفخة في الصور وقال البغوي : الصاخة يعني صيحة يوم القيامة سميت بذلك لأنها تصخ الأسماع أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمها ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ أي يراهم ويفر منهم ويبتعد منهم لأن الهول عظيم والخطب جليل قال عكرمة : يلقى الرجل زوجته فيقول لها : يا هذه أي بعل كنت لك ؟ فتقول : نعم البعل كنت وتثني بخير ما استطاعت فيقول لها : فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهبينها لي لعلي أنجو مما ترين فتقول له : ما أيسر ما طلبت ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئا أتخوف مثل الذي تخاف قال : وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول : يا بني أي والد كنت لك ؟ فيثني بخير فيقول له : يا بني إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلي أنجو بها مما ترى فيقول ولده : يا أبت ما أيسر ما طلبت ولكني أتخوف مثل الذي تتخوف فلا أستطيع أن أعطيك شيئا يقول الله تعالى : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ وفي الحديث الصحيح في أمر الشفاعة أنه إذا طلب إلى كل من أولي العزم أن يشفع عند الله في الخلائق يقول : نفسي نفسي لا أسألك

---

(١)انظر تفسير ابن الجزي تفسير سورة عبس الآيات (٣٣ – ٤٢) .

اليوم إلا نفسي حتى إن عيسى ابن مريم يقول لا أسأله اليوم إلا نفسي لا أسأله مريم التي ولدتني ولهذا قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾ قال قتادة : الأحب فالأحب والأقرب فالأقرب من هول ذلك اليوم .

وقوله تعالى : ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ أي هو في شغل شاغل عن غيره

[٢٧١] قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عمار بن الحارث حدثنا الوليد بن صالح حدثنا ثابت أبو زيد العباداني عن هلال بن خباب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ((**تحشرون حفاة عراة مشاة غرلا قال : فقالت زوجته يا رسول الله ننظر أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال : لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ـ أو قال : ما أشغله عن النظر**)) .

[٢٧٢] وقد رواه النسائي منفردا به عن أبي داود عن عارم عن ثابت بن يزيد هو أبو زيد الأحول البصري أحد الثقات عن هلال بن خباب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به وقد رواه الترمذي عن عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ حَدَّثَنَا ثَابِتُ بْنُ يَزِيدَ عَنْ هِلَالِ بْنِ خَبَّابٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((**تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**)) فَقَالَتْ امْرَأَةٌ : أَيُبْصِرُ أَوْ يَرَى بَعْضُنَا عَوْرَةَ بَعْضٍ قَالَ : ((**يَا فُلَانَةُ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ**)) [١] قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ قَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ

[٢٧٣] وقال النسائي : أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ قَالَ حَدَّثَنَا بَقِيَّةُ قَالَ أَخْبَرَنِي الزُّبَيْدِيُّ قَالَ أَخْبَرَنِي الزُّهْرِيُّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((**يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا فَقَالَتْ عَائِشَةُ فَكَيْفَ بِالْعَوْرَاتِ قَالَ ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ**

---

(١) انظر سنن الترمذي ك/ التفسير ب /من سورة عبس ح/ ٣٣٣٢ .

شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾))[1] انفرد به النسائي من هذا الوجه ثم قال ابن أبي حاتم أيضا : حدثنا أبي حدثنا أزهر بن حاتم حدثنا الفضل بن موسى عن عائذ بن شريح عن أنس بن مالك قال : سألت عائشة رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي إني سائلتك عن حديث فتخبرني أنت به قال : إن كان عندي منه علم قالت : يا نبي الله كيف يحشر الرجال ؟ قال : ((حفاة عراة)) ثم انتظرت ساعة فقالت : يا رسول الله كيف يحشر النساء ؟ قال : ((كذلك حفاة عراة)) قالت : واسوأتاه من يوم القيامة قال : ((وعن أي ذلك تسألين إنه قد نزل علي آية لا يضرك كان عليك ثياب أو لا يكون)) قالت : أية آية هي يا نبي الله ؟ قال : ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾

[٢٧٤] وقال البغوي في تفسيره : أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنبأنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أخبرني الحسين بن عبد الله حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن حدثنا محمد بن عبد العزيز حدثنا ابن أبي أويس حدثنا أبي عن محمد بن أبي عياش عن عطاء بن يسار عن سودة زوج النبي ﷺ قالت : قال رسول الله ﷺ : ((يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الأذان)) فقلت يا رسول الله : واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال : ((قد شغل الناس لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه)) هذا حديث غريب من هذا الوجه جدا وهكذا رواه ابن جرير عن أبي عمار الحسين بن حريث المروزي عن الفضل بن موسى به ولكن قال أبو حاتم الرازي عائذ بن شريح ضعيف وفي حديثه ضعف وقوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ أي يكون الناس هنالك فريقين وجوه مسفرة أي مستنيرة ﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ أي مسرورة

---

(١) انظر سنن النسائي تحقيق الشيخ الألباني ك / الجنائز ب/ البعث ح/ ٢٠٨٣ وقال الألباني : صحيح ونسبه للبخاري (٦٥٢٧) ومسلم (١٥٦/٨) .

فرحة من السرور في قلوبهم قد ظهر البشر على وجوههم وهؤلاء هم أهل الجنـــة ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ أي يعلوها ويغشاها قترة أي سواد .

[٢٧٥] قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا سهل بن عثمان العسكري حدثنا أبو علـــي محمد مولى جعفر بن محمد عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : ((يلجم الكافر العرق ثم تقع الغبرة على وجوههم)) قال فهو قولـــه تعـــالى : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾ وقال ابن عباس ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ أي يغشاها سواد الوجوه وقوله تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ أي الكفرة قلوبهم الفجرة في أعمالهم كما قال تعالى : ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح] اهـــ [١].

من هداية الآيات :

١- بيان شدة الهول يوم القيامة يدل عليه فرار المرء من اقربائه .

٢- خطر التبعات على العبد يوم القيامة وهي الحقوق التي يطالب بها العبد يوم القيامة .

٣- شدة الهول والفزع تنسي المرء يوم القيامة أن ينظر إلى عورة أحد من أهل الموقف .

٤- ثمرة الإيمان والتقوى تظهر في الموقف نورا على الوجه وإشراقا له وإضاءة وثمرة الكفر والفجور تظهر ظلمة وسوادا على الوجه وغبارا .

٥- تقرير عقيدة البعث والجزاء بعرض صورة من صورها .[٢]

---

(١) انظر تفسير ابن كثير : ٤/٤٧٣ ، ٤٧٤ تفسير سورة عبس الآيات (٣٣ – ٤٢) .

(٢) الجزائري : ٣/ ٦٦٢ ط/ دار الحديث .

سُورَةُ التَّكوير

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ
عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ
﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ
كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾

شرح الكلمات :

﴿إِذَا﴾ : أي ظرف لما ذكر بعد من المواضع الأثنى عشر ، وجواها علمت نفس ما أحضرت .

﴿كُوِّرَتْ﴾ : أي لفت وذهب بنورها .

﴿ٱنكَدَرَتْ﴾ : أي انقضت وتساقطت على الأرض .

﴿سُيِّرَتْ﴾ : ذهب بها عن وجه الأرض فصارت هباء منبثا . ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ﴾ : أي النوق الحوامل .

﴿عُطِّلَتْ﴾ : أي تركت بلا راع أو بلا حلب لما دهاهم من الأمر .

﴿ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ : أي جمعت وماتت .

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ : أي أوقدت فصارت نارا .

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ : أي قرنت بأجسادها ثم بقرنائها وأمثالها في الخير والشر .

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ : أي البنت تدفن حية خوف العار أو الحاجة .

﴿سُئِلَتْ﴾ : أي تبكيتا لقاتلها .

﴿بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ : أي بلا ذنب .

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ : أي صحف الأعمال فتحت وبسطت .

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ : أي نزعت من أماكنها كما ينزع الجلد عن الشاة .

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ : أي النار أحجت .

﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ : أي قرّبت لأهلها ليدخلوها .

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ : أي كل نفس وقت هذه المذكورات ما أحضرت من خير وشر .

معنى الآيات :

قوله تعالى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ إلى قوله ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾ اشتمل على اثنى عشر حدثا جللا ، ستة أحداث منها في الدنيا وستة في الآخرة وكلها معتبرة شرطاً لجواب واحد وهو قوله تعالى ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾ أي من خير وشر لتجزي به والسياق كله في تقرير عقيدة البعث والجزاء التي أنكرها العرب المشركين وبالغوا في إنكارها مبالغة شديدة وكونها عليها مدار إصلاح الفرد والجماعة وأنه بدونها لا يتم إصلاح ولا تهذيب ولا تطهير عُنِيَ القرآن بها عناية فائقة ويدل لذلك أن فواتح سور والصافات والذاريات والطور والمرسلات والنازعات والتكوير والانفطار والانشقاق والبروج والفجر كل هذه بما فيها من إقسامات عظيمة هي لتقرير عقيدة البعث والجزاء .

وهذه الأحداث الستة التي تقع في الدنيا وهي مبادئ الآخرة .

١ - تكوير الشمس بلفها وذهاب ضوئها .

٢ - إنكدار النجوم بانقضائها وسقوطها على الأرض .

٣ - تسيير الجبال بذهابها عن وجه الأرض واستحالتها إلى هباء يتطاير .

٤ - تعطيل العشار وهي النوق الحوامل فلا تحلب ولا تركب ولا ترعى لما أصاب أهلها من الهول والفزع وكانت أفضل أموالهم وأحبها إلى نفوسهم .

٥ - حشر الوحوش وموتها وهي دواب البر قاطبة .

٦ - تسجير البحار باشتعالها ناراً .

وهذه الأحداث الستة التي تقع في الآخرة :

١ - تزويج النفوس وهو قرنها بأجسادها بعد خلق الأجساد لها ، وبعد ذلك بأمثالها في الخير والشر .

٢ - سؤال الموءودة عن ذنبها الذي قتلت به؟

٣ - نَشْرُ صحف الأعمال وفتحها وبسطها .

٤ - كشط السماء أي نزعها من أماكنها نزع الجلد عن الشاة عند سلخها .

٥ - تسعير النار أي تأجيجها وتقويتها .

٦ - إزلاف الجنة وتقريبها لأهلها أهل الإيمان والتقوى .

وجواب هذه الأحداث التي وقعت شرطا لحرف ﴿إِذَا﴾ هو قوله تعالى علمت نفس ما أحضرت من حسنات فتصير بها إلى الجنة ، أو سيئات فتصير بها إلى النار .اهـ[1]

[٢٧٦] قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا عبد الله بن بحير القاص: أن عبد الرحمن بن يزيد الصنعاني أخبره: أنه سمع ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: ((**من سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأيُ عين فليقرأ: " إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ " ، و " وإِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ " ، و " إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ "**)).

وهكذا رواه الترمذي، عن العباس بن عبد العظيم العنبري، عن عبد الرزاق، به.

[قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ يعني: أظلمت. وقال العوفي، عنه: ذهبت، وقال مجاهد: اضمحلّت وذَهَبت. وكذا قال الضحاك.

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٣/ ٦٦٣، ٦٦٤ لسورة التكوير الآيات (١ – ١٤) ط/ دار الحديث .

وقال قتادة: ذهب ضوءها. وقال سعيد بن جبير: ﴿كُوِّرَتۡ﴾ غُوِّرت.

وقال الربيع بن خُثَيم: ﴿كُوِّرَتۡ﴾ يعني: رمى بها. وقال أبو صالح: ﴿كُوِّرَتۡ﴾ ألقيت. وعنه أيضا: نكست. وقال زيد بن أسلم: تقع في الأرض. قال ابن جرير: والصواب من القول عندنا في ذلك أن التكوير جَمعُ الشيء بعضه إلى بعض، ومنه تكوير العمامة [وهو لفها على الرأس، وكتكوير الكاره، وهي] جمع الثياب بعضها إلى بعض، فمعنى قوله: ﴿كُوِّرَتۡ﴾ جمع بعضها إلى بعض، ثم لفت فرمى بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج وعمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا أبو أسامة، عن مجالد، عن شيخ من بَجيلة، عن ابن عباس: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ قال: يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر، ويبعث الله ريحا دبورًا فتضرمها نارا. وكذا قال عامر الشعبي. ثم قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثني معاوية بن صالح، عن ابن يزيد بن أبي مريم، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال في قول الله: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ قال: "**كورت في جهنم**" .

[٢٧٧] وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا موسى بن محمد بن حَيَّان، حدثنا دُرُسْتُ بن زياد، حدثنا يزيد الرقاشي، حدثنا أنس قال: قال رسول الله ﷺ : ((**الشمس والقمر ثوران عقيران في النار**)) هذا حديث ضعيف؛ لأن يزيد الرقاشي ضعيف، [٢٧٨] والذي رواه البخاري في الصحيح بدون هذه الزيادة، ثم قال البخاري: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا عبد العزيز بن المختار، حدثنا عبد الله الداناجُ، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ : ((**الشمس والقمر يكوران يوم القيامة**))

انفرد به البخاري وهذا لفظه، وإنما أخرجه في كتاب "بدء الخلق"،

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢﴾ أي: انتثرت، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢﴾ [الانفطار]، وأصل الانكدار: الانصباب.

قال الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: ست آيات قبل يوم القيامة، بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت، ففزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطير والوحوش، فماجوا بعضهم في بعض: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ قال: اختلطت، ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾ قال: أهملها أهلها، ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ قال: قالت الجن: نحن نأتيكم بالخبر. قال: فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجج، قال: فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا، قال فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم.

رواه ابن جرير -وهذا لفظه-وابن أبي حاتم، ببعضه، وهكذا قال مجاهد والربيع بن خُثَيم، والحسن البصري، وأبو صالح، وحماد بن أبي سليمان، والضحاك في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ أي: تناثرت.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ أي: تغيرت.

[٢٧٩] وقال يزيد بن أبي مريم عن النبي ﷺ : ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ قال: ((انكدرت في جهنم، وكل من عبد من دون الله فهو في جهنم، إلا ما كان من عيسى وأمه، ولو رضيا أن يُعبَدا لدخلاها)) . رواه ابن أبي حاتم بالإسناد المتقدم.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ أي: زالت عن أماكنها ونُسِفت، فتركت الأرض قاعا صفصفا.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾ قال عكرمة، ومجاهد: عشار الإبل. قال مجاهد: ﴿عُطِّلَتْ﴾ تركت وسُيِّبت.

وقال أبي بن كعب، والضحاك: أهملها أهلها: وقال الربيع بن خُثَيم لم تحلب ولم تُصَـــرّ، تخلى منها أربابها.وقال الضحاك: تركت لا راعي لها.

والمعنى في هذا كله متقارب. والمقصود أن العشار من الإبل-وهي: خيارها والحوامل منها التي قد وَصَلت في حملها إلى الشهر العاشر-واحدها عُشَراء، ولا يزال ذلك اسمها حـــتى تضع-قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها، بعد ما كانوا أرغب شيء فيهـــا، بما دَهَمهم من الأمر العظيم المُفظع الهائل، وهو أمر القيامة وانعقـــاد أســـبابها، ووقـــوع مقدماتها.وقيل: بل يكون ذلك يوم القيامة، يراها أصحابها كذلك ولا سبيل لهم إليهـــا.

وقد قيل في العشار: إنها السحاب يُعطَّل عن المسير بين السماء والأرض، لخراب الـــدنيا.

وقد قيل: إنها الأرض التي تُعشَّر. وقيل: إنها الديار التي كانت تسكن تُعطَّل لذهاب أهلها.

حكى هذه الأقوال كلها الإمام أبو عبد الله القرطبي في كتابه "التذكرة"، ورجـــح أنهـــا الإبل، وعزاه إلى أكثر الناس .

قلت: بل لا يعرف عن السلف والأئمة سواه، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ أي: جمعت. كما قال تعـــالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨﴾ [الأنعام] قال ابن عباس: يحشر كل شيء حتى الذباب. رواه ابن أبي حاتم. وكذا قال الربيع بن خُثَيم والسّديّ، وغير واحد. وكذا قال قتادة في تفسير هـــذه الآية: إن هذه الخلائق [موافية] فيقضي الله فيها ما يشاء.

وقال عكرمة: حشرها: موتها.

وقال ابن جرير: حدثني علي بن مسلم الطوسي، حدثنا عباد بن العوام، أخبرنا حُصَـــين، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ قال: حَشرُ البهائم: موتها، وحشر كل شيء الموت غيره الجن والإنس، فإنهما يوقفان يوم القيامة.

حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وَكِيع، عن سفيان، عن أبيه، عن أبي يعلى، عن الربيع بن خُثَيم: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ قال: أتى عليها أمر الله. قال سفيان: قال أبي: فذكرته لعكرمة، فقال: قال ابن عباس: حشرها: موتها.

وقد تقدم عن أُبيِّ بن كعب أنه قال: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ اختلطت.

قال ابن جرير: والأولى قولُ من قال: ﴿حُشِرَتْ﴾ جُمعت، قال الله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ [ص: ١٩]، أي: مجموعة.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُلَية، عن داود، عن سعيد بن المسيب قال: قال علي، رضي الله عنه، لرجل من اليهود: أين جهنم؟ قال: البحر. فقال: ما أراه إلا صادقا. ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ [الطور]، ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ [مخففة].

وقال ابن عباس وغير واحد: يرسل الله عليها الدَّبور فتسعرها، وتصير نارًا تأجج، وقد تقدم الكلام على ذلك عند قوله: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أبو طاهر، حدثني عبد الجبار بن سليمان أبو سليمان النفاط–شيخٌ صَالِح يُشبهُ مالكَ بن أنس–عن معاوية بن سعيد قال: إن هذا البحر بركة–يعني بحر الرُّوم–وسط الأرض، والأنهار كلها تصب فيه، والبحر الكبير يصب فيه، وأسفله آبار مطبقة بالنحاس، فإذا كان يوم القيامة أسجر.

وقال مجاهد، والحسن بن مسلم: ﴿سُجِّرَتْ﴾ أوقدت. وقال الحسن: يبست. وقال الضحاك، وقتادة: غاض ماؤها فذهب ولم يبق فيها قطرة. وقال الضحاك أيضا: ﴿سُجِّرَتْ﴾ فجرت. وقال السدي: فتحت وسيرت. وقال الربيع بن خُثَيم ﴿سُجِّرَتْ﴾ فاضت.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ أي: جمع كل شكل إلى نظيره، كقوله: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الصباح البزار، حدثنا الوليد بن أبي ثور، عن سماك، عن النعمان بن بشير أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ قال: الضرباء، كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله"، وذلك بأن الله ﷻ يقول: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ [الواقعة]، قال: هم الضرباء[1].

ثم رواه ابن أبي حاتم من طرق أخر، عن سماك بن حرب، عن النعمان بن بشير أن عُمَر خطب الناس فقرأ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ فقال: تزوّجها: أن تؤلف كل شيعة إلى شيعتهم. وفي رواية: هما الرجلان يعملان العمل فيدخلان به الجنة أو النار .

وفي رواية عن النعمان قال: سئل عمر عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ فقال: يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، فذلك تزويج الأنفس.

وفي رواية عن النعمان أن عمر قال للناس: ما تقولون في تفسير هذه الآية: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ ؟ فسكتوا. قال: ولكن هو الرجل يزوج نظيره من أهل الجنة، والرجل يزوج نظيره من أهل النار، ثم قرأ: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ .

---

(١) أي الأشباه والنظائر في الأعمال والاعتقاد .

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧﴾ قال: ذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة. وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧﴾ قال: الأمثال من الناس جمع اهـ (١).

صور شاخصة للأحداث العصيبة : -

[هذه السورة ذات مقطعين اثنين تعالج في كل مقطع منهما تقرير حقيقة ضخمة من حقائق العقيدة :

الأولى حقيقة القيامة ، وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل كامل ، يشمل الشمس والنجوم والجبال والبحار ، والأرض والسماء ، والأنعام والوحوش ، كما يشمل بني الإنسان .

والثانية حقيقة الوحي ، وما يتعلق بها من صفة الملك الذي يحمله ، وصفة النبي الذي يتلقاه ، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحي معه ، ومع المشيئة الكبرى التي فطرتهم ونزلت لهم الوحي .

والجو العام للسورة بحركة جائحة . تنطلق من عقالها ، فتقلب كل شيء ، وتنثر كل شيء؛ وتهيج الساكن وتروع الآمن؛ وتذهب بكل مألوف وتبدل كل معهود؛ وتهز النفس البشرية هزاً عنيفاً طويلاً ، يخلعها من كل ما اعتادت أن تسكن إليه ، وتتشبث به ، فإذا هي في عاصفة الهول المدمر الجارف ريشة لا وزن لها ولا قرار . ولا ملاذ لها ولا ملجأ إلا في حمى الواحد القهار ، الذي له وحده البقاء والدوام ، وعنده وحده القرار والاطمئنان . ومن ثم فالسورة بإيقاعها العام وحده تخلع النفس من كل ما تطمئن إليه وتركن ، لتلوذ بكنف الله ، وتأوي إلى حماه ، وتطلب عنده الأمن والطمأنينة والقرار . .وفي السورة مع هذا ثروة ضخمة من المشاهد الرائعة ، سواء في هذا الكون الرائع الذي نراه ، أو في ذلك اليوم الآخر الذي ينقلب فيه الكون بكل ما نعهده فيه من أوضاع . وثروة كذلك من

---

(١) انظر تفسير ابن كثير : ٤/٤٧٥ – ٤٧٧ تفسير سورة التكوير الآيات (١ – ٧) .

التعبيرات الأنيقة! المنتقاة لتلوين المشاهد ... وتلتقي هذه وتلك في حيز السورة الضيق ، فتضغط على الحس وتنفذ إليه في قوة وإيحاء ؛

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ .

هذا هو مشهد الانقلاب التام لكل معهود ، والثورة الشاملة لكل موجود . الانقلاب الذي يشمل الأجرام السماوية والأرضية ، والوحوش النافرة والأنعام الأليفة ، ونفوس البشر ، وأوضاع الأمور . حيث ينكشف كل مستور ، ويعلم كل مجهول؛ وتقف النفس أمام ما أحضرت من الرصيد والزاد في موقف الفصل والحساب . وكل شيء من حولها عاصف؛ وكل شيء من حولها مقلوب! وهذه الأحداث الكونية الضخام تشير بجملتها إلى أن هذا الكون الذي نعهده .

الكون المنسق الجميل ، الموزون الحركة ، المضبوط النسبة ، المتين الصنعة ، المبني بأيد وإحكام . أن هذا الكون سينفرط عقد نظامه ، وتتناثر أجزاؤه ، وتذهب عنه صفاته هذه التي يقوم بها؛ وينتهي إلى أجله المقدر ، حيث تنتهي الخلائق إلى صورة أخرى من الكون ومن الحياة ومن الحقائق غير ما عهدت نهائياً في هذا الكون المعهود .

وهذا ما تستهدف السورة إقراره في المشاعر والقلوب كي تنفصل من هذه المظاهر الزائلة مهما بدت لها ثابتة وتتصل بالحقيقة الباقية . ...

فأما حقيقة ما يجري لكل هذه الكائنات ، فعلمها عند الله؛ وهي حقيقة أكبر من أن ندركها الآن بمشاعرنا وتصوراتنا المقيدة بمألوف حسّنا وتفكيرنا . . وأكبر ما نعهده من الانقلابات هو أن ترجف بنا الأرض في زلزال مدمر ، أو يتفجر من باطنها بركان جائح ، أو أن ينقض على الأرض شهاب صغير ، أو صاعقة . . وأشد ما عرفته البشرية من

طغيان الماء كان هو الطوفان . . كما أن أشد ما رصدته من الأحداث الكونية كان هو انفجارات جزئية في الشمس على بعد مئات الملايين من الأميال . .

وهذه كلها بالقياس إلى ذلك الانقلاب الشامل الهائل في يوم القيامة . . تسليات أطفال!!! فإذا لم يكن بد أن نعرف شيئاً عن حقيقة ما يجري للكائنات ، فليس أمامنا إلا تقريبها في عبارات مما نألف في هذه الحياة! إن تكوير الشمس قد يعني برودها . وانطفاء شعلتها ، وانكماش ألسنتها الملتهبة التي تمتد من جوانبها كلها الآن إلى ألوف الأميال حولها في الفضاء . كما يتبدى هذا من المراصد في وقت الكسوف . واستحالتها من الغازية المنطلقة بتأثير الحرارة الشديدة التي تبلغ ١٢٠٠٠ درجة ، والتي تحول جميع المواد التي تتكون منها الشمس إلى غازات منطلقة ملتهبة . . استحالتها من هذه الحالة إلى حالة تجمد كقشرة الأرض ، وتكور لا ألسنة له ولا امتداد! ؛ قد يكون هذا ، وقد يكون غيره . . أما كيف يقع والعوامل التي تسبب وقوعه فعلم ذلك عند الله .

وانكدار النجوم قد يكون معناه انتثارها من هذا النظام الذي يربطها ، وانطفاء شعلتها وإظلام ضوئها . . والله أعلم ما هي النجوم التي يصيبها هذا الحادث . وهل هي طائفة من النجوم القريبة منا . . بمجموعتنا الشمسية مثلاً . أو بجرتنا هذه التي تبلغ مئات الملايين من النجوم . . أم هي النجوم جميعها والتي لا يعلم عددها ومواضعها إلا الله . فوراء ما نرى منها بمراصدنا مجرات وفضاءات لها لا نعرف لها عدداً ولا نهاية .

فهناك نجوم سيصيبها الانكدار كما يقرر هذا الخبر الصادق الذي لا يعلم حقيقته إلا الله .

وتسيير الجبال قد يكون معناه نسفها وبسها وتذريتها في الهواء ، كما جاء في سورة أخرى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [طه] ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ ﴾ [الواقعة] ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [النبا] فكلها تشير إلى حدث كهذا يصيب الجبال ، فيذهب بثباتها ورسوخها وتماسكها واستقرارها ، وقد يكون مبدأ ذلك الزلزال الذي يصيب الأرض ، والذي يقول عنه القرآن : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ

زِلۡزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ [الزلزلة] وكلها أحداث تقع في ذلك اليوم الطويل . . أما قوله ﷻ : ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾﴾ . . فالعشار هي النوق الحبالى في شهرها العاشر . وهي أجود وأثمن ما يملكه العربي . وهي في حالتها هذه تكون أغلى ما تكون عنده ، لأنها مرجوة الولد واللبن ، قريبة النفع . ففي هذا اليوم الذي تقع فيه هذه الأهوال تهمل هذه العشار وتعطل فلا تصبح لها قيمة ، ولا يهتم بشأنها أحد . . والعربي المخاطب ابتداء بهذه الآية لا يهمل هذه العشار ولا ينفض يده منها إلا في حالة يراها أشد ما يلم به!

﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾﴾ . . فهذه الوحوش النافرة قد هالها الرعب والهول فحشرت وانزوت تتجمع من الهول وهي الشاردة في الشعاب؛ ونسيت مخاوفها بعضها من بعض ، كما نسيت فرائسها ، ومضت هائمة على وجوهها ، لا تأوي إلى جحورها أو بيوتها كما هي عادتها ، ولا تنطلق وراء فرائسها كما هو شأنها . فالهول والرعب لا يدعان لهذه الوحوش بقية من طباعها وخصائصها! فكيف بالناس في ذلك الهول العصيب؟! وأما تسجير البحار فقد يكون معناه ملؤها بالمياه . وإما أن تجيئها هذه المياه من فيضانات كالتي يقال إنها صاحبت مولد الأرض وبرودتها (التي تحدثنا عنها في سورة النازعات) وإما بالزلازل والبراكين التي تزيل الحواجز بين البحار فيتدفق بعضها في بعض . . وإما أن يكون معناه التهابها وانفجارها كما قال في موضع آخر : ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾﴾ فتفجير عناصرها وانفصال الأيدروجين عن الأكسوجين فيها . أو تفجير ذراتها على نحو ما يقع في تفجير الذرة ، وهو أشد هولاً . أو على نحو آخر . وحين يقع هذا فإن نيراناً هائلة لا يتصور مداها تنطلق من البحار . فإن تفجير قدر محدود من الذرات في القنبلة الذرية أو الأيدروجينية يحدث هذا الهول الذي عرفته الدنيا؛ فإذا

انفجرت ذرات البحار على هذا النحو أو نحو آخر ، فإن الإدراك البشري يعجز عن تصور هذا الهول؛ وتصور جهنم الهائلة التي تنطلق من هذه البحار الواسعة!

وتزويج النفوس يحتمل أن يكون هو جمع الأرواح بأجسادها بعد إعادة إنشائها . ويحتمل أن يكون ضم كل جماعة من الأرواح المتجانسة في مجموعة ، كما قال في موضع آخر : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ ﴾ [الواقعة] أي صنوفاً ثلاثة هم المقربون وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة .أو في غير ذلك من التشكيلات المتجانسة!

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾ وقد كان من هوان النفس الإنسانية في الجاهلية أن انتشرت عادة وأد البنات خوف العار أو خوف الفقر . وحكى القرآن عن هذه العادة ما يسجل هذه الشناعة على الجاهلية ، التي جاء الإسلام ليرفع العرب من وهدتها ، ويرفع البشرية كلها . فقال في موضع : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل] وقال في موضع : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزخرف] وقال في موضع ثالث : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء: ٣١] وكان الوأد يتم في صورة قاسية . إذ كانت البنت تدفن حية! وكانوا يفتنون في هذا بشتى الطرق . فمنهم من كان إذا ولدت له بنت تركها حتى تكون في السادسة من عمرها ، ثم يقول لأمها : طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها! وقد حفر لها بئراً في الصحراء ، فيبلغ بها البئر ، فيقول لها : انظري فيها . ثم يدفعها دفعاً ويهيل التراب عليها! وعند بعضهم كانت الوالدة إذا جاءها المخاض جلست فوق حفرة محفورة . فإذا كان المولود بنتاً رمت بها فيها وردمتها

. وإن كان ابناً قامت به معها! وبعضهم كان إذا نوى ألا يئد الوليدة أمسكها مهينـــة إلى أن تقدر على الرعي ، فيلبسها جبة من صوف أو شعر ويرسلها في البادية ترعى له إبله! فأما الذين لا يئدون البنات ولا يرسلونهن للرعي ، فكانت لهم وسائل أخـــرى لإذاقتـــها الخسف والبخس . . كانت إذا تزوجت ومات زوجها جاء وليه فألقى عليهـــا ثوبـــه . ومعنى هذا أن يمنعها من الناس فلا يتزوجها أحد فإن أعجبته تزوجها ، لا عبرة برغبتـــها هي ولا إرادتها! وإن لم تعجبه حبسها حتى تموت فيرثها . أو أن تفتدي نفسها منه بمال في هذه الحالة أو تلك . . وكان بعضهم يطلق المرأة ويشترط عليها ألا تنكح إلا مـــن أراد . إلا أن تفتدي نفسها منه بما كان أعطاها . . وكان بعضهم إذا مـــات الرجـــل حبســـوا زوجته على الصبي فيهم حتى يكبر فيأخذها . . وكان الرجل تكون اليتيمة في حجره يلي أمرها ، فيحبسها عن الزواج ، رجاء أن تموت امرأته فيتزوجها! أو يزوجها مـــن ابنـــه الصغير طمعاً في مالها أو جمالها . .فهذه كانت نظرة الجاهلية إلى المرأة على كل حـــال . حتى جاء الإسلام . يشنع بهذه العادات ويقبحها . وينهى عن الوأد ويغلظ فعلته . ويجعلها موضوعاً من موضوعات الحساب يوم القيامة . يذكره في سياق هذا الهول الهائج المائج ، كأنه حدث كوني من هذه الأحداث العظام . ويقول : إن الموءودة ستسأل عن وأدهـــا .فكيف بوائدها؟!

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠﴾ صحف الأعمال . ونشرها يفيد كشفها ومعرفتـــها ، فـــلا تعود خافية ولا غامضة . وهذه العلنية أشد على النفوس وأنكى . فكم من سوأة مستورة يخجل صاحبها ذاته من ذكراها ، ويرجف ويذوب من كشفها! ثم إذا هـــي جميعهـــا في ذلك اليوم منشورة مشهودة!

إن هذا النشر والكشف لون من ألوان الهول في ذلك اليوم؛ كما أنه سمـــة مـــن سمـــات الانقلاب حيث يكشف المخبوء ، ويظهر المستور ، ويفتضح المكنون في الصدور .

وهذا التكشف في خفايا الصدور يقابله في الكون مشهد مثله : ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾ . . وأول ما يتبادر إلى الذهن من كلمة السماء هو هذا الغطاء المرفوع فوق الرؤوس . وكشطها إزالتها . . فأما كيف يقع هذا وكيف يكون فلا سبيل إلى الجزم بشيء . ولكنا نتصور أن ينظر الإنسان فلا يرى هذه القبة فوقه نتيجة لأي سبب يغير هذه الأوضاع الكونية ، التي توجد بها هذه الظاهرة . وهذا يكفي . .

ثم تجيء الخطوة الأخيرة في مشاهد ذلك اليوم الهائل المرهوب :﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾ حيث تتوقد الجحيم وتتسعر ، ويزداد لهيبها ووهجها وحرارتها . . أما أين هي؟ وكيف تتسعر وتتوقد؟ وبأي شيء تتوقد؟ فليس لدينا من ذلك إلا قوله تعالى : ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾. وذلك بعد إلقاء أهلها فيها . أما قبل ذلك فالله أعلم بها وبوقودها! وحيث تقرب الجنة وتظهر لروادها الموعودين بها ، وتبدو لهم سهولة مدخلها ، ويسر ولوجها . فهي مزلفة مقربة مهيأة .واللفظ كأنما يزحلقها أو يزحلق الأقدام بيسر إليها!! عندما تقع هذه الأحداث الهائلة كلها ، في كيان الكون ، وفي أحوال الأحياء والأشياء . عندئذ لا يبقى لدى النفوس شك في حقيقة ما عملت ، وما تزودت به لهذا اليوم ، وما حملت معها للعرض ، وما أحضرت للحساب :﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ كل نفس تعلم ، في هذا اليوم الهائل ما معها وما لها وما عليها . . تعلم وهذا الهول يحيط بها ويغمرها . . تعلم وهي لا تملك أن تغير شيئاً مما أحضرت ، ولا أن تزيد عليه ولا أن تنقص منه . . تعلم وقد انفصلت عن كل ما هو مألوف لها ، معهود في حياتها أو تصورها . وقد انقطعت عن عالمها وانقطع عنها عالمها . وقد تغير كل شيء وتبدل كل شيء ، ولم يبق إلا وجه الله الكريم ، الذي لا يتحول ولا يتبدل . . فما أولى أن تتجه النفوس إلى وجه الله الكريم ، فتجده سبحانه عندما يتحول الكون كله ويتبدل!

وبهذا الإيقاع ينتهي المقطع الأول وقد امتلأ الحس وفاض بمشاهد اليوم الذي يتم فيه هذا الانقلاب .

ثم يجيء المقطع الثاني في السورة يبدأ بالتلويح بالقسم بمشاهد كونية جميلة ، تختـــار لهـــا تعبيرات أنيقة . . القسم على طبيعة الوحي ، وصفة الرسول الذي يحمله ، والرسول الذي يتلقاه ، وموقف الناس حياله وفق مشيئة الله :

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ . .

﴿بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ . . هي الكواكب التي تخنس أي ترجع في دورها الفلكيـــة وتجري وتختفي . والتعبير يخلع عليها حياة رشيقة كحياة الظباء . وهي تجري وتختبـــئ في كناسها وترجع من ناحية أخرى . فهناك حياة تنبض من خلال التعبير الرشيق الأنيق عن هذه الكواكب ،... ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾﴾ . . أي إذا أظلم . ولكن اللفظ فيه تلـــك الإيحاءات كذلك . فلفظ عسعس مؤلف من مقطعين : عس . عس . وهو يوحي بجرسه بحياة في هذا الليل ، وهو يعس في الظلام بيده أو برجله لا يرى! وهـــو إيحـــاء عجيـــب واختيار للتعبير رائع .

ومثله : ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ . . بل هو أظهر حيوية ، وأشد إيحاء . والصبح حـــي يتنفس . أنفاسه النور والحياة والحركة التي تدب في كل حي ، وأكاد أجـــزم أن اللغـــة العربية بكل مأثوراتها التعبيرية لا تحتوي نظيراً لهذا التعبير عن الصبح . ورؤية الفجر تكاد

تشعر القلب المتفتح أنه بالفعل يتنفس! ثم يجيء هذا التعبير فيصور هذه الحقيقة التي يشعر بها القلب المتفتح .اهـ(١)

من هداية الآيات :

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء .

٢- بيان مفصل عن مبادئ القيامة ، وخواتيمها

[٢٨٠] وفي حديث الترمذي الحسن الذي قال فيه رسول الله ﷺ « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) وَلَمْ يَذْكُرْ وَ (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ) وَ (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ) » .

٣- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح إذ هما المصير إلى الجنة .

٤- الترهيب من الشرك والمعاصي إذ هما المصير إلى النار .(٢)

---

(١) انظر الظلال : ٣٨٣٦/٦ - ٣٨٤٢ في ظلال سورة التكوير الآيات (١٥ -٢٩) بتصرف .

(٢) انظر تفسير الجزائري : ٣/ ٦٦٤ ، ٦٦٥ لسورة التكوير الآيات (١-١٤) .

سُورَةُ الانفطار

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ
بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴿٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾
ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ
﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

شرح الكلمات :

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ : أي انشقت .

﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ : أي تساقطت .

﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾ : أي اختلطت ببعضها وأصبحت بحراً واحداً الملح والعذب سواء .

﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾ : قلب ترابها وبعث موتاها .

﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ﴾ : أي من الأعمال وما أخرت منها فلم تعمله وذلك عند قراءتها كتاب أعمالها .

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾ : أي أي شيء خدعك وجرّاك على عصيانه .

﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ﴾ : أي بعد أن لم تكن .

﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ : أي جعلك مستوى الخلقة سالم الأعضاء .

﴿فَعَدَلَكَ﴾ : أي جعلك معتدل الخلق متناسب الأعضاء ليست يد أطول ورجل أطول من الأخرى .

﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ : ليس الكرم هو الذي غره وإنما جرّاه على المعاصي تكذيبه بالدين الذي هو الجزاء بعد البعث حياً من قبره .

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا﴾ : أي وإن عليكم لملائكة كراما على الله تعالى حافظين لأعمالكم .

﴿كَٰتِبِينَ﴾ : أي لها أي لأعمالكم خيرها وشرها حسنها وقبيحها .

معنى الآيات :

قوله تعالى ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ أي انشقت ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ أي انفضت وتساقطت ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣﴾ أي اختلط ماؤها بعضه ببعض ملحها بعذبها لانكسار ذلك الحاجز الذي كان يفصلهما عن بعضهما لزلزلة الأرض إيذاناً بخراب العالم ، ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤﴾ قلبت وأخرج ما فيها من الأموات ، إذا حصلت هذه الأحداث الأربعة ثلاثة منها في الدنيا وهي انفطار السماء وانتثار الكواكب وتفجر البحار وهذه تتم بالنفخة الأولى والرابع وهو بعثرة القبور يتم في الآخرة بعد النفخة الثانية ، وعندها تعلم نفس ما قدمت وما أخرت وهذا جواب إذا في أول الآيات . ومعنى ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ﴾ أي كل نفس مكلفة ما قدمت من أعمال حسنة أو سيئة ، وما أخرت من أعمال لحقتها بعدها وذلك ما سنته من سنن الهدى أو سنن الضلال ،

[٢٨١] لحديث « مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ » وهذا العلم يحصل للنفس أولا مجملا وذلك عند ابيضاض الوجوه واسودادها ، ويحصل لها مفصلا عندما تقرأ كتاب أعمالها . وقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾ يخاطب تعالى

على الكفر بربك الكريم وعصيانه بالفسق عن أمره والخروج عن طاعته . وهو القادر على مؤاخذتك والضرب على يديك ساعة ما كفرت به أو عصيته أليس هو الـــذي خلقـــك فسوى على مؤاخذتك والضرب وناسب بين أجزائك ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ إن شاء بيضك أو سودك طولك أو قصرك جعلك ذكراً أو أنثى إنساناً أو حيوانـــاً قـــرداً أو خنزيراً هل هناك من يصرفه عما أراد لك والجواب لا أحد إذاً كيف يسوغ لك الكفر به وعصيانه والخروج عن طاعته وبعد هذا التوبيخ والتأنيب قال تعالى ﴿كَلَّا﴾ أي ما غـــرك كرم الله ولا حلمه ﴿بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾ أي بالبعث والجزاء في الدار الآخـــرة هـــو الذي جزاكم على الكفر والظلم والإجرام ومـــا علمـــتم والله ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾ يحفظون عليكم أعمالكم ويحصونها لكم ويكتبونها في صحائفكم .اهـــ [(١)]

المعنى العام

إذا انشقت السماء وانفطرت، وانتثرت نجومها، وزال جمالها، وفجرت البحار فصـــارت بحرا واحدا، وبعثرت القبور بأن أخرجت ما فيها من الأموات، وحشروا للموقـــف بـــين يدي الله للجزاء على الأعمال. فحينئذ ينكشف الغطاء، ويزول ما كان خفيا، وتعلم كل نفس ما معها من الأرباح والخسران، هنالك يعض الظالم على يديه إذا رأى أعماله باطلة، وميزانه قد خف، والمظالم قد تداعت إليه، والسيئات قد حضرت لديه، وأيقن بالشـــقاء الأبدي والعذاب السرمدي .

و [هنالك] يفوز المتقون المقدمون لصالح الأعمال بالفوز العظيم، والنعيم المقيم والســـلامة من عذاب الجحيم.اهـــ

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٣/٦٦٨ ، ٦٦٩ لسورة الانفطار الآيات (١ -٩) .

* تتحدث هذه السورة القصيرة عن الانقلاب الكوني الذي تتحدث عنه سورة التكوير . ولكنها تتخذ لها شخصية أخرى ، وسمتا خاصاً بها ، وتتجه إلى مجالات خاصة بها تطوّف بالقلب البشري فيها؛ ...

ومن ثم فإنها تختصر في مشاهد الانقلاب ، فلا تكون هي طابع السورة الغالب كما هــو الشأن في سورة التكوير لأن جو العتاب أهدأ ، وإيقاع العتاب أبطأ ... فهو يحمل هــذا الطابع . فيتم التناسق في شخصية السورة والتوافق!

إنها تتحدث في المقطع الأول عن انفطار السماء وانتثار الكواكب ، وتفجير البحار وبعثرة القبور كحالات مصاحبة لعلم كل نفس بما قدمت وأخرت ، في ذلك اليوم الخطير . .

وفي المقطع الثاني تبدأ لمسة العتاب المبطنة بالوعيد ، لهذا الإنسان الذي يتلقى مــن ربــه فيوض النعمة في ذاته وخلقته ، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها ، ولا يعرف لربه قدره ، ولا يشكر على الفضل والنعمة والكرامة : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ . .

وفي المقطع الثالث يقرر علة هذا الجحود والإنكار . فهي التكذيب بالدين أي بالحســاب وعن هذا التكذيب ينشأ كل سوء وكل جحود . ومن ثم يؤكد هذا الحساب توكيــداً ، ويؤكد عاقبته وجزاءه المحتــوم : ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ . .

فأما المقطع الأخير فيصور ضخامة يوم الحساب وهوله ، وتجرد النفوس من كل حول فيه ، وتفرد الله سبحانه بــأمره الجليــل : ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ ....

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥﴾ وقد تحدثنا في السورة الماضية عن الإيحاء الذي يتسرب في الحس من رؤية هذا الكون تتناوله يد القدرة بالتغيير، وتهزه هزة الانقلاب المثير، فلا يبقى شيء على حاله في هذا الكون الكبير. وقلنا: إن هذا الإيحاء يتجه إلى خلع النفس من كل ما تركن إليه في هذا الوجود، إلا الله ﷻ خالق هذا الوجود، الباقي بعد أن يفنى كل موجود. والاتجاه بالقلب إلى الحقيقة الوحيدة الثابتة الدائمة التي لا تحول ولا تزول، ليجد عندها الأمان والاستقرار، في مواجهة الانقلاب والاضطراب والزلزلة والانهيار، في كل ما كان يعهده ثابتاً مستقراً منتظماً انتظاماً يوحي بالخلود! ولا خلود إلا للخالق المعبود!

ويذكر هنا من مظاهر الانقلاب انفطار السماء ..اهـ [1]

انقلاب ليس مسبوقا

وقال صاحب الظلال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد ذكر انشقاق السماء في مواضع أخرى: قال في سورة الرحمن: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾ وقال في سورة الحاقة: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ۝١٦﴾ وقال في سورة الانشقاق: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ فانشقاق السماء حقيقة من حقائق ذلك اليوم العصيب ....

ويشارك في تكوين هذا المشهد ما يذكر عن انتثار الكواكب. بعد تماسكها هذا الذي تجري معه في أفلاكها بسرعات هائلة مرعبة، وهي ممسكة في داخل مداراتها لا تتعداها، ولا تهيم على وجهها في هذا الفضاء الذي لا يعلم أحد له نهاية. ولو انتثرت كما سيقع لها يوم ينتهي أجلها وأفلتت من ذلك الرباط الوثيق غير المنظور الذي يشدها ويحفظها، لذهبت في الفضاء بدداً، كما تذهب الذرة التي تنفلت من عقالها!

---

(١) انظر الظلال: ٦/ ٣٨٤٥، ٣٨٤٦ بتصرف ط/ دار الشروق.

وتفجير البحار يحتمل أن يكون هو امتلاؤها وغمرها لليابسة وطغيانها على الأنهار . كما يحتمل أن يكون هو تفجير مائها إلى عنصريه : الأكسوجين والهيدروجين؛ فتتحول مياهها إلى هذين الغازين كما كانت قبل أن يأذن الله بتجمعهما وتكوين البحار منهما . كذلك يحتمل أن يكون هو تفجير ذرات هذين الغازين كما يقع في تفجير القنابل الذرية والهيدروجينية اليوم . . فيكون هذا التفجير من الضخامة والهول بحيث تعتبر هذه القنابل الحاضرة المروعة لعب أطفال ساذجة! . . أو أن يكون هيئة أخرى غير ما يعرف البشر على كل حال . . إنما هو الهول الذي لم تعهده أعصاب البشر في حال من الأحوال!

وبعثرة القبور . . إما أن تكون بسبب من هذه الأحداث السابقة . وإما أن تكون حادثاً بذاته يقع في ذلك اليوم الطويل ، الكثير المشاهد والأحداث . فتخرج منها الأجساد التي أعاد الله إنشاءها - كما أنشأها أول مرة - لتلقى حسابها وجزاءها . .

يؤيد هذا ويتناسق معه قوله بعد عرض هذه المشاهد والأحداث : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾ [التكوير] . . أي ما فعلته أولاً وما فعلته أخيراً . أو ما فعلته في الدنيا ، وما تركته وراءها من آثار فعلها . أو ما استمتعت به في الدنيا وحدها ، وما ادخرته للآخرة بعدها . على أية حال سيكون علم كل نفس بهذا مصاحباً لتلك الأهوال العظام . وواحداً منها مروّعاً لها كترويع هذه المشاهد والأحداث كلها!

والتعبير القرآني الفريد يقول : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ . . وهو يفيد من جهة المعنى : كل نفس . ولكنه أرشق وأوقع . . كما أن الأمر لا يقف عند حدود علمها بما قدمت وأخرت .اهـ

هداية الآيات :

١- بيان أحداث تسبق يوم البعث وذلك في نفخة الفناء وأما النفخة الثانية وهي نفخة البعث حيث تجمع الخلائق ويجرى الحساب فتعطى الصحف وتوزن الأعمال وينصب الصراط ، ثم إلى جنة أو إلى نار .

٢- التحذير من السنة السيئة يتركها المرء بعده فإن أوزارها تكتب عليه وهو في قبره .

٣- التحذير من الغرور والانخداع بعامل الشيطان من الإنس أو الجن .

٤- التحذير من التكذيب بالبعث والجزاء فإنه أكبر عامل من عوامل الشر والفساد في الدنيا وأكبر موجب للعذاب يوم القيامة .

٥- تقرير عقيدة كتابة الأعمال حسنها وسيئها والحساب بمقتضاها يوم القيامة بواسطة ملكين كريمين على كل إنسان مكلف لحديث الصحيح « **يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار** » الحديث.[1]

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾

شرح الكلمات :

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ : أي المؤمنين المتقين الصادقين .

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ﴾ : أي الكافرين والخارجين عن طاعة الله ورسوله .

﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ : أي يدخلونها ويقاسون حرها يوم الجزاء وهو يوم القيامة .

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ : أي بمخرجين .

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ : أي أي شيء جعلك تدري لولا أنا علمناك .

﴿لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ : أي من المنفعة وإن قلت .

﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ : أي لا لغيره ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا بإذنه .

---

(١) الجزائري : ٣/ ٦٦٩ ط/ دار الحديث

معنى الآيات :

تقدم أن العرض على الله حق وان المجازاة تكون بحسب الأعمال التي عملها المرء ، وأنها محفوظة محصاة عليه بواسطة ملائكة كرام . وأن الناس يومئذ كما هم اليوم مؤمن بار وكافر فاجر .

يبن تعالى جزاء الكل مقروناً بعلة الحكم فقال ﷻ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ أي في الجنة دار السلام وذلك لبرورهم وهو طاعتهم لله في صدق كامل ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ أي نار ذات جحيم وذلك لفجورهم وهو كفرهم وخروجهم عن طاعة ربهم . وقوله ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي يدخلونها ويقاسون حرها ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء الذي كفروا به فأدى بهم إلى الفجور وارتكاب عظائم الذنوب . وقوله ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي إذا دخلوها لا يخرجون منها . وقوله ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾﴾ أي وما يعلمك يا رسولنا ما يوم الدين إنه يوم عظيم يوم يقوم الناس لربّ العالمين هكذا يخبر تعالى عن عظم شأن هذا اليوم . ويؤكد ذلك فيقول ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾ ويكشف عن بعض جوانب الخطورة بقوله ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ من المنفعة حيث يكون الأمر كله فيه لله وحده ولا تنفع فيه الشفاعة غلا بإذنه وما للظالمين فيه من شفيع ولا حميم .

من هداية الآيات :

١- بيان حكم الله في أهل للوقف إذ هم ما بين بار صادق فهو في نعيم وفاجر كافر فهو في جحيم .

٢- بيان عظم شأن يوم الدين وأنه يوم عظيم .

٣- بيان أن الناس في يوم الدين لا تنفعهم شفاعة ولا خلة إذ لا يشفع أحد إلا بإذن الله والكافرون هم الظالمون ، وما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع .[الجزائري : ٣/٦٧٠]

سُورَةُ المطففين

محاور هذه السورة الكريمة :

هذه السورة تصور قطاعاً من الواقع العملي الذي كانت الدعوة تواجهه في مكة إلى جانب ما كانت تستهدفه من إيقاظ القلوب ، وهز المشاعر ، وتوجيهها إلى هذا الحدث في حياة العرب وفي حياة الإنسانية ، وهو الرسالة السماوية للأرض ، وما تتضمنه من تصور جديد شامل محيط .

هذا القطاع من الواقع العملي تصوره السورة في أولها ، وهي تتهدد المطففين بالويل في اليوم العظيم ، ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾ . كما تصوره في ختامها وهي تصف سوء أدب الذين أجرموا مع الذين آمنوا ، وتغامزهم عليهم ، وضحكهم منهم ، وقولهم عنهم : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ ﴾ .

وهذا إلى جانب ما تعرضه من حال الفجار وحال الأبرار؛ ومصير هؤلاء وهؤلاء في ذلك اليوم العظيم . وهي تتألف من أربعة مقاطع . . يبدأ المقطع الأول منها بإعلان الحرب على المطففين : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾ . .

ويتحدث المقطع الثاني في شدة وردع وزجر ، وتهديد بالويل والهلاك ، ودمغ بالإثم والاعتداء ، وبيان لسبب هذا العمى وعلة هذا الانطماس ، وتصوير لجزائهم يوم القيامة ، وعذابهم بالحجاب عن ربهم ، كما حجبت الآثام في الأرض قلوبهم ، ثم بالجحيم مع التذيل والتأنيب : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ

﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ . .

والمقطع الثالث يعرض الصفحة المقابلة . صفحة الأبرار . ورفعة مقامهم . والنعيم المقرر لهم . ونضرته التي تفيض على وجوههم . والرحيق الذي يشربون وهم على الأرائك ينظرون . . وهي صفحة ناعمة وضيئة :

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

والمقطع الأخير يصف ما كان الأبرار يلاقونه في عالم الغرور الباطل من الفجار من إيذاء وسخرية وسوء أدب . ليضع في مقابله ما آل إليه أمر الأبرار وأمر الفجار في عالم الحقيقة الدائم الطويل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ . اهـ (١)

---

(١) انظر الظلال : ٣٨٥٤/٦ في ظلال سورة المطففين ط/ دار الشروق .

شرح الكلمات :

﴿وَيْلٌ﴾ : كلمة عذاب ، وواد في جهنم [١] .

﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ : المنقصين في كيل أو وزن الباخسين فيهما .

﴿إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ : أي من الناس .

﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ : الكيل .

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ : أي كالوا لهم .

﴿أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ : أي وزنوا لهم .

﴿يُخْسِرُونَ﴾ : أي ينقصون الكيل أو الوزن .

﴿أَلَا﴾ : استفهام توبيخي إنكاري .

﴿يَظُنُّ﴾ : أي يتيقن . ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ : أي يوم القيامة لما فيه من أهوال وعظائم الأمور .

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾ : أي من قبورهم .

﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ : أي يقومون خاشعين ذليلين ينتظرون حكم الله فيهم .

معنى الآيات :

قوله تعالى ويل للمطففين هذه الآيات الأولى من سورة المطففين قال أحد الأنصار ﷺ كنا أسوأ الناس كيلاً ، حتى إنه ليكون لأحدنا مكيالان مكيال يشتري به وآخر يبيع به ، وما إن نزلت فينا ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ حتى أصبحنا أحسن كيلا ووزنا .... فقوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ يتوعد ﷻ ... الذين يبخسون الناس الكيل والميزان أي ينقصونهم

---

(١) تفسير الويل بأنه وادٍ في جهنم ليس عليه دليل فليترك النص على حاله ووضعه التهديدي .

وبينهم تعالى بقوله ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢﴾ أي اشتروا منهم يأخذون كيلهم وافياً وكذا إذا وزنوا ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ﴾ أي كالوا لهم ﴿أَو وَّزَنُوهُمۡ﴾ لهم يخسرون أو ينقصون . قال تعالى موبخاً لهم منكراً ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المطففون ﴿أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ من قبورهم ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ هو يوم الدين والجزاء والحساب ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ خاشعين ذليلين ينتظرون حكمه فيهم ، ويطول بهم الموقف المائة سنة وأكثر وإن أحدهم ليلجمه العرق إلجاماً ومنهم من يصل العرق إلى نصف أذنيه والروايات في هـذا كثيرة وصحيحة .

من هداية الآيات :

١- حرمة التطفيف في الكيل والوزن وهو أن يأخذ زائداً ولو قل أو ينقص عامداً شيئا ولو قل وما كان بغير عمد ولا قصد فإنه مما يُعفا عنه .

٢- التذكير بالبعث والجزاء وتقريرهما .

٣- عظم يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين ليحكم بينهم ويجزي كلا بعمله خـيرا أو شرا .اهـ[1]

وقال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ : ﴿وَيۡلٞ﴾ كلمة ويل تكررت في القرآن كثيراً، وهي على الأصح كلمة وعيد يتوعد الله سبحانه وتعالى بها من خالف أمره، أو ارتكب نهيـه علـى الوجه المفيد في الجملة التي بعدها فهنـا يقـول ﷻ ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ فمـن هـؤلاء المطففون؟ هؤلاء المطففون فسرهم الآيات التي بعدها فقـال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾. ﴿إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢﴾ يعني اشتروا منهم ما يكال استوفوا منهم الحق كاملاً بدون نقـص ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ

---

(١) انظر أيسر التفاسير : ٣/ ٦٧١ ، ٦٧٢ تفسير سورة المطففين (١ – ٦) ط/ دار الحديث .

أَو وَّزَنُوهُمْ ﴾ يعني إذا كالوا لهم أي هم الذين باعوا الطعام كيلاً، فإنهم إذا كالوا للنـاس أو باعوا عليهم شيئاً وزناً إذا وزنوا نقصوا ﴿يُخْسِرُونَ﴾ فهؤلاء يستوفون حقهم كـاملاً، وينقصون حق غيرهم، فجمعوا بين الأمرين، بين الشح والبخل، الشح: في طلب حقهـم كاملاً بدون مراعاة أو مسامحة، والبخل: بمنع ما يجب عليهم من إتمام الكيـل والـوزن، وهذا المثال الذي ذكره الله ﷻ في الكيل والوزن هو مثال، فيقاس عليه كل ما أشبه، كل من طلب حقه كاملاً ممن هو عليه ومنع الحق الذي عليه فإنه داخل في الآية الكريمة، فمثلاً الزوج يريد من زوجته أن تعطيه حقه كاملاً ولا يتهاون في شيء من حقه، لكنه عند أداء حقها يتهاون ولا يعطيها الذي لها، وما أكثر ما تشكي النساء من هذا الطراز من الأزواج ــ والعياذ بالله ــ حيث إن كثيراً من النساء يريد منها الزوج أن تقوم بحقه كاملاً، لكنه هو لا يعطيها حقها كاملاً، ربما ينقص أكثر حقها من النفقة والعشرة بـالمعروف وغـير ذلك، إن ظلم الناس أشد من ظلم الإنسان نفسه في حق الله؛ لأن ظلم الإنسان نفسـه في حق الله تحت المشيئة إذا كان دون الشرك، إن شاء الله غفر له، وإن شاء عاقبه عليه، لكن حق الآدميين ليس داخلاً تحت المشيئة لابد أن يوفى،

[٢٨٢] ولهذا قال النبي ﷺ : «من تعدون المفلس فيكم؟» قالوا: المفلس فينـا مـن لا درهم عنده ولا متاع، فقال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بحسنات أمثـال الجبال ــ كثيرة ــ فيأتي وقد ظلم هذا، وشتم هذا، وضرب هذا، وأخذ مال هـذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبـل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»، فنصيحتي لهؤلاء الذين يفرطون في حق أزواجهم أن يتقوا الله ﷻ فإن النبي ﷺ أوصى بذلك في أكبر مجمع شهده العالم الإسلامي في حيـاة الرسـول ﷺ في يـوم عرفـة في حجـة الـوداع،

[٢٨٣] قال: «اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فـروجهن بكلمة الله»، فأمرنا أن نتقي الله تعالى في النساء وقال: «اتقوا الله في النساء فإنهن عوان

عندكم» أي بمترلة الأسرى لأن الأسير إن شاء فكه الذي أسره وإن شاء أبقاه، والمرأة عند زوجها كذلك إن شاء طلقها وإن شاء أبقاها، فهي بمترلة الأسير عنده فليتق الله فيها، كذلك أيضاً نجد بعض الناس يريد من أولاده أن يقوموا بحقه على التمام لكنه مفرط في حقهم، فيريد من أولاده أن يبروه ويقوموا بحقه، أن يبروه في المال، وفي البدن، وفي كل شيء يكون به البر، لكنه هو مضيع لهؤلاء الأولاد، غير قائم بما يجب عليه نحوهم، نقول هذا مطفف، كما نقول في المسألة الأولى في مسألة الزوج مع زوجته إنه إذا أراد منها أن تقوم بحقه كاملاً وهو يبخس حقها نقول إنه «مطفف» هذا الأب الذي أراد من أولاده أن يبروه تمام البر وهو مقصر في حقهم نقول إنك «مطفف» ونقول له تذكر قول الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾

قوله : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ويل مبتدأ ، وسوّغ الابتداء به كونه دعاء ، ولو نصب لجاز . قال مكي والمختار : في ويل ، وشبهه إذا كان غير مضاف الرفع ، ويجوز النصب ، فإن كان مضافاً أو معرّفاً كان الاختيار فيه النصب نحو قوله : ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [طه : ٦١] و ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ خبره ، والمطفف : المنقص ، وحقيقته الأخذ في الكيل ، أو الوزن شيئًا طفيفاً أي : نزراً حقيراً . قال أهل اللغة : المطفف مأخوذ من الطفف ، وهو القليل ، فالمطفف هو المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن . قال الزجاج : إنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفف ، لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف . قال أبو عبيدة ، والمبرد : المطفف الذي يبخس في الكيل والوزن ، والمراد بالويل هنا شدّة العذاب ، أو نفس العذاب ، أو الشرّ الشديد ، أو هو واد في جهنم . قال الكلبي : قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وهم يسيئون كيلهم ، ووزنهم لغيرهم ، ويستوفون لأنفسهم ، فترلت هذه الآية . وقال السديّ : قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وكان بها رجل يقال له أبو جهينة ، ومعه صاعان يكيل بأحدهما

، ويكتال بالآخر ، فأنزل الله هذه الآية . قال الفراء : هم بعد نزول هذه الآية أحسن الناس كيلاً إلى يومهم هذا .

ثم بيّن ﷺ المطففين من هم ؟ فقال : ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢﴾ أي : يستوفون الاكتيال ، والأخذ بالكيل . قال الفرّاء : يريد اكتالوا من الناس ، وعلى ومن في هذا الموضع يعتقبان ، يقال : اكتلت منك أي : استوفيت منك ، وتقول : اكتلت عليك أي : أخذت ما عليك . قال الزجاج : إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل ، ولم يذكر اتزنوا؛ لأن الكيل والوزن هما الشراء والبيع ، فأحدهما يدل على الآخر . قال الواحدي : قال المفسرون : يعني : الذين إذا اشتروا لأنفسهم استوفوا في الكيل والوزن ، وإذا باعوا ووزنوا لغيرهم نقصوا ، وهو معنى قوله : ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾ أي : كالوا لهم ، أو وزنوا لهم ، فحذفت اللام فتعدّى الفعل إلى المفعول ، فهو من باب الحذف والإيصال ، ومثله : نصحتك ، ونصحت لك ، كذا قال الأخفش ، والكسائي ، والفرّاء . قال الفرّاء : وسمعت أعرابية تقول : إذا صدر الناس أتينا التاجر ، فيكيلنا المدّ والمدّين إلى الموسم المقبل . قال : وهو من كلام أهل الحجاز ، ومن جاورهم من قيس . قال الزجاج : لا يجوز الوقف على كالوا حتى يوصل بالضمير ، ومن الناس من يجعله توكيداً أي : توكيداً للضمير المستكنّ في الفعل ، فيجيز الوقف على كالوا أو وزنوا ، قال أبو عبيد : وكان عيسى بن عمر يجعلهما حرفين ، ويقف على كالوا أو وزنوا ، ثم يقول : هم يخسرون . قال : وأحسب قراءة حمزة كذلك . قال أبو عبيد : والاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين : إحداهما الخط ، ولذلك كتبوها بغير ألف ، ولو كانتا مقطوعتين لكانتا كالوا أو وزنوا بالألف .

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾ ثم قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤﴾ يعني ألا يتيقن هؤلاء ويعلموا علم اليقين؛

لأن الظن هنا بمعنى اليقين، والظن بمعنى اليقين يأتي كثيراً في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [البقرة]. فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ وهم يتيقنون أنهم ملاقوا الله، لكن الظن يستعمل بمعنى اليقين كثيراً في اللغة العربية، وهنا يقول عز وجل: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ ألا يتيقن هؤلاء أنهم مبعوثون أي مخرجون من قبورهم لله رب العالمين ﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ هذا اليوم عظيم ولا شك أنه عظيم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [الحج: ١] عظيم في طوله، في أهواله، فيما يحدث فيه، في كل معنى تحمله كلمة عظيم، لكن هذا العظيم هو على قوم عسير، وعلى قوم يسير، قال تعالى: ﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [المدثر]. وقال تعالى: ﴿ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [القمر]. لكنه بالنسبة للمؤمنين ــ جعلنا الله منهم ــ يسير كأنما يؤدي به صلاة فريضة من سهولته عليه ويسره عليه، لاسيما إذا كان ممن استحق هذه الوقاية العظيمة، وكان من الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فهذا اليوم عظيم لكنه بالنسبة للناس يكون يسيراً ويكون عسيراً ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ يعني هذا اليوم العظيم هو ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ يقومون من قبورهم حفاة ليس لهم نعال ولا خفاف، عراة ليس عليهم ثياب لا قمص ولا سراويل ولا أزر ولا أردية، غرلاً أي غير مختونين بمعنى أن القلفة التي تقطع في الختان تعود يوم القيامة مع صاحبها كما قال الله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء]. ويعيده الله عز وجل لبيان كمال قدرته تعالى، وأنه يعيد الخلق كما بدأهم، والقلفة إنما قطعت في الدنيا من أجل النزاهة عن الأقذار؛ لأنها إن بقيت فإنه ينحبس فيها شيء من البول وتكون عرضة للتلويث، لكن هذا في الآخرة لا حاجة إليه؛ لأن الآخرة ليست دار تكليف بل هي

دار جزاء إلا أن الله سبحانه وتعالى قد يكلف فيها امتحاناً كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم]. فالناس يقومون على هذا الوصف حفاة، عراة، غرلاً، وفي بعض الأحاديث بُهماً قال العلماء: البهم يعني الذين لا مال معهم، ففي يوم القيامة لا مال يفدي به الإنسان نفسه من العذاب في يوم القيامة، ليس هناك ابن يجزي عن أبيه شيئاً، ولا أب يجزي عن ابنه شيئاً، ولا صاحبة ولا قبيلة كلٌ يقول نفسي نفسي.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٧]. نسأل الله تعالى أن يعيننا على أهواله وأن ييسره علينا.

قال تعالى: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهو الله جل وعلا، وفي هذا اليوم تتلاشى جميع الأملاك إلا ملك رب العالمين جل وعلا، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر]. اهـ

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

قول تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ [وهذا شامل لكل فاجر] من أنواع الكفرة والمنافقين، والفاسقين ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾

ثم فسر ذلك بقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٩﴾ أي: كتاب مذكور فيه أعمالهم الخبيثة، والسجين: المحل الضيق الضنك، و ﴿سِجِّينٞ﴾ ضد ﴿عِلِّيِّينَ﴾ الذي هو محل كتاب الأبرار، كما سيأتي.

وقد قيل: إن ﴿سِجِّينٞ﴾ هو أسفل الأرض السابعة، مأوى الفجار ومستقرهم في معادهم.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٠﴾ ثم بين المكذبين بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ١١﴾ أي: يوم الجزاء، يوم يدين الله فيه الناس بأعمالهم.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢﴾ على محارم الله، متعد من الحلال إلى الحرام.

﴿أَثِيمٍ﴾ أي كثير الإثم، فهذا الذي يحمله عدوانه على التكذيب، ويحمله [عدوانه على التكذيب ويوجب له] كبره رد الحق، ولهذا ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا﴾ الدالة على الحق، و[على] صدق ما جاءت به رسله، كذبها وعاندها، و ﴿قَالَ﴾ هذه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: من ترهات المتقدمين، وأخبار الأمم الغابرين، ليس من عند الله تكبراً وعناداً.

وأما من أنصف، وكان مقصوده الحق المبين، فإنه لا يكذب بيوم الدين، لأن الله قد أقام عليه من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة، ما يجعله حق اليقين، وصار لقلوبهم مثل الشمس للأبصار ، بخلاف من ران على قلبه كسبه، وغطته معاصيه، فإنه محجوب عن الحق، ولهذا جوزي على ذلك، بأن حجب عن الله، كما حجب قلبه في الدنيا عن آيات الله، ﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ﴾ مع هذه العقوبة البليغة ﴿لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ ثم يقال لهم توبيخا وتقريعًا: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ١٧﴾ فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الجحيم، وعذاب التوبيخ، واللوم.

وعذاب الحجاب من رب العالمين، المتضمن لسخطه وغضبه عليهم، وهو أعظم عليهم من عذاب النار، ودل مفهوم الآية، على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة،

ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات، ويبتهجون بخطابه، ويفرحون بقربه، كما ذكر الله ذلك في عدة آيات من القرآن، وتواتر فيه النقل عن رسول الله.

وفي هذه الآيات، التحذير من الذنوب، فإنها ترين على القلب وتغطيه شيئا فشيئا، حتى ينطمس نوره، وتموت بصيرته، فتنقلب عليه الحقائق، فيرى الباطل حقًا، والحق باطلا وهذا من بعض عقوبات الذنوب.

شرح الكلمات :

﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ : أي غطّى قلوهم وحجبها عن قبول الحق .

﴿مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ : أي من الذنوب والآثام .

﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ : أي يحال بينهم وبين رؤية الربّ إلى يوم القيامة .

﴿لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ﴾ : أي لداخلوها ومحرقون معذبون بها .

﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾: أي يقال لهم توبيخا وخزيا لهم وهم في العذاب هذا الذي كنتم به تكذبون .

معنى الآيات :

ما زال السياق الكريم في التنديد بالاعتداء والمعتدين والإثم والآثمين فقال تعالى ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي ما الأمر كما يدعون من أن القرآن أساطير الأولين وإنما ران على قلوهم أي غشّاها وغطاها اثر الذنوب والجرائم فحجبها عن معرفة الحق وقبوله ، وقوله ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي ردعاً لهم وزجراً عن أقوالهم الباطلة وأعمالهم الفاسدة إنهم عن رهم لمحجوبون فلا يرونه ولا يرون كرامته ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ أي لداخلوها ومصطلون بحرها معذبون بأنواع العذب فيها ثم يقال

لهم توبيخاً وخزياً وتأنيباً ﴿هَٰذَا﴾ أي العذاب الذي كنتم به في الدنيا تكذبون حتى واصلتم كفركم وإجرامكم فحل بكم هذا الذي أنتم فيه الآن فذوقوا فلن تزدادوا إلا عذاباً .

من هداية الآيات :

١- التحذير من مواصلة الذنوب وعدم التوبة منها حيث يؤدي ذلك بالعبد إلى أن يُحرم التوبة [٢٨٤] ففي حديث أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :« **إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ مِنْهَا قَلْبُهُ فَإِنْ عَادَ زَادَتْ حَتَّى يُغْلَقَ بِهَا قَلْبُهُ فَذَاكَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** »[1]..

٢- تقرير رؤية الله تعالى يف الآخرة بدليل قوله إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون أي الأشقياء إذاً فالسعداء غير محجوبين فهم يرون ربهم ويشهد له قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة .

٣- تقرير عقيدة البعث والجزاء .

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٌۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنًا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

شرح الكلمات :

﴿كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ : أي كتاب أعمالهم والأبرار هم المطيعون لله ولرسوله الصادقون .

---

(١) انظر سنن البيهقي : ٢ / ٤٥٢ ب/ النكول ورد اليمين ح/ ٢١٢٨٢ ورواه الحاكم في المستدرك : ٣/١ ك/ الإيمان ح/ ٦ ورواه البيهقي في شعب الإيمان : ٤٤٠/٥ فصل في الطبع على القلب أو الرين ح/ ٧٢٠٣

﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ : أي في موضع يسمى عليين في أعلى الجنة .

﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ : أي كتاب مرقوم بأمان من الله إياه من النار يوم القيامة والفوز بالجنة .

﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ : أي يحضره المقربون من أهل كل سماء ويحفظونه لأنــه يحمــل أمانــاً لصاحبه من النار وفوزه بالجنة .

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾: أي إن الذين بروا ربهم بطاعته بأداء الفرائض واجتناب النــواهي لفي نعيم الجنة .

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ : أي على الأسرة ذات الحجال .

﴿يَنظُرُونَ﴾ : أي ما آتاهم ربهم من صنوف النعيم .

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ : أي حُسنه وبريقه وتلألؤه .

﴿مِن رَّحِيقٍ﴾ : أي من خمر صرف خالصة لا غش فيها ولا دنس .

﴿مَّخْتُومٍ﴾ : أي مختوم على إنائها لا يفك ختمه إلا هم .

﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ : أي آخر شربها يفوح برائحة المسك .

﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ : أي لا في غيره .

﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ : أي فليطلب بالطاعة والاستقامة الطالبون للنعيم المقيم .

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ : أي ومزاج شرابهم من عين تجري من عال تسمى التسنيم .

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ : عينا هي التسنيم يشرب منها المقربون صرفا وتمــزج لأصحاب اليمين .

معنى الآيات :

بعد أن ذكر تعالى كتاب الفجار وما ختم له به ذكر كتاب الأبرار وما ختم له به فقال ﴿كَلَّآ﴾ أي حقاً ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ وهو جمع بر أو بار وهو المؤمن الذي بر ربه بطاعته في أداء فرائضه واجتناب نواهيه وكان صادقاً في ذلك كتاب أعمال هؤلاء الأبرار ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ يا رسولنا ﴿مَا عِلِّيُّونَ﴾ أنه موضع في أعلى الجنان . وقوله ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٢٠﴾ يريد كتاب الأبرار الموضوع في عليين كتاب مرقوم بأمان من الله لصاحبه من النار والفوز بالجنة ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾ أي مقربو كل سماء يحضرونه ويحفظون له ويشهدون بما فيه من الأمان لصاحبه من النار والفوز بالجنة . وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ وأصحاب الكتب المودعة في عليين لفي نعيم يريد يوم القيامة والنعيم هو نعيم الجنة وهذا لون منه على الأرائك أي الأسرة ذات الحجال ﴿يَنظُرُونَ﴾ إنهم جالسون على الأرائك ينظرون باستحسان وإعجاب ملكهم الكبير الذي ملكهم الله تعالى وقد يمتد مسافة ألفي سنة وينتهي غليه بصرهم ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤﴾ أي حسنه وبريقه وتلألؤه وقوله ﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ۝٢٥﴾ أي من خمر هي الرحيق صافية لا دنس فيها ولا غش مختوم على أوانيها لا يفكها إلا هم . ختامه مسك آخر هذا الشراب يفوح برائحة المسك الأذفر فهي طيبة الرائحة للغاية . وقوله تعالى ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦﴾ أي وفي مثل هذا النعيم لا في غيره من حطام الدنيا وشرابها وملكها الزائل يجب أن يتنافس المتنافسون أي في طلبه بالإيمان وصالح الأعمال بعد البعد كل البعد عن الشرك وسيئي الأقوال وقبيح الأفعال .

وقوله تعالى ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۝٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾ أي إن ذلك الرحيق يمزج لصحاب اليمين بماء عين تسمى التسنيم ويشربه المقربون صرفاً أي خالصاً

بدون مزج من عين التسنيم وقوله ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ الباء بمعنى من أو ضمن يشـرب معـنى يلتذ أي يلتذ بها وقد سبق في سورة الإنسان وقلت إنها لطيب شرابها تكاد تكـون آلـة للشرب فتكون الباء للآلة على بابها نحو شربت بالكأس .

من هداية الآيات :

١- الثناء على الأبرار وبيّان ما أعد الله تعالى لهم وهم المؤمنون المتقون الصادقون في ذلك

٢- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر ما يجري فيها .

٣- الترغيب في العمل الصالح للحصول على نعيم الجنة لقوله تعالى ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

شرح الكلمات :

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ : أي على أنفسهم بالشرك والمعاصي كأبي جهل وأميّة بن خلف وعقبة بن أبي معيط .

﴿مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ : أي كبلال وياسر وعمار وصهيب وخبيب .

﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ : أي يشيرون إلى المؤمنين بالجفن والحاجب استهزاء بهم .

﴿فَكِهِينَ﴾ : أي إذا رجعوا على ديارهم وأهليهم يرجعون نشاوى فـرحين معجـبين بحالهم .

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ : أي وإذا رأى أولئك الفكهون رأوا المؤمنين .

﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ : إن هؤلاء يعنون المؤمنين من أصحاب محمد ﷺ لضالون بتركهم دينهم واتخاذهم لدين محمد ﷺ الجديد .

﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ : أي و لم يكلفهم الله تعالى بحفظ أعمالهم ورعاية أحوالهم وإنما هم متطفّلون .

﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ : أي يوم القيامة .

﴿مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ : أي من أجل ما هم فيه من العذاب حيث يرونهم وهم على أرائكهم .

﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ : أي هل جوزي الكفار بما كانوا يفعلون من الكفر والشر والفساد؟ والجواب نعم .نعم . نعم .

معنى الآيات :

بعدما بيّن تعالى حال الأبرار في دار الأبرار وذكر ما شاء الله أن يذكر من نعيمهم ترغيبا وتعليماً بعد أن ذكر في الآيات قبلها حال المجرمين وما أعد لهم من عذاب في دار العذاب . ذكر تعالى هنا في خاتمة السورة ما أوجب للمجرمين وهو النار ، وما أوجب للمؤمنين وهو الجنة فذكر طرفا من سلوك المجرمين وآخر من سلوك المؤمنين فقال عز من قائل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ أي على أنفسهم أي أفسدوها بالشرك والشر والفساد كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاصي[1] وغيرهم كانوا من الذين آمنوا كبلال وعمار وصهيب وخبيب وأضرابهم من فقراء المؤمنين ﴿يَضْحَكُونَ﴾ استهزاء بهم وسخرية . ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ﴾ في شوارع مكة حول المسجد الحرام ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ يشيرون إليهم بالجفن

---

(١) أي العاصي بن وائل وهو من الصادين عن سبيل الله .

والحاجب على عادة المتكبرين ﴿وَإِذَا انقَلَبُوٓا﴾ أي رجعــوا ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ﴾ في ديــارهم ﴿انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ ناعمين معجبين بحالهم فرحين بما عنــدهم ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ أي وإذا رأى أولئك المجرمون المؤمنين أشاروا إليهم وقالوا ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ بتركهم دينــهم واعتناق دين محمد الجديد في نظرهم . قال تعالى ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ أي على أعمالهم وأحوالهم حتى يقولوا ما قالوا وإنما هم متطفلون يدعون ما لــيس لهــم لقبح سلوكهم وسوء فهومهم ، قال تعالى ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ يــوم القيامــة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ أي من الكفار ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي الأسِــرة ذات الحجــال ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى الكفار وهم في النار ويضحكون منهم وهم يعذبون ولا عجب في كيفية رؤيتهم لهم وهم في النار أسفل سافلين والمؤمنون في أعلى عليين إذ البث التلفزيوني اليوم قطــع العجــب وأبطله وقوله تعالى ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ﴾ أي هل جوزي الكفار على أفعالهم الإجراميــة؟ والجواب معلوم مما تقدم إذ وصفت حالهم وبين عذابهم والعياذ بالله من عذابه وأليم عقابه

من هداية الآيات :

١- التنديد بالإجرام والمجرمين .

٢- بيان ما كان عليه المشركون في مكة إبّان الدعوة وما لقيه المؤمنون منهم .

٣- بيان أن المؤمنين سيرون المشركين في الجحيم ويضحكون منــهم وهــم في نعــيمهم والمشركون في جحيمهم .

٤- بيان إكرام الله لأوليائه ، وإهانته تعالى لأعدائه (١).

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٣/ ٦٧٧ ط/ دار الحديث .

سُورَةُ الانشقاق

محاور السورة الكريمة :

تبدأ السورة ببعض مشاهد الانقلاب الكونية التي عرضت بتوسع في سورة التكوير ...، ثم في سورة الانفطار . ومن قبل في سورة النبأ . ولكنها هنا ذات طابع خاص . طابع الاستسلام لله . استسلام السماء واستسلام الأرض ، في طواعية وخشوع ويسر : ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾﴾ . .

ذلك المطلع الخاشع الجليل تمهيد لخطاب « الإنسان » ، وإلقاء الخشوع في قلبه لربه . وتذكيره بأمره؛ وبمصيره الذي هو صائر إليه عنده . حين ينطبع في حسه ظل الطاعة والخشوع والاستسلام الذي تلقيه في حسه السماء والأرض في المشهد الهائل الجليل :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ﴿١٥﴾﴾ . .

والمقطع الثالث عرض لمشاهد كونية حاضرة ، مما يقع تحت حس « الإنسان » لها إيحاؤها ولها دلالتها على التدبير والتقدير ، مع التلويح بالقسم بها على أن الناس متقلبون في أحوال مقدرة مدبرة ، لا مفر لهم من ركوبهم ومعاناتها : ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾﴾ . .

ثم يجيء المقطع الأخير في السورة تعجيباً من حال الناس الذين لا يؤمنون؛ وهذه هي حقيقة أمرهم ، كما عرضت في المقطعين السابقين . وتلك هي نهايتهم ونهاية عالمهم كما جاء في مطلع السورة : ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾ . . ثم بيان لعلم الله بما يضمون عليه جوانحهم وتهديد لهم بمصيرهم المحتوم : ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾ . .

إنها سورة ...، جليلة الإيحاء ، يغلب عليها هذا الطابع حتى في مشاهد الانقلاب الكونية التي عرضتها سورة التكوير في جو عاصف . سورة فيها لهجة التبصير المشفق الرحيم ، خطوة خطوة . في راحة ويسر ، وفي إيحاء هادئ عميق . والخطاب فيها : ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ﴾ فيه تذكير واستجاشة للضمير .

وهي بترتيب مقاطعها على هذا النحو تطوف بالقلب البشري في مجالات كونية وإنسانية شتى ، متعاقبة تعاقباً مقصوداً . . فمن مشهد الاستسلام الكوني . إلى لمسة لقلب « الإنسان » . إلى مشهد الحساب والجزاء . إلى مشهد الكون الحاضر وظواهره الموحية . إلى لمسة للقلب البشري أخرى . إلى التعجيب من حال الذين لا يؤمنون بعد ذلك كله . إلى التهديد بالعذاب الأليم واستثناء المؤمنين بأجر غير ممنون . .

كل هذه الجولات والمشاهد والإيحاءات واللمسات في سورة قصيرة لا تتجاوز عدة أسطر . وهو ما لا يعهد إلا في هذا الكتاب العجيب! فإن هذه الأغراض يتعذر الوفاء بها في الحيز الكبير ولا تؤدى بهذه القوة وبهذا التأثير . . ولكنه القرآن ميسر للذكر؛ يخاطب القلوب مباشرة من منافذها القريبة . صبغة العليم الخبير! .اهـ [(١)]

---

(١) انظر الظلال : ٦/ ٣٨٦٤ ، ٣٨٦٥ في ظلال سورة الانشقاق ط/ دار الشروق .

معاني الكلمات :

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ : أي بالغمام وهو سحاب أبيض رقيق وذلك لنزول الملائكة .

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ : أي سمعت وأطاعت .

﴿وَحُقَّتْ﴾ : أي وحق لها أن تسمع أمر ربها وتطيعه .

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ : أي زيد في سعتها كما يمد الأديم أي الجلد إذ لم يبق عليها بناء ولا جبل .

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ : أي ألقت ما فيها من الموتى ألقتهم أحياء إلى ظهرها وتخلت عنه أي عما كان في بطنها .

﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ : أي عامل كاسب للخير أو الشر .

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ : أي إلى أن تلقى ربك وأنت تعمل وتكسب فليكن عملك مما يرضي عنك ربك ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ : أي ملاق ربك بعد موتك وبعملك خيره وشره .

﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ : أي كتاب عمله وذلك بعد البعث .

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ : أي بعد الحساب اليسير يرجع إلى أهله في الجنة من الحور العين فرحا .

﴿وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ : أي يأخذه بشماله من وراء ظهره إهانة له .

﴿يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾ : أي ينادي هلاكه قائلا واثبوراه واثبوراه أي يا هلاكه .

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ : أي ويحرق بالنار تحريقا وينضج انضاجه بعد أخرى على قراءة يُصلّى بالتضعيف .

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ : أي انه كان في الدنيا يظن أنه لا يرجع إلى الحياة بعد الموت فلذا لم يعمل خيرا قط ولم يتورع عن ترك الشر قط لعدم إيمانه بالبعث .

﴿بِٱلشَّفَقِ﴾ : أي بالحمرة في الأفق بعد غروب الشمس .

﴿وَمَا وَسَقَ﴾ : أي دخل عليه من الدواب وغيرها .

﴿إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ : اجتمع وتم نوره وذلك في الليالي البيض .

﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ : أي حالا بعد حال الموت ، ثم الحياة ثم ما بعدها من أحوال القيامة

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ : أي أيّ مانع من الإيمان بالله ورسوله ولقاء ربهم والحجج كثيرة تتلى عليهم .

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ﴾ : أي تُلي عليهم وسمعوه .

﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾: أي لا يخضعون فيؤمنوا ويسلموا .

﴿بِمَا يُوعُونَ﴾ : أي يجمعون في صحفهم من الكفر والتكذيب .

﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ : أي غير مقطوع .

معنى الآيات :

قوله تعالى ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ أي فليس الأمر كما تدعون من أنه لا بعث ولا جـزاء أقسـم بالشفق وهي حمرة الأفق بعد غروب الشمس والليل وما وسق أي وما جمع من كـل ذي روح من سابح في الماء وطائر في السماء وسارح في الغبراء والقمر إذا اتسق أي اجتمـع وتم نوره وذلك في الليالي البيض .

وجواب القسم قوله تعالى ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي حالاً بعد حال الموت ثم الحياة ، ثم العرض ، ثم الحساب ، ثم الجزاء فهي أحوال وأهوال فليس الأمر كما تتصورون من أنه

موت ولا غير . وقوله تعالى ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ ﴾ أي ما للناس لا يؤمنون أي شيء منعهم من الإيمان بالله ورسوله والدار الآخرة مع كثرة الآيات وقوة الحجج وسطوع البراهين . وما لهم أيضا إذ تلي عليهم القرآن وسمعوه لا يخضعون ولا يخشعون ولا يخرون ساجدين ... وقوله تعالى بل الذين كفروا أي بدل أن يؤمنوا ويسلموا يكذبون ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ في قلوبهم من الكفر والتكذيب وفي نفوسهم من الحسد والكبر والغل والبغض وبناء على ذلك فبشرهم يا رسولنا أي أخبرهم بما يسوءهم بعذاب أليم عاجلاً وآجلاً ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي منهم آمنوا بالله ورسوله وآيات الله ولقائه ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فأدوا الفرائض واجتنبوا المحارم فهؤلاء ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ ﴾ أي ثواب عند الله إلى يوم يلقونه ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير منقوص ولا مقطوع في الجنة دار السلام . اللهم اجعلنا من أهلها برحمتك يا أرحم الراحمين .اهـ (١).

المعنى العام :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾ : تصدعت . ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ : استمعت إليه ، أذِنَ للشيء : استمع إليه ، وأذِنَ بالشيء : عَلِمَه . ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ : أطاعت ، وقع عليها الحق واعترفت بأنها محقوقة لربها . ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ ﴾ : تغيرت جميع ملامحها وأصبحت قاعا صفصفا ، بإزالة جبالها وتغيير معالمها . ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ ﴾ : أخرجت جميع ما فيها من الخلائق والكنوز التي طوتها في أجيالها العديدة . ﴿ كَادِحٌ ﴾ : عامل بجد ومشقة ، كدح في العمل ﴿ كَدْحًا ﴾ : سعى ، وأجهد نفسَه ، وعملَ خيراً أو شرّا ، وكدحَ لعياله : كسبَ

---

(١) انظر أيسر التفاسير للجزائري : ٦٨١/٣ ، ٦٨٢ تفسير سورة الانشقاق الآيات (١٦-٢٥) .

لهم بمشقة . ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ : فسوف تجدُ عملَك أمامك مسجلاً في سِجلٍّ دقيق ، لا ينسى شيئا . ينقلب إلى أهله : يرجع إلى عشيرته فرحاً مسروراً . ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾ : صورةٌ عجيبة من الاحتقار والازدراء . الثبور : الهلاك ، ﴿يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾ : يدعو على نفسه بالهلاك . يصلَى سعيرا : يدخل جهنم . إنه ظن انه لن يحُور : انه كان لا يؤمن بالبعث ، و الرجوع إلى الله ، حار يحور حورا وحئورا : رجَعَ . بلى : سيرجع إلى الله ويحاسَب .

بين الله تعالى في مطلع هذه السورة الكريمة أهوالَ يوم القيامة ، في آيات موجَزة هي من عجائب إيجازِ القرآن وبلاغته ، وذَكَر أن ما يقع بين يدي الساعة من كوارث وأهوالٍ تُشيبُ الوِلدان ، ويفزع لها الإنسان . فمنها :

إذا تشقّقت السماءُ وتصدّعت ، واختلّ نظامُ العالم ، واستمعت السماءُ لأمرِ ربّها وانقادت لحُكمه ، ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾﴾ أي انبسطت بنسفِ ما فيها من جبال ، وأصبحت لا بناءَ فيها ولا وِهاد ، كما قذفت ما في جوفها من الخلائق والكنوز . ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾﴾ واستمعت لأمرِ ربّها وأطاعت . . . إذا حصل كل هذا – لَقِيَ الإنسانُ من الأهوال ما لا يحيط به الخيالُ في ذلك اليوم العصيب .

[قوله تعالى ﴿ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ أي: انفطرت وتمايز بعضها من بعض، وانتثرت نجومها، وخسف بشمسها وقمرها.

﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ أي: استمعت لأمره، وألقت سمعها، وأصاخت لخطابه، وحق لها ذلك، فإنها مسخرة مدبرة تحت مسخر ملك عظيم، لا يعصى أمره، ولا يخالف حكمه.

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾ أي: رجفت وارتجت، ونسفت عليها جبالها، ودك ما عليها من بناء ومعلم، فسويت، ومدها الله تعالى مد الأديم، حتى صارت واسعة جدًا، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فتصير قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتا.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ من الأموات والكنوز.

﴿وَتَخَلَّتْ﴾ منهم، فإنه ينفخ في الصور، فتخرج الأموات من الأحداث إلى وجه الأرض، وتخرج الأرض كنوزها، حتى تكون كالأسطوان العظيم، يشاهده الخلق، ويتحسرون على ما هم فيه يتنافسون، ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ أي: إنك ساع إلى الله، وعامل بأوامره ونواهيه، ومتقرب إليه إما بالخير وإما بالشر، ثم تلاقي الله يوم القيامة، فلا تعدم منه جزاء بالفضل إن كنت سعيدًا، أو بالعدل إن كنت شقيًا ولهذا ذكر تفصيل الجزاء، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧﴾ وهم أهل السعادة.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ وهو العرض اليسير على الله، فيقرره الله بذنوبه، حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك، قال الله [تعالى] له: ((إني قد سترها عليك في الدنيا، فأنا أسترها لك اليوم)) .

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ في الجنة ﴿مَسْرُورًا﴾ لأنه نجا من العذاب وفاز بالثواب، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠﴾ أي: بشماله من خلفه .﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۝١١﴾ من الخزي والفضيحة، وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدمها ولم يتب منها، ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ أي: تحيط به السعير من كل جانب، ويقلب على عذابها، وذلك لأنه في الدنيا ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣﴾ لا يخطر البعث على باله، وقد أساء، ولم يظن أنه

راجع إلى ربه وموقوف بين يديه ، ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾ فلا يحسن أن يتركه سدى، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب اهـــ [١]

من ثمرات الآيات :

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء ببيان مقدماته في انقلاب الكون .

٢- بيان حتمية لقاء الإنسان ربّه .

٣- كل إنسان مكلف بالعقل والبلوغ فهو عامل وكاسب لا محالة إلى أن يموت ويلقى ربه .

٤- أهل الإيمان والتقوى يحاسبون حسابا يسيرا وهو مجرد عرض لا غير ويفوزون أما من نوقش الحساب فقد هلك وعذب لأنه لا يملك حجة ولا عذرا .

٥- التنعم في الدنيا والانكباب على شهواتها وملاذها مع ترك الطاعات والصالحات ثمـــرة عدم الإيمان أو اليقين بالبعث والجزاء .

٧- بيان أن الإنسان مقبل على أحوال وأهوال حالا بعد حال وهولا بعد هـــول إلى أن ينتهي إلى جنة أو نار .

٨ بيان أن عدم إيمان الإنسان بربه أمر يستدعي العجب إذ لا مانع للعبد من الإيمان بخالقه وهو يعلم أنه مخلوق وقد تعرف إليه فأنزل كتبه وبعث رسله وأقام الأدلة على ذلك .

٩- مشروعية السجود عند تلاوة هذه الآية وهي وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون .

١٠ ــ علم الله تعالى بما يعي الإنسان في قلبه وما يحمل في نفسه فذكره للعبد بأن يراقـــب ربه فلا يعي في قلبه إلا الإيمان ولا يحمل في نفسه إلا الخير فلا غل ولا حسد ولا شـــك ولا عداء ولا بغضاء .اهـــ[٢]

---

(١) انظر تفسير السعدي رحمه الله [المجلد الواحد] ص١٠٣١ ، ١٠٣٢ تفسير سورة الانشقاق الآيـــات (١ – ١٥) .

(٢) أنظر أيسر التفاسير للجزائري :٣/ ٦٨٠ ، ٦٨٢ تفسير سورة الانشقاق .

سُورَةُ ٱلْغَـٰشِيَةِ

محاور السورة الكريمة

هذه السورة تطوّف بالقلب البشري في مجالين هائلين : مجال الآخرة وعالمها الواسع ، ومشاهدها المؤثرة . ومجال الوجود العريض المكشوف للنظر ، وآيات الله المبثوثة في خلائقه المعروضة للجميع . ثم تذكرهم بعد هاتين الجولتين بحساب الآخرة ، وسيطرة الله ، وحتمية الرجوع إليه في نهاية المطاف . . كل ذلك في أسلوب عميق الإيقاع ، هادئ ، ولكنه نافذ . رصين ولكنه رهيب!

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ . .بهذا المطلع تبدأ السورة التي تريد لترد القلوب إلى الله ، ولتذكرهم بآياته في الوجود ، وحسابه في الآخرة وجزائه الأكيد . وهذا الاستفهام الموحي بالعظمة الدال على التقرير؛ الذي يشير في الوقت ذاته إلى أن أمر الآخرة مما سبق به التقرير والتذكير . وتسمى القيامة هذا الاسم الجديد : ﴿ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ . . أي الداهية التي تغشى الناس وتغمرهم بأهوالها . وهو من الأسماء الجديدة الموحية التي وردت في هذا الجزء . . الطامة . . الصاخة . . الغاشية . . القارعة . . مما يناسب طبيعة هذا الجزء المعهودة .

وهذا الخطاب : ﴿هَلْ أَتَىٰكَ . . ؟﴾ كان رسول الله ﷺ يحس وقع توجيهه إلى شخصه ، حيثما سمع هذه السورة ، وكأنما يتلقاه أول مرة مباشرة من ربه ، لشدة حساسية قلبه بخطاب الله سبحانه واستحضاره لحقيقة الخطاب ، وشعوره بأنه صادر إليه بلا وسيط حيثما سمعته أذناه . . قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن محمد الطنافسي ، حدثنا أبو بكر بن عباس ، عن أبي إسحاق ، عن عمر ابن ميمون ، قال : مر النبي ﷺ على امرأة تقرأ : ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١﴾ فقام يستمع ويقول : « نعم قد جاءني » .

والخطاب مع ذلك عام لكل من يسمع هذا القرآن . فحديث الغاشية هو حديث هذا القرآن المتكرر . يذكر به وينذر ويبشر؛ ويستجيش به في الضمائر الحساسية والخشية والتقوى والتوجس؛ كما يثير به الرجاء والارتقاب والتطلع . ومن ثم يستحيي هذه الضمائر فلا تموت ولا تغفل .

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾﴾ . . ثم يعرض شيئاً من حديث الغاشية :

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ . .

إنه يعجل بمشهد العذاب قبل مشهد النعيم؛ فهو أقرب إلى جو ﴿الْغَاشِيَةِ﴾ وظلها . . فهناك : يومئذ وجوه خاشعة ذليلة متعبة مرهقة؛ عملت ونصبت فلم تحمد العمل ولم ترض العاقبة ، ولم تجد إلا الوبال والخسارة ، فزادت مضضاً وإرهاقاً وتعباً ، فهي : ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾ . . عملت لغير الله ، ونصبت في غير سبيله . عملت لنفسها ولأولادها . وتعبت لدنياها ولأطماعها . ثم وجدت عاقبة العمل والكد . وجدته في الدنيا شقوة لغير زاد . ووجدته في الآخرة سواداً يؤدي إلى العذاب . وهي تواجه النهاية مواجهة الذليل المرهق المتعوس الخائب الرجاء!

ومع هذا الذل والرهق العذاب والألم : ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ وتذوقها وتعانيها .

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾﴾ . . حارة بالغة الحرارة . . ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ . . والضريع قيل : شجر من نار في جهنم . استناداً إلى ما ورد عن شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم . وقيل : نوع من الشوك اللاطئ بالأرض ، ترعاه الإبل وهو أخضر ، ويسمى « الشبرق » فإذا جف صار اسمه «الضريع» ولم تستطع الإبل مذاقه فهو عندئذ سام! فهذا أو ذاك هو لون من ألوان الطعام مع الغسلين والغساق وباقي هذه الألوان التي لا تسمن ولا تغني من جوع!

وواضح أننا لا نملك في الدنيا أن ندرك طبيعة هذا العذاب في الآخرة . إنما تجيء هذه الأوصاف لتلمس في حسنا البشري أقصى ما يملك تصوره من الألم ، الذي يتجمع من الذل والوهن والخيبة ومن لسع النار الحامية ، ومن التبرد والارتواء بالماء الشديد الحرارة! والتغذي بالطعام الذي لا تقوى الإبل على تذوقه ، وهو شوك لا نفع فيه ولا غناء . . من مجموعة هذه التصورات يتجمع في حسنا إدراك لأقصى درجات الألم . وعذاب الآخرة بعد ذلك أشد . وطبيعته لا يتذوقها إلا من يذوقها والعياذ بالله!

وعلى الجانب الآخر : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ . .

فهنا وجوه يبدو فيها النعيم . ويفيض منها الرضى . وجوه تنعم بما تجد ، وتحمد ما عملت . فوجدت عقباه خيراً ، وتستمتع بهذا الشعور الروحي الرفيع . شعور الرضى عن عملها حين ترى رضى الله عنها . وليس أروح للقلب من أن يطمئن إلى الخير ويرضى عاقبته ، ثم يراها ممثلة في رضى الله الكريم . وفي النعيم . ومن ثم يقدم القرآن هذا اللون من السعادة على ما في الجنة من رخاء ومتاع ، ثم يصف الجنة ومناعمها المتاحة لهؤلاء السعداء :﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾. . عالية في ذاتها رفيعة مجيدة . ثم هي عالية الدرجات . وعالية المقامات . وللعلو في الحس إيقاع خاص .

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾﴾. . ويطلق هذا التعبير جواً من السكون والهدوء والسلام والاطمئنان والود والرضى والنجاء والسمر بين الأحباء والأوداء ، والتتره والارتفاع عن كل كلمة لاغية ، لا خير فيها ولا عافية . . وهذه وحدها نعيم . وهذه وحدها سعادة . سعادة تتبين حين يستحضر الحس هذه الحياة الدنيا ، وما فيها من لغو وجدل وصراع وزحام ولجاج وخصام وقرقعة وفرقعة . وضجة وصخب ، وهرج ومرج . ثم يستسلم

بعد ذلك لتصور الهدوء والأمن والسلام الساكن والود الرضي والظل الندي في العبـارة الموحية : ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾ وألفاظها ذاتها تنسم الروح والندى وتترلق في نعومة ويسر ، وفي إيقاع موسيقي ندي رخي! وتوحي هذه اللمسة بأن حياة المؤمنين في الأرض وهم ينأون عن الجدل واللغو ، هي طرف من حياة الجنة ، يتهيأون بها لـذلك النعيم الكريم .اهـ [١]

معاني الكلمات :

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ : أي أينكرون البعث فلا ينظرون نظر اعتبار .

﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ : أي خلقا بديعاً معدولاً به عن سنن سائر المخلوقات .

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ : أي فوق الأرض بلا عمد ولا مستند .

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾: أي على وجه الأرض نصباً ثابتا لا يتزلزل .

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ : أي بسطت .

﴿فَذَكِّرْ﴾ : أي ذكرهم بنعم الله ودلائل توحيده .

﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾ : أي بمسلط .

معنى الآيات :

قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ أي أينكرون البعث والجزاء وما أعد الله لأوليائه مـن النعـيم المقيم وما أعد لأعدائه من عذاب الجحيم . أفلا ينظرون نظرة اعتبار إلى الإبـل كيـف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فهل خلق الإبل على تلك الصورة العجيبة وذاك التسخير لها وما فيها من منافع إذ يشرب لبنها ويركب ظهرها ويؤكل لحمها لا يدل على قدرة الخالق على إحياء الموتى وهل خلق

---

(١) انظر الظلال :٦/ ٣٨٩٥ ، ٣٨٩٧ في ظلال سورة الغاشية.

السماء بكواكبها وشمسها وقمرها ثم رفعها بغير عمد يدعمها ولا سند يسندها لا يدل على قدرة الله على بعث الموتى أحياء ليحاسبهم ويجزيهم ، وهل نصب الجبال بعد خلق ترابها وإيجاد صخورها لا يدل على قدرة الله خالقها على بعث الرمم وإحياء الأجساد البالية كيف شاء ومتى شاء وهل خلق الأرض بكل ما فيها ثم بسطها وتسطيحها للحياة عليها والسير فوقها وتعميرها بأنواع العمران لا يدل على قدرة الله على البعث والجزاء . فما للقوم لا ينظرون ولا يفكرون وقوله تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ بعد لفت أنظار المشركين إلى ما لو نظروا إليه وتفكروا فيه لاهتدوا إلى الحق وعرفوا أن الخالق لكل شيء لا يعجزه بعث عباده ولا جزاؤهم . أمر رسوله أن يقوم بالمهمة التي أنيطت به وهي التذكير دون الهداية التي هي لله وحده دون سواه فقال له ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ أي ذكر بمظاهر قدرتنا وآياتنا في الآفاق وآلائنا على العباد إنما أنت مذكر ليس غير . وقوله ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي بمتسلط تجبرهم على الإيمان والاستقامة وقوله ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ أي لكن من تولى عن الإيمان فكفر بآياتنا ورسولنا ولقائنا فيعذبه الله العذاب الأكبر وهو عذاب الآخرة . وقوله تعالى ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ أي رجوعهم إلينا لا إلى غيرنا ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا﴾ لا على غيرنا ﴿حِسَابَهُم﴾ ومن ثم سوف نجزيهم الجزاء اللائق بهم ، ولذا فلا يضرك يا رسولنا إعراضهم ولا توليهم . وحسبك تذكيرهم فمن اهتدى نجا ونجاته لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها إذ عاقبة ضلاله وهي الخسران التام عائدة عليه .اهـ

خلاصة ما تقدم :

﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ : القيامة . ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ : ذليلة . ﴿عَامِلَةٌ﴾ ، تعمل في الدنيا لنفسها واولادها واطماعها . ﴿نَّاصِبَةٌ﴾ : تعبة . والفعل نصِب ينصَب نصبا : تعب . ﴿مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ : من نبع ماؤه شديد الحرارة . أني يأني سخن وبلغ الشّدةَ في الحرارة . ﴿ضَرِيعٍ﴾ : نوع من النبات له شوك تأكله الإبل عندما يكون رطبا ، فإذا يبس لا يستساغ . ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ : مرفهة نضرة . ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ : جزاءً لعملها الذي عملته في الدنيا راضية مطمئنة . ﴿عَالِيَةٍ﴾ : مرتفعة مكاناً وقدراً . ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ :فاحشاً يؤذي السامع . ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ ماء متدفق يسر الناظرين . ﴿سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ : جمع سرير وإذا كان مرفوعا فانه يكون نظيفا مريحا . ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾ : معدَّة ومهيأة للشراب . ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾﴾ : وسائد صُف بعضها إلى جانب بعض ، المفرد نمرقة . ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ : وبسُط وفرش مفروشة هنا وهناك للزينة والراحة .﴿ٱلْإِبِلِ﴾ : جمع لا واحد له من لفظه مفردها : بعير . ﴿سُطِحَتْ﴾ : مدت ومهدت للحياة والسير والعمل للناس . ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ : إنما أنت واعظٌ ومنذر لا متسلط تجبرهم على ما تريد . إيابهم : رجوعهم .

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾ هل جاءكَ يا محمد خبر نبأ يوم القيامة التي تغشى الناسَ وتغمرهم بأهوالها ؟ والخطابُ وإن كان لرسول الله فهو عام لكل من يسمع . . . . بعد هذا الاستفهام فصَّلَ شأنَ أهل الموقف في ذلك اليوم . وبيَّن أنهم فريقان : فريق الكفرة الفجرة ، وفريق المؤمنين البررة فقال :﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ

نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ ﴾ في ذلك اليوم تظهر وجوه ذليلة خاضعة مهينة ، عملَ أصحابها في الدنيا كثيرا وتعبوا كثيرا ، ولكنْ لغير الله ، فما نفعتهم أعمالهم ولا أموالهم .

﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ ﴾ مع هذا الذل والهوان يدخلُ أصحابُ هذه الوجوه النارَ الحامية في جهنم . وإذا عطِشوا يَسقونهم ماءً حارا من عين حرارتُها بالغة الشدّة ، وإذا طلبوا الطعامَ يقدَّم لهم طعام خبيث رديء ، اسمه الضَريع ، ليس فيه فائدةُ الطعام المعروف ، لأنه ﴿ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ ﴾ .

فهذه الصورةُ البشعة من العذاب تصوّر في أذهاننا هولَ ذلك اليوم حتى نرعويَ ونبتعدَ عن كل ما يُغضب الله من أعمال وأقوال ، ونسلكَ الطريق المستقيم .

وبعد أن بيَّن حالَ المجرمين وما يلاقون من ذلّ وهَوان وعذاب ، وصف المؤمنين الصادقين بأحسن الأوصاف فقال :﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ ﴾

أما وجوه المؤمنين الصادقين يومئذ فتكون نضرة مبتهجة كما جاء في قوله تعالى :

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المطففين] ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [القيامة] .

وقد فرحتْ هذه الوجوه بما لاقت من جزاء عملها في الدنيا ، فهي لسعْيِها راضية ، في جنة مرتفعة مكاناً وقدرا . وهي بعيدة عن اللغو ، فهي في منازِل أهل الشرف في سعادة وكرامة في ضيافة رب العالمين .اهـ

من ثمرات الآيات :

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر عرض سريع لها .

٢- من أسماء القيامة الغاشية لأنها تغشى الناس بأهوالها .

٣- بيان أن في النار نصباً وتعباً . على عكس الجنة فإنها لا نصب فيها ولا تعب .

٤- من مؤلمات النفس البشرية لغو الكلام وكذبه باطله وهو ما يتره عنه المؤمنون أنفسهم
٥-تقرير البعث والجزاء بالدعوى إلى النظر إلى الأدلة الموجبة للإيمان به .
٦-بيان أن الداعي إلى الله تعالى مهمته الدعوة دون هداية القلوب فإنها إلى الله تعالى وحده .
٧- بيان أن مصير البشرية إلى الله تعالى وهي حال تقتضي الإيمان به تعالى وطاعته طلبـــا للنجاة من عذابه والفوز برحمته . وهو مطلب كل عاقل لو أن الناس يفكرون [1].

(١) تفسير الجزائري : ٦٩٣/٣ ، ٦٩٥ تفسير سورة الغاشية

سُورَةُ الزلزلة

حول هذه السورة الكريمة

هذه السورة مدنية في المصحف وفي بعض الروايات؛ ومكية في بعض الروايات الأخرى .

ونحن نرجح الروايات التي تقول بأنها مكية . وأسلوبها التعبيري وموضوعها يؤيدان هذا إنها هزة عنيفة للقلوب الغافلة . هزة يشترك فيها الموضوع والمشهد ... . وصيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها؛ فما يكادون يفيقون حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء في بضع فقرات قصار!

وهذا هو طابع الجزء كله ، يتمثل في هذه السورة تمثلاً قوياً . .

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾

إنه يوم القيامة حيث ترتجف الأرض الثابتة ارتجافاً ، وتزلزل زلزالا ، وتنفض ما في جوفها نفضاً ، وتخرج ما يثقلها من أجساد ومعادن وغيرها مما حملته طويلاً . وكأنها تتخفف من هذه الأثقال ، التي حملتها طويلاً!

وهو مشهد يهز تحت أقدام المستمعين لهذه السورة كل شيء ثابت؛ ويخيل إليهم أنهم يترنحون ويتأرجحون ، والأرض من تحتهم تهتز وتمور! مشهد يخلع القلوب من كل ما تتشبث به من هذه الأرض ، وتحسبه ثابتاً باقياً؛ وهو الإيحاء الأول لمثل هذه المشاهد التي يصورها القرآن ، ويودع فيها حركة تكاد تنتقل إلى أعصاب السامع بمجرد سماع العبارة القرآنية الفريدة!

ويزيد هذا الأثر وضوحاً بتصوير « الإنسان » حيال المشهد المعروض ، ورسم انفعالاته وهو يشهده :﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾ وهو سؤال المشدوه المبهوت المفجوء ، الذي

يرى ما لم يعهد ، ويواجه ما لا يدرك ، ويشهد ما لا يملك الصبر أمامه والسكوت . مالها؟ ما الذي يزلزلها هكذا ويرجها رجا؟ مالها؟ وكأنه يتمايل على ظهرها ويترنح معها؛ ويحاول أن يمسك بأي شيء يسنده ويثبته ، وكل ما حوله يمور موراً شديداً!

« والإنسان » قد شهد الزلازل والبراكين من قبل . وكان يصاب منها بالهلع والذعر ، والهلاك والدمار ، ولكنه حين يرى زلزال يوم القيامة لا يجد أن هناك شبهاً بينه وبين ما كان يقع من الزلازل والبراكين في الحياة الدنيا . فهذا أمر جديد لا عهد للإنسان به . أمر لا يعرف له سراً ، ولا يذكر له نظيراً . أمر هائل يقع للمرة الأولى!

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ . يوم يقع هذا الزلزال ، ويُشدَه أمامه الإنسان ﴿ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ ﴾ . يومئذ تحدث هذه الأرض أخبارها ، وتصف حالها وما جرى لها . لقد كان ما كان لها ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ ﴾ . وأمرها أن تمور موراً ، وأن تزلزل زلزالها ، وأن تخرج أثقالها! فأطاعت أمر ربها ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ ﴾ [الانشقاق] تحدث أخبارها . فهذا الحال حديث واضح عما وراءه من أمر الله ووحيه إليها . .

وهنا و ﴿ ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾ مشدوه مأخوذ ، والإيقاع يلهث فزعاً ورعباً ، ودهشة وعجبا ، واضطراباً وموراً . . هنا و ﴿ ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾ لا يكاد يلتقط أنفاسه وهو يتساءل : مالها مالها؟ هنا يواجه بمشهد الحشر والحساب والوزن والجزاء :﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦ ﴾ اهـ [1]

شرح الكلمات :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ : أي حركت لقيام الساعة .

﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ : أي كنوزها وموتاها فألقتها وتخلت .

---

(١) انظر الظلال ٦/٣٩٥٤ ، ٣٩٥٥ في ظلال سورة الزلزلة .

﴿مَا لَهَا﴾ : أي وقال الكافر ما لها أي شيء جعلها تتحرك هذه الحركة .

﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ : أي تخبر بما وقع عليها من خير وشر وتشهد به لأهله .

﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ : أي بأن تحدث أخبارها فحدثت .

﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ : أي من موقف الحساب .

﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ : أي جزاء أعمالهم إما إلى الجنة وإما إلى النار .

﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ : زنة نملة صغيرة .

معنى الآيات :

قوله تعالى ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ أي تحركت حركتها الشديدة لقيام الساعة ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ من كنوز وذلك في النفخة الأولى ، وأموات وذلك في النفخة الثانية ففي الإخبار إجمال إذ المقصود تقرير البعث والجزاء ليعمل الناس بما ينجيهم من النار ويدخلهم الجنة .

وقوله ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾ لا شك أن هذا الإنسان السائل كان كافراً بالساعة ولذا تساءل أما المؤمن فهو يعلم ذلك لأنه جزء من عقيدته . وقوله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ أي تخبر بما جرى عليها من خير وشر بلسان القال أو الحال . وهي في هذا الإخبار مأمورة لقوله تعالى ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ أي بذلك وقوله ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أي يوم تزلزل الأرض وتهتز للنفخة الثانية نفخة يصدر الناس فيها أشتاتا أي يصدرون من ساحة فصل القضاء فمن آخذ ذات اليمين ومن آخذ ذات الشمال ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي جزاء أعمالهم في الدنيا من حسنة وسيئة فالحسنة تورث الجنة والسيئة تورث النار . وقوله تعالى ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

خَيْرًا ﴾ أي وزن ذرة من خير في الدنيا يثب عليه في الآخرة ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ أي وزن ذرة من شر في الدنيا يجز به في الآخرة إلا أن يعفو الجبار عز وجل وبما أن الكفر مانع من دخول الجنة فإن الكافر إذا عمل حسنة في الدنيا يرى جزاءها في الدنيا ، وليس له في الآخرة شيء منها وذلك لحديث عائشة رضي الله عنها إذ سألت الرسول ﷺ عن عبد الله بن جدعان هل ينفعه في الآخرة ما كان يفعله في الدنيا من إطعام الحجيج وكسوتهم فقال لها . « لا إنه لم يقل يوما من الدهر ربّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين » .

كما أن أبا بكر الصديق ﷺ كان يأكل مع الرسول ﷺ ونزلت هذه الآية ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ ﴾ الآية فرفع أبو بكر يده من الطعام وقال إني لراء ما عملت من خير وشر؟ فقال النبي ﷺ « إن ما ترى مما تكره فهو من مثاقيل ذرّ شرٌّ كثير ، ويدخر الله لك مثاقيل الخير حتى تعطاه يوم القيامة » وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى]

المعنى العام

قوله ﷻ : ﴿زُلْزِلَتِ ﴾ أي : حركت تحريكا شديدا لا يعلم مقداره إلا الله ﷻ ، إذ الزلزال : الحركة الشديدة مع الاضطراب ، وهو بفتح الزاي اسم لذلك ، وبكسرها مصدر بمعنى التحرك والاضطراب ، وشبيه بهذه الآية قوله ﷻ : ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ ﴾ [الواقعة] ويكون هذا الزلزال الشديد ، عندما يأذن الله ﷻ بقيام الساعة ، ويبعث الناس للحساب .

وافتتح ﷻ الكلام بظرف الزمان ﴿إِذَا ﴾ ، لإفادة تحقق وقوع الشرط .

وقوله : ﴿زِلْزَالَهَا﴾ مصدر مضاف لفاعله . أي : إذا زلزلت الأرض زلزالها الذي لا يماثله زلزال آخر في شدته وعظمته وهوله ، كما قال ﷻ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ [الحج] وقوله ﷻ : ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ بيان لأثر آخر من آثار ما يحدث في هذا اليوم الهائل الشديد .

والأثقال : جمع ثِقْل – بكسر فسكون – وهو المتاع الثقيل ، ومنه قوله ﷻ : ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ﴾ [النحل: ٧] والمراد بها هنا : ما يكون في جوف الأرض من أموات وكنوز وغير ذلك مما يكون في باطنها . قال أبو عبيدة والأخفش : إذا كان الميت في جوف الأرض فهو ثقل لها ، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها ، وإنما سمي الجن والإنس بالثقلين لأن الأرض تثقل بهم . . .

والمراد بالإنسان في قوله ﷻ : ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾ جنسه فيشمل المؤمن والكافر . وقوله ﴿مَا لَهَا﴾ مبتدأ وخبر ، والاستفهام : المقصود به التعجب مما حدث من أهوال أي : وقال كل إنسان على سبيل الدهشة والحيرة ، أي : شيء حدث للأرض ، حتى جعلها تضطرب هذا الاضطراب الشديد .

قال الجمل : وفي المراد بالإنسان هنا قولان : أحدهما : أنه اسم جنس يعم المؤمن والكافر ، وهذا يدل على قول من جعل الزلزلة من أشراط الساعة ، فيسأل بعضهم بعضا عن ذلك . والثاني : أنه الكافر خاصة ، وهذا يدل على قول من جعلها زلزلة القيامة ، لأن المؤمن عارف بها فلا يسأل عنها ، والكافر جاحد لها ، فإذا وقعت سأل عنها . .

وقوله – سبحانه – : ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ جواب الشرط ، و ﴿أَخْبَارَهَا﴾ مفعول ثان لقوله : ﴿تُحَدِّثُ﴾ والمفعول الأول محذوف . أي : إذا زلزلت الأرض زلزالها

، وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان ماذا حدث لها . . عندئذ تحدث الأرض الخلائقَ أخبارَها ، بأن تشهد للطائع بأنه كان كذلك ، وتشهد الفاسق بأنه كان كذلك

[٢٨٥] أخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي عن أبي هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ ثم قال : ((أتدرون ما أخبارها ؟)) قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : ((**فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عُمِل على ظهرها ، بأن تقول : عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا . فهذه أخبارها**)) .

والظاهر أن هذا التحديث من الأرض على سبيل الحقيقة ، بأن يخلق الله ﷻ فيها حياة وإدراكا ، فتشهد بما عمل عليها من عمل صالح أو طالح ، كما تشهد على من فعل ذلك وقيل : هذا مثل ضربه الله ﷻ والمقصود منه أن كل إنسان في هذا اليوم سيتبين جزاء عمله ، وما أعده الله – تعالى – له على ما قدم في حياته الأولى ، ونظير ذلك أن تقول : إن هذه الدار لتحدثنا بأنها كانت مسكونة .

قال بعض العلماء ما ملخصه : قوله : ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ يومئذ بدل من إذا . أي : في ذلك الوقت تحدثك الأرض أحاديثها ، وتحديث الأرض تمثيل(١) – كما قال الطبري وغيره – أي : أن حالها وما يقع فيها من الانقلاب ، وما لم يعهد من الخراب ، يعلم السائل ويفهمه الخبر ، وأن ما يراه لم يكن بسبب من الأسباب التي وضعها السنة الإلهية ، حال استقرار نظام الكون ، بل ذلك بسبب ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ أي : أن ما يحدث للأرض يومئذ ، إنما هو بأمر إلهي خاص . بأن قال لها كوني كذلك فكانت كما قال لها ؛ وعدى فعل ﴿أَوْحَىٰ﴾ باللام – مع أن حقه أن يتعدى بإلى كما في قوله ﷻ ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] لتضمينه معنى " قال " كما في قوله ﷻ : ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت] والمعنى : إن

(١) الأصل بقاء النص على ظاهره ولا مانع من هذا .

الأرض تحدث الناس عن أخبارها ، وتبينها لهم ، وتشهد عليهم . . . بسبب أن ربك الذي خلقك فسواك فعدلك – أيها الإنسان – قد أمرها بذلك .

ثم بين ﷻ بعد ذلك أحوال الناس في هذا اليوم فقال : ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾﴾ ؛ والجملة الكريمة بدل من جملة ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ ، وقوله ﴿يَصْدُرُ﴾ فعل مضارع من الصدَر – بفتح الدال – على الرجوع عن الشرب ، يقال : صدرَ الناس عن الورْد ، إذا انصرفوا عنه . و ﴿أَشْتَاتًا﴾ جمع شتيت ، أي : متفرق ، ومنه قولهم : شتت الله جمع الأعداء ، أي فرق أمرهم .وقوله ﷻ : ﴿لِّيُرَوْا﴾ فعل مضارع مبنى للمجهول ، وماضيه المبنى للمعلوم " أراه " بمعنى أطلعه . أي : في هذا اليوم الذي تتزلزل فيه الأرض زلزلة شديدة . . يخرج الناس من قبورهم متجهين أشتاتا إلى موقف الحساب ، وكل واحد منهم مشغول بنفسه ، لكي يبصروا جزاء أعمالهم ، التي عملوها في دنياهم . جاء فعل ﴿لِّيُرَوْا﴾ مبنيا للمجهول ، لأن المقصود رؤيتهم لأعمالهم ، وليس المقصود تعيين من يريهم إياها . ثم فصل ﷻ ما يترتب على هذه الرؤية من جزاء فقال : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾﴾

من هداية الآيات :

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء .

٢- الإعلام بالانقلاب الكوني الذي تتبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات غير السموات .

٣- تكلم الجمادات من آيات الله تعالى الدالة على قدرته وعلمه وحكمته وهي موجبات ألوهيته بعبادته وحده دون سواه .

[٢٨٦] ٤- تقرير حديث الصحيح « اتقوا النار ولو بشق تمرة » .

٥- الكافر عمله الخيري ينفعه في الدنيا دون الآخرة .

٦- المؤمن يجزي بالسيئة في الدنيا ويدخر له صالح عمله للآخرة .[الجزائري :٣/٧٢٨]

سُورَةُ ٱلْقَارِعَةِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾

شرح الكلمات :

﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ : القيامة وسميت القارعة لأنها تقرع القلوب بأهوالها .

﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾: أي . أي شيء هي؟ فالاستفهام للتهويل من شأنها .

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ : زيادة في تهويل أمرها وتعظيمه .

﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ : أي كغوغاء الجراد المنتشر يموج بعضهم في بعض .

﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ : أي كالصوف المندوف هذه حالها أولا ثم تكون كثيباً كهيلاً ثم تكون هباء منبثا .

﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ : أي يرضاها صاحبها في الجنة فهي مرضية له .

﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ : أي مأواه ومسكنه الهاوية التي يهوي فيها على رأسه وهي النار

﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ : أي هي نار حامية .اهـ (١)

---

(١) انظر أيسر التفاسير :٣/ ٧٣٠ ، ٧٣١ تفسير سورة القارعة ط/ دار الحديث .

جو السورة

القارعة : القيامة . كالطامة ، والصاخة ، والحاقة ، والغاشية . والقارعة توحي بالقرع واللطم ، فهي تقرع القلوب بهولها .

والسورة كلها عن هذه القارعة . حقيقتها . وما يقع فيها . وما تنتهي إليه . . فهي تعرض مشهداً من مشاهد القيامة .

والمشهد المعروض هنا مشهد هول تتناول آثاره الناس والجبال . فيبدو الناس في ظله صغاراً ضئالاً على كثرتهم : فهم ﴿ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ ﴾ مستطارون مستخفون في حيرة الفراش الذي يتهافت على الهلاك ، وهو لا يملك لنفسه وجهة ، ولا يعرف له هدفاً! وتبدو الجبال التي كانت ثابتة راسخة كالصوف المنفوش تتقاذفه الرياح وتعبث به حتى الأنسام! فمن تناسق التصوير أن تسمى القيامة بالقارعة ، فيتسق الظل الذي يلقيه اللفظ ، والجرس الذي تشترك فيه حروفه كلها ، مع آثار القارعة في الناس والجبال سواء! وتلقي إيحاءها للقلب والمشاعر ، تمهيداً لما ينتهي إليه المشهد من حساب وجزاء!

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ ﴾ . .

لقد بدأ بإلقاء الكلمة مفردة كأنها قذيفة : ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ بلا خبر ولا صفة . لتلقي بظلها وجرسها الإيحاء المدوي المرهوب!

ثم أعقبها سؤال التهويل : ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ . . فهي الأمر المستهول الغامض الذي يثير الدهش والتساؤل!

ثم أجاب بسؤال التجهيل : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ ﴾ . . فهي أكبر من أن يحيط بها الإدراك ، وأن يلم بها التصور!

ثم الإجابة بما يكون فيها ، لا بماهيتها . فماهيتها فوق الإدراك والتصور كما أسلفنا :

﴿ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ هذا هو المشهد الأول للقارعة . مشهد تطير له القلوب شعاعاً ، وترجف منه الأوصال ارتجافاً . ويحس السامع كأن كل شيء يتشبث به في الأرض قد طار حوله هباء! ثم تجيء الخاتمة للناس جميعاً :﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴿١١﴾ ﴾

وثقل الموازين وخفتها تفيدنا : قيماً لها عند الله اعتبار ، وقيماً ليس لها عنده اعتبار . وهذا ما يلقيه التعبير بجملته ، وهذا الله أعلم ما يريده الله بكلماته . فالدخول في جدل عقلي ولفظي حول هذه التعبيرات هو جفاء للحس القرآني ، وعبث ينشئه الفراغ من الاهتمام الحقيقي بالقرآن والإسلام!

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ ﴾ في اعتبار الله وتقويمه ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٧﴾ ﴾ . . ويدعها بجملة بلا تفصيل ، توقع في الحس ظلال الرضى وهو أروح النعيم .﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ في اعتبار الله وتقويمه ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ﴿٩﴾ ﴾. . والأم هي مرجع الطفل وملاذه . فمرجع القوم وملاذهم يومئذ هو الهاوية! وفي التعبير أناقة ظاهرة ، وتنسيق خاص . وفيه كذلك غموض يمهد لإيضاح بعده يزيد في عمق الأثر المقصود :﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴿١٠﴾ ﴾ سؤال التجهيل والتهويل المعهود في القرآن ، لإخراج الأمر عن حدود التصور وحيز الإدراك! ثم يجيء الجواب كنبرة الختام : ﴿ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴿١١﴾ ﴾ هذه هي أم الذي خفت موازينه! أمه التي يفيء إليها ويأوي! والأم عندها الأمن والراحة . فماذا هو واجد عند أمه هذه . . الهاوية . . النار . . الحامية!إنها مفاجأة تعبيرية تمثل الحقيقة القاسية!

وقفة أخرى :

لفظ ﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾ اسم فاعل من القرع ، وهو الضرب بشدة بحيث يحصل منه صوت شديد . والمراد بها هنا : القيامة ، ومبدؤها النفخة الأولى ، ونهايتها : قضاء الله ﷻ بين خلقه ، بحكمه العادل ، وجزائه لكل فريق بما يستحقه من جنة أو نار .

وسميت القيامة بذلك . كما سميت بالطامة ، والصاخة ، والحاقة ، والغاشية . . إلخ – لأنها تقرع القلوب بأهوالها ، وتجعل الأجرام العلوية والسفلية يصطك بعضها ببعض ، فيحصل لها ما يحصل من تزلزل واضطراب وتقرع أعداء الله – تعالى – بالخزي والعذاب والنكال ، كما قال ﷻ : ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ [الرعد: ٣١]

والاستفهام في قوله ﷻ : ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣﴾ استفهام عن حقيقتها ، والمقصود به التهويل من أمرها ، والتفظيع من حالها ، وتنبيه النفوس إلى ما يكون فيها من شدائد ، تفزع لها القلوب فزعا لا تحيط العبارة بتصويره ، ولا تستطيع العقول أن تدرك كنهه .

و ﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾ : مبتدأ ، و ﴿مَا﴾ : مبتدأ ثان ، و ﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾ : خبر المبتدأ الثاني ، وجملة المبتدأ الثاني وخبره في محل رفع خبر المبتدأ الأول .

وقوله ﷻ : ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣﴾ معطوف على جملة ﴿مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢﴾ والخطاب في قوله ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ لكل من يصلح له .

أي : وما أدراك – أيها المخاطب – ما كنهها في الشدة؟ إنها في الشدة والهول شيء عظيم . لا يعلم مقدارها إلا الله – تعالى – .

فالمقصود من الآيات الكريمة : تعظيم شأنها ، والتعجيب من حالها ، وأنها تختلف عن قوارع الدنيا – مهما بلغ عظمها – اختلافا كبيرا .

وبعد أن بين ﷻ أن معرفة حقيقتها أمر عسير . . أتبع ذلك ببيان أحوال الناس وقت وقوعها فقال : ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤﴾ .

و ﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب بفعل مقدر . والفراش : هو الحشرة التي تتهافت نحو النار ، وسمي بذلك لأنه يتفرش وينتشر من حولها .

والمبثوث : المنتشر المتفرق . تقول : بثثت الشيء ، إذا فرقته ، ومنه قوله ﷻ : ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [الغاشية] أي : متناثرة متفرقة .

أي : تحصل القارعة يوم يكون الناس في انتشارهم وكثرتهم واضطرابهم وإقبالهم نحو الداعي لهم نحو أرض المحشر . . كالحشرات الصغيرة المتهافتة نحو النار .

فأنت ترى أنه ﷻ قد شبه الناس في هذا الوقت العصيب ، بالفراش المتفرق المنتشر في كل اتجاه ، وذلك لأن الناس في هذا اليوم يكونون في فزع ، يجعل كل واحد منهم مشغولا بنفسه ، وفى حالة شديدة من الخوف والاضطراب .

وقوله ﷻ : ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ بيان لحالة أخرى من الأحوال التي يكون عليها هذا الكون يوم القيامة .

والعهن : الصوف ذو الألوان المتعددة ، والمنفوش : المفرق بعضه عن بعض .اهـ (١)

المعنى الإجمالي للسورة : -

قوله تعالى ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ إلى آخر السورة الكريمة تضمنت آياها الإحدى عشرة آية وصفاً لعقيدة البعث والجزاء التي كذب ها المشركون وأنكروها وبالغوا في إنكارها فأخبر تعالى أن القيامة التي تقرع الناس بأهوالها وعظائم ما يجري فيها بحيث ﴿ يَكُونُ ٱلنَّاسُ ﴾ وهم أشرف الكائنات الأرضية يكونون في خفة أحلامهم وحيرة عقولهم ﴿ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ وهو غوغاء الجارد وتجمعه وتراكمه وانتشاره وهو يموج بعضه فوق بعض . ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ ﴾ على رسوها وعلوها وضخامة ذواها

---

(١) انظر التفسير الوسيط لسورة القارعة .

﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ أي كالصوف المندوف بالمنداف وهو يتطاير هنا وهناك . هذا في أول الأمر وقد تكون كالرمل المتهيل . ثم كالهباء المنبث فإذا بعثوا ووقفوا بين يدي ربهم لحسابهم ومجازاتهم ﴿مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي موازين حسناته فقد نجا من النار وهو ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي مرضية له وهو بها راض وكيف لا وهي الجنة دار النعيم المقيم . ﴿مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي قلت حسناته وكثرت سيئاته أوْ لَمْ يكن له حسنة بالمرة كأهل الكفر والشرك ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ أي فأمه التي تضمه إليها وتؤيه عندها هاوية بحيث يهوى فيها على أم رأسه وقوله تعالى ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾﴾ أي هي ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾﴾ هذا الاستفهام للتهويل من شأنها وهي كذلك لا أشد هولا منها إنها النار دار البوار والخسران أعاذنا الله تعالى منها وعتق رقابنا منها اللهم آمين

من هداية الآيات :

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر صورة صادقة لها .

٢- التحذير من أهوال يوم القيامة وعذاب الله تعالى فيها .

٣- تقرير عقيدة وزن الأعمال صالحها وفاسدها وترتيب الجزاء عليها .

٤- تقرير أن الناس يوم القيامة فريقان فريق في الجنة وفريق في السعير [1].

---

(١) الجزائري : ٣/ ٧٣١ تفسير سورة القارعة .

سُورَةُ ٱلتَّكَاثُرِ

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا
سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ
لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

شرح الكلمات :

﴿أَلۡهَىٰكُمُ﴾ : أي شغلكم عن طاعة الله تعالى ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ : أي التباهي بكثرة المال .

﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ : أي تشاغلتم بجمع المال والتباهي بكثرته حتى متم ونقلتم إلى المقابر .

﴿كَلَّا﴾ : أي ما هكذا ينبغي أن تفعلوا فارتدعوا عن هذا التكاثر .

﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ : أي إذا دخلتم قبوركم علمتم خطأكم في التكاثر في الأموال والأولاد .

﴿كَلَّا﴾ : أي حقا .﴿لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥﴾ : أي علما يقينا عاقبة التكاثر لما تفاخرتم بكثرة أموالكم ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦﴾ : أي النار .﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ : أي يوم ترون الجحيم عين اليقين .﴿عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ : أي تنعمتم به وتلذذتم من الصحة والفراغ والأمن والمطاعم والمشارب .

محاور السورة :

هذه السورة وكأنما هي صوت نذير ، قائم على شرف عال . يمد بصوته ويدوي بنبرته . يصيح بنوّم غافلين مخمورين سادرين ، أشرفوا على الهاوية وعيونهم مغمضة ، وحسهم مسحور . فهو يمد بصوته إلى أعلى وأبعد ما يبلغ :

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ أيها السادرون المخمورون . أيها اللاهون المتكاثرون بالأموال والأولاد وأعراض الحياة وأنتم مفارقون . أيها المخدوعون بما أنتم فيه عما يليه . أيها التاركون ما تتكاثرون فيه وتتفاخرون إلى حفرة ضيقة لا تكاثر فيها ولا تفاخر . . استيقظوا وانظروا . . فقد ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ .

ثم يقرع قلوبهم بهول ما ينتظرهم هناك بعد زيارة المقابر في إيقاع رزين : ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ ... :﴿ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ ثم يزيد التوكيد عمقاً ورهبة . وتلويحاً بما وراءه من أمر ثقيل . لا يتبينون حقيقته الهائلة في غمرة الخمار والاستكثار :

﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥﴾﴾

ثم يكشف عن هذه الحقيقة المطوية الرهيبة :﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ﴿٦﴾﴾

ثم يؤكد هذه الحقيقة ويعمق وقعها الرهيب في القلوب :﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ﴿٧﴾﴾

ثم يلقي بالإيقاع الأخير ، الذي يدع المخمور يفيق ، والغافل يتنبه ، والسادر يتلفت ، والناعم يرتعش ويرتجف مما في يديه من نعيم :﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ لتسألن عنه من أين نلتموه؟ وفيم أنفقتموه؟ أمن طاعة وفي طاعة؟ أم من معصية وفي معصية؟ أمن حلال وفي حلال ؟ أم من حرام وفي حرام ؟ . هل شكرتم ؟ هل أديتم ؟ هل شاركتم ؟ هل استأثرتم ؟

﴿لَتُسۡـَٔلُنَّ﴾ عما تتكاثرون به وتتفاخرون . . فهو عبء تستخفونه في غمرتكم ولهوكم ولكن وراءه ما وراءه من هم ثقيل!

... . وتدع القلب مثقلاً مشغولاً بهم الآخرة عن سفساف الحياة الدنيا وصغائر اهتماماتها التي يهش لها الفارغون!

إنها تصور الحياة الدنيا كالومضة الخاطفة في الشريط الطويـــل . . ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ . . وتنتهي ومضة الحياة وتنطوي صفحتها الصغيرة . . ثم يمتد الزمن بعد ذلك وتمتد الأثقال؛ ويقوم الأداء التعبيري ذاته بهذا الإيحاء . فتتسق الحقيقة مع النسق التعبيري الفريد . .

المعنى العام:

قوله تعالى ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ هذا خطاب الله تعالى للمشتغلين بجمع المـــال وتكـــثيره للمباهاة به والتفاخر الأمر الذي ألهاهم عن طاعة الله ورسوله فماتوا و لم يقدموا لأنفسهم خيراً فقال تعالى لهم ألهاكم أي شغلكم التكاثر أي في الأموال للتفاخر بها والمباهاة بكثرتها ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ أي بعد موتكم نقلتم إليها لتبقوا فيها غلـــى أن تخرجـــوا منـــها للحساب والجزاء أي يوم القيامة . وقوله لهم ﴿كَلَّا﴾ أي ما هكذا ينبغـــي أن تفعلـــوا فارتدعوا عن هذا السلوك المفضي بكم غلى الهلاك والخسران ســـوف تعلمـــون عاقبـــة تشاغلكم عن طاعة الله وطاعة رسوله والتزود للـــدار الآخـــرة ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٤﴾ كرّر الوعيد والتهديد . وقوله ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥﴾ أي حقا لو تعلمون ما تجدونه في قبوركم ويوم بعثكم ونشوركم لمـــا تشـــاغلتم بـــالأموال وتكاثرتم فيها . وقولـــه ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧﴾ هذا جواب قسم نحو وعزتنا لترون الجحيم أي النار وذلك يوم القيامـــة المشـــرك يراهـــا ويصلاها والمؤمن يراها وينجيه الله تعالى منها . ثم لترونها عين اليقين أي الأمر الـــذي لا شك فيه إذ يؤتى بجهنم فيراها أهل الموقف أجمعون وقوله ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ﴾ أي يوم ترون الجحيم عين اليقين ﴿عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ الذي كان لكم في الدنيا من صـــحة وفـــراغ وأمن وطعام وشراب . فمن أدى شكره نجا ، ومـــن لم يـــؤد شـــكره أخـــذ بـــه ...

[٢٨٧] وقد صح أن النبي ﷺ قال لأبي بكر وعمرو ابن التيهان « هذا من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة يشير إلى بسر ورطب وماء بارد » وصح أيضا أنه قال « لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ» (١).

يقول تعالى موبخًا عباده عن اشتغالهم عما خلقوا له من عبادته وحده لا شريك له، ومعرفته، والإنابة إليه، وتقديم محبته على كل شيء: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ﴾ عن ذلك المذكور ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ولم يذكر المتكاثر به، ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون، من التكاثر في الأموال، والأولاد، والأنصار، والجنود، والخدم، والجاه، وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر، وليس المقصود به الإخلاص لله تعالى .

فاستمرت غفلتكم ولهوتكم [وتشاغلكم] ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ فانكشف لكم حينئذ الغطاء، ولكن بعد ما تعذر عليكم استئنافه.

ودل قوله: ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ أن البرزخ دار مقصود منها النفوذ إلى الدار الباقية ، أن الله سماهم زائرين، ولم يسمهم مقيمين ؛ فدل ذلك على البعث والجزاء بالأعمال في دار باقية غير فانية، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥﴾﴾ أي: لو تعلمون ما أمامكم علمًا يصل إلى القلوب، لما ألهاكم التكاثر، ولبادرتم إلى الأعمال الصالحة.

ولكن عدم العلم الحقيقي، صيركم إلى ما ترون، ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ﴿٦﴾﴾ أي: لتردن القيامة، فلترون الجحيم التي أعدها الله للكافرين.

---

(١) صحيح : رواه الترمذي بلفظ قريب من هذا في كتاب / صفة القيامة عن رسول الله ﷺ ب/ في القيامة ح/ ٢٤١٦.

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾ أي: رؤية بصرية، كما قال تعالى: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الكهف] .

﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ الذي تنعمتم به في دار الدنيا، هل قمتم بشكره، وأديتم حق الله فيه، ولم تستعينوا به، على معاصيه، فينعمكم نعيمًا أعلى منه وأفضل.

أم اغتررتم به، ولم تقوموا بشكره؟ بل ربما استعنتم به على معاصي الله فيعاقبكم على ذلك، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ الآية. اهـ

من هداية الآيات :

١- التحذير من جمع المال وتكثيره مع عدم شكره وترك طاعة الله ورسوله من أجله .

٢- إثبات عذاب القبر وتأكيده بقوله حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون أي في القبر .

٣- تقرير عقيدة البعث وحتمية الجزاء بعد الحساب والاستنطاق والاستجواب .

٤- حتمية سؤال العبد عن النعم التي أنعم الله تعالى عليه بها في الدنيا فإن كان شاكرا لها فاز وإن كان كافراً لها أخذ والعياذ بالله [١].

---

(١) الجزائري : ٧٣٣/٣ تفسير سورة التكاثر ط/ دار الحديث .

الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحياة قصيرة جداً وإنما خلقنا فيها لغاية عظيمة وهدف كبير ، إنما خلقنـــا لعبـــادة الله تعالى والإعداد والتمهيد لدار أبدية سرمدية تبدأ ولا تنتهي ، ولا تفنى ولا تبيد ، وإن هذه الدنيا دار ممر لا دار مقر ، وهي أشبه برجل استظل في ظل شجرة ثم تركها وانصرف بل كحلم حالم والعاقل المسدد من يدرك هذه الحقيقة فيعمل من خلالها مـــا يؤهـــل بـــه إلى روضات الجنات والنعيم المقيم والسعادة التي لا شقاء بعدها والراحة التي لا تعب بعدها ، ومن لمح فجر الأجر هان عليه عناء التكليف ، وإن من جدَّ وجد ، وليس من سهر وقنت كمن رقد ، وإن معالي الأمور غاليات الثمن ، وإذا أراد الله بعبدٍ خيراً ألهمـــه الطاعـــة ، وألزمة القناعة وفقه في الدين وعضده باليقين فاكتفى بالكفاف واكتسى بالعفاف وإذا أراد به شراً حبب إليه المال وبسط منه الآمال وشغله بدنياه ، فوكِلَه إلى هواه ، فركب الفساد وظلم العباد ، ألا فاعلم أن الثقة بالله تعالى أزكى أمل والتوكل عليه أوفى عمل من لم يكن له من دينه واعظ لم تنفعه المواعظ ، ومن سره الفساد ساءه المعاد ، لا يغرنـــك صـــحة نفسك وسلامة أمسِك ، فمدة العمر قليلة ، وسلامة النفس مستحيلة ، واعلم أن من ثمرة العلوم العمل بالمعلوم ، وبركةِ العلم في العمل به واذكر أن من أطاع واتبع هواه باع دينه بدنياه ، فبادر ، وسابق ، وسارع ، وتنافس في الخيرات ، والباقيات الصالحات ، وكن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، واعمل للدنيا بقدر ما تبقى فيها وللآخرة بقدر خلدك فيها ولربك بقدر شوقك إلأيه وحبك له ، وللجنة بقدر نعيمها ، والخلد فيهـــا ، وللنـــار بقدر صَبرك عليها ، فالطريق طويل ، والزاد قليل ، والناقد بصير ، والديان لا يمـــوت وآه من طول الطريق ، وقلة الزاد فمن غَفَرَ غُفِرَ له ، ومن رَحِمَ رُحِمَ ، ومن عفى عفا الله عنه ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء ، ويقبل الأتقياء ، ويرفع الأنقياء ، فصابر وثابر ورابط وذاكر ، واعلم أن من حاز المفاخر ليس كمن صلى في الصف الآخر ، ومن صفى صُفيَّ له ، ومن كدَّر كُدِّر عليه ، وربك يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النـــهار

قبل عمل الليل ، ولا يظلم ربك أحداً ، فلا يضيع عليك قليل من الأجر ، ولا نقير ، ولا قطمير ، فلا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولا تسوّف التوبة ، فعسى الرحيل يكون قريباً ، ولا تحقرن الصغائر من الذنوب فلربما اجتمعن على العبد فأهلكنه ، فشمر عسى أن ينفع التشمير ، وكن على وجلٍ من الذنوب ، راجياً علام الغيوب كي يستر عليك ، وعلى خلقه العيوب ، واسجد واقترب ، ولتكن الصور التي رأيت والمشاهد التي عايشت من خلال القرآن عن الدار الآخرة نصب عينيك ألا فوحد ربك ، واذكر ذنبك ، واستر عيبك ، فلا تجاهر ولا تفاخر ، ولا تكاثر ، فمن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه ، أسأل الله تعالى أن يغفر لي ولوالدي ولمن قرأ وكتب وبلغ وذكّر وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله على نبيه محمد وآله وصحبه وسلم .

سبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك والله من وراء القصد.

كتبه راجي عفو ربه

عَبْدِ المُنْجِي السَّيِّد أَمِين.

تمّ بعون الله الانتهاء من هذا الكتاب

ليلة الجمعة العاشر من شوال ١٤٢٩ من هجرة النبي محمد ﷺ .

العاشر من أكتوبر ٢٠٠٨ ميلادية .

أهم المراجع

القرآن الكريم وعلومه والتفسير

١. القرآن الكريم .

٢. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لـ محمد فؤاد عبد الباقي دار الحديث .

٣. قاموس القرآن الوجوه والنظائر لـــ الرفعاني الحنفي دار العلم .

٤. جامع البيان عن تأويل آي القرآن لـــ ابن جرير الطبري دار الفكر

٥. تفسير القرآن العظيم لابن كثير طـ المكتبة القيمة .

٦. الجامع لأحكام القرآن لـــ أبي عبد الله القرطبي طـ الشعب .

٧. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لـــ محمد الأمين الشنقيطي طـ دار الفرقان

٨. تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن لـــ عبد الرحمن بن ناصر السعدي طـ التوفيقية .

٩. في ظلال القرآن لـــ الأستاذ سيد قطب طـ دار الشروق .

١٠. زاد المسير لـــ ابن الجوزي

١١. فتح القدير للشوكاني .

١٢. تفسير المنار .

١٣. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير لـــ أبي بكر الجزائري طـ دار الحديث .

١٤. التفسير القيم لأبن القيم طـ القيمة .

١٥. محاسن التأويل في تفسير القرآن للقاسمي طـ دار إحياء الكتب العربية .

١٦. التحرير والتنوير لابن عاشور .

١٧. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي .

١٨. تفسير اللباب لابن عادل .

١٩. لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم .
٢٠. تفسير بن عبد السلام لعز الدين بن عبد السلام .
٢١. التفسير الوسيط للشيخ محمد سيد طنطاوي .
٢٢. تفسير العلامة محمد العثيمين للشيخ محمد بن صالح العثيمين .

ثانياً : الحديث

٢٣. صحيح البخاري ط ـ دار الشعب ,
٢٤. الأدب المفرد البخاري ط ـ القاهرة .
٢٥. صحيح مسلم ط ـ عالم الكتب .
٢٦. صحيح مسلم ط ـ استنبول .
٢٧. سنن النسائي "المجتبى " ط ـ الريان .
٢٨. سنن أبو داود ط ـ الريان .
٢٩. سنن الترمذي ط ـ دار الفكر .
٣٠. سنن ابن ماجة ط ـ دار الحديث .
٣١. مسند أحمد المطبعة الميمنية .
٣٢. مسند أحمد /ت أحمد شاكر ط ـ دار الفرقان .
٣٣. مسند أحمد / ت عبد القادر / وشعيب الأرنؤوط ط/ الرسالة
٣٤. موطأ مالك رواية يحى بن يحيى ط ـ دار الشعب .
٣٥. موطأ مالك رواية أبي مصعب الزهري ط ـ دار الرسالة .
٣٦. سنن الدارمي ط ـ الريان
٣٧. صحيح بن خزيمة /ت الأعظمي ط ـ المكتب الإسلامي .
٣٨. مسند عبد بن حميد ط ـ دار الكتب العلمية .
٣٩. مسند الحميدي ط ـ دار الكتب العلمية .

٤٠. الطحاوي مشكل الآثار .
٤١. شعب الإيمان للبيهقي .
٤٢. الزهد لـ هناد بن السري .
٤٣. النسائي الكبرى .
٤٤. المصنف لـ أبي بكر بن أبي شيبة طـ الهند .
٤٥. فضائل الصحابة لـ النسائي طـ النجاح بالمغرب .
٤٦. مجمع الزوائد للهيثمي مؤسسة المعارف .
٤٧. مستدرك الحاكم طـ الكتب العلمية مكتبة القدسي .
٤٨. شرح السنة لـ أبي محمد البغوي طـ الأرنؤوط .
٤٩. الترغيب والترهيب لـ المنذري طـ الريان .
٥٠. كنز العمال .
٥١. الإتحافات السنية .
٥٢. الشمائل المحمدية لـ أبي عيسى الترمذي .
٥٣. الإخوان لـ ابن أبي الدنيا .
٥٤. السنن الكبرى للبيهقي .
٥٥. جامع الأصول .
٥٦. مشكاة المصابيح لـ التبريزي .
٥٧. صحيح سنن النسائي .
(٥٦–٥٧: الألباني ط / المكتب الإسلامي)

٥٨. صحيح سنن أبي داود .
٥٩. صحيح سنن الترمذي .
٦٠. صحيح سنن ابن ماجة .
(٥٨–٦٠: الألباني ط / المكتب الإسلامي)
٦١. صحيح الأدب المفرد .

٦٢. صحيح الترغيب والترهيب للألباني طـ مكتبة المعارف .
٦٣. صحيح الجامع الصغير للألباني طـ المكتب الإسلامي .
٦٤. المسند الجامع دار الجيل .
٦٥. الجامع الصغير للسيوطي .
٦٦. إرواء الغليل طـ/ المكتب الإسلامي .
٦٧. فتح الباري طـ الريان .
٦٨. النووي على مسلم طـ الريان .
٦٩. عون المعبود طـ الريان .
٧٠. بذل المجهود طـ الريان .
٧١. تحفة الأحوذي المبارك فوري .
٧٢. حاشية السندي والسيوطي على سنن النسائي طـ الريان .
٧٣. سبل السلام للصنعاني .
٧٤. نيل الأوطار لـــ الشوكاني
٧٥. آداب العشرة .
٧٦. المجموع النووي .
٧٧. المغني "الأخلاق " لابن قدامة المقدسي .
٧٨. نضرة النعيم .
٧٩. المنتقى من مكارم الأخلاق .
٨٠. فيض القدير المناوي .
٨١. المدخل لابن الحاج .
٨٢. عشرة النساء للنسائي .
٨٣. المتجر الرابح .
٨٤. الأفراد للدارقطني .

كتب في العقيدة

٨٥. الإيمان الأوسط شيخ الإسلام مكتبة التقوى .

٨٦. التوحيد الإمام ابن خزيمة دار الدعوى السلفية .

٨٧. تحقيق كلمة الإخلاص لـــ ابن رجب الحنبلي .

٨٨. فتح المجيد / ت أشرف عبد المقصود .

٨٩. الرسائل والمسائل لـــ شيخ الإسلام بن تيمية .

٩٠. تيسير العزيز الحميد لـــ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ط‍ــ المكتب الإسلامي

٩١. الروح لـــ ابن القيم .

٩٢. شرح العقيدة الطحاوية .

٩٣. جواهر الإكليل.

٩٤. كتاب الشفاء للقاضي عياض .

٩٥. الأسماء والصفات للبيهقي .

٩٦. حقوق النبي ﷺ بين الإجلال والإخلال .

٩٧. غذاء الألباب للسفاريني .

٩٨. الجواهر الحسان في معالم الإيمان لعبد المنجي السيد أمين ط/ العلوم والحكم .

٩٩. الفرار من النار لعبد المنجي السيد أمين ط/ العلوم والحكم .

١٠٠. إيثار الحق لعبد المنجي السيد أمين / العلوم والحكم .

كتب اللغة

١٠١. مختار الصحاح الرازي طـ دار الحديث .

١٠٢. المعجم الوجيز طـ التربية والتعليم .

١٠٣. المصباح المنير مكتبة الكليات الأزهرية .

١٠٤. لسان العرب لـ ابن منظور طـ دار المعارف .

١٠٥. المقاييس نقلا عن نضرة النعيم .

فهرس الأحاديث والآثار

فهرس الأحاديث والآثار

طرف الحديث	الراوي	رقم الحديث
أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ	عبد الله بن مسعود	١
إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ فِي الْجَنَّةِ	أبو هريرة	٢٠٤
أتعجبون من دِقَّة ساقَيْه	سعيد بن مينا	٣٢
أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خلقا	أسامة بن شريك	١٩
إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ شُفِّعْتُ	أنس بن مالك	٩٩
إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة	عثمان بن عفان	٧٧
اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان	جابر بن عبد الله	٢٨٣
اتقوا النَّار وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ	عدي بن حاتم	٤٤
اتقوا النار ولو بشق تمرة	عدي بن حاتم	٢٨٦
اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ النَّارِ حِجَابًا	فضالة بن عبيد	٤٥
اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ	البراء بن عازب	١٦٨
اشْتَكَتْ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ	أبو هريرة	١٧٤
افتدوا مِنْ النَّار وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ	أنس بن مالك	٤٣
اقْرَأْ عَلَيَّ ...فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ	عبد الله بن مسعود	٢١
الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ	أبو هريرة	١٧٨
الْجَنَّةُ مِائَةُ دَرَجَةٍ كُلُّ دَرَجَةٍ	معاذ بن جبل	١٥٠
الحُسْنَى الجَنَّةُ . وَالزِّيَادَةُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ	كعب بن عجرة	٥٣
السائحون هم الصائمون	أبو هريرة	٥٢
الشِّرْكُ بِاللَّهِ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ	أنس بن مالك	٢٣٦
الشمس والقمر ثوران عقيران في النار	أنس بن مالك	٢٧٧
الشمس والقمر يكوران يوم القيامة	أبو هريرة	٢٧٨

طرف الحديث	الراوي	رقم الحديث
الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا	عبد الله بن مسعود	٤
الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان	أبي مالك الأشعري	١٣٠
العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي	أبو هريرة	٢١٥
اللَّهُمَّ أمتي أمتي	عبد الله بن عمرو	١١٩
المؤمن القوي خير وأحب إلى الله	أبو هريرة	١٩٥
المقسطون على منابر من نور	عبد الله بن عمرو	١٩٣
النَّاسُ مَعَادِنُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ	أبو هريرة	١٧٩
الوالد أوسط أبواب الجنة	أبو الدرداء	٢٤١
انكدرت في جهنم، وكل من عبد من دون	يزيد بن أبي مريم	٢٧٩
آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ	أنس بن مالك	١٤٣
آتي تحت العرش ، وأخر لله ساجداً	أبو هريرة	١٢٥
أتدرون ما أخبارها	أبو هريرة	٢٨٥
أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ	زيد بن خالد	٢٦٥
أَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ	ابن عمر	٨
أحب الأعمال إلى الله أن تموت ولسانك رطب	معاذ بن جبل	١١
أحب الأعمال إلى الله إيمان بالله	رجل من خثعم	١٢
أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا	عائشة	٩
أَحَبُّ الْبِلادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا	أبو هريرة	١٣
أَحَبُّ الْحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ	المسور بن مخرمة	١٥
أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ	ابن عباس	٧
أحبُّ الطعام إلى الله تعالى ما كثرت عليه	جابر بن عبد الله	١٧
أَحَبُّ الْكَلامِ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعٌ	سمرة بن جندب	١٨

طرف الحديث	الراوي	رقم الحديث
أحب الناس إلى الله أنفعهم	ابن عمر	١٦
أَحَيٌّ وَالِدَاكَ .....فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ	عبد الله بن عمرو	٢٢٥
أخرجوا من النار من كان قلبه مثقال حبة	أنس بن مالك	١٢٦
أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ	أبو هريرة	٢٧
أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ	أبو هريرة	٧٤
أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قبلي	جابر بن عبد الله	١٠١
أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له	عبد الله بن جعفر	١٨٣
ألا أنبئكم بأكبر الكبائر	أبو بكرة	٢٣١
ألا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ	أبو الدرداء	٩٠
أَلِظُّوا بِيَا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ	أنس بن مالك	٢٥٨
أَلَكَ وَالِدَانِ ...فَلَكَ خَالَةٌ	ابن عمر	٢٢١
أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَلا يَمُوتُونَ	أبو سعيد	٩٨
أَمَّا فِي مَوَاطِنَ ثَلاثَةٍ فَلا الْكِتَابُ وَالْمِيزَانُ	عائشة	١٧٣
أَمَّا هَذَا فَقَدْ عَصَى أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ	أبو هريرة	٨٦
أُمَّكَ ... أباك ، ثم الأقربَ فالأقرب	بهز بن حكيم عن أبيه عن جده	٢٢٨
أُمَّكَ ...أُمَّكَ ...أُمَّكَ	أبو هريرة	٢٢٧
أمُّك حيّة ...تب إلى الله	ابن عباس	٢١٩
أنا أكثر الأنبياء تبعا يوم القيامة	أنس بن مالك	١٠٢
أَنَا أَكْثَرُ الأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ	أنس بن مالك	١١٠
أَنَا أَكْثَرُ الأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ	أنس بن مالك	١٤٥
أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ	أنس بن مالك	١٠٩
أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَأْخُذُ بِحَلْقَةِ بَابِ الْجَنَّةِ	أنس بن مالك	١٤٤

طرف الحديث	الراوي	رقم الحديث
أنا عند ظن عبدي بي	جابر بن عبد الله	١٢١
أَنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي إِنْ ظَنَّ بِي خَيْراً	أبو هريرة	١٢٢
أنه كان يجني سواكا من الأراك، وكان دقيق	ابن مسعود	١٢٩
أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ	أبو هريرة	٩٣
إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ	أبو هريرة	٥٩
إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ وَقَضَى	عقبة بن عامر	٥٧
إذا دخل أهل الجنة الجنة	جابر بن عبد الله	٤٧
إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ	أبو هريرة	٥٨
إذا كان اليوم الحار فابردوا بالصلاة	أبو هريرة	١٧٥
إن الجنة تشتاق إلى ثلاثة عليّ . وعمّار ...	أنس بن مالك	١٥٣
إن الحور العين لتغنين في الجنة	أنس بن مالك	١٦٥
إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ	بلال بن الحارث	٢٥١
إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ	أم سلمة	١١٢
إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ	أنس بن مالك	١٧١
إِنَّ اللَّهَ ﷻ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الأُمَّهَاتِ	المغيرة بن شعبة	٢٣٠
إِنَّ اللَّهَ ﷻ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ	أبو هريرة	٢٢٢
إِنَّ اللَّهَ ﷻ يُخْرِجُ قَوْمًا مِنَ النَّارِ بِالشَّفَاعَةِ	ابن عمر	١١٦
إن الله سيخلص رجلا من أمتي	عبد الله بن عمرو	١٢٧
إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً	أنس بن مالك	٢٠
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ	ابن عمر	٦
إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ	المقداد بن معديكرب	٢٢٩
إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةٌ	أبو هريرة	٢٨٤

طرف الحديث	الراوي	رقم الحديث
إن المرأة من نساء أهل الجنة	عبد الله بن مسعود	١٦٦
إِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَة	أبو سعيد الخدري	٧٣
إِنَّ أَثْقَلَ صَلاَةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلاَةُ الْعِشَاءِ	أبو هريرة	٨٢
إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللَّه يَوْمَ الْقِيَامَةِ	أبو سعيد	١٩٤
إن أدنى أهل الجنة منزلة من له	أبو هريرة	٢٠٨
إن أدْنى أهلِ الجنةِ منزلةً من يسعى	عبد الله بن عمرو	٦٥
إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّة لَيَتَرَاءَوْنَ الْغُرْفَةَ	سهل بن سعد	٢٠٣
إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّة لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ	أبو سعيد	٦٦
إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف	سهل بن سعد	١٥٤
إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّة يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ	جابر بن عبد الله	١٥٦
إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى يَرَاهُمْ	أبو سعيد الخدري	١٥٥
إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة	أبو هريرة	١٨٦
إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله	أبو أمامة	٥١
إِنَّ فِي الْجَنَّة بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ	سهل	١٤٧
إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة	عبد الله بن قيس	٢٦٠
إِنَّ فِي الْجَنَّة شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا	أبو هريرة	٢٣
إِنَّ فِي الْجَنَّة غُرْفَةً يُرَى ظَاهِرُهَا	أبو مالك الأشعري	٢٠٢
إِنَّ فِي الْجَنَّة لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ	أنس بن مالك	١٦٢
إِنَّ فِي الْجَنَّة لَغُرَفًا يُرَى بُطُونُهَا	علي	٢٠١
إِنَّ فِي الْجَنَّة مِائَةَ دَرَجَة أَعَدَّهَا اللَّهُ	أبو هريرة	٦٧
إن في الجنة مائة درجة، ما بين الدرجتين	أبو سعيد الخدري	٢٦٦
إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّة لَخَيْمَةً	عبد الله بن قيس	١٦٤

طرف الحديث	الراوي	رقم الحديث
إن للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤة	أبو عمران	٢٦١
إن لله تَبارَكَ وَتَعَالَى عِباداً	سهل عن أبيه	٢٣٢
إن لله مائة رحمة أنزل لعباده رحمة	أبو هريرة	١٢٠
إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ	عبد الله بن عمرو	٢٣٥
إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه	عمرة بن جندب	٦١
إِنَّ هَذِه الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا	زيد بن ثابت	١٦٧
إِنَّكُمْ تَقُولُونَ لاَ عَدُوَّ	ابن حرملة عن خالته	١٣٦
إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ	علي	٥٥
إنما المُفلس الذي يفلس يوم القيامة	عبد الله بن مسعود	٢٦٨
إِنَّمَا هِيَ تَوْبَةُ نَبِيٍّ	أبو سعيد الخدري	١٩٢
إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ	أبو هريرة	٣٤
إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة	أبو هريرة	١٢٨
إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ	أبو ذر	٢٦٧
إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ الْجِهَادُ	أبو هريرة	٥
بَابُ أُمَّتِي الَّذِي يَدْخُلُونَ مِنْهُ الْجَنَّةَ	ابن عمر	١٤٦
تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً	ابن عباس	٢٧٢
تحشرون حفاة عراة مشاة غرلا	ابن عباس	٢٧١
تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ	أبو هريرة	٤٩
تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ	أبو هريرة	٤٨
ثَلاَثٌ لاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ	عبد الله بن عمر	٢٣٧
ثلاثة قد حرّم الله عليهم الجنة	ابن عمر	٢٣٩
ثلاثة لا يدخلون الجنة أبداً	عمار بن ياسر	٢٤٠

طرف الحديث	الراوي	رقم الحديث
ثَلاثَةٌ لا يُقْبَلُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفٌ	أبو أمامة	٢٣٨
ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ	أنس بن مالك	١٠٧
ثُمَّ يُفْتَح لَهُ بَاب مِنْ أَبْوَاب النَّار	البراء بن عازب	٦٠
ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ	أبو هريرة	١١٣
جِنَانُ الْفِرْدَوْسِ أَرْبَعٌ ثِنْتَانِ مِنْ ذَهَبٍ	عبد الله بن قيس	١٥٢
جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا	عبد الله بن قيس	٢٥٥
حفاة عراة ...كذلك حفاة عراة	عائشة	٢٧٠
خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ	عبادة	٨٩
رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ	أبو هريرة	٢١٧
رَغِمَ أَنْفُهُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ	أبو هريرة	٢١٨
سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ	المغيرة بن شعبة	١٦١
سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ فوعدني أَنْ يُدْخِلَ مِنْ أمتي	أبو هريرة	١٠٦
سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم	عائشة	٢٦٤
شَفَاعَتِي لأَهْلِ الْكَبَائِرِ من أمتي	ابن عمر	١١٥
صلاح أول هذه الأمة بالزهد	ابن عمرو	٢٤
عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ	ثوبان	١٥١
غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُ مِنِّي عَلَيْكُمْ	النواس بن سمعان	١٣٥
فَارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا	عبد الله بن عمرو	٢٢٦
فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ رَفَعَ رَأْسَهُ	أبو هريرة	٢٠٥
فإن ريح الجنة يوجد من مسيرة	أبو بكرة	٦٢
فُضِّلت سورة الحج على القرآن بسجدتين	خالد بن معدان	١٣٩

طرف الحديث	الراوي	رقم الحديث
فَطاشَت السجلات، وثَقُلَت البطاقة	عبد الله بن عمرو	٣٠
فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ	عبد الله بن عمر	٢٥٧
فَلَمَّا أَفَاقَ شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ	عائشة	١٨٥
فما كان في الله ائتلف	ابن عمر	١٨٠
في النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح		١٩٠
فيأتي المؤمن شابٌّ حسن اللون	البراء بن عازب	٢٩
فَيُقَالُ لِي يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ	أنس بن مالك	١١٧
فَيَقُولُ أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ	أبو هريرة	٣٧
قَالَ كَلِمَةُ حَقٍّ تُقَالُ لِإِمَامٍ جَائِرٍ	أبو إمامة	١٤
قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطِيبًا فَذَكَرَ فِتْنَةَ الْقَبْرِ	أسماء بنت أبي بكر	١٧٢
قد سترتها عليك في الدنيا	عبد الله بن عمر	٢٦٩
كَانَ أَحَبُّ الْعَمَلِ إِلَيْهِ الَّذِي يَدُومُ عَلَيْهِ	عائشة	١٠
كان أهل الجاهلية يقولون ما يهلكنا	أبو هريرة	٢١١
كأني أراكم جاثين بالكوم دون جهنم	عبد الله بن باباه	٢١٤
كل الذنوب يؤخر الله ما شاء منها	أبو بكرة	٢٤٤
كل أهل النار يرى متزله من الجنة	أبو هريرة	٢٠٩
كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ،	أبو هريرة	٣٥
كلمتان خفيفتان على اللسان،	أبو هريرة	١٣١
كَيْفَ تَجِدُكَ ....لا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ	أنس بن مالك	١٩٨
لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ ، إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرَاتٍ	عائشة	٢٥٢
لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ	عمران بن حصين	٥٦
لا يدخل الجنة عاق	أبو الدرداء	٢٤٢

طرف الحديث	الراوي	رقم الحديث
لاَ يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ إلاَّ أُرِيَ مَقْعَدَهُ	أبو هريرة	٩١
لاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ	معاوية بن أبي سفيان	٢٠٠
لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ	أبو هريرة	٢١٣
لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ	جابر بن عبد الله	١٢٣
لاتخيروني على موسى فإن الناس يصعقون	أبو هريرة	٢٠٦
لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ	أبو هريرة	٩٦
لَرَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ غَدْوَةٌ خَيْرٌ	أنس بن مالك	١٤٨
لعن الله من ذبح لغير الله	أبو طفيل	٢٤٩
لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لا يسألني	أبو هريرة	١٠٥
لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ رَجُلاً يُصَلِّي بِالنَّاسِ	أبو هريرة	٨١
لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ فِتْيَانِي أَنْ يَسْتَعِدُّوا لِي	أبو هريرة	٨٣
لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي	ابن مسعود	١٥٩
لَقِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى	ابن مسعود	١٣٧
لَقِيدُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ	أبو هريرة	١٥٨
لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به	أنس بن مالك	٧٥
لكل نبي دعوة دعاها لأمته	أنس بن مالك	١٠٣
لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ	أبو هريرة	١١٨
للإسلام ثلاث أبيات : سفلى وعليا وغرفة	فضالة بن عبيد	٢٥٠
لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها	أنس بن مالك	١٢٤
لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى	أبو بكرة بن عمارة عن أبيه	٨٠
لَوْ أَنَّ مَا يُقِلُّ ظُفُرٌ مِمَّا فِي الْجَنَّةِ	سعد بن أبي وقاص	١٥٧

طرف الحديث	الراوي	رقم الحديث
لَيسَ أحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَة إلا هَلَكَ	عائشة	٧٢
مَا أحَدٌ أصبَرُ عَلَى أذًى سَمِعَهُ مِنْ اللّهِ	أبو موسى الأشعري	٣
مَا رُئِيَ الشَّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أصْغَرُ	طلحة بن عبيد الله	٣٨
ما على الأرض نفس تموت	عبد الرحمن بن سمرة	٢٦
ما من القلوب قلب إلا وله سحابة	علي	١٨١
ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في	أبو هريرة	٢١٠
ما من ذنب أجدر أن يعجل لصاحبه العقوبة	أبو بكرة	٢٤٥
مَا مِنْ صَاحِبِ إبِلٍ لاَ يُؤَدِّى حَقَّهَا	زيد بن أسلم	٤٠
مَا مِنْ صَاحِبِ إبِلٍ وَلاَ بَقَرٍ وَلاَ غَنَمٍ	جابر بن عبد الله	٤١
مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلا فِضَّة	أبو هريرة	٣٩
ما من عبد أو أمة ينام فيستثقل نوماً	علي	١٨٢
مَا مِنكُمْ أحَدٌ إلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ	عدي بن حاتم	٧٠
مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْألُ النَّاسَ	ابن عمر	١٠٨
مَثَلُ الَّذِي يَفِرُّ مِنَ الْمَوْتِ كَمَثَلِ الثَّعْلَبِ	سمرة بن جندب	٢٥٣
مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللّهِ	أبو هريرة	٥٠
مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَأقَامَ الصَّلاَةَ	أبو هريرة	١٤٠
مَنْ أعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً	مالك بن عمرو القشيري	٢٢٠
من تعدون المفلس فيكم	عبد الله بن مسعود	٢٨٢
من سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة	ابن عمر	٢٧٦
مَنْ سَنَّ فِي الإسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أجْرُهَا	جرير	٢٨١
مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللّهِ	جندب بن عبد الله	٨٨
مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ	عثمان ابن عفان	٨٧

طرف الحديث	الراوي	رقم الحديث
مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا	أبو موسى الأشعري	١٩٦
مَنْ قَرَأَ بِمِائَةِ آيَةٍ فِي لَيْلَةٍ	تميم الداري	١٩٩
من مات على هذا كان مع النبيين	عمرو بن مرة الجهني	٢٣٤
نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ	أبو هريرة	٢٦٣
ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً	أبو هريرة	١٧٦
نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد	ابن عمرو	٢٥
نَعَمْ عَذَابُ الْقَبْرِ	عائشة	١٧٠
نعم، فيها فاكهة ونخل ورمان	عمر بن الخطاب	٢٥٩
هَبِلْتِ أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ	أنس بن مالك	١٤٢
هَذَا الذي تَحَرَّكَ لَهُ الْعَرْشُ	ابن عمر	١٦٩
هذا من النعيم الذي تسألون عنه	أبو هريرة	٢٨٧
هَذَانِ سَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنَ الأَوَّلِينَ	أنس بن مالك	١٤٩
هل تدرون مم أضحك؟	أنس بن مالك	٧١
هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ بِالصَّلَاةِ	أبو هريرة	٨٤
هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ ...هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ	أبو هريرة	٢١٦
هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ ؟	جاهمة السلمي	٢٢٤
هل من أبويك أحد حي ؟	عبد الله بن عمرو	٢٤٧
هُمُ الأَخْسَرُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ	أبو ذر	٤٢
هي الشفاعة	أبو هريرة	١٠٤
وَاشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ	أبو هريرة	١٨٤
والذي نفس محمد بيده ليأخذن	أبو هريرة	٢٠٧
وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ	أبو هريرة	٦٣

طرف الحديث	الراوي	رقم الحديث
وإن من أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة	أبو هريرة	٢٣٣
وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ	أبو هريرة	٩٤
وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ	أنس بن مالك	١٦٣
وما من نبي إلا أُوتي ما على مثله آمن		١٩١
يؤتى بابن آدم يوم القيامة	أنس بن مالك	١٣٢
يؤتى بالقرآن وأهله يوم القيامة	ابن عباس	٢٨
يؤتى بالموت كبشا	أبو هريرة	١٣٣
يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ	عبد الله	٦٨
يُؤتَى يوم القيامة بالرجل السَّمين	أبو هريرة	٣١
يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ	أبو هريرة	٢١٢
يَا أُمَّ حَارِثَةَ ، إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الْجَنَّةِ	أنس بن مالك	١٤١
يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا	أبو سعيد الخدري	٤٦
يا رب، جعلت لبني آدم الدنيا فهم يأكلون	عبد الله بن عمر	٢٦٢
يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ	أبو ذر	١٩٧
يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ	معاذ بن جبل	٢
يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم	سودة بنت زمعة	٢٧٤
يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلا	عائشة	٢٧٣
يبقى من الجنة ما شاء الله أن يبقى	أنس بن مالك	١٠٠
يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ	أبو سعيد	٧٩
يَجْمَعُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ	أبو هريرة	١١١
يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ	عبد الله	٧٦

طرف الحديث	الراوي	رقم الحديث
يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا	عائشة	٧٨
يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ	سهل بن سعد	٥٤
يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين	عبد الله بن عمرو	١٨٩
يُدْخِلُ اللَّهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ	أبو سعيد الخدري	٩٧
يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ جُرْدًا مُرْدًا	معاذ بن جبل	٦٤
يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ لَبَّيْكَ	أبو سعيد الخدري	٢٢
يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ	ابن عمر	٦٩
يراح ريح الجنة من مسيرة خمسمائة عام	أبو هريرة	٢٤٣
يَرِدُ النَّاسُ كُلُّهُمُ النَّارَ ثُمَّ يَصْدُرُونَ	عبد الله بن مسعود	٩٥
كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ	زيد بن أرقم	٢٥٤
يُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ	أبو سعيد الخدري	١٣٤
يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ	عبد الله بن عمرو	١٦٠
يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ	أبو هريرة	٩٢
يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَا آدَمُ . فَيَقُولُ لَبَّيْكَ	أبو سعيد الخدري	١٣٨
يلجم الكافر العرق ثم تقع الغيرة	جعفر بن محمد عن أبيه عن جده	٢٧٥
يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ	أبو هريرة	١٨٨
يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ فَيَقُولُ يَا رَبِّ	أبو هريرة	١٨٧

فهرس

الموضوع	الصفحة
سورة ص	٥
نسيان الآخرة ضلال مبين....	٧
الطغاة والنار والحميم والغساق.	١٦
اتخاذ الأنداد عاقبته النار.....	٢٣
ربط الأعمال بالجزاء والــدنيا بالآخرة فقه في الدين........	٢٦
التقوى والإخلاص نجاة مــن العذاب...............	٢٨
هل اشتقت للغرف ؟ فــأين العمل.................	٣٢
الاعتبار بمن سبق..........	٣٦
فاليوم لا يقبل منهم فدية.....	٣٨
هل من أوبة وتوبة قبل الحسرة	٣٨
من النفخ في الصور إلى الجنة أو النار في سطور..........	٤٥
السّوق الأخير..............	٤٨
سورة غافر	٥٣
قصة مؤمن آل فرعون ونجاته وعذاب أعداء الله........	٧٦
سورة فصلت	٩٦
سورة الشورى	١١٠
موقف المقرر لحال الظالمين..	١١٣
قرب الساعة..............	١١٩
دعوة لرؤية مشاهد القيامة...	١٢٢
سورة الزخرف	١٣٠
سورة الدخان	١٤٣
سورة الجاثية	١٥٥
سورة الأحقاف............	١٧٩
بر الوالدين وعلاقته بالجنة....	١٨١
من مشكاة النبوة..........	١٨٨
ولنا وقفات مع البر.......	١٨٩
إنه من أحب الأعمال إلى الله تعالى.....................	١٨٩
تقدم الأم في البر...........	١٩١
النهي عن العقوق...........	١٩٣
دمعة إلى الأبناء العاقين في هذا الزمان..................	١٩٦
أقوال في العقوق	١٩٧
مناهي زجر عنها الشرع من العقوق فاحذرها..........	١٩٨

الموضوع	الصفحة
العاق إن لم يتب حرم من نظر الله إليه يوم القيامة............	٢٠١
لا يقبل الله من العـــاق يـــوم القيامة صرفا ولا عدلا.......	٢٠١
لا يدخل الجنة مع الـــداخلين بغير حساب ولا عذاب......	٢٠٢
تعجيل العقوبة له في الدنيا مع ما ينتظره في الآخرة.........	٢٠٢
حُرم إبكاء الوالدين..........	٢٠٣
عدم تزكية العاق والحرمـــان منها من قبل الله............	٢٠٤
لعن الله من لعن والديه.......	٢٠٤
العقوق وعلاقته بالنار........	٢٠٤
سورة محمد	٢١٦
سورة ق	٢٢٣
صور وأي صور وعبر وأي عبر	٢٢٣
سورة الذاريات	٢٤٨
سورة الطور	٢٥٦
سورة الرحمن	٢٧٤
من أهوال يوم القيامة........	٢٧٤
سورة الواقعة	٢٩٠

الموضوع	الصفحة
سورة الحديد................	٣٢٨
من مشاهد الآخرة في هـــذه السورة	٣٣٦
الصورة شاخصة بارزة لمـــن كان له قلب	٣٣٧
الطريق إلى النجاة من الخزي في القيامة	٣٤٢
مقارنة بين الدنيا والآخرة....	٣٤٤
سورة المجادلة	٣٤٧
البعث وأحوال الناس فيه.....	٣٤٧
المخالفون وعقيدة الـــولاء و البرآء وما ينتظرهم في القيامة	٣٤٨
سورة الصف................	٣٥٣
سورة التغابن	٣٦٠
سورة الملك	٣٧٣
سورة القلم	٣٨١
سورة الحاقة	٣٨٦
سورة المعارج	٤٠٠
سورة المزمل................	٤٠٧
سورة المدثر	٤١٣
صورة حية من قلب القيامة...	٤٢٠

الموضوع	الصفحة
سورة القيامة	٤٢٤
سورة الإنسان	٤٣٥
سورة المرسلات	٤٤٨
سورة النبأ..................	٤٦١
سورة النازعات	٤٧١
سورة عبس..................	٤٨٦
سورة التكوير................	٤٩٣
سورة الانفطار	٥١٠
انقلاب ليس مسبوقا.........	٥١٤
سورة المطففين	٥١٨
سورة الانشقاق	٥٣٥
سورة الغاشية	٥٤٣
سورة الزلزلة...............	٥٥١
سورة القارعة...............	٥٥٨
سورة التكاثر...............	٥٦٤
الخاتمة	٥٦٩
المراجع......................	٥٧١
فهرس الأحاديث	٥٧٨
فهرس الموضوعات	٥٩١

صدر للمؤلف

١. وقفات مع بر الوالدين..
٢. نيل الأرب في حسن الأدب..
٣. تنبيه السالكين إلى ثمرات الخوف وأحوال الخائفين.
٤. دليل المسلم في شهر رمضان.
٥. خصائص ووظائف يوم الجمعة.
٦. أحكام يوم الجمعة..
٧. الروضة الفيحاء في الذكر والدعاء. الجزء الأول.
٨. الروضة الفيحاء في الذكر والدعاء. الجزء الثاني..
٩. السبيل إلى الجنة.
١٠. الكواكب النيرة في السبيل إلى الرحمة والمغفرة.. مجلد
١١. إيثار الحق.. مجلد..
١٢. الفرار من النار. مجلد.
١٣- الجواهر الحسان في معالم الإيمان - مجلد..
١٤- فيض الرزاق في معالم الأخلاق - مجلد.